
مذكرات
بديعة مصابني
بقلم نازك باسيلا

مذكرات بديعة مصابني

بقلم نازك باسيلا

منشورات دار مكتبة الحياة - بيروت

مذكرات بديعة مصابني

... إذا عضك الجوع وأنت في الطريق بين بيروت ودمشق، فما عليك إلا أن تقف في شتورا أمام محل مجهّز على أحدث طراز وتطلب « عروسة » لبنة وتأخذ معك ما تريد من البيض الطازج وأنواع الجبن واللبنة المختلفة . وإذا ما دخلت رحبت بك سيدة في العقد السادس من العمر ، سيدة ما زالت تحتفظ ببقايا جمال يعزّ عليه فراقها بعد « العشرة » الطويلة ، وأقبلت عليك بحيوية ابنة العشرين لتسألك عن مطلبك . هذه السيدة هي بديعة مصابني بنفسها .

لقد جاءت بديعة أول الأمر الى شتورا لتعالج أعصابها المرهقة ، ولكنها لم تقو على متابعة حياة مملة بدون عمل وهي التي لم تتوقف يوماً عن الحركة . فقررت أن تعمل ... وكانت وهي في أوج مجدها ، تحلم بمزرعة لتربية الدواجن ، فنفذت فكرتها وأشرفت بنفسها على المزرعة .

لم ترض بأن تتابع عملها الفني في لبنان لأنها ، كما تقول ، « شبعت » من المجد والشهرة . وملت المسؤولية والتنافس بين الفنانات اللواتي كن يعملن معها ، رغم انها افتقدت كل هذه الأشياء وصعب عليها فراقها .

لقد رحبت بالشيخوخة لأنهـــا عاشت حياتها كما أرادت أن تعيشها . افتقدت الحنان في منزلهـــا ، فبحثت عنه بين جدران المسرح ، لم تجد في طفولتها قلبـــاً يحنو عليها ، فتبوأت وهي في أوج شبابها عرش مئات القلوب .

انهـــا الآن سعيدة بوحدتها في أعلى الجبل . تستقبل المسافرين بابتسامة وتودّعهم بتمنٍّ . عالمها طير وشجرة وذكريات .

وإذا مـــا سألت بديعة عن ذكرياتهـــا ابتسمت ... ووراء ابتسامتها دموع ، وقالت « دعنا من الماضي » .

غير انني لم أدعها من الماضي وقد رأيت وراء ابتسامتهـــا مأساة ، وأطل من دموعها بريق احساس مرهف كان يخفيه زهو الأنوار ؛ وقلب كبير أضنته الوحدة. فأصررت، أردت أن التقي « بديعة » الانسانة المعذبة ، تلك التي تجرأت عـلى اعتلاء خشبة المسرح في أيام التعصب المتزمت .

فنظرت الي ملياً وعادت الى ابتسامتها الحزينة، وروت حياتها بصراحة وطيبة وأمانة. وكانت وفية للفقر والغنى، للسعادة والالم. ظهرت على حقيقتها وكما عرفها كل من عرفها أو عمل معهـــا : بديعة الفنانة الكبيرة والانسانة النبيلة .

نازك

قالت :

اسمي بديعة مصابني: ولدت منذ أربع وستين عاماً من أم شامية وأب لبناني، يوم كانت بيروت ودمشق تنتميان الى الولايات التركية. ولم يكن اسم «مصابني» سوى لقب اكتسبه أفراد أسرتي بسبب عملهم في مصبنة كانت تقع في احد شوارع دمشق. اعتليت خشبة المسرح وانا لم ازل احمل اسمي الحقيقي.

ومـا لبثوا ــ اعني أفراد أسرتي ــ ان تفرقوا ما بين حلب ودمشق الشام وبيروت. وعلى ذكر اسرتي، فأنا عندما اعتليت خشبة المسرح لم أرض بتغيير اسمي، بل احتفظت به، لأنني لم اكن أملك سوى اسمي اتصرف به حسب مشيئتي. ولانني أردت أن انتقم ممن احتقروا فقري، وترفعوا على والدتي العجوز. ومن ثم تسببوا في عثرتي وفي تذوقي مرارة العيش، يوم كنت لا احـلم إلاّ بتذوق الحلوى.

وأقربائي هؤلاء كانوا يمتلكون المحلات التجارية الفخمة: منها محل مصابني وعكي في سوق اياس، ومحل مصابني وسرسق في اول سوق النجارين. انني لا أسوق هذه الاسماء هنا لاعتز بها بل لاتهم أصحابها... لاتهمهم بالبخل والانانية، وبدفعي الى حياة الليل وسأثبت اتهامي هذا فيما بعد.

كانت عائلتنا مؤلفة من أبي وأمي وسبعة أشقاء: أربعة صبيان وثلاث بنات. وكنا نعيش حياة راضية مطمئنة، ولو انني لا اتذكر الشيء الكثير عن تلك الايام لانني كنت لم أزل في سني الطفولة الاولى. وكان كسب والدي مـن المصبنة يقينا العوز، ويؤمن نفقات البيت ومصاريف المدرسة. ويجدر بي هنا ان أعترف بجميل والدي الذي كان على خلاف اهـل زمان، يعتني بتربية البنات وتعليمهن كإعتنائه بتربية الذكور تماماً.

بربكم ألم يكن على حق ؟

لو لم تكن والدتي أمية ، أما كانت أرشدتني الى السبيل القويم ، وأبعدتني عن الطريق المظلم الذي سلكت ، والعذاب الأليم الذي تذوقت ؟..

لم يمهلنا القدر .

توفي والدي ونحن في منزلنا في الشام ، ومنزلنا هذا ما زال موجوداً إلى اليوم ... انه يقع في حارة الآسية قرب طالع الفضا وبطريركية الروم الارثوذكس . فاستلم أشقائي المصبنة وعملوا جاهدين على اعالتنا . فوفقوا الى ذلك في بادىء الامر .

ولم يمهلنا القدر ، بل قضى على ثروتنا وعلى باب رزقنا . قضى عليها في ليلة مظلمة التهمت فيها النار المصبنة وما فيها . اصبحنا افقر من الفقراء . ولم يمهلنا القدر ... لم يكتف بما خصنا به بل أراد متابعة عبثه الأليم وسخريته المرة ، فانتزع أحد أشقائي . كان البكر ! وكانت والدتي تعلق عليه أعذب الامال ، وتعامله معاملتها لرب الاسرة لذكائه وشعوره بالمسؤولية . اصيب فجأة بالحمى الخبيثة ، افقده المرض صوابه واختل توازنه . ولم يعد بامكانه متابعة دروسه لاننا كنا قد أصبحنا افقر من الفقراء .

ولم يمهلنا القدر .

أصبح البيت صورة مصغرة عن الجحيم . صراخ وعويل ، وشجار متواصل. وقديما قيل : «إذا دخل الفقر من الباب هربت السعادة من النافذة» . أخي الكبير يحطم كل ما تقع عليه يده ، هذا اذا سلمنا من تهديده ووعيده . وذات يوم اختفى ولم يعد الى البيت ، وبعد أن أعيانا البحث وجدناه في أحد الجوامع . لم يقابل والدتي ولا أحداً من أقربائنا الذين رافقوها لاقناعه بالعودة إلى المنزل . وقفلت عائدة وهي منسحقة القلب، تبحث عبثاً عن سر ما حل وما يحل بها من مصائب.

ولم يمهلنا القدر .

كان لوالدتي مجوهرات ثمينة تعتز بها وتؤثرها حتى على نفسها . لم تفرط بقطعة منها بالرغم من الفاقة التي كنا نعانيها جميعاً . وقد بت أعذرها الآن . لأن المرأة كالطفل تحب بريق الذهب والاحجـار الثمينة ، وقـد تفرط بنفسها لتحتفظ بمجوهراتها. وحين بدأت تشعر بأن عليها أن تضحي بها لتعول أطفالها ــ بعد أن باعت كل ما وقعت يدها عليه ــ كان القدر لها بالمرصاد . فما أن قررت بيعها حتى سطا عليها اللصوص وحرموها وحرمونا منها. ولم يمهلنا القدر بل كال لنا في هذه المرة ضربته الكبرى لتكتمل المأساة .

لم يقو أحد أشقائي ، وكان يدعى توفيق ، على احتمال كل هـذه الصدمات ، بل ضاقت به الدنيا وفقد كل أمل له في الحياة . فأدمن على شرب الخمر ، وأخذ يقضي لياليه في احدى الخمارات . وكنت في طريقي الى المدرسة أمر بتلك الخمارة التي كان أخي قد جعل منها محلاً لاقـامته . كان يناديني ويعطيني تارة قطعة من الحلوى وطوراً قليلاً من الملبس . فأقبل عليه اقبال الطفل المحروم على أشيـاء افتقدها منذ زمن ، حتى تعودت المرور على الخمارة وأنا أمنّي نفسي بالحصول على أشياء تستعذبهـا طفولتي . كنت يومذاك لم أزل في السابعة من عمري ، غير انني كنت أبدو وكأنني صبية صغيرة . صبية يلفت جمالها الانظار : فمن شعر كستنائي ناعم ، إلى عينين جميلتين وقوام ممشوق جعل معارفنـا يستبدلون وديعة ــ اسمي الاصلي ــ ببديعة .

وكانت السنة السابعة من عمري سنة التحول في حياتي. ففيها قضي على مستقبلي ولو لم يكن لي في ذلك يد . لقد أراد لي القدر حياة التشرد والعذاب . أبحث عن السعادة فتفرّ مني ، وأغتصب الابتسامة لأخفي وراءها لون الدموع .

وفي يوم مشؤوم مررت عـلى الخمارة كعادتي . فلمـا لم أجد أخي قفلت عائدة من حيث أتيت . ناداني صاحب الخمـارة وأوهمني بأن أخي في الداخل .

ولم أتردد في الدخول ، لم يكن أخي هناك ، ولم يكن أحـــد هناك . وسرعان ما انقض علي صاحب الخمارة انقضاض ذئب مفترس على نعجة صغيرة لا تقوى على حماية نفسها . فأخذت أبكي وأستغيث دون جدوى .

ولم أجد في منزلي من ألوذ به . بل انقضت عــلي والدتي بدورها وأخذت تولول وتقطع ثيابها . ولم تدرك انها بعملها هذا جعلتني مضغة في الافواه وأنا ما زلت طفلة صغيرة . أمسكت بيدي ؛ واقتادتني برفقة « شيخ الحارة » الى الخمارة حيث كان أخي والوحش الذي اعتدى علي يجترعان الخمرة . فأشارت بيدها اليهما قائلة : « اقبضوا عليهما معاً فلولا عربدة أخيها لما حصل لها ما حصل » .

و كانت الفضيحة. ارتفعت الاصوات بين متهمة ومبررة. تجمع أهل السوق أخذ كل منهم يروي القصة على هواه ، أصبحنا مضغة في أفواه الناس . في كل يوم يأخذونني الى المحكمة ، وفي كل يوم طبيب ، وعشرات الشبـــان تمر أمـــامي لأتعرف على الجاني ، وبعد أن ثبتت التهمة حكم عليه بسنة سجن وبغرامة قدرها مئتا ليرة ذهباً .

أمـــا أخي فأخلي سبيله بعد أن تأكدت براءته ، وبعد أن قضى ستة أشهر في السجن . خرج ليصفعه ويصفعنا جميعاً الخزي والعار. بتنا مضغة في أفواه الناس ، يشيرون الينا بالأصابع اينما اتجهنا ، فكنت أتحاشى الخروج من البيت . وإذا اتفق لأحد ــ وكان ذلك نادراً ــ ان شاهدني في الشارع أخذ في رواية قصتي ، وفي التحسر على مستقبلي. ثم انتقل الى الحديث عن شقيقتي الكبرى وتساءل إذا هي لم تلاق نفس المصير . فضاقت الحياة بوجه أشقائي . ضاقت بوجههم حياة الذل فقرروا اللجوء الى أحد الاديرة .

ولم يمهلنا القدر .

كانت شقيقتي الكبرى قد تزوجت قبل أن يحل بنا ما حل . هل كان ذلك

لسوء حظها أم لحسنه ؟ لست أدري . كل ما أدريه ان زوجها كان قد ورث عن والده منزلاً في ضواحي دمشق ومبلغاً من المال . فقنع بما ورث ولم يبحث عن عمل يدر عليه ما يقيه العوز إذا ما نفد ما آل اليه بعد وفاة أبيه . وكان الزواج في تلك الايام يستلزم نفقات باهظة ، اذ كان على الشاب أن يجهّز عروسه من «البابوج للطربوش» . كما كان يتباهى بالصيغة والمجوهرات التي يزين بها فتاته ، هذا عدا عن فرش البيت .

وهكذا انفق زوج شقيقتي قدراً كبيراً من ثروته على جهازها وعلى أثاث المنزل . ونتج عن ذلك ان شحت بين يديه . فأصبحت حياتهما جحيماً من الفقر والتعاسة . وعادت شقيقتي الينا لتزيد في مصائبنا . كانت حاملاً غير ان ذلك لم يقعدها عن السير مسافة طويلة في الحر الشديد الى ان بلغت بيتنا ، وارتمت على باب المنزل مغشياً عليها ، فتداركناها بالمنعشات . وكالعادة تجمع حولنا اهل الحي . لا ليخففوا عما بنا بل ليشمتوا ويتغامزوا على الشقيقتين معاً . وما لبثت شقيقتي ان فارقت الحياة تاركة طفلة في الرابعة من عمرها اخذها والدها ولم أعد اسمع عنها شيئاً الى ان وصلتني ، وأنا في صالتي في مصر ، رسالة من اميركا الجنوبية. فاستبدت بي الدهشة، اذ انني لم اكن أعلم بوجود احد من اقاربي او من اصدقائي في تلك البلاد .

كانت الرسالة من ابنة شقيقتي تسألني فيها عما اذا كنت انا خالتها ، وتطلب مني اثباتاً على ذلك ان اذكر لها اسم والدتها . فسررت جداً بالرسالة وكأن شقيقتي بعثت من جديد ، وارسلت لابنتها «محضراً» باسماء كل افراد العائلة .

أما شقيقتي الثانية ، وكانت تدعى نظلة ، فقد كان عمرها سبعة عشر عاماً ، انسب سن للزواج في تلك الايام . بعد ذهاب أشقائي الى الدير اعيتنا الحيلة في التغلب على الفقر ، فلجأت نظلة الى الخياطة واتقنتها . ومن ثمّ أرادت ان تفتح مشغلاً في منزلنا الواسع . فأخذت تتردد على بيوت جيراننا تطلب منهم ان يأذنوا لبناتهم في العمل معها . وكان دافعها الى تنفيذ فكرتها حماس الشباب

المتحفز وعناد اليأس المرير . الا انها لم تدخل بيتاً الا واستقبلها اصحابه بفتور ، دون ان يدعوها تسترسل في الكلام بل قاطعوها بقولهم :

« ليس لابنتنا وقت تضيعه في الخياطة . »

ولم يكن احدهم يكلف نفسه مشقة مجاملتها ، حتى ولا دعوتها للجاوس بعد أن يكون السير من حي الى حي قد أنهكها ... لم يقتصر هذا الجواب على منزل أو منزلين ، بل هكذا كان الحال في جميع البيوت . لم يفتح لها باب واحد من الابواب العديدة التي طرقتها ، وكانوا ما ان تدير ظهرها حتى يتهامسوا على مسمع منها :

« انهم لا يريدون أن تنتهي بناتهم إلى ما انتهيت إليه أنا » . وكنت « أنا » الضحية البريئة والطفلة الساذجة ، لا أقدر الأشياء حق قدرها . بل كنت استغرب مقاطعة الناس لمنزلنا وجفاءهم البغيض لنا جميعاً .

واليوم ، بعد مرور ما يقارب سبعة وخمسين عاماً على هذه الحادثة ، لا يسعني إلا أن ألقي على كاهل والدتي قسماً كبيراً من مسوولية ما حدث . فهي جعلت الخبر ينتشر بين سكان دمشق ، وما أسرع ما تنتشر مثل هذه الاخبار . ولو انها عرفت كيف تتدارك الامور لبقي ما حدث لي سراً لا يعرفه سوى الله ، غير ان صراخها جعل الخبر ينطلق بسرعة البرق . وهكذا اصبحنا اذا ما اتفق لنا وسرنا في الطريق العام ننكس رؤوسنا من الخزي والعار ، لكي لا نرى الاصابع الممدودة تشير الينا هازئة شامتة .

وأكثر ما كنا نضيق به كان تحسّر الناس علينا . فكلهم بين متنبىء لنا «بالبوار» وبين متنبىء لنا بالفقر إذا لم يذهب بنا الى ما لا مجال لذكره الآن . وبلغ الخوف من احتقار الناس لنا الى درجة بتنا لا نجرؤ معها على الذهاب الى الكنيسة ، حتى أصبحنا نكتفي بما يتيسر لنا من الطعام كي لا نتجول بين المتاجر والحوانيت . حاولت نظلة أن تصمد أمام هذا التيار ، غير انها لم تقو على الصمود فكانت تعود

الى البيت يائسة محطمة لتاوذ بالبكاء عله يخفف ما بهـا . وكلما استبد بها اليأس عادت الي لتنهرني وتضربني ضرباً مبرحاً ولتلعن الساعة التي ولدت فيها لاجلب لها وللعائلة هذا العار . كنت اتحمل السخرية والشماتة من الناس والضرب والتعذيب من أمي وشقيقتي معاً وأنا بعد طفلة لا أفقه لهذه الاشياء من معنى . كنت أتلقى ألم السخرية وألم الضرب بـذل وانكسار حتى بت أخشى كل من يقترب مني لخوفي من أن يكون قادماً لضربي .

وذات يوم ، دخلت علينا شقيقتي والشرر يتطاير من عينيها ، ترغي وتزبد كالمجنونة ، واذا بها تنهر والدتي بقسوة قائلة : « إسمعي اذا لم تسعي الى السفر من هذه البلاد فسأنتحر ، سامعة سأنتحر ! لم أعد احتمل كلام الناس واحتقارهم وسخريتهم . ولن تسلم « بديعة » مني ، فسأقتلها لاغسل بدمها العار الذي ألحقته بنا جميعاً » .

كانت الهجرة الى أميركا في أوجها. وكانوا يتسابقون الى السفر معللين انفسهم بالثروة الطائلة والجاه العريض . بعد أن أخذ من سبقهم يرسل الى ذويه مبالغ من المال لم يكن ليحلم بها من قبل. لم تجد شقيقتي بدأ من السفر الى احد تلك البلدان البعيدة هرباً من العار وسعيـاً وراء الرزق . فكتبت الى أشقائي في الدير تخبرهم بما آلت إليه حالنا وتعرض عليهم فكرتها . فوافقوا في الحال . وهنا اعترضتنا المشكلة الكبرى . . . من أين لنا المال الكافي لتأمين نفقات السفر ، لا سيما واننـا عائلة كبيرة ؟

لم يكن أمامنا سوى بيع منزلنا في دمشق . الا أن والدتي ثارت في وجه نظلة عندما اقترحت عليها هذا الحل، وعادت إلى الصراخ والعويل واللطم ونبش الشعر . وعاد الجيران يجتمعون في منزلنا من جديد ، ليجدوا مادة مثيرة أخرى للحديث والتندر. غير ان شقيقتي، وكانت قد يئست من الحياة في دمشق، أصرت على بيع المنزل . وكانت لا تنفك تردد : « نريد أن ننستر نريد أن نعيش » . فلم ترَ والدتي بدأ من النزول عند رغبتها فرهنت المنزل تحت مبلغ مئتي ليرة ذهبـاً .

غادرنا دمشق ، وفي طريقنا الى بيروت مررنا « بدير الناطور » حيث كان أشقائي بانتظارنا . جمعنا شملنا واتجهنا الى المرفأ حيث ركبنا أول باخرة صادفناها درجة رابعة أي على « ظهر البابور » . وذلك دون جوازات سفر أو ما يجيز لنا السفر. كانت السفرة سلسلة لا تنتهي من العذاب. لقد اعتبرني جميع افراد أسرتي سبب ذلهم وفقرهم وتشردهم . وكانوا يجاهرون بهذا الشعور أمـام الجميع ، فوالدتي تنتهرني باستمرار أمـام الناس بلهجتها الشامية : « الله لا يكبرك ، الله يقصف عمرك ، حمى تسلقك . . . » الى ما هنالك من التمنيات العذبة، بينما تنهال علي ضرباً بقسوة ودون شفقة . وكلما تذكر احـد اشقائي بلاده وصعبت عليه حـالته ، شتمني وضربني على مرأى ومسمع من الركاب، حتى أصبحت لخوفي من الضرب ، احتمي بالبحارة الذين كانوا يشفقون علي ويحمونني من اهـلي . وبقيت الحال على هذا المنوال الى أن وصلنا الى الارجنتين .

لم يكن اشقائي يعرفون اللغة الاسبانية. اما انا فكنت هرباً من ضرب والدتي واتقاءً لسيل الشتائم الذي كان هؤلاء الاشقاء يكيلونه على رأسي، ألجأ الى بحارة الباخرة، الذي كانوا على جهلهم اللغة العربية، قد عرفوا قصتي ورثوا لطفولتي البائسة. فكانوا يرحبون بي ولا يبخلون علي لا بالحلوى ولا بالفاكهة. ولم تكن تمنعني عصا والدتي الجاهزة دائماً، من أن أتقاسم معها ومع شقيقتي ما كان يجود به البحارة علي. وهكذا اعتاد كل من كان على ظهر الباخرة من المغتربين العرب ان يرسلني الى البحارة كلما احتاج الى شيء. وكثيراً ما كانوا يحتاجون الى اشياء، اذ ان كل زادهم في تلك الرحلة البعيدة، لم يكن سوى قليل من الصعتر والتين ولفة من الخبز المرقوق. ونظراً لصغر سني سرعان ما اعتدت الحديث بالاسبانية وأصبح بامكاني ان «اخلص حالي».

نزلنا بيونس ايرس كما نزلها غيرنا من المغتربين العرب، رفقاء الشقاء. ووجد رفقاء الشقاء هؤلاء من يرحب بهم بين الذين كانوا قد سبقوهم الى ديار الغربة. أمـا نحن فلم نكن نعرف أحـداً بين العدد الكبير من أولاد العرب الذين كانوا يقطنون تلك المدينة. وكان لهم ـ أي لأولاد العرب ـ شوارع خاصة لا يؤمها سواهم. ونزلنا نحن في أحـد هذه الشوارع وكان اسمه على ما أذكر «كاجي ركونكيستا». لم تزل راسخة في ذهني صورة شارع «ريكونكيستا» بقذارته المخيفة. لم يكن يسكن ذلك الشارع الا المهاجرون الفقراء. انحشروا فيه حشراً، غرفة صغيرة لكل ستة أو سبعة أشخاص. يعيشون حياة تشرد وعذاب. يذهبون في الصباح الباكر، والكشه تسلخ اكتافهم الى الضواحي البعيدة، ويعودون منها في المساء منهوكين محطمين. يعودون بربح زهيد لا يقي لا من جوع ولا من برد. وكانوا في المساء يؤلفون حلقات رقص وغناء. يرقصون من الألم لينسوا مرارة

الغربة. وكانت الدبكة تجمع بين الشباب والصبايا فترتفع أصواتهم بالميجانا والعتابا يعاتبون الزمن :

« جمال محملة وجراس بتعن   وأيام المضت عالبال بتعن
حملت بضاعتي واندرت بيعن   غريب وما حدا مني اشترى »

وكانوا يجهلون أو يتجاهلون التفرقة والتعصب ، فالماروني جـار الدرزي والشيعي صديق الارثوذكسي والسني معاً . تجمعهم وحدة اللغة ووحدة المصيبة . ولعل أطرف ما كان يميزهم عن سواهم من أهل البلاد الاصليين غرابة أزيائهم ، فمنهم من كان يتمسك بزي بلاده ولا يرضى عن الطربوش بديلاً . ومنهم من كان يحتفظ بالكوفية والعقال . كما كان يعتبر ان « اللبادة » ستجلب له الخير وتعيده الى الى قريته وربمـا الى خطيبته في أقرب وقت ممكن . وكان عدد كبير منهم يلف نفسه « بالقنباز » ويضع على رأسه البرنيطة . كانت أزياؤهم مضحكة ـــ وشر البلية ما يضحك ـــ اما لقبهم في تلك البلاد فكان « تركو » .

كان هؤلاء «التركو» قد نزحوا عن بلادهم هرباً من الفقر وسعياً وراء الرزق أما نحن فكنا قد ابتعدنا عن بلادنا هرباً من الفقر والعـــار ، وسعياً وراء الرزق والسترة معاً . وما ان استقر بنا الحال ، ووجدنا غرفتين صغيرتين ، احداهما لي مع شقيقتي ووالدتي والثانية لاشقائي حتى أخذ هؤلاء في البحث عن عمل . وما العمل في بلد لا يعرف المهاجر اليه عملاً سوى البيع بالكشة ، والسير على الاقدام مسافات شاسعة قفراء ، ليصل الى قرية صغيرة قد يبيع فيها بدراهم قليلة ، أو قد يدهمه المساء الموحش أثناء المسير فيضطر الى المبيت في العراء .

كانوا كيفما اتجهوا لا يسمعون سوى : استلموا هذه البضاعة وبيعوها بالكشة . خذوا الارباح وأعيدوا ثمنها الاصلي . ضاقت بوجههم سبل العيش ، وهم الذين اعتادوا الحيـــاة الناعمة . وكانوا اذا ما عادوا في المساء الى غرفتهم المظلمة ، بعد

طول بحث وتنقيب يتساءلون بحسرة : « كيف يمكنهم ان يعلقوا الكشة الملعونة بأكتافهم ليسيروا في مجاهل هذه البلاد الواسعة ؟

فبدأ اليأس يتسرب الى قلوبهم .

وتشاء الصدف ان يكون صاحب البضاعة رجلاً معروفاً وعلى شيء من البحبوحة والغنى . فقال لاشقائي مشجعاً : « لا تستغربوا هذا العمل ، فانا قد سبقتكم اليه . لم اكن أملك شيئاً في أول عهدي بالغربة . حملت الكشة أياماً طويلة ، الى ان تسنى لي ان اجمع بعض الارباح . ففتحت محلاً صغيراً ، وأخذ عملي يكبر شيئاً فشيئاً . وكافأني الله على مثابرتي وصدقي . خذوا ما شئتم من البضاعة ولا تيأسوا » . وعندما استأذنوه بالانصراف والتردد واضح على وجوههم ، تابع قوله زيادة في المجاملة : « من اين انتم ، وهل لكم اقرباء في هذا البلد ؟ »

ـ نعم نحن هنا مع والدتنا وشقيقتينا .

ـ يسرني ان اتعرف على عائلتكم لانني رأيتكم تختلفون عن سائر المهاجرين بنظافتكم وتنسيق هدومكم .

ـ اذا اردت ان تصحبنا الى منزلنا فاهلاً وسهلاً .

فرافقهم الينا والتقى نظلة .

جامل امي طويلاً وأعجب بشقيقتي . اما انا فلم ينتبه لوجودي نظراً لصغر سني . تكررت زياراته لنا . بدأ يهتم بامورنا وأخذ على عاتقه القيام بدور صديق العائلة . لم يلبث شقيقي اسعد ان فطن الى ان اهتمامه بنا لم يكن سوى بدافع حبه لنظلة واستعداده لطلب يدها ، وذلك بالرغم من سنيه الخمسين . اما نظلة فكانت في الثامنة عشرة ، وكانت تمني نفسها بالزواج من شاب يوفر لها الطمأنينة والعيش الرغيد بعد ما قاسته من يأس وألم . وكان هذا النوع من الشبان متوفراً جداً بين

المهاجرين العرب . غير ان ميخائيل جريوس ، وكان هذا اسمه ، حـال دون زواجها من احد هؤلاء . كان غنياً وحسن الاخلاق وكريماً جداً معنا . لكنه في سن ابيها وقد سبق له ان تزوج مرتين وله اربعة أولاد : حنا ونعامه من زواجه الاول ، أسد وقيصر من زواجه الثاني . وما زال هؤلاء على قيد الحياة الا حنا الذي ذهب الى اميركا ولم أعد أعلم عنه شيئاً .

أخذ ميخائيل يمهد الطريق لزواجه من شقيقتي ، فعرض على والدتي النفقات اللازمة لالحاقي بمدرسة داخلية . وكان يروم من وراء ذلك ان يتخلص مني ، اذ كنت أحصي عليه حركاته عندما يخاو بنظلة . كما أخـذ يغدق على اشقائي الوعود والهدايا . لم تطل به المدة حتى طلب يد شقيقتي ، وأوضح لنا بصراحة انه بالرغم من سنيه الخمسين ما زال معافى مثله مثل أي شاب في العشرين . وأشار بلباقة الى مشقة البيع بالكشة ، وتحدث عن امكانية فتح محل لبيع الاقمشة . كان شبح الكشة ما زال يقض مضجع أشقائي ، فأيقنوا ان ميخائيل جريوس سيبعده عنهم اذا نال ما أراد . فقرروا بيع نظلة . واسرعوا يفاتحون والدتي بالامر على أمل أن توافق . لكنها جرياً على عادتها أخذت تلطم وجهها وتندب حظ ابنتها ، « ما لكم ولزواجها ، ستتزوج في بلدها . عليكم أولاً ان تتخلصوا من الدين ، وتعيدوا البيت المرهون في الشام » . وشاركتها نظلة في ثورتها عليهم . فما كان منهم الا ان هجموا على هذه الاخيرة مهددين متوعدين .

وتتابعت أيام شجار وبكاء وعويل . نظلة تبكي ووالدتي تترحم على والدي وعلى أيامه وأشقائي يزمجرون . وهكذا الى أن تم لهم ما أرادوا وأرغموا شقيقتهم عـلى الاقتران بميخائيل جريوس . وكان هذا الاخير صادقاً في وعده لهم . فما ان اقترن بنظلة حتى فتح لهم محلاً قريباً من محله وسلمهم بضاعة . وأخذ يدربهم على البيع وعلى معاملة الناس بصدق ولباقة .

ولم يمهلنا القدر .

كان أشقائي قد اعتادوا حياة الكسل . فلم يمض وقت طويل حتى اتضح انهم

مهملون لا يثابرون على عمل . ولم يخلص الواحد منهم للآخر ، بل أخذ كل منهم يعمل لنفسه ويغتنم فرصة انفراده في المحل ليضع ثمن ما يبيع في جيبه . وعندما نفدت البضاعة انكشفت ألاعيبهم ، فأخذ كل منهم يتهرب من المسؤولية ليلقيها على عاتق سواه . وانتهى بهم الامر الى كسر المحل واعادته لميخائيل . وعادوا يفكرون بالسفر ولكن كل على حدة هذه المرة. قال توفيق: «أنا عائد الى الشام» . بينما صمّم أسعد على السفر الى أثينا ليلحق بأناس عرفهم في دير البلمند. أما أصغرهم كمال فلم تكن تخيفه المغامرة وأعرب عن نيته في مرافقة بعض المسافرين الى كمبرلي في أفريقيا .

تفرق شمل الاسرة من جديد. ذهب كل من أشقائي الى بلد. استرجع ميخائيل المحل . وبقيت والدتي في غرفتها المظلمة .

وكأنها لم تكتف بما سببته لي في الشام من عار وفي طريقنا الى الارجنتين من عذاب ، فما ان رأت نفسها وحيدة بعد ذهاب أشقائي ، حتى ثارت وذهبت الى ميخائيل تسأله أن يأتي بي من المدرسة . وأخذت تلحّ في طلبها ولا تفارقه أبداً . ترجوه تارة وتتوعده أخرى . وكان ميخائيل يعلم ماذا سيكون مصيري اذا مـــا عدت إليها . فأخذ يماطلها ويطيب خاطرها اشفاقاً علي . ودعاها الى الاقامة في منزله قائلاً : ان نظلة حامل وبحاجة الى رعاية . وزاد على ذلك : « لا تجني على هذه الصغيرة . دعيها في مدرستها تتعلم لغة البلاد وتبتعد عن هـــذا الوسط وأنا أتعهد بنفقاتها . »

كفت والدتي عن المطالبة باعادتي الى البيت ، وسرّ ميخائيل ظناً منه أنهـــا اقتنعت أخيراً. كما فرحت شقيقتي لاعتقادها انها ستقيم معها نهائياً. غير ان والدتي لم تقتنع، فما أن مضى اسبوع على هذه الحادثة حتى وصلت الى مدرستي ، وطلبت من الرئيسة ان تدعني أعود معها الى البيت. فلم تقتنع الرئيسة في بادىء الامر لأنها لم تكن قد التقتها بعد ، ولم تكن تعرف سوى زوج اختي اذ كنت قـــد جئت برفقته الى المدرسة. وما إن سمعت والدتي رفض الرئيسة حتى جن جنونها وأخذت تولول ! وهجمت على باب المدرسة تريد تحطيمه ، بعد أن مزقت ثيابها وشدت شعرها . فتجمعت حولها الراهبات ، وتراكض المارة كما كان يحدث في الشام .

قيل لها عندئذ : « اذهبي الى المونسنيور ميكيل واستحصلي منه على اذن بأخذ ابنتك » . فلم تكف عن الصراخ بل ازدادت ثورتها عنفاً وأخذت تضرب رأسها على الباب وكنت انا أرتعد من الداخل ، خوفاً من العودة برفقتها الى الغرفة القذرة المظلمة. وكانت حياة المدرسة الهانئة قد طابت لي. واتقاءً للفضيحة اسرعت الراهبات في طلب البوليس لمرافقتنا وللتثبيت من كونها حقاً والدتي . فسرت بجانبها ،الدموع في عيني والحسرة في قلبي . سأعود إذاً الى حياة البؤس والتشرد بعد ان ذقت طعم الأكل الطيب ، وعرفت النوم في مواعيد منظمة . كانت الراهبات يعطفن علي لغربتي وصغر سني،كما كنت محبوبة لدى رفيقاتي الصغيرات. اذ كنت طفلة حلوة ، خفيفة الحركة ، سريعة الخاطر . وكان شعري الطويل يضفي على وجهي هالة من الجمال . اضف الى ذلك انني أدهشت الجميع بسرعة اتقاني اللغة الاسبانية .

ويرجع اول عهدي بالمسرح الى تلك الايام البعيدة . كانوا في المدرسة يعهدون إلي دائماً بأدوار البطولة في الروايات التمثيلية والغنائية . فكنت أقوم بها خير قيام بالرغم من صغر سني . كانت الراهبات قد اكتشفن مواهبي الفنية . وكن يشجعنني على صقل تلك المواهب . وهكذا أصبحت أرى في المسرح دنيا جميلة تغنيني عن دنياي الحقيقية . وغدوت لا أطيق البعد عن خشبته .

وكيف يمكن لحياة الفقر في الغرفة المظلمة ان تستهويني بعد أن أدركت ان في الحياة ابتسامات ، وان فيها أطفالاً سعداء يلعبون ويمرحون ما طاب لهم ، دون أن يخشوا لا ضرباً ولا لكما ، وبعد أن تذوقت حناناً كنت أفتقده وطمأنينة كنت أشتاقها ؟ وفي ذات يوم ضاقت بي الدنيا، فاغتنمت فرصة غياب والدتي وهربت من البيت. تركت الغرفة المظلمة، وسرت في طريقي الى أن اهتديت الى المدرسة .

دخلت المدرسة وأنا في حالة يرثى لها من الاعياء . كنت أتلفت حولي كمن يخشى أن يلحق به أحد ويعيده الى ما كان عليه من عذاب وحرمان ، والدموع

تنهمر على وجهـي الصغير . نظرت الى الراهبات نظرة استعطاف واسترحام . وكانت الرئيسة قد علمت الشيء الكثير عن حياتنا ، وعرفت لتوها انني جئت الجأ الى الدير . فرحبت بي وأدخلتني الى المدرسة . واتصلت بشقيقتي تطلعها على خبر مجيئي اليها ولكنها رجتها أن تخفي الخبر عن امها خوفاً من فضيحة جديدة. وعندما عادت والدتي الى الغرفة ولم تجدني ، طارت البقية الباقية من عقلها . وأخذت تبحث عني حيثما اتفق لها . تسأل عني عنـــد الجيران وفي الحوانيت القريبة ، في الازقة حيث اعتدت أن أشارك الاولاد لعبهم . وكانت عندما تعجز عن معرفة شيء عني ، تذهب الى شقيقتي لتستجوبها بدورها . غير ان نظلة كانت لبقة فكانت تتظاهر بالبحث عني وتوهمها أنها قلقة لغيابي . وتتساءل أمامها :

« ترى أين ذهبت هذه الصغيرة ، هل أصابها مكروه ... ولماذا ذهبت ... هل كنت تضربينها يا ماما ؟..

فتجيبها « الماما » بحدة ، وتنكر أن تكون قد امتدت يدها الي . وتنسى انها كانت لا قل هفوة تبدر مني ، تهجم علي وتضربني بقسوة ما بعدها قسوة . ولم أكن أتمكن من الافلات من براثنها الا عندما يتراكض الجيران على صراخي ، فيخلصونني منها . كنت عندئذ أسرع فأحتمي بشقيقتي التي كانت تنكر وجودي على أمي كي أنجو من ضربها . وكانت نظلة تخشى علي منها ، اذ كثيراً مـــا كانت تصل على غفلة فتمسك بي وتعيدني قسراً الى الغرفة المظلمة اياها . وهناك توسعني ضرباً ثم تقفل علي الباب وتذهب . تدعني وحدي النهار بطوله أجوع وأعطش إلى أن تعود في المساء . وكانت حياة البؤس هـــذه هي التي دفعتني الى أن أترك البيت وألجأ الى المدرسة .

وكأن القدر لم يشأ ان يمهلني ولو قليلاً فتذكرت والدتي المدرسة بعـــد أن أعياها البحث ، وعقدت النية على الذهاب الى الدير لتسأل عني . وهكذا كان ! جاءت وافترشت الارض أمام مدخل الدير . وقالت للراهبات انها لن تعود الا

برفقة ابنتها . كانت ترفق كلامها بالبكاء والرجـــاء ، فيصدق دموعها كل من يسمعها ويرثي لهذه الام التي لم تقو على البعد عن ابنتها . وكانت تستثير الشفقة في قلوب المارة ليساعدوها على اقناع الراهبات بتسليمي لها. فاضطررن الى اعادتي اليها اتقاءً منهن للفضيحة .

عدت برفقتها الى المنزل والخوف مما سأذوقه من عــذاب وحرمان يعتصر قلبي الصغير . وكان كل من يعرفها يشفق عليّ ويتساءل كيف سأتمكن من العيش مع هذه الام المجنونة . اذ كانت بعد سفر أشقائي وتشتتنا للمرة الثانية ، وبعد ان وجدت نفسها وحيدة مع طفلة صغيرة في غرفة مظلمة قذرة قد أصيبت بنوع من الهستيريا . فاذا ما أغضبها أحد ثارت وولولت وشـــدت شعرها ومزقت ثيابها ، وأسرعت توسعني ضرباً ولكماً قائلة بأعلى صوتها :

« أنت يا ملعونة سبب شقائنا وتعاستنا . أنت التي جلبت لنا العار » .

كنت أصغي الى كلمة « العار » هذه ، ومــا اكثر ما كانت تتردد على لسان والدتي ، دون ان افقه لنا معنى . وبالرغم من قسوتها وبالرغم مـــن عصاها الجاهزة دائماً ، كنت أجدها في بعض الاحيان تهدأ وتجلس بجـــانبي تشاركني البكاء . وفي احدى تلك الجلسات مسحت دموعي بقولها :

« اعذريني يا ابنتي ! ان المصائب التي حلت بي قد ذهبت بعقلي واصبحت لا أعي ما أفعل ولا أفهم ما أقول . كان منزلي عامراً بالاولاد من شبان وصبايا ، وكنت أعيش في بحبوحة احسد عليها . اما الآن فلقد هجرني ابني البكر وتنكر لدينه . ماتت شقيقتك الكبرى في الشام كما توفي والدك من قبل . احترق معمل الصابون الذي كان يقينا الفقر والعوز . سرقت صيغتي وكنت أعلــق عليها آمالي . تزوجت نظلة وسافر اشقاؤك كل الى بلد وتركونا وحــدنا في الغربة . لست ادري كيف سنتمكن من تأمين معيشتنا هنا . وهل ستتاح لنا فرصة العودة الى وطننا واسترجاع بيتنا المرهون ؟ » كانت ترفق كلامها بالبــكاء . فاشفقت



والدة بديعة

عليها ونسيت المدرسة والراهبات والرفيقات ، واللعب والحلوى والنوم المنيء . وقررت ان ابقى الى جانبها . غير انني كنت اخشى ضربها لي في ساعات ثورتها فسألتها :

« ولكن لماذا تضربينني بهذه القسوة لاقل هفوة تبدو مني وانا مـــا زلت صغيرة ؟ »

فعادت الى البكاء واجابتني بقولها : «انا اعلم انني اقسو عليك ولكن هذا ليس ذنبي ، لانني في ساعات ثورتي لا أعي ما أفعل بالرغم من شفقتي عليـــك وعلمي انك لم تتذوقي حلاوة الطفولة كسواك من الاطفال . لقد قسا عليك القـــدر يا صغيرتي المسكينة ! »

غير ان ساعات صفوها تلك لم تكن سوى هنيهـــات قليلة ، تأتي مسرعة وتذهب مهرولة لتعود والدتي الى ضربي وتعذيبي . وكانت بعد ان عادت بي من المدرسة قد درجت على عادة حبسي في الغرفة واقفال الباب عليّ ، من الصباح الباكر الى ان يأتي المساء بظلامه وأشباحه المخيفة . كانت تغيب عن المنزل النهار بكامله ، وعبثاً حاولت ان اعرف اين تذهب اثناء هذه الساعات الطوال . وفي ذات يوم ، وبعد ان تضايقت من الجلوس وحدي في ظلمة الغرفة اياها ، وبعد ان شاهدتها تستعد لحبسي كعادتها ، هددتها بخلع الباب بعد ذهابها . ولـكم ندمت بعدها على هذا التهديد ، اذ أنها ما ان سمعت ما قلته حتى انقضّت عليّ تضربني بعنف . وبعد ان تلاشيت من شدة الالم جاءت بحبل وحبكت فيه يدي ورجلي ثم اقفلت الباب وذهبت .

لم اصدق ان قلبها سيطاوعها على الغياب عني طول النهار ، وأنا في هـــذه الحالة . واخذت اترقب عودتها من دقيقة لاخرى . غير ان ظني خاب ولم تعد لفك وثاقي . جاء الظهر وجاء العصر ، وانا على هذه الحال ، طريحـــة الارض أقاسي من الجوع والبرد ، ولا اقوى على الاتيان بأقل حركة . وعندما لم أعـــد

اقوى على احتمال الجوع والمغص الذي ألمّ بي ، حاولت ان افك رباطي بنفسي ، فلم اتمكن . اعياني اليأس والألم فاخذت ابكي وانادي الجيران . فتراكضوا على صراخي ، وبعد ان اخبرتهم بما فعلته بي والدتي خلعوا الباب ، ودخلوا لفك وثاقي . ثم جاؤوني ببعض الطعام فانقضّيت عليه التهمه التهاماً . وسرعان ما انستني نعمة الطفولة العذاب الذي كنت اقاسيه لهنيهات معدودات ، واخذت العب مع رفاقي الصغار .

لم أَكن قد اعتدت اللعب مع اطفال من عمري . فاستعذبت ذلك وأخذت أقفز وأغني من فرحي . وفيما نحن على هذه الحال اذا بصندوق صغير ينقلب وينتفخ أمامنا . وشد ما كانت دهشتنا عندما رأينا في داخله مجموعة من النقود من كل الفئات ، أوراق مالية وقطع فضة . فصورت لي سذاجتي ان كنزاً قد انكشف على وجهي . وعادت الى ذهني الحكايات التي كنت قد سمعتها عن الجن والعفاريت وعن الكنوز التي تملكها تلك العفاريت . فطرت من الفرح ، وأخذت أتصور مبلغ سرور والدتي عند عودتها . أردت أن أكافىء أولاد الجيران على محبتهم لي فوزعت عليهم ما فيه النصيب وذهبنا الى السوق . ابتاع كل منا ما طاب له من حلوى وألعاب ، وعدنا الى جنتنا .

وفيما نحن مقبلون من بعيد والحلوى في أَيدينا ، التقينا والدتي عائدة . نظرت إلي باستغراب وفي نظرتها تساؤل . كيف تمكنت من فك وثاقي ومن الخروج من الغرفة المقفلة . وعندما دخلت الى تلك الغرفة وجدتها في حال يرثى لها من الفوضى ، والصندوق فارغ وملقى في احدى الزوايا . فجن جنونها . أما أنا فما أن رأيتها حتى أسرعت نحوها أبشرها بأن « كنزاً قد انكشف على وجهي » . واستقبلت والدتي هذه البشرى « بعلقة » لم أذق مثلها من قبل وأخذت تقول لي بلهجتها الشامية التي رافقتها طول حياتها :

« العفاريت كشفوا الكنز ؟ عفاريت تاخذك عني ! كيف تمكنت من فك الحبل ؟ لقد أقلقت الجيران حتماً بصراخك فجاءوا ودخلوا الغرفة ليتخلصوا

من صوتك ! مالهم ومالي انني لا أتدخل في شؤونهم . فلماذا لا يدعونني اتصرف بابنتي كما أريد ؟ وكيف تمكنت من العثور على الصندوق . الله يغضب عليك ! لقد انفقت هذه الدراهم على اللعب والحاوى بعد أن جمعتها بالعرق والتعب . لقد كنت أعلق عليهـــا آمالي في أن أعود الى وطني واستعيد بيتي المرهون . حرمت نفسي من القوت وحرمتك من أشياء كثيرة حتى أتمكن من أن أجمع ما يمكننا من العودة الى الشام !

كأنك لم تكتفي لا بالعار الذي وصمت به اسم العائلة ولا بالغربة التي فرضها ذلك العار على أشقائك ! الله يريحنـا منك . تتساءلين إلى أين أذهب من الصباح الباكر حتى المساء . لقد مضى عـــلي سنتان وأكثر وأنا أذهب قبل بذوغ الفجر حاملة قليلاً من البضاعة لأبيعها في الطرقات وعلى أبواب المنازل ، كي يتوفر لدي ما يعيدنا الى بلادنا . وكم من مرة اضطرت شقيقتك الى أن تخلّصني من رجـــال البوليس إذ ليس لدي اجـــازة كسواي من الباعة المتجولين . والآن لقد ذهب تعب سنتين ثمناً لبعض الالعاب وقليلٍ من الحاوى ! »

وارتمت على الارض تجهش في البكاء. ووقفت بجانبها كالمذهولة لهول المفاجأة وعندما حاولت أن أخفف عنها ، واقترحت ان نعيش مع شقيقتي نظلة ، ثارت بوجهي وقالت انها تفضل العودة الى بلادها .

وفيما نحن نتناقش بحدة وانفعال ، دخل علينا صاحب البيت وبيده مظروف مكلل بالسواد . فزاد اضطراب والدتي وطلبت منه أن يقرأه لها . كانت رسالة من الشام ، بعثت بها خالتي تثبينا تنعى الينا جدتي ، التي توفيت عن ثروة وأملاك لا بأس بها. وكانت والدتي وشقيقتها تثبينا الوريثتين الوحيدتين لهذه الثروة وتلك الاملاك ، اذ لم يكن لهما أشقاء . قـــد يعلل ذلك تعلق أمي بأولادها الذكور واصابتها بالهستيريا بعد فراقها لهم . كانت خالتي تدعوها للعودة الى الشام لتأخذ حصتها من ارث جدتي مريم . فزادت ثورتها على الغربة وعلي أنا بالذات ، انا

التي ــ حسب قولها ــ كنت سبب هذه الغربة . وأخذت تلطم وجهها حزناً على والدتها ، وتندب حظها وحظي معاً .

أصبحت تفكر جدياً بالعودة الى الشام. وعندما أطلعت شقيقتي على ما تنوي القيام به ، حاولت نظلة جهدها كي تثنيها عن عزمها او تقنعها بابقائي عندها في اميركا . وأخذت تزين لها الوعود، وتصف لها حياتي معها ، اذا ما تزوجت احد الشبان المهاجرين من الذين ابتسمت لهم الثروة وأصبحوا أغنيــاء . ثم ذكرتها بالشام وبثرثرة نساء الحي . الاّ انها تشبثت برأيها : انها لا تريد أن تزوجني ولا ان تتخلى عني ولم يعد لديها سواي .

أما أنا فما انسمعت بخبر عودتنا الى الشام حتى استعدت ذكرى الايام السوداء التي قاسيناها قبل مجيئنا الى الارجنتين . وتذكرت الحمارة ، ووحش الحمارة ، وكيف أمسكت أمي بيدي واقتادتني برفقة «شيخ الحارة» الى حيث كان أخي والوحش الذي اعتدى علي يجترعان الخمرة . وكيف أشارت أمي بيدها قائلة :

« اقبضوا عليهما معا فلولا عربدة أخيها لمــا حصل لها ما حصل » . وكيف كانت الفضيحة وارتفعت الاصوات من كل جهة بــين متهمة ومبررة . وكيف تجمع أَهل السوق وأَخذ كل منهم يروي القصة على هواه .

عاد شريط تلك الحوادث الى ذاكرتي ، وغبطت نظلة على خلاصهــا من الاشاعات والاقاويل . وتساءلت كيف يمكنني أن أعود الى البيئة التي أذلتني . وكم تمنيت أَن أَبقى في أَميركا ولو خــادمة للطفلتين اللتين كانت قد رزقت بهما شقيقتي . استعطفت أمي وذكرتها بكل مــا حدث لنا في الشام . غير انها كانت عنيدة عناد اليائس المذلول . وأَصرت على أَن نعود الى الشام !

كنت ارهب هذه العودة لا لانني لم اكن احب وطني ، فلكم حنت نفسي اليه ونحن في تلك الغربة المريرة . كنت احب وطني واتوق الى العيش في ربوعه ، ولكنني كنت اخشى شماتة ابناء وطني وسخريتهم . وكم من مرة حاولت ان انسى كيف كنا ننكس رؤوسنا ، اذا ما اتفق لنا أن سرنا في الطريق العام ، كي لا نرى الاصابع الممدودة تشير الينا هازئة شامتة . كنت اخشى الألسن الطويلة التي ستعود الى نهشنا والتندر بمصائبنا ، وأرهب الاصابع التي ستشير الينا من جديد ، يوم أصل الى الشام عائدة من الارجنتين .

وصلنا الى بلدنا كالمهاجرين الغرباء اذ لم يكن لنا ملجأ فيه ، فبيتنا مرهون وليس لدينا ما يمكننا من فك الرهن . فاضطررنا الى المبيت عند خالتي تثبينا في القيمرية الى ان يتسنى لنا تدبير أمر سكننا . رحبت بنا خالتي اجمل ترحيب مع انها لم تكن تنتظر قدومنا . وسرّت بي بناتها الثلاث وديعة والكسندرا ونبيهة ، واستعضت انا باخوتهن سليم وعطالله عن اشقائي المشتتين في بلاد الله . ما ان عرف الجيران والاصحاب بعودتنا حتى اقبلوا لتحيتنا ، وكان لكل منهم اخ او اب في اميركا . كنا نقضي ايامنا وقسطاً وافراً من ليالينا نصف لهم حياة الغربة وحالة المغتربين . وهم يستزيدوننا ويستعيدون اخبار اقربائهم وانسبائهم : هذا يسأل عن ثروة اخيه وذاك يستوضح عن سبب انقطاع رسائل عمه ، وتلك تحاول ان تطمئن على حالة زوجها وعلى جمال بنات اميركا . هذه تبارك الغربة لانها جلبت لها البحبوحة بعد شح ، وتلك تلعنها لان زوجها هاجر وانقطعت اخباره عنها وعن اولادها .

وعندما خف قدوم الزائرين اذ لم يعد لدينا ما نرويه لهم ، وسألنا

بدورنا عن حالة البلاد، أخبرتنا خالتي أن أخي توفيق ـ الذي قد تركنا في أميركا وعاد الى دمشق ـ قد تزوّج باحدى بنات الشام ورزق منها بطفلتين. وكم كانت صدمة والدتي كبيرة عندما تباحثت مع شقيقتها في أمر ارث جدتي. أنكرت خالتي عندئذ وجود أي ارث، وتناست اصرارها على أن نعود من أميركا. وكأنها استدعتنا رفعاً للعتب كما يقولون، لانها لم تكن تتوقّع أن نترك أميركا ـ بلاد الذهب على حد قولها ـ لنعود فنقاسمها المجوهرات والفرش والسجاد وكل الاشياء الثمينة التي كانت في حوزة والدتها.

وهكذا تبددت أحلام والدتي بالعودة الى حياة منعمة تطمئن فيها الى غدها والى مستقبل ابنتها. فحاولت ان تناقش شقيقتها بالحسنى وأن تذكّرها باملاك جدتي وثرائها. غير ان خالتي أصرّت على أن ليس هناك ارث وان كان هناك من يرث. وفيما هما تتناقشان، حضر أخي توفيق وزوجته وابنتاه للترحيب بنا. فكفت كل منهما عن الجدال. غير ان أمي عادت فروت لتوفيق ما ادعته خالتي، ولم يكن أخي يعلم بوجودي أي ارث. ما لبث ابن خالتي ان اشترك في النقاش، فعلت الصرخة وتراكض الجيران. كانت والدتي في حالة يرثى لها من اليأس. بكت واستعطفت، شكت حالها وفقرها، وانقطاع أشقائي عن مساعدتها وهي في هذه السن، ولكن دون جدوى. لم تحرّك جميع توسلاتها وترا حنوناً واحداً في قلب خالتي، التي تمسكت بقولها ان ليس هناك شيء تتقاسمه معها غير منزل واحد في « حارة الجوانية ».

أشفق أخي توفيق على والدته، وعزّ عليه أن يرى هذا اليأس في دموعها، فدعانا الى الاقامة في منزله في حارة « سفل التلة ». وما ان خرج عائداً الى بيته برفقة زوجته وابنتيه، حتى عادت والدتي تتوسّل الى شقيقتها وتستحلفها ان لا تحرمها من ميراث جدتي. واستمرت خالتي في نفيها لوجود أي ارث واستشهدت بالجيران والاصدقاء. فتدخل هؤلاء تلبية لطلب ابن خالتي وأقنعوا أمي بأن تكف عن المطالبة.

عندها أدركت والدتي ان اصرارها لن يعود عليها بأية فائدة . فغلبت على أمرها واقتنعت مكرهة. لم يعد هناك اذن سوى المنزل الواقع في «حارة الجوانية» . فاقترح عليها وسطاء الخير ان تشتري حصة شقيقتها، ظناً منهم انها حملت معها من أميركا ما يمكنها من دفع القيمة المطلوبة. وعندما احرجوها أخرجوها، فثارت وروت لهم كيف كسر أشقائي محل ميخائيل جريوس، وكيف تشتتوا وذهب كل منهم الى قارة. قالت لهم ان نظلة تزوجت برجل بعمر أبيها، وقصّت عليهم كيف كانت تخرج لبيع بعض البضاعة في شوارع بيونس ايرس . اذ قدر لها أن تعيش بائسة فقيرة فهي تفضل أن تسوق هذه الحياة في وطنها ومسقط رأسها .

لم ترَ خالتي بداً من شراء حصة شقيقتها بعد ان فشلت كل محاولاتها لبيع حصتها هي . فدفعت مبلغ مئتي وخمسين ليرة عثمانية ذهباً .

ما ان استلمت هذا المبلغ ، حتى عاد الى والدتي نشاطها ، وأسرعت تدفع قيمة رهن منزلنا . فاستعدناه وتركنا بيت خالتي ثثبينا لنقيم فيه . لم تنته سلسلة المصائب عند هذا الحد ، والقدر لنا دائماً بالمرصاد . كان يمهلنا ولا يهملنا قط . أخذ أخي توفيق يتردد على المنزل بحجة اشتياقه لي والاطمئنان على صحة والدته. كنا في وحدتنا القاسية نرتاح الى زيارته ، ونرحب به كلما اقبل علينا بحجة جديدة . وعندما استأنس بترحاب والدتي وعطفها عليه طلب منها ان تسمح له بالاقامة معنا هو وعائلته . لم يترك وسيلة الا لجأ اليها حتى اقتنعت ، فجاءوا واقاموا في منزل الاسرة .

غير ان حياة الصفاء والالفة لم تدم طويلا، وكيف تدوم حياة الالفة والصفاء وكان بالنسبة لوالدتي « الوجه وجه حنة والقفا قفا كنة » ؟ لم تتحمل وجود امرأة اخي في البيت وهي التي اعتادت ان تأمر وتنهي وحدها ، وان تتحمل مسؤولية كل كبيرة وصغيرة بمفردها . اذ كانت رحمها الله ، عنيدة صلبة ، تتمسك برأيها ولا تحيد عنه قيد أنملة حتى ولو لمست خطأها ، واقتنعت ضمناً بأنها ليست على

حق . وزد على ذلك كله انها كانت يائسة ناقمة على كل من لم يذق ما ذاقته من حرمان وذل ومهانة . وكانت زوجة اخي تضيق بتصرفاتها الحمقاء ، وتشعر ان البيت ليس بيتها بل هي دخيلة عليه وعلى من فيه .

لم يعرف اخي كيف يتدارك الامور ، ويوقف كلا منهما على حد ، وعادت ريمة لعادتها القديمة . عاد الجيران يتراكضون ليشاهدوا مـــا يحدث في بيت المصابني ، اذ لم تكن والدتي تتورع عن الزعيق والولولة عند اول هفوة تبدر من كنتها . وتنشر غسيلنا الوسخ النتن على حبال كل اهل الحي . فيستعيـــد هؤلاء تاريخنا الحافل بالمصائب ... كنت اخجل من تصرفها هذا ، واميل الى زوجـــة اخي التي كانت تحنو عليّ وترعاني . فاستطبت هذا الحنان وهذه الرعاية وسط حياة العذاب والحرمان التي كنت اسوقها . وكنت اذا ما بدرت مني كلمة طيبـة بحق امرأة اخي، رأيت أمي تنهال عليّ ضرباً بعصاها المعهودة . فلا اجرؤ بعدها على الدفاع عن زوجة توفيق اتقاءً مني للضرب ، ولو كان يعز عليّ ان اتركها تتحمل وحدها لذعات لسان امي السليط .

وبلغ كره والدتي لكنتها حداً حملها على اتهامها بتدبير جريمة قتلنا . حدث هذا في يوم مشؤوم لن أنساه أبداً . كانت والدتي تعيش بتقتير ولا تنفق الا عـــلى قوتنا الضروري، وتتهرب من مد يدها الى جيبها ما أمكنها. جاءت يوماً «بغمة» وأعدتها لي ولها ، اذ كنا نتناول طعامنا بمفردنا . ولم نتمكن من استهلاكها في يوم واحد ، والمعروف ان الغمة تكفي عائله كاملة . فاكلنـــا منها طيلة يومين متتاليين الى أن « حمضت » . لم ترم والدتي ما تبقى منها ، بل أرغمتني على اكله وشاركتني في التهام تلك الوجبة الكريهة . وسرعان مـــا بدت علينا نحن الاثنتين عوارض التسمم ، وأخذنا نتلوى من شدة الالم ، فرأتها والدتي فرصة سانحة لاتهام كنتها والتخلص منها . فاتهمتها بمحاولة قتلنا وتسميم طعامنا . واخذت تخبر جميع من زارنا ان زوجة أخي فريدة ، قد وضعت لنا السم في الاكل لتتخلص منا ولترث المنزل الذي نعيش فيه . وكانت ترفق كلامها بالبكاء والتنهدات والتحسر

على حظها التعيس. كان كل من يسمعها تتحدث يصغي اليها باستغراب، ويتساءل كيف تمكنت فريدة من دس السم في طعامنا . ثم طلبت مني ان أمثل نفس الدور فأتصنع الالم والبكاء امام الجيران واهـل الحي. ولم تكتف بذلك بل استدعت « شيخ الحارة » والطبيب لتثبت التهمة على كنتها . غير اني لم اطاوعها . ولم أشاركها في ارتكاب جريمة خراب بيت أخي، والزّج بفريدة في السجن وتشتيت أطفالها . فهجمت علي وأوسعتني ضرباً أمام الجميع . وهكذا أخفقت في الحاق هـذه التهمة الشنيعة بكنتها . وسررت أنا جداً عندما تبلورت الحقيقة وأسفرت عن تبرئة فريدة . اذ كنت أحبها وألوذ بهـا من قسوة والدتي . كما كانت هي بدورهـا تعاملني كما لو كنت ابنتهـا ، فـلا تحرمني من شيء وتخصني بأطايب كثيرة .

وفي هذه الاثناء ، وسط المشاحنات والمهاترات في جو ملبد بالكره ، وصل ميخائيل جريوس الى منزلنا وحلّ ضيفاً علينا. فسرّت والدتي بقدومه وانصرفت عن مراقبة فريدة. اخبرنا زوج شقيقتي انها قادمة من الارجنتين بصحبة أولادها، ودعـانا الى موافاتهـا في لبنان . وأعطانا التعليمات اللازمة لوصولنـا الى تلك الديار .

قد يعتقد من يقرأ هـذه المذكرات انني اطيل في الكلام . وقد يستغرب ان أذكر مثل هذه الحوادث . لا ريب في انها حوادث صغيرة قد تبدو تافهة ، غير انها كانت فيما بعد سبب خروجي من المنزل . وهي نفسها التي حملتني على سلوك السبيل الذي سلكت، ذلك السبيل الذي أفقدني شرفي وهدم مستقبلي ، فاضطررت الى اعتلاء خشبة المسرح . ولم يكن من السهل في تلك الايام أن تخرج فتاة من منزلها ، مسيحية كانت أم مسلمة ، وتقابل رواد الليل من سكارى وباحثين عن متعة سهلة . كان الجميع ينبذونها ، فلا يتعرف عليها أحـد ولا يقر بصلة قربى تجمعه بها . كما كانوا يتهمونها بكل الموبقات ، ولو لم يكن ذنبها سوى البحث عن سبيل يقيها الجوع والعذاب والحرمان. وعلاوة على احتقار الناس لها كان عليها

أن تقاسي من السهر والتعب ، من صاحب المسرح ومن رواده ، تعيد وتردد ما طاب لهؤلاء السمع ، أما صاحب المسرح فكان يتحكم في مصيرها ويستغلها ما استطاع . ولم يكن يجابه الليل ، ويحيا بين رواده سوى عدد من الفنانات اليهوديات . وأول فنانة مسيحية احترفت الغنـــاء كانت بديعة مساميري ، ثم تبعتها شقيقتها مهيبة وحذت حذوهما بديعة حامض واختها عدلة . ما زالت بديعة وعدلة حامض على قيد الحياة . وقد التقيتهما مؤخراً في عاليه ، وتسنى لي أن أرى مـــاذا صنع بهما الدهر ، وكيف تحولت كل منهما من فنانة مشرقة الى عجوز شاحبة أتعبها العمر وقست عليها الايام .

كنت قد بدأت أتحوّل من طفلة حلوة الى فتاة جميلة وكانت معالم الانوثة تبدو واضحة علي ، فتلاحقني انظار الشبان وتنهش بسمعتي ألسنة النساء . غـــير انني رغم جمالي ، ورغم اعجاب الشبان بهذا الجمال كنت أشكو من سوء التغذية ، كما كنت أبدو دائماً في ثياب رثة بالية . ولم أكن أعرف طعم الراحة حتى ولا في الليل . لان والدتي كانت تحتّم علي أن أشاركها فراشهـــا ، الذي كانت تطرحه على الارض ، اذ لم يكن لديها سرير . وكانت قلقة لا تعرف النوم طوال الليل ، فتجلس في فراشها وتأخذ في الصلاة بصوت مرتفع . امـــا صلاتهـــا فكانت غريبة عجيبة ، لا يتمكن سامعهـــا الا ان يبكي ويضحك في نفس الوقت . فكانت مثلاً تطلب من الله تعالى ان يعيد اليها شبابها لتتمكن من العمل أَو تتوسل اليه ان يرسل لها كنزاً فتصبح غنية وترتاح من حياة الحرمان والتقتير . وكانت تستمر في مثل هذه الطلبات العجيبة الى بزوغ الفجر . فتحرمني من النوم وانهض من الفراش متهالكة من النعاس .

وكأن نساء الحي اردن الانتقام من جمالي البادي بوضوح ، بالرغم من الفقر والبهدلة ، فأخذن يستعدن قصتي ، ويتندرن بما حدث لي قبل مغادرتنا الشام الى أَميركا ولم تكن واحـــدة منهن تشفق علي وتبرر طفولتي ، بل كن يتعمدن أَن اسمع ما يتحدثن به ، ويقلن عني :

« مسكينة ! حلوة ، ولكن فلاناً اعتدى عليها وهي في السابعة من عمرها . ومن تراه الآن يرضى بالزواج منها ؟ جميلة ولكن مشوهة ! »

كان هذا الكلام يطرق سمعي مرات عديدة في النهار فاهرول عائدة الى منزلي، لأبكي بحرقة ، وأتساءل ما ذنبي لأقاسي هذا العار وهذه المذلة . وكثيراً ما كانت والدتي تتأثر لحالي وتشاركني البكاء . وعندما يئست وضاقت بي الحياة ، أقبلت عليها قائلة :

« اذا أردت أن أبقى بقربك فلنترك هذا البلد . ولنرسل الى مكان آخر نستتر فيه . لماذا لا نلجأ الى منزل أختي نظلة في جبل لبنان ؟.. »

وكانت نظلة قد عادت من أميركا ، واستقرت في قرية زوجها في الجبل اللبناني . وأرسلت لنا عدة رسائل تدعونا فيها الى الاقامة معها .

قررت أن نلجأ الى منزل شقيقتي في قريتها اللبنانية ، حيث لا يعلم احد بمصيبتي ، فأرتاح من الثرثرة والاقاويل . غير ان والدتي انكرت أن يكون لديها ما تنفقه في هذه الرحلة الجديدة . وخيرتني بين البقاء في الشام وبين القيام بهذه السفرة . سيراً على الاقدام . فوافقت على الفور لأن همي الوحيد كان في الفرار من الشام . لكنني قلت في نفسي : لن تلبث ان تتعب وتعود عن فكرتها في قطع هذه المسافة سيراً على الاقدام ، فنأخذ القطار الى بيروت . ولم يكن يدور بخلدي قط أنها ستقاوم التعب، وتستمر في المسير الى حيث تقيم شقيقتي وعائلتها. وكانت قرية نظلة تدعى شيخان ، وتبدأ طريقها بعد مفرق عمشيت على خط طرابلس – جبيل . وكانت طرقات تلك الايام عبارة عن ممرات صغيرة لا تتسع لشخص واحد أو لحمار او حصان . وكانت قفراء مخيفة يكثر فيها اللصوص .

سرعان ما جهزنا أنفسنا ، وحملنا أمتعتنا وقليلاً من الزاد ، وارتدينا الحبرات نستعين بها على اخفاء معالم وجهينا .

وسرنا على بركات الله !

تركنا الشام ووجهتنا بيروت. كنت أنظر من خلال الحبرة السوداء، الى الطريق المقفر الممتد امامنا بحزن وتحفز . كان في قلبي غصة عـــلى هجري المنزل الذي ولدت فيـــه ، والذي شاركني آلامي المبكرة . كما حزنت على فراق المخاوقتين الوحيدتين اللتين شعرت بعطفهما علي ورثائهما لحالي . اذ كنت كثيراً ما ألجأ الى خالتي تثبينا عندما يعضني الجوع . وكانت تعلم مبلغ بخل أمي وتقتيرها ، فتأتيني بمـــا لذ وطاب من الطعام والحاوى والفاكهة . كما كنت الوذ بفريدة التي كانت تستغيب والدتي وتخصني ببعض ما تشتهيه نفس طفلة محرومة . غير ان أمي كانت تتبعني كظلي . فما ان تفتقدني في المنزل حتى تلحق بي عند احداهما . واذا ما اتفق لها وشاهدتني وفي يدي قطعة من الحاوى ، ثارت وهجمت علي تريد ضربي. ومن ثم اقتادتني الى المنزل وأنا أرتعد من الخوف ، وفي قلبي الصغير الف لعنة ولعنة على الاكل والجوع معاً .

حزنت على فراق خالتي وزوجة أخي ، غير اني كنت أتوق الى التحرر من العار والمذلة . ولم أحسب حساب الطريق وقطاع الطريق ، والاخطار الكثيرة التي كانت تعترض المسافرين في تلك الحقبـــة من الزمن . كنت أسير بالقرب من والدتي وانا فرحة ، أترقب أشياء جديدة ، واستعد لاستقبال حياة تختلف عن حياتي الاولى . وأعلل نفسي بالامل وامنّيهـــا بأن لا بد لي من أن أرتاح من العذاب والحرمان. سرنا على بركات الله ، الى أن وصلنا في أَول يوم سفرنا الى دمر . فتوقفنا هناك لان الليل كان قد داهمنا في المحطة . رحب بنا مدير محطة سكة حديـــد بيروت الشام ، واستغرب كيف تمكنا من قطع هذه المسافة سيراً عـــلى الاقدام . فقالت له أمي :

« علينا نذر ، ويجب أن نوفيه ! »

وعندمـــا طرق سمعي جوابها هذا ، نظرت اليها بدهشة وفي نظراتي سؤال .

فلكزتني في خاصرتي ومشي الحال . دعـــانا المدير الى المبيت في المنزل الذي كان يقيم فيه مع عائلته ، وفي اليوم الثاني تابعنا سيرنا الى أن وصلنا الى الهـــامة . وفي الهـــامة أيضاً وجدنا من استضافنا . وهكذا كنا نمشي طول النهار ، واذا مـــا أقبل الليل بحثنا عن مكان نأوي اليه ، ونجد فيه مـــا نقتات به . الى أن وصلنا الى سعدنايل .

عندما بلغنا لبنان ، لم يعد هنـــاك محطات قريبة الواحدة من الاخرى . كان علينا ان نقطع مسافات طويلة الى أن نصل الى أحـــد البيوت . فظهر التعب على أمي وتملكني الملل . حاولت جاهدة أن أثنيهـــا عن عزمهـــا ، وأن أقنعهـــا بأن نأخذ القطار . فكابرت ورفضت طلبي مع ان اجرة الدرجة الثالثة في قطار بيروت الشام كانت زهيدة جـــداً ، اذ لم تكن تتجاوز الريالين مجيدي من العملة التركية . وكان القطار الذي يبرح دمشق عند الصبح يصل الى بيروت قرب العصر أمـــا نحن ، فلم نتمكن من قطع نصف هذه المسافة بأقل من اسبوع كامل . كان منظرنا محزناً والغبار يعلو ثيابنا . لم أجرؤ على رفع الحبرة عن وجهي خوفـــاً من أن يختطفنا أحد . أما والدتي فكانت بالرغم من التعب الذي ألم بهـــا وبدا واضحاً على ملامحها ، قـــد ارتاحت الى أنهـــا لم تنفق شيئاً . اذ كان الجميع يستضيفونا ويحسنون وفادتنـــا . وكانت أمي تحسن المجاملة ، وتروي الحكايات الطويلة عن نذرها . فاذا ما بتنا عند جمـــاعة من المسلمين أسلمت في الحـــال . وإذا ما اتفق لنا وامضينا ليلنا في منزل احدى الاسر المسيحية ، عادت الى دينها وأقرّت بأنها مسيحية من الشام . كنت لا أدرك تصرفها هذا ، ولا أجرؤ عـــلى سؤالها لماذا تغير دينهـــا بهذه السهولة . غير انني كنت في بعض الاحيان أسهو فأتلفظ بكلمات تخالها ستكشف عن حقيقتها . فتنهال علي بعصاها دون أن تحسب لأهل البيت حساباً . كنت عندما تركت الشام أتخيل هذه الرحلة متعة ستعوضني عن كل ما قاسيته قبلها . ولكن سرعان ما اتضح لي انها ليست سوى حلقة أضيفها الى السلسلة الطويلة من حلقات العذاب .

وصلنا الى ضهر البيدر في ليلة مظلمة سوداء لن أنساها أبداً ، وذلك بالرغم من وفرة الليالي القاتمة السوداء التي مرت علي خلال الاربعة والستين عاماً من عمري . عندما بلغنا ذلك المكان سألنا عن مدير المحطة ، فقيل لنا انه غائب . حاولنا ان نجد لنا مأوى فلم نوفّق في سعينا . وعندما أعيتنا الحيلة اضطررنا الى المبيت في «الخان» وكان «الخان» يجمع بين البغال والجمال والحمير والبشر ، اضف الى هذه المجموعة القمل والبق والبراغيث ، تزينها جميعها قذارة ما بعدها قذارة . لم أعرف النوم في تلك الليلة الملعونة من الهرش والخوف . كدت اختنق من الروائح المتصاعدة من الحيوانات ومن أصحاب تلك الحيوانات. ومنذ تلك الليلة اندلعت ثورة في نفسي على الفقر ، وبدأت البحث عن سبيل يريحني من عصا أمي ومن وخز الجوع ، من السير على الاقدام ومن طرق أبواب المنازل لاستجداء رغيف وفراش . غادرنا « الخان » في الصباح الباكر وتابعنا . كنا قد اعتدنا هذه الحياة . غير ان التعب كان قد تمكن من والدتي فبدت ضعيفة متهالكة . لم يكن حالي يختلف بكثير عن حالها بعد أن يئست من بلوغ قرية شقيقتي. وكانت احذيتنا قد تقطعت وحفيت أقدامنا . فكان أولاد الحلال يشفقون علينا ويمدوننا بأحذية قديمة .

وان أنسَ فلن أنسى كرم أهالي الجبل اللبناني في تلك الايام . كانت البركة تعمر ديارهم ، والهناء يخيم على منازلهم المتواضعة . وكان صفاء نفوسهم بلون صفاء سمائهم الزرقاء السمحة المؤنسة . الفقير منهم والغني يرحب بالضيف ويكرم وفادته ، يتقاسم معه طعامه حتى ولو اقتصر على الخبز المرقوق واللبنة والزيتون .

وفي بيروت سألنا عن الطريق الذين كان علينا ان نسلكه كي نصل الى شيخان وكان ذلك الطريق يختلف عن الطرق الوعرة التي سلكناها في أول رحلتنا . سرنا على شاطىء البحر ، كنت انظر بشفقة الى الافق الازرق البعيد ، وأناجي الامواج القريبة . أما والدتي فلم تغير خطتها ، كانت تجيب كل من يسألها انها تقوم بهذه الرحلة وفاءً لنذر قديم . وعند مفرق بعشتى وجدنا خاناً يدعى « خان فرح » .

وكان فيه عدد من الحمير والجياد يؤجرها صاحبها للمسافرين لقاء بدل زهيد جداً. لم أعد أقوى على رفع قدمي من التعب فبكيت وتوسلت الى والدتي، تسمّرت في الأرض وصممت على أن لا أبرح ذلك المكان إلا على ظهر حمـــار . فاقتنعت على غير عادتهـــا ، فأخذنا حماراً واحداً وتناوبنا الركوب الى أن وصلنا أخيراً إلى شيخان .

كانت فرحة نظلة بنا كبيرة اذ اننا بلغنا منزلهـــا دون أن تعلم مسبقاً بقدومنا . فاستقبلتنا بالدموع ، واحتضنتني بحنان. رحبت بي اميلي ابنتها الكبرى، اما ماري صغرى ابنتيها فلم تعرفني . أخذت مولودها الجديد أنطوان ــ الذي رزقت به بعد مغادرتنا أميركا ــ بين ذراعي وقبلته بشوق. وبعد السلام والكلام، أرادت نظلة أن تستوضحني عن رحلتنا ، فانبريت لأصف لها المشقة والعذاب الذي قاسيناه ، غير ان والدتي كانت أسرع مني « فشخرت بي شخرة » أوقفت الكلمة في حلقي تذكرت عصاهـــا وأقفلت فمي مكرهة . وأخذت على عاتقها وصف الرحلة لشقيقتي. فصورت لها سفرة ممتعة تنقلنا خلالها من بلد لآخر تارة بالقطار ، وطوراً على الجياد المطهمة . فكنت أصغي إلى كلامها باستغراب ، لأنني كنت قد ألفت أكاذيبها البيضاء .

غير ان حيلتها لم تنطل على نظلة ، التي شعرت ان في الامر سراً . فاغتنمت فرصة ذهابي برفقتها الي الغابة وكررت علي سؤالها . لم أقو على اخفاء الحقيقة وبحت لهـــا بكل شيء ، ورويت مراحل سفرتنا الواحدة تلو الاخرى . وصفت المتاعب التي صادفتنا في طريقنا من الشام الى بيروت ، ومن بيروت الى قريتهـــا شيخان . فنظرت الي كالمجفلة ، وأخذت تقرعني قائلة : « ان الكذب والمبالغة الى هذا الحد عيب كبير في فتاة مثلي . » واتهمتني بنسج قصة خرافية لن تصدقها إذ كيف يمكن لسيدة عجوز ، ولفتاة صغيرة أن تقطعا مثل هذه المسافة سيراً على الاقدام . وعندما يئست من اقناعها بصحة روايتي ، كشفت عن رجلي وقلت :

« انظري فهذا هو البرهان القاطع على صحة ما أقول » .

وكانت قدماي قد تشققتا من السير في المسالك الوعرة . وعندما شاهدتها أخذت تميل الى تصديق كلامي ، لكنها تعود فتتساءل ، هل يقوم انسان عاقل بعمل كهذا ، وهل يقدم على مغامرة كهذه ؟ عدنا الى البيت وهي ما زالت في ثورتها ، تريد وتأبى تصديق ما قلته لها . الى أن التقت والدتي فأمسكت بها وأخذت تستدرجها لتعرف الحقيقة وترتاح من حيرتها . وعند السؤال الاول ، أدركت والدتي انني بحت لنظلة بالحقيقة . فانتفضت كالمسعورة واسرعت تريد ضربي لكن شقيقتي لحقت بها لانقاذي منها ، فأخذت في الولولة وعلا صراخها .. وسرعان ما تراكض أهل القرية وأقبلوا يسألوننا بقلق اذا ما حلت بنا مصيبة ما . وبعد جهد كبير تمكن زوج نظلة ـ وكان يشكو ألماً في ساقه ـ تمكن من اعادة حماته الى صوابها ، بعد أن علم أهل القرية بما حدث بيننا . فعز على شقيقتي ان نعود الى سابق عهدنا ... وأن يعلم أقرباء زوجها بحالتنا ، فانخرطت في البكاء .

لم تهدأ والدتي . فما أن أقبل الليل حتى أسرت لي بأننا سنغادر شيخان في الصباح الباكر . سكت على مضض ، ولم أجرؤ على الاعتراض ، وكنت ما زلت منهوكة القوى . وما ان بزغ الفجر حتى أيقظتني وطلبت مني أن أرافقها ، رغم معارضة شقيقتي وتوسلاتها . وهكذا تركنا الاكل الطيب والراحة والاطمئنان ، لنعود فنهيم على وجهنا في بلدان الله . وفيما أنا أحاول اللحاق بها سألتها الى أين نحن ذاهبتان ؟ فانفجرت بوجهي ، وأمرتني بأن أتابع طريقي بصمت لأنها ستذهب الى حيث تريد .

عندما انحدرنا من الممر الجبلي ، ووصلنا الى شاطىء البحر ؛ أخذت يمينها سهواً وسارت على طريق طرابلس دون أن تسأل أحداً . إلا أنني ادركت الخطأ ولفت نظرها فزعقت بوجهي :

« اذا كنت لا تريدين رفقتي فاذهبي الى حيث يحلو لك » . وما ان سمعت هذه الكلمات حتى أطلقت ساقي للريح ، ووجهتي قرية شقيقتي . كانت محاولتي

الثانية للتحرر من الذل والمهانة . لم تنتبه لفراري بادىء ذي بـــدء غير انها ما ان افتقدتني حتى أخذت تناديني بأعلى صوتها . فلم أعرها أي اهتمام وتابعت طريقي فخطرت لها حيلة سرعان ما نفذتها ، عندما أدركت انهــا لن تقوى على اللحاق بي . فلجأت الى المارة تناديهم بأعلى صوتها ، وتطلب اليهم ان يلحقوا بي قائلة :

« انها ابنتي ولا تريد العيش معي على صغر سنهـا . لقد سرقت مالي وفرت دون أن أعلم » .

كانت ترفق كلامها بالبكاء . فرق لها قلب كل من كان على الطريق في تلك الساعـــة ، وأسرعوا جميعهم ليلحقوا بي . تمكنوا من الوصول الي فأمسكوا بي واقتادوني اليها بعد مقاومة عنيفة من قبلي . جرجروني وقسوا علي، فتخرقت ثيابي وبدوت كالمشردات اللواتي أمضين حياتهن في الشارع. كان جمالي يلفت الي انظار المارة من كهول وشبان ، بالرغم من البهدلة والفقر ، فيتساءل هؤلاء من أكون ومن تكون هذه المرأة التي ترافقني وتدعي أنها أمي . وكنت قد غلبت على أمري ويئست من الخلاص مما كنت فيه ، فتابعت طريقي بصمت ، منكسة الرأس لا أنبس بكلمة .

بعد أن قطعنا مسافة طويلة ، سألت والدتي أحد المارة الى أين سيؤدي بنــا هذا الطريق . فأجابها :

« انتما الآن بالقرب من بلدة البترون . وستصلان بعدها الى انفة ومنهــا الى شكا فطرابلس ! »

وما ان سمعت ايضاحات الرجل حتى طار عقلي ، وحاولت اقناعها بالعودة الى بيروت، لاسيما واننا كنا ما زلنا في منتصف الطريق. أخذت أرجوها وأتوسل اليها واقنعها اننا غرباء في طرابلس ، لا نعرف أحداً ولا احد يعرفنا ، والحيــاة

قاسية على أمثالنا من الفقراء . لكنها لم تقنع ، بل أصرت على الذهاب الى تلك المدينة قائلة لي بتشف :

« لقد سمعت الشيء الكثير عن طرابلس . ولن أعود قبل زيارتها لأتحقق من صحة ما قيل لي عنها » .

أخذت فكرة الفرار منها ومن تعنتها ترسخ في ذهني ، وتتمكن مني ، وبت أترقب الفرص المؤاتية . غير انني كنت أعلم انني ما زلت صغيرة ، ولن أتمكن من تصريف شؤوني بنفسي . وعلي ان أنتظر وأصبر الى أن يـأتي الله أمراً كان مقسوماً . عدنا في بلدة البترون الى قرع الابواب والى استجداء رغيف وفراش . وتسنى لنا كالعادة من أشفق علينا ، واستضافنا الى أن بزغ الفجر . وعند الصباح الباكر ، وبعد أن غادرنا ذلك البيت الكريم المضياف . أردت أن أحتال عليها ، فاتجهت يميناً . غير انها سرعان ما أدركت قصدي، فأمسكت بي بعنف وأدارتني شمالاً وهي تقول :

« من هنا الطريق يا ملعونه ! »

فسكتت الملعونة على مضض ، وتابعت سيرها شمالاً ، كانت رحلة شاقة أتت على البقية الباقية من صبري . فالطرق قفراء قلّ ما يمرّ عليها أحد ، والمسافات بعيدة ، فتملكني الخوف . كنت مـا أن أشاهد شبحاً يلوح من بعيد حتى أتخيله أحد اللصوص القادمين لقتلنا . فارتعد من الخوف ، اسلم روحي الى خالقها ، وأنظر الى السماء علها تمد لي يد الفرج .

كان قد أدرك طرابلس الظلام عندما وصلنا الى حدودها ، وكانت في تلك الأيام ولاية تحت الحكم التركي. وكان عند مدخلها مخفر يحقق أفراده مع الخارجين منها والقادمين اليها . وفيما كانت والدتي تناقش الجنود وتحاول ان تثبت لهم اننا مسلمات خطر لي أن أرتاح واستنشق الهواء قليلاً . فرفعت ما تبقى من الحبرة

دون أن أنتبه الى ان احدهم كان يبحلق بي بدهشة واعجاب . وما ان شاهدني حتى أسرع الى الضابط يسر له : « بأن هذه العجوز تقول ان الفتاة ابنتها . ولكن « هذا الطين ليس من ذاك العجين . انظر الى جمال الفتاة واحكم بنفسك» .

وعندما شاهدني الضابط تأكد من صحة ما قاله الجندي ، وخطر له ان أمي ليست سوى احدى تاجرات الرقيق الابيض من اللواتي يستقدمن الفتيات للاتجار بهن . فأشفق علي ، وأراد أن ينقذني مما كان يعتقد انه سيحل بي لو بقيت تتحكم بمصيري وقرر حجزنا في سجن النساء .

قرر الجنود ارسالنا الى سجن النساء ، بعد أن تشاوروا طويلاً في امرنا . ولم نكن نعلم مـــا كانوا يبيتونه لنا، لاسيما وان الجنود الاتراك كانوا في تلك الايام يستبيحون لأنفسهم الاملاك والأعراض بسهولة مـــا بعدها سهولة . اقتادونا الى السجن دون أي علم منا . فاستقبلتنا احدى النساء ودعتنا الى الدخول . فاعتقدنا اننا سنبيت في منزل أحد الجنود الى أن يقبـــل الصباح . وما ان أطل الفجر حتى قمنا نستعد للخروج بسرعة . فحالت تلك المرأة دون خروجنا ، قائلة لنا : « انتما الآن في عداد المسجونات ، وليس بامكانكما مبارحة هذا المكان الا بعد انتهـــاء التحقيق معكما ! »

فشهقت والدتي وأغمي عليها من هول المفاجأة،وانخرطت انا في البكاء.وعندما عادت أمي الى وعيها احتضنتني ، وأضافت دموعهـــا الى دموعي ، وأخذنا ، بسذاجة ما بعدها سذاجة ، نرجو السجانة ان تخلي سبيلنا . فقالت لنا :

«ان مهمتي تحتم علي أن أحتفظ بكما لا أن أطلق سراحكما. فعليكما ان تنتظرا نهاية التحقيق . ان الضابط يريد أن يتأكد من كونها والدتك ولا تريد الاتجـــار بك وبجمالك » .

أخذنا ننتظر الفرج.وأمضينا في السجن ما يقارب الاربعة أيام، بين السارقات والمقبوض عليهن بتهمة تعاطي الدعـــارة . كانت تحلو لتلك المسجونات رواية مغامراتهن ، والتباهي بها وكن يسردن على مسمع من الجميع — ومن بين الجميع أنا ووالدتي— مراحل حياتهن بكاملها. ويسرفن في اعطاء تفاصيل تقشعر لها الابدان وكل منهن تزيد على قول رفيقتها وتتحداها وتستثيرها ، فيقودهن الحديث الى معركة حامية أفر بجلدي منها .ولم تكن تنتهي إلا عند قدوم الجندي ملوحاً بسوطه

المخيف . فتهدأ الجلبة وتعود كل منهن الى التظاهر بالضعف والمسكنة . كن قد فقدن معنى الكرامة كما كن ثائرات على الحياة يبغين الاستمتاع بها بشتى السبل . وكانت بينهن من افتقدت أهلها وهي صغيرة ، وشبّت كيفما اتفق لها ولم تجد من يقف في طريق انحدارها ويحول دون تمرغها بالوحل . كما كان يوجد بينهن من تتوق نفسها الى حياة سليمة ولا تدرك الى ذلك سبيلا .

كنت أراقبهن من بعيد ، وكان يفتح حديثهن أمامي آفاقاً لم يكن لي علم بها من قبل .

وفي اليوم الخامس ، حضر من اقتادنا الى مدير الشرطة ليتابع بنفسه التحقيق معنا . وصلت والدتي الى مكتب المدير وهي ترتعد من الخوف ، فأخذت تجيب على أسئلته بالبكاء . وكان سبب ارتباكها انها اعلنت عند وصولنا الى المخفر انها مسلمة ، ولم تعد تعرف كيف تبرّر ادعاءها . وكان عليّ امام ارتباكها ان أتدبر الامر بالرغم من صغر سني . فرجوتها أن تطلب منه أن يخابر مطرانية الروم الارثوذكس في الشام ، أو أن يسألوا عنا في المطرانية هنا في طرابلس . ولا بد انهم سيكفلوننا ويطلق سراحنا .

وهكذا كان . خرجنا من السجن بكفالة عندما ثبتت صلة القربى التي كانت تربط بين والدتي والمطران سفرونيوس من دير البلمند . ولو لم تسعفني سرعة خاطري بهذه الفكرة ، لكنا أمضينا في السجن شهراً أو شهرين على الاقل . وما أن تنفسنا الصعداء حتى انبريت لوالدتي أقول بحدة :

« كفاني ما حصل لي لغاية الآن . اكتفيت من الذل والجوع والتشرد ، وأصبح بامكاننا الآن أن نضيف السجن الى هذه القائمة الحافلة . لن أرافقك خطوة بعد اليوم الاّ اذا أردت العودة الى منزل شقيقتي في قرية شيخان . والاّ رفعت أمري الى المطرانية وأطلعتهم على كل شيء وطلبت منهم انصافي وحمايتي » .

أدركت امي انني يائسة وانني لن أتوانى عن تنفيذ ما هدّدتها به . كان ذلك الحادث قد أثر على أعصابها ، ولم تعد تقوى على العناد ولا على المكابرة والتشبث بآرائهـــا . فخافت وأذعنت لقولي واقتنعت بالعودة الى شيخـــان . عدنا الى سيرنا والى قرع أبواب الناس ، الى أن يسرها الله ووصلنا شيخان للمرة الثانية ، متهالكين من التعب .

وصلنا الى شيخان على حين غرة ، لم تكن شقيقتي تنتظر قدومنا ، ولا تتوقع أن نعود للاقامة معها بعد ثورة أمي ومغادرتها القرية على الصورة التي ذكرت . غير ان نظلة كانت حنونة، طيبة، فتناست كل شيء، واحسنت استقبالنا ورحبت بنا . استأنست بها والدتي ، وكانت قد هبطت عزيمتها من جراء العذاب والتشرد والألم . فأمست ضعيفة تخشى كل شيء .

استقربنا المقام عند نظلة وطابت لي حياة الاستقرارهذه بعد نالنيما نالنيمن تنقلنا المستمر وتعرضنا للاهانة والاخطار. شغفت بحياة القرية البسيطة وبسذاجة اهلها. وسرعان ما اندمجت معهم ، وأصبح لي عـــدد من الصديقات بين بنات القرية الحلوات. ما كان أطيبها تلك الحياة التى كانوا يسوقونها في القرى اللبنانية! كنت أرافقهم الى الكروم والى التقاط الزيتون والتين وكم من مرة خبزت عـــلى الصاج واكلت أصابعي مع الخبز المرقوق . كنا نستيقظ على صياح الديك ، فنسبح الله ونحمده على نعمه ، ونذهب لنطعم الدواجن ولنضع العلف للقطيع الذي كان لي فيه أصدقاء كثيرون بين الخرفان الصغار . نقصد الحقـــل برفقة أشعة الشمس الاولى ، فنتفقد الزرع ونجمع الأزهار البرية الجميلة . وبعد عودتنا الى المنزل نعد « الطبخة » على نار الحطب .

أَما سهراتنا فكنا نقضيها في ضوء القمر . نغني ما طاب لنا الغناء ، نناجي الحب والهوى على قلة ما كنا ندرك من أمور الحب والهوى في تلك الايام. كانت رفيقاتي يناجين احبابهن بأبيات رقيقة من الميجانا والعتابا ، أما انا فكنت اغني لهن

باللغة الاسبانية ما تعلمته عند الراهبات في الارجنتين . وكثيراً مـــا كانت بنات القرية يتجمعن حولي وأنا ألعب عـــلى الحبلة ، ويستغربن مقدرتي عـــلى القفز من فوقهـــا .

كانت القرى في تلك الايام عامرة بالخير والقناعة والبركات . وكان الفلاح المكفي سلطاناً قانعاً برزقه ، لا يسأل سوى رضى ربه ووجهه الكريم .

غير انني بالرغم من هـــذه الحياة الهانئة ، لم أنس هواجسي ، وكنت أترقب وأرهب الساعة التي ستختارها والدتي لتعود بي الي التشرد . وكأني أمي استكثرت علي الحياة الهانئة ، وكأنها كانت تبحث عن شيء لا تدرك هي كنهه ، فما نكاد نصل الى مكان حتى تمل وتطلب الى أن نرحل . وفي أحد الايام المشؤومة ، وما أكثرها في حياتي ، طلبت مني ان استعد للرحيـــل الى بيروت . غير ان شقيقتي عارضتها بشدة قائلة :

« اذا أردت الذهاب ، رافقتك السلامة . امـــا بديعة فلن أدعها ترافقك اذ ان أحد شبان القرية يريد الزواج منهـــا ! » فأخذت والدتي تلطم وجهها وتشد شعرها وتولول . أسرع أهل القرية يستطلعون الخبر ، فأخذت تقول بأعـــلى صوتهـــا :

لا أريد أن تتزوج ابنتي من فلاح . أنا حرة في أن أتصرف بهـــا ، دعوني وشأني . » وذلك على مسمع من الفلاحين الطيبين الذين كانوا لنا خير أصدقاء . فتدخل زوج نظلة عندئذ، وأفهمها ان الشاب الذي يريد الاقتران بي ليس فلاحاً بل هو ملاك وشاب حلو . وزيّن لها حياتي معه ، وحياتنا معه نحن الاثنين اذا ما وافقت على زواجي منه . فازدادت ثورتها وزجرته بقسوة ، وطلبت اليه أن لا يتدخل بشؤونها . ثم أمسكت بي وجرجرتني وراءهـــا ، على مرأى ومسمع من جميع أهل القرية .

غادرنا شيخان ، وانحدرنا الى شاطىء البحر وجهتنا مدينة بيروت . كانت نظلة قد أعطتها بعض النقود لانفاقها أثناء الرحلة . غير انهـــا أنكرت أن يكون لديها شيء منها ، ووصلنا بيروت سيراً على الاقدام .

عندما يتفق لي الآن بعد هذه السنين الطوال، أن أمر بسيارتي على تلك الطريق، لا يسعني الا أن أتذكر أيام البؤس والشقاء. وقد أردت مرة معرفة عدد الكيلومترات التي مشيتها في تلك الرحلة فاذا بها تزيد على الخمسة وخمسين كيلومتراً . وتساءلت كيف تمكنا من السير مثل هذه المسافة . وعدت بالذاكرة الى تلك الايام ، أيام الصبا والعذاب ، أيام العافية والشقاء . وتخيلت فتاة حلوة صغيرة وسيدة متهالكة عجوزاً ، تسيران الهوينا من الصباح الباكر الى أن يقبل الليـــل ، فتستهديان الى منزل مضياف، لتتقيا فيه الجوع وتحتميا بين جدرانه من لصوص الطريق وحيواناتها. وما من مرة شاهدت عاملاً أو قروياً ينتظر سيارة الا وأوقفت سيارتي ، ودعوته الى الجلوس قربي . فيستغرب دعوتي وينظر الي بفضول . انه لا يعلم ، ويا ليته يعلم ، ومن أين له أن يعلم كم ذرفت من الدموع يوم لم أجد من يدعوني ولو لقطع مسافة صغيرة . ويوم كنت على حداثة سني وجهلي للحياة ، أترقب عبثاً نظرة عطف في العيون التي كانت تتفحصني بفضول او تنظر الى فقري بازدراء ، أو تتركز علي ، باحثة عن مفاتن لم أكن قد شعرت بها بعد !

لم ينسني المال ما قاسيته من الفقر ، ولم تحملني البحبوحة على التنكر لايام الشقاء والتشرد . فما زلت صديقة المعذبين الذين قاسمتهم في اولى سني حياتي كل مـــا كتب لهم من عناء وتعاسة !

وصلنا بيروت مشردتين فقيرتين لا حول لنا ولا قوة ، ولا من يجرؤ عـــلى التعرف علينا أو عـــلى الاعتراف بصلة قربى تجمع بيننا وبينه . قصدنا من تونا مطرانية الروم الارثوذكس ، شأن فقراء الطائفة الذين لا ملجـــأ لهم ولا معين سوى وجهه الكريم . طلبنا من المسؤولين في المطرانية منزلاً يأوينا ولو الى حين .

وعندما تعرف علينا هؤلاء وتأكدوا من أننا من عائلة « مصابني » ، اقترحوا ان يجمعوننا بجورج مصابني ابن عمي . فمانعت والدتي بشدة، بحجة انها ستقوم بزيارة قريبنا بعد أن نجد منزلاً لائقاً نستقر فيه . والحقيقة هي أنها كانت تخجل من الظهور أمام آل مصابني على الشكل الذي وصلنا فيه الى بيروت فأخذونا الى شيخ الحي الذي تقع فيه دار المطرانية ، وكان يدعى نجيب الصباغة . وسرعان ما وجد لنا السيد صباغة منزلاً صغيراً يملكه ، وعرض علينا كل ما نحتاج اليه الى أن نستقدم عفشنا من الشام !

لم تخف والدتي حنينها الى الشام ؛ بل اقتربت مني تسرُّ الي « يا ابنتي ! تعالي نعود الى الشام حيث منزلنا وأمتعتنا !... » فقاطعتها : « حيث منزلنا وأمتعتنا ، وحيث الالسنة الطويلة والاصابع الممدودة تشير الينا أنّى اتجهنا ! ثم انني احب الشام وأتمنى العودة اليها ! لكنني لم أقاس ما قاسيته من جوع وتعب لاعود الى سماع كلام الناس وسردهم للمصيبة التي حلّت بي دون أن يكون لي يد فيها . اذا كنت تريدين لي حياة كالتي تسوقها سائر الصبايا اذهبي بمفردك الى الشام وانقلي امتعتنا وسيان عندي الآن ان قطعت الرحلة سيراً على قدميك ام لا ، لأنني لن ارافقك قط بل سأبقى حيث انا ! »

استعطفت شيخ الحارة وطلبت منه ان يستبقيني في منزله الى أن تعود والدتي من الشام . فرق لحالي ورافقت بناته الى البيت . عندما أيقنت أمي انني مصممة على البقاء في بيروت ، وكنت قد بدأت أتمرد عليها ، عانقتني والدموع في عينيها وقصدت الشام . لم يبلغني عنها شيء مدة خمسة عشر يوماً ، عادت بعدها في القطار، ومعها كل الامتعة التي كنا قد تركناها في الشام عندما اسرعنا في الرحيل. استبشرت خيراً بمجيئها ، وانطلقت أنسق المنزل الصغير بشوق ولهفة اذ كنت أتشوّق الى منزل يكون منزلي ، ولا أشعر فيه انني دخيلة استجدي ملجأ وبعض ساعات نوم . وغدا بيتي الصغير النظيف عشاً هادئاً، استرحت فيه من عناء الفقر والتقتير . كنت قد بدأت أعمل في « الايرلند » وسائر أشغال الابرة والمكوك ،

وكنت احذقها حذقاً مدهشاً . وهكذا عملت لحساب السيدتين ماري تويني واملي سرسق .

كنت انفق على منزلي الصغير من عملي هذا ، وتمكنت من ان أجعل والدتي تطمئن الى غدها ومستقبلي . كنا نحيا حياة بسيطة نأكل خبزاً ممزوجاً بعرق التعب . وكنا نستسيغ طعم العرق ، اذ كان يعني بالنسبة لنا الكرامة والحرية وعزة النفس .

غير ان التعب والاجهاد اللذين قاسيناهما في رحلاتنا كانا قد تمكنا مني . فلم أذق طعم الراحة والاطمئنان الا لافقدهما بسرعة . بعد مدة وجيزة من استقرارنا في المنزل الصغير أصبت بحمى في الامعاء لازمت على أثرها الفراش وتوقفت عن العمل وبانقطاعي عن العمل انقطع مورد رزقنا الوحيد . الا أن الله يسر لنا من افتقدنا في هذه المحنة الجديدة . فعندما طال غيابي عن منزل السيدة ماري تويني ، ولم أعد اليها بالعمل الذي كانت قد عهدت به الي ، سألت عني فقيل لها انني مريضة . اسرعت الى منزلي تستطلع الخبر ، وعندما تأكدت من مرضي أرسلت تستدعي الطبيب ، ووافتني بالعلاجات اللازمة . لم تطل بي المدة حتى شفيت وعدت الى عملي بشوق ونشاط .

كانت والدتي رفيقتي الوحيدة، وكان منزلي دنياي الفريدة . لم أشعر بالوحدة في بادىء الامر لانهماكي في عملي . ولم تطل بي المدة حتى شعرت بضيق وانقباض في صدري ، لانقطاعي عن العالم وعن كل ما من شأنه ان يسري عني ولو قليلاً عندما اعياني التفكير في إيجاد طريقة أرفه بها عن نفسي ، اتجهت الى منزل الجيران ، علّني أنسى وأرتاح من الضيق وانقباض الصدر . فرحب بي هؤلاء وأكرموا وفادتي . كان جارنا يدعى الياس الفران . والياس الفران هذا كان شاعراً زجلياً مشهوراً ، يتردد على منزله عدد كبير من القوالين . وما زالت أقواله على ألسنة الناس . ويذكر انه عندما توفيت والدة الأمير قبلان أبي اللمع ، وكان

الأمير اللمعي رئيس مجلس ادارة، ترأس الصلاة على الجثمان السعيد الذكر البطريرك الياس الحويك . كان بطريرك الموارنة لا يبرح صرح بكركي إلا فيما ندر ، وكانوا يطلقون عليه لقب « صخر النصارى » . فقال الياس الفران في هذه المناسبة :

« اندبوا ذات الطهارة	يا دروز ويا نصارى
أكدوا عظم المصيبـــه	حركت صخر النصارى »

كان رحمه الله خفيف الروح، يجيد النكتة و «يلقطها طائرة» . ومما يروى عنه أيضاً، انه كان يملك دكاناً لبيع التبغ على جسر بيروت قرب المخفر . وكانت تربطه بضابط ذلك المخفر صداقة متينة . وحدث ان جاءت سيدة جميلة تسأل عن الشيخ عزة اي عن الضابط المذكور . واتفق ان كان الشيخ عزة متغيباً، فاستقبلها الياس الفران وتودد اليها وأطال الحديث معها . وعند عودة الضابط روى له الياس الفران ما حدث في غيابه ، ووصف تلك السيدة بطريقة سال لها لعاب الشيخ عزة . فصار يأتي الى الدكان كل خمس دقائق ليعيد نفس الاسئلة . ضاق الياس الفران ذرعاً بالحاح صديقه وزعق قائلاً :

«شفت لك شي وحدة ذات	جـــاي وبتسأل عنـــك
وحياتك يا شيخ عزة	مخلوعة أكثر منك » .

وكانت السهرات في منزل الياس الفران حلقات دائمة من الانس ، تروى فيها الطرائف والنوادر . وكنت انا في عزلتي وانقطاعي عن العالم استطيبها ، وأكثر من زياراتي لذلك المنزل . كانت بنات الياس الفران يرحبن بي ويقبلن عـــلي ، يتعلمن مني بعض الاشغال اليدوية وينقلن عني الرسمات الجميلة .

حدث أن وصل من أميركا شقيق للشاعر ، وكان قادمـــاً الى لبنان ليتزوج ويعود الى مركز عمله . التقيته في احدى زياراتي ، فاستلطفني وعقد النية على طلب يدي . استعاذت والدتي بالله من الزواج وطلاب الزواج .

نظرت اليه بازدراء وقالت :

« انت عمرك كم سنة ؟ »

فأجابها بهدوء واتزان :

لم يا سيدتي لا تسألينني اذا كان بامكاني ان أعزّز ابنتك ، وأوفر لها منزلاً جميلاً وحياة كريمة هانئة ؟ لم تسألينني عن عمري فقط ؟

ـ أسألك عن عمرك لأنك كهل متقدم في السن. ومن يشاهد بديعة الى جانبك يخالها ابنتك ! ومن يدري ، قد تكون متزوجاً ولك أولاد في أميركا كسواك من المهاجرين . كفانا المولى شر الزواج من الكهول . لقد اقترنت نظلة برجل من عمر ابيها ، ولن أدع بديعة ترتكب نفس الخطأ . »

لم يقنط بعد هذا الجفاء ، ولم يحمل كلامها على محمل الجد . بل تابع محاولاته بالتودد الي واقناعي بالاقتران به . وكان يساعده في مسعاه جميع أفراد الاسرة . عندمـــا رأت والدتي اصراره واصرار أهله ، خشيت أن يتوصلوا الى خطفي ، فجاءت تقول لي :

« يلوح لي ان هذا الملعون عنيد ويعرف ما يريد ! لنذهب الى قرية نظلة عله ييأس ويعود الى أميركا ، أو يبحث لنفسه عن عروس أخرى » .

أما أنا فكنت أتمنّى الزواج من أي انسان ، لأتخلص منها ومن حياتي معها . لا سيا وكنت أعرف ان شقيق الياس الفران غني ، وسوف أرافقه الى أميركا إذا ما اقترنت به . غير اني لم اجرؤ على معارضتها ، بل قصدت بيت الفران على غير علم منها ، واخبرتهم بأمر سفرنا . وطلبت اليهم ان يلحقنا العريس الى قرية شقيقتي ليتحدث الى صهري ، وربمـــا توصل ميخائيل الى اقناعها . وعندمـــا

اشترطت على والدتي ان لا نقطع المسافة سيراً علـى الاقدام ، ما كان منها الاّ أن قالت لي :

« اذا كان لديك دراهم نكتري جواداً . والاّ فعلينا أن نسير على أقدامنا كما اعتدنا ان نفعل ! »

وسرنا على أقدامنا كما اعتدنا ان نفعل . كنا اذا مـا اتفق لنا ، ووجدنا من يشفق علينا ويدعونا الى قطع مسافة قصيرة على ظهر جواد أو حمـار ، شكرناه واسرعنا نغتنم الفرصة . واذا لم نجد فاعل الخير هذا نقتر من نقودنا ، ونرتاح على « قد دراهمنا » .

عندما أدركنا شيخان ؛ كان العريس في انتظارنا ، اذ كان قـد قطع المسافة على ظهر جواد سريع . اجفلت والدتي عندما شاهدته يبتسم لها مرحباً . ثم أقبل نحوها يقدم لها الكلام الرقيق والهدايا الثمينة . فأدارت له ظهرها وعادت لتوها الى الطريق ، وفي نيتها العودة الى بيروت ، بالرغم من التعب ومن ظلام الليـل المقبل بسرعة . فلحق بها صهري محاولاً اقناعها بالتريث :

أقام العريس يومين في منزل شقيقتي . وفي هذين اليومين عملنا جميعنا جاهدين على اقناعها . غير انها مانعت في زواجي منه ، وتصلبت في رأيها . رجوتهـا ، قبلت يديها ، طلبت منهـا ان تدعني ارتاح في كنف رجل يحميني من التشرد ، وينقذني من الفقر . عبثاً حاولت ، وعبثاً حاول هو . وعـاد من شيخان بخفي حنين بعد ان رفض استرجاع هداياه الثمينة لي ولشقيقتي نظلة ولها .

بكيت بكاء مراً بعد عودته الى بـيروت اذ كان قلبي دليلي . كنت اشعر ان زواجي من هذا الرجل قد ينقذني من عذاب مرّ ومن شقـاء امرّ . وتسنى لي بعدئذ أن أتأكد من أنني لو تزوجته لكان تغير مجرى حياتي بكامله . وكنت قد

أصبحت الآن سيدة بيت ، بدلاً من أن أكون سيدة « كازينو بديعة » . وربما كان منزلي يزهو الآن بالاحفاد الموردي الخدود ! من يدري ؟.

قضينا بضعة أيام في شيخان . وعندما اطمأنت والدتي الى انني لن اتركها وأتزوج عادت بي الى منزلنا في بيروت . كان العريس قد برح المدينة الى مركز عمله في اميركا ، بعد ان ترك لي عنوانه عند اليـاس الفران ، وبعدان طلب من شقيقه أن يسهل لي مهمة سفري اذا مـا أردت اللحاق به ، على شرط أن لا تصحبني أمي .

كانت والدتي لا تفارقني لحظة واحدة ، وكانت على قساوتها وعنادها وسوء معاملتها لي تحبني ، وتتشبث بالبقاء الى جانبي ، اذ لم يبق لها غيري . وأخشى مـا كانت تخشاه أن أتزوج وأتركها وحدها . فحبستني في المنزل وسجنت نفسهـا معي . أنا اشتغل « بالابرة » من الصبح حتى المساء بينما تقوم هي بشغل البيت . لا ترى سوى وجهي العابس دائمـاً ، ولا أرى سوى وجهها المتعب الكئيب . وتابعنا حياتنا على هذا المنوال الى ان ضقت ذرعاً بها ، فانهارت صحتي وتقطعت أعصابي ، وقررت أن أنقذ نفسي من هذه الحياة مهما صعبت الوسيلة !

قررت أن أتخلص من حياة الفقر بأية وسيلة، ولم تكن الوسائل متوفرة لدي. هل أسافر لألحق بالعريس الذي كان قد ترك لي عنوانه عند أخيـه ، ورجاه أن يسهل لي معاملات السفر ؟ لن أسافر هذه المرة على «ظهر الباخرة» مع المهاجرين الفقراء ، ولن أقتات مما سيحسن علي به البحارة. لن يقسو علي احد، لن يضربني أشقائي، ولن تروى قصتي على مسمع من المسافرين كما حدث عند سفرتنا الاولى الى الارجنتين . بل سأذهب معززة مكرمة ، كعروس سيستقبلها خطيبها باللهفة والشوق .. ولكنه اشترط أن لا تصحبني والدتي ، اذا ما أردت الاقتران به . علي اذن ان أهجر وطني وأمي معاً !...وما همني لو هجرت أمي ..؟ لقد اذاقتني

من العذاب والذل ما حملني على البحث عن وسيلة أتخلص بها منها . ها ان الوسيلة قد توفرت لدي وأراني مترددة ! أأتركها وحدها ، كما تركها أشقائي من قبل ؟ أأدعها وحدها وهي في هذه السن ؟

وبعد تردد طويل لم أقو على هجرها ! بل فضلت أن أبقى على فقري وعذابي من أن أدعها وأذهب ، ولو الى الرجل الذي بامكانه أن يحميني ، ويبعد عني ما من شأنه ان يعكر صفو حياتي ! ما العمل اذن ؟

وبينما كنت أتخبط في هذه الحيرة ، جاء الشيخ نجيب الصباغة وتحدث طويلاً الى والدتي . كرر على مسمعها ما كنا نعرفه عن حالة أولاد عمي المادية . كانوا أغنياء ، أصحاب تجارة رائجة تدر عليهم أرباحاً طائلة . زين الشيخ نجيب لوالدتي الحياة في رعاية هؤلاء الاقارب ، ونصحها بأن تتصل بهم ، مؤكداً لها انهم لا بد سيمدون لنا يد المساعدة، ليحافظوا على سمعتهم على الاقل . اتصل هو بنفسه بأحد هؤلاء الاقارب ، وكان يدعى جورج مصابني ، فأظهر جورج في بادىء الامر اهتمامه بنا . وقال لوالدتي :

« انا على أتم الاستعداد لأن أدع ابنة عمي بديعة تعيش في منزلي. أما انت فما عليك الا أن تظلي في غرفتك عند شيخ الحي » .

ارتحت انا الى هذا الحل الذي لم ترتح له هي ، بل رضيت به على مضض . فقالت لي والغصة في قلبها :

« سأعود الى غرفتي . حاولي ان تعيشي هنا في كنف ابن عمك ! »

عدنا الى غرفتنا وأنا فرحة مغتبطة لاعتقادي انني سأعيش حياة بحبوحة وراحة في منزل جورج مصابني . ومن يدري ، لعلني أتمكن من مساعدة والدتي !

جهزت ثيابي ، واعتنيت بها ، لاظهر نظافتها بعد ان تعذر علي إظهار « اناقتها » .

ذهبنا معاً الى منزل ابن عمي . دعوني الى الدخول ... بينما تركوا والدتي في الخارج، دون أن يرحبوا بها ولو بكلمة صغيرة، او يطلبوا منها ان تستريح قليلاً عادت الى غرفتها كسيرة القلب ، أما أنا فأدخلوني الى ... المطبخ ! جاؤوني بمريول ، وطلبوا الي ان ارتديه كسائر خدم المنزل . استغربت تصرفهم هذا ، غير انني اذعنت لمشيئتهم ، وارتديت المريول . ومن ثم طلبوا مني ان أعمل في المطبخ . كم كانت خيبة املي كبيرة ، بعد ان كنت قد حلمت بالحياة الهانئة الكريمة ، فأصبحت أعمل طول النهار برفقة الخدم . ولا يقبل الليل الا وأكون قد تهالكت من الاعياء .

في اليوم العاشر ، جاءت والدتي لتتفقدني، فأدخلوها من باب الخدم . وعندما شاهدتني أعمل في المطبخ طار صوابها ، ونهرتني قائلة :

« ارتدي ثيابك لنعود الى غرفتنا وفقرنا . هذا أشرف لنا ! »

تركنا ذلك المنزل دون أن نسمع كلمة حلوة تخفف عنا وقع ما حصل لنا فيه . وذهبنا من تونا الى جورج في مخزنه . فبادرته أمي بقولها :

« بديعة ابنة عمك يا جورج ، وهي تحمل اسمك . أيهون عليك أن تعمل كالخدم وفي منزلك أنت ؟ كنت أعتقد انك ستذكر صلة القربى التي تربط بينكما ! »

فأجابها بجفاء :

« هذا كل ما بوسعي عمله . ثم لا تنسي انني متزوج ، وعلي مسؤولية كبيرة ..

وزوجتي لا ترضى بأي دخيل في منزلهـــا . كما يتضايق الاولاد من وجود أي غريب معهم في البيت ! عليك بشقيقي ليان ، انه عازب ويعيش بمفرده ! » كان ليان حاضراً ، وسمع ما قاله جورج فدعانا مرغماً الى منزله . لم يسعه الا أن يوجه لنا هذه الدعوة الفاترة ، بعد أن سمع أصدقاؤه حديث والدتي ، وأخذوا ينظرون اليه بفضول .

كان ليـــان يقطن منزلاً جميلاً يتسع لعائلة كبيرة . عندما دخلت الى ذلك المنزل وقفت انظر فيما جولي فاغرة فمي أمـــام فخامة الرياش ، الذي لم تقع عيني على مثله من قبـــل . وكنت دون وعي أقابـــل بينه وبين عري غرفتنا الباردة .

كانت تشرف عليه امرأة لا هي بالزوجة ولا بالخادمة ، بل كانت الاثنتين معاً . لم ترق لها فكرة الحياة معنا . ومشاركتنا اياها في المأكل والمبيت . فأخذت تتبرّم بنـــا وتعمل جاهدة لاكراهنا على مغادرة البيت . وهكذا كان ! لم نتحمل المعاملة السيئة ، ولا الكلام القارص الذي لم تكن تتورع من ان تسمعه لوالدتي في كل ساعات النهار ! تركنا ذلك المنزل موقنتين من ان الفقر هو صديقنا وقريبنا الوحيد . وعلق ليان على تصرف الخادمة الزوجة بقوله :

« لا غنى لي عنها . انها تدير شؤون منزلي منذ سنين طويلة . ارجوكم ان لا تضايقوها » .

تركنا اولاد عمي ينعمون بالغنى والحيـــاة الناعمة المترفة ، وعدنا الى غرفتنا الفقيرة المظلمة . كانت منازلهم تضيق بالرياش الفاخرة ، ولم يكن لدينا سرير ننام عليه لنتقي رطوبة الارض . كانت مطابخهم عـــامرة بكل مـــا لذ وطاب من المأكولات ، ولم يكن لدينا ما نشبع به جوعنا . لم يهتم واحد منهم بمصيرنا ، على فقرنا وعجزنا ، بل تركونا نخرج الى الطريق ، ونحن في حالة يأس ومذلة ما

زلت أذكرهـــا الى الآن . ومن يومهـــا عرفت طعم الحقـــد والكراهية . كرهتهم وتمنيت لو كان بامكاني ان انتقم منهم ، واذيقهم الذل الذي أذاقوني اياه وأنـــا صبية صغيرة ، محرومة من العطف والرعاية . غير اني كنت لم أزل قاصرة عن ان أعيـــد لهم الصفعة صفعتين كمـــا حدث بعد عدة سنوات من هذه الحادثة .

وعندمـــا اقترحت عـــليّ امي ان نعود الى الشام ، لم يسعني الاّ ان أوافقها على رأيهـــا . ووعدتني ان تكف عن الاساءة الى فريدة ، زوجة أخي توفيق .

كان توفيق قد استولى على منزلنا ، فاجتل قسماً منه وأجّر القسم الآخر . ولم يعد في المنزل مكان لنـــا . طلبت من والدتي ان نستأجر بدورنا غرفة بعيداً عن أخي وزوجته . غير انها لم تقتنع بل قالت لي :

« لماذا لا نضع امتعتنا على « التتخيتة » الى أن ييسرها الله ، ونجد الغرفة التي تلائمنا » . لم يساورني أدنى شك في سلامة نيتها ... فوافقتها حالاً . ولكن ما ان أقبل المساء حتى دعتني الى النوم ، برفقة الفئران والجرذان وسائر سكان تلك التتخيتة . حاولت أن أقنعها بالذهاب الى منزل خالتي ، لم تقتنع بل هجمت علي تريد ضربي . سكت على مضض وقضيت تلك الليلة دون أن يغمض لي جفن . كنت اتصور الفئران والجرذان تتربص بي ، فيخفق قلبي من شدة الخوف . هذا عدا عن رائحة الرطوبة الكريهة التي كانت تتصاعد من الارض العفنة . مـــا أن اطل الصباح حتى طلبت منها أن تبحث لنا عن غرفة يمكننا أن نستنشق فيها هواءً نقياً . خرجت من البيت ، ولم تعد اليه الا في المساء قائلة :

«انني بحثت طول النهار ولم أوفق الى غرفة ننقل اليها امتعتنا !» اعادت الكرة عدة أيام ، وأنا أحاول تصديقها ، الى ان مضى علينا وقت طويل في تلك التتخيتة الملعونة . كنت قد عدت الى شغل الابرة لاوفر اجرة الغرفة ونفقات معيشتنا . صبرت ، وتماديت في الصبر ، الى ان ضقت ذرعـــاً بالفئران والجرذان ورائحة الرطوبة ، فبدأت اسأل بدوري عن غرفة تصلح لسكنانا . قيل لي ان لدى عائلة الكحالة في «الساحة» ، غرفة تصلح لي ولوالدتي. وسرعان ما تركت عملي وذهبت برفقة فريدة زوجة أخي واتفقت مع أصحابها .

عدت الى المنزل فرحة لخلاصي من التتخيتة ، وكانت والدتي تنتظرني بقلق .

اخبرتها انني وجدت غرفة مناسبة ، واتفقت مع أصحابها . فما كان منها الاّ أن هجمت على زوجة أخي مزمجرة :

« أنت التي تسعين الى اخراجنا من منزلنا لتستولي عليه ! هذا منزلي ولن تتخلصي منا بهذه السهولة ! » أرفقت كلامها بسيل من الشتائم ، وأمسكت بشعر فريدة التي لم تتمكن من الدفاع عن نفسها . وعندما رأيتها تضرب زوجة أخي بهذه القسوة استجمعت شجاعتي ، وأرغمتها على الابتعاد عن كنتها . ما ان أَفلتت فريدة من قبضتها حتى ثارت علي أنا أيضاً ، وهجمت تريد ضربي . فهددتها بأعلى صوتي :

« لقد ذقت منك ما فيه الكفاية! لم أعد طفلة صغيرة تتحكمين بها على هواك ! لقد اشتد ساعدي ولن أدعك تضربينني بعد اليوم ! »

فجنّ جنونها ، ورمت نفسها علي تريد سحقي . وبالفعل تمكنت من أن تمسك بي وتعضني . وفي هذه الاثناء تراكض أهل الحي ليشاهدوا هذه التمثيلية الجديدة في حياتنا . عزّ علي ان يعود هؤلاء الناس الى التندر بما يحدث لنا من نكبات ومهازل ، فقلت لها أعاتبها برقة :

« لم أعد طفلة يا أماه ولن ينفع في الضرب! لم تعاملينني هكذا أمام الجيران؟»

حاولت ان استثير عطفها علي ولكن دون جدوى . عادت الى الصراخ وهجمت علي تريد متابعة ضربي قائلة بتحد : دعيني أراك تدافعين عن نفسك!»

فأمسكت بيديها ، « كتفتها » ، واسندتها الى الحائط . نظرت الي نظرة مشبعة بالحسرة والدهشة . فرق قلبي عليها وابتعدت عنها ، بعد أن ازداد عدد الذين جاءوا يشاهدون فصلاً جديداً من فصول حياتنا البائسة . وهكذا ادركت انني لم أعد تلك الطفلة الصغيرة ، التي لا تقوى على الدفاع عن نفسها . وكانت آخر مرة تمتد يدها الي !

أردتها ان تعاملني معاملتها لصبية تدرك معنى الحيـــاة، فقلت لها بجد ورقة : « لقد استأجرت غرفة في « حارة الساحة » غرفة جميلة تطـــل عليها الشمس . دعينا نذهب اليها ونترك هذه « التتخيتة » العفنة التي قد تورثنا المرض اذا أطلنا الاقامة فيها . فكان جوابها :

« الله يقصف عمرك ويريحني منك ! »

— الى ان يقصف الله عمري ويستجيب لدعائك ، أريد أن أعيش . أريد أن أرى النور ، ان أرى الشمس ، ان استنشق الهواء نقياً وليس مشبعـــاً برائحة العفونة ! »

انتقلنا الى غرفتنا في حارة الساحة ، وانا لا أكاد اصدق انني فارقت الفئران والجرذان وسكان التتخيتة . ارتحت الى الحي الجديد لجهل سكانه قصتنا القديمة . أردت أن اتذوّق طعم الكرامة، فحاولت أن ابدأ حياة جديدة بعيدة عن الشماتة والاحتقار . قلت لوالدتي مستجدية :

« ارجوك يا أمـــاه ان تدعي للماضي مـــا مضى . وان لا تروي لاحد من جيراننا ما حصل لي وانا في السابعة . علّ الله يوفقني الى رجل انستر في كنفه » .

فهزت كتفيها استهزاء بي ، وأجابت دون اكتراث : « الله الله ، صـــار للشوحة مرجوحة ... أصبحت تعملين الآن وتكسبين، ولهذا تمردت علي ولم أعد أقوى على تأديبك . الله يقصف عمرك ويريحني منك ! »

كانت تقصف عمري وتتمنى ان ترتاح مني مرات عديدة في النهار . ولعل الله سبحانه وتعالى اراد ان يستجيب دعاءها ، فمـــا عتمت ان تعرفت على شاب قدم برفقة والدته من مدينة حيفا فلسطين . وكان قد جـــاء الى الشام خصيصاً لينتقي لنفسه عروساً ، اذ كان القانون العثماني في ذلك الوقت يعفي من الجندية كل من يقترن بفتاة غريبة عن بلاده. اتفق ان التقيت والدته، فرقت لكليهما معاً ، وقررا أن يطلبا يدي في أسرع وقت ممكن .

كان عريس الهناء يدعى على ما أذكر ميشال حاصباني ، وكان حسن المظهر رقيق الحاشية . اعتقدت لاول وهلة ان الله قد منّ علي بالفرج مما كنت أعانيه ، الا أن العقبات ما لبثت ان اعترضت طريق ذلك الفرج . كانت تقاليد طائفتنا الارثوذكسية تحتم على الشاب ان يجهز عروسه ويتكفل بنفقات العرس . بينما درجت العادة عند طائفة العريس الكاثوليكية على أن تأتي الفتاة بالجهاز مرفقة اياه بمهر محترم .

وما ان انتشر خبر دخول ميشال حاصباني الى منزلنا حتى اندفعت ألسنة السوء تنهش بنا ، وتروي له ما حصل لي وانا في السابعة . لم يتورعوا عن المبالغة ، فزينوا ذلك الحادث الأليم ، وأضافوا اليه ما مكنتهم من ذلك مخيلاتهم المريضة . فلم يبال بل أجابهم بغير اكتراث : « وما ذنبها اذا كانت ضحية ذئب اغتصبها وهي لم تزل طفلة لا تفرّق بين خير وشر ! »

غير ان والدته لم تقتنع ، بل طلبت بالحاح وأصرّت على ان يكشف عليّ أحد الاطباء . أحنت أمي رأسها أمام هذا الطلب المذل ، واقتادوني الى سيدة عجوز كانت تعالج بعض الامراض النسائية . فقالت لهم بصراحة : « انها لم تعد بكراً ، ولكن ذلك عائد الى حادث قديم » . رضي العريس بهذا الوضع بعكس امه التي أرادت ان تستغل ذلنا . ففاتحتنا بشأن المهر والجهاز . قالت لها والدتي : « ان تقاليدنا تحتم على الشاب ان يجهز عروسه » . فاجابتها بسخرية: نعم ، عندما لا تكون العروس مشوهة ! » نكست والدتي رأسها دون ان تنبس بكلمة . ولست أدري ما الذي حملها على ان تحتمل هذا النعت وهذا الاذلال ، وهي التي كانت ترتعد لمجرد ذكر أَمر زواجي على مسمعها . ومما زاد دهشتي انها اعترفت بان لديها مبلغ خمسين ليرة ذهب ، أرسلها لها اخي كمال . فقالت والدة العريس :

« هذا لا يكفي .

ـ طيب يا ستي ، سأبيع حصتي بهذا البيت . وعندي ايضاً ماكنة

خياطة . وسأسعى لأوفر لكم كل ما تطلبون . » كنت اصغي الى هذا النقاش ، فاغرة فمي أمام كرم والدتي غير المتوقع وهي التي كانت تقتّر حتى على القوت الضروري . وعندما استوضحتها عن سبب تصرفها العجيب اجابتني بآهة عميقة :

« تعبت من الحياة يا بنية ، ومن يدري قد لا اعيش طويلاً . لقد اصبحت أخشى عليك من الناس اذ لم أعد أقوى على حمايتك . لقد نهشوا في سمعتك ما فيه الكفاية . أريد ان ارتاح الى انك في كنف رجل يذود عنك ويرعاك . وليس بامكان اي انسان ان يقوم مقام الزوج . كنت اعلق اعذب الامال على اشقائك بعد وفاة ابيك ، غير انهم تنكروا لنا وتفرقوا في بلاد الله ، فذقنا من جراء ذلك الفقر والحرمان والتشرد . الغربة جفاء ، لم يذكرنا منهم سوى صغيرهم كمال ، الذي رقّ قلبه لرسالتي وخصّنا بالخمسين ليرة ذهباً التي ستأخذينها الى منزل عريسك . سيحضر العريس في صباح غد وننتهي من اعداد العدة لعرسك . وفقك الله ، وبيض بختك . »

وعندما حضر العريس رحبت به وانا متهللة من الفرح ، وقد شعرت بشبح الوحدة يبتعد عني ، وبالراحة والطمأنينة تتسللان رويداً الى نفسي القلقة . كنت قد بادلته حباً بحب ، بالرغم من تعنت والدته وكبريائها . وفيما نحن نتحدث اذا بشقيقي توفيق يصل ، ويرغم أمي على ان تطلعه على ما ستفعله . وما ان سمعها تتحدث عن بيع حصتها حتى قفز كالملسوع ، وأخذ يرغي ويزبد ، يهدد ويتوعد . طرد العريس بجفاء، فابتعد ميشال حاصباني دون أن يلقي نظرة واحدة على هذه العائلة الغريبة الاطوار . وبعد ذهابه هجم علي توفيق يريد ضربي ، فتدخل الجيران كالعادة وأبعدوه عني . ومن ثم عاد الى والدتي يؤنبها وكأنها طفلة صغيرة يسألها ويعيد السؤال عن البيت وبيعه وعن حصته وعن حصة أشقائه . كانت المسكينة ترتعد من الخوف ولا تجرؤ على الجواب . وقد آلمها ان يفلت ذلك العريس من يدنا بعد كل التضحيات التي كانت تستعد لبذلها ، بعد كل ما عانته من اذلال امه لنا . كانت تنظر الى أخي وفي عينيها عتاب ، كأنها أرادت أن تذكره بأنه سبب كل ما حلّ بنا من مصائب ومخزية . اذ لولا ادمانه على الخمر

لما عرفت طريق الخمارة، ولو لم اسر على تلك الطريق لما تمكن صاحبها من الاعتداء علي وأنا في السابعة من عمري . ارادت ان تذكره بمأساتي ، غير انه لم يذكر ولم يتذكر سوى حصة أمه من منزل أبيـــه . ولم يخطر ببـاله الاهتمام بمستقبل شقيقته الصغرى التي جنى عليها فجوره وتهوره .

وقفت عند الباب مذهولة أتساءل : مـا معنى الشرف عند هؤلاء الناس ، لم يهتم واحد منهم في مساعدتي على العيش الشريف . لم يهتم واحد منهم في الحفاظ على سمعة عائلته . رافقت اشقائي الى آخر الدنيا ، فتركوني وذهبوا كل الى بلد ، ولم يكلفوا انفسهم عناء السؤال عني . والدتي اذاقتني المر الى أن كبرت وأصبح بمقدوري أن أدافع عن نفسي. ارادني ابن عمي جورج أن أكون خادمة في منزله، ولما تضايقت الخادمة الزوجة من وجودنا في منزل ابن عمي ليان طردنا من ذلك المنزل دون أن يتذكر اننا نحمل اسم عائلته . والآن عندما تسنى لي أن انستر في كنف رجل رضي بي على تشويهي، انقض عليه أخي ليقتنص حصة امه من ارث أبيه، دون ان يعي انه حرمني مما هو اعز وأثمن من أي ارث .

وعدت الى التساؤل : ما معنى الشرف اذن ؟ انهم لا يعيرونه اي اهتمام عندما لا يتفق ومصالحهم فلماذا اتمسك به انـا ؟.. لماذا اتمسك به على انقاض حيـاة كريمة ؟ وصممت على ان اتخلص من الشرف ، وان انسى ما هو مفهوم الشرف لدى هؤلاء الناس ! وقررت الغدر .

هل افرّ الى منزل شقيقتي نظلة في الجبل اللبناني ..؟ ستسرّ بـي نظلة ، مـا في ذلك شك، وستستقبلني على الرحب والسعة. وقد تطيب لي الحياة مع القرويين الطيبين من اقرباء زوجها . وقد يتيسر لي كالمرة الاولى شاب تروق له فـكرة الاقتران بي ؛ لا سيا وانهم يجهلون مصيبتي !

ولكن والدتي !. ان اول مكان ستتبادر الى ذهنها فكرة زيارته عندما تفتقدني هو منزل شقيقتي ، وعندمـا تجدني ستعود بي الى الشام ، ومن ثم الى الاقـاويل

والعذاب والحرمان! ما العمل اذن؟ لمعت في خاطري فكرة السفر الى بلاد بعيدة، لن يتمكن احد من اللحاق بي اليها ، ولن يهتدي احد على مقري فيها . لماذا لا أذهب الى أميركا ، وانا أعرف طريقها واحسن لغتها، (اللغة الاسبانية) ارتحت الى هذه الفكرة ، وكأني وجدت طريقة التخلص بها من حيرتي وقلقي ! ولكن من أين لي ان أؤمن نفقات السفر ، ومن أين لي ما أسد به رمقي الى ان أصل الى تلك البلاد ، ويفتحها الله في وجهي !... علي بالشك !. سأغافل والدتي واستولي على شيك الخمسين ليرة ذهبا ، الذي ارسله أخي كمال ، والذي تحتفظ به والدتي للايام السود . وهل اسود من هذه الايام ؟ سآخذ الشيك ، وانفقه الى أن أصل الى هناك، وابدأ بالعمل في الاشغال اليدوية التي اتقنها . وما ان يتجمع لدي مبلغ من المال حتى ارسله لوالدتي عوضاً عن الشيك .

كانت أمي تضع ذلك الشيك تحت وسادتها اثناء الليل ، وما ان تنهض من فراشها حتى تخبئه في عبها . ترقبتها طيلة اسبوع الى ان جاء يوم السبت ، وهو اليوم الذي كانت تخصصه لغسيل الثياب وتنظيف المنزل . كانت تستيقظ في الصباح الباكر لتدخل من توها الى المطبخ . وما أن ذهبت لتعد الماء الساخن كعادتها ، حتى تسللت الى فراشها ، أخذت الشيك من الكيس ، وأخفيته في صدري . وبسرعة البرق عدت الى مكاني أتظاهر بالرقاد . فعادت لتأخذ الكيس ولكنها لم تفتحه ولم تتفقد ما فيه . عندها عاد الى قلبي قليل من الاطمئنان ، فنهضت من فراشي بخفة الطير لارتدي الحبرة والمنديل واسرع الى المحطة !

كان لدي ستة ريالات مجيدي أخفيتها عن والدتي، فأخذتها لانفقها الى أن يتسنى لي صرف الشيك . جلست في الدرجة الثالثة انتظر بفارغ الصبر ، ان يتجه بي القطار الى بيروت . كنت ارتعد من الخوف ، ولا أدع الحبرة تميل عن وجهي ، لئلا يعرفني احد فتلحق بي أمي ، وهناك الطامة الكبرى . ومن شدة خوفي لم أجرؤ على شراء ما أقتات به ، فشرعت أغالب الخوف والجوع معاً . كنت مصممة على السفر الى أميركا بالرغم من العذاب والتشرد اللذين كنت أتوقعهما . لم أكن

أتهيّب المغامرة بقدر ما كنت أتهيب العودة الى الشام ، واحتمال الاقاويل والشماتة وابتسامات الرثاء والسخرية . كانت محـــاولة يائس لم يبق لديه كبير أمل في حياة عزيزة كريمة. ويظهر انني لم أكن قد دفعت للقدر الجزية الكاملة التي فرضها علي منذ صغري ، فاعترض طريقي مرة أخرى .

كنت انظر الى السهول التي يجتازهـــا القطار بعين أدماها الوداع . وزاد على حزني وخوفي صورة أمي التي كنت أتخيلهـــا الآن وقد أفتقدتني وافتقدت الشيك معي . كنت في مخيلتي اجسّم يأسهـــا وانكسارها عندما ستجد نفسها وحيدة ، ولم يعد بقربها انسان يحنو عليها . وقد فقدت حتى ذلك المبلغ المتواضع الضئيل ، الذي كانت تدخره لايام اتعس من تلك التي قاسيناها معاً .

وما ان وصل القطار الى رياق ، حتى جلست بقربي سيدة قادمة من حلب ، اذ كان قطارا حلب والشام يلتقيان في رياق ، فينتقل الركاب من قطار لآخر مـــا عدا الذاهبين الى بيروت . جلست تلك السيدة بقربي ، وأخذت تنظر إلي بامعان، وتتفحصني بتدقيق . كانت نبيهة ، لم يخف عليها صباي ولا جمالي . عادت تحدق بي بفضول وسمعتها تسألني هل أنت وحدك في هذا القطار ؟

ــ نعم .

ــ وكيف تسافرين بمفردك ؟ ولم لا يرافقك احد اقربائك ؟

ــ قسمة ونصيب !

فزادت فضولها اجوبتي المقتضبة التي كانت تخرج من فمي كالحشرجة ، كما تضايقت انا من اسئلتها التي جعلتني أشعر بتعاستي ووحدتي . عدت بفكري الى غرفتنا الصغيرة، واخذ ندم مرّ يحزّ في نفسي. ندمت على فراري على هذه الصورة وخشيت على حياة أمي، اذ كانت منذ مدة عرضة لنوبات قلبية تنتابها كلما حدث لها ما يثير أعصابها . انهـــا ولا شك قد وقعت مغشياً عليها بعد أن تأكدت من

مغادرتي البيت حاملة الشيك معي . ولكن مـــا العمل الآن ؟ وتبللت الحبرة من دموعي ، دموع الندم والاسى والحيرة .

عاد صوت السيدة التي كانت ما تزال ترقبني بفضول وتساؤل ، عـــاد صوتها ينتزعني من هواجسي . أخذت تلاطفني وتتودد الي وانا انفر منها وابتعد عنها ما أمكن . لم ارتح لهـــا في بادىء الامر لأنني استغربت لطفها وتوددها لي ، لاسيما وانني لم اكن قد الفت اللطف والود . غير انني لم أقو على صدها ، لانني لم اعتد أن أرفـــع رأسي خشية الاصـــابع الممدودة ، تشير الي دون تعب ولا كلل ولا شفقة .

وكأن رفيقة القطار أدركت ان امعائي كانت بدأت تتآكل من الجوع . وكان معها من الطعام ما تهفو اليه نفس صبية لم تذق لقمة خبز منذ ساعات طوال . فدعتني بقولها : « تفضلي نأكل لقمة سوا » .

ادركت من لكنتها انها اجنبية لا تحسن الكلام بالعربية . غير ان كونها اجنبية لم يمنعني من ان انقضّ على ما كانت تحمل من شهي المأكل . وازدادت مراقبتها لي وأنا التهم الطعام بشراهة ، وكأنها ارتاحت الى انني لقطت الطعم الذي رمته لي ، وتأكدت من انني لن أفلت من شبكتها أبداً . فعادت تحدثني :

« لماذا لا ترفعي المنديل عن وجهك ؟ هل انت مسلمة ؟

ــ كلا ، انني مسيحية من الطائفة الارثوذكسية !

ــ هل تحسنين الكلام باللغة « الرومية » ؟

ــ نعم .

أجبتها باليونانية على عدد من الاسئلة الاخرى ، فبدت على وجهها علامات الارتياح ، وكأنها اكتشفت كنزاً ثميناً لن تدعـــه يفلت من براثنها . كنت على

سذاجتي لا ادرك لتصرفاتها معنى ، وعزوت ضيافتها الى كرم نفسها وطيبة قلبها . ازداد التصاقها بي ولم تعد تفارقني لحظة واحدة . سرعان ما انست اليها ورفعت المنديل عن وجهي . فأخذت تتفحصني وتتأملني ، وتحدق بي ، وتستدرجني الى ان ابوح لها عن سبب بكائي . غير انني ترددت في بادىء الامر، وانخرطت في نوبة جديدة من الشهيق والبكاء . كانت تصر على معرفة من انا ، وهل أنا مسافرة وحدي أم هاربة من منزل اهلي . كما كان يهمها ان تطلع على أسراري ، هل أنا مخطوبة أو «بنت بكر» ، أم متزوجة وهاربة من منزل زوجي؟ وما زالت تتودّد الي وتحتضنني ، وتعيد علي اسئلتها تلك الى ان وصل بنا القطار الى بيروت . وقبل ان نفترق قالت لي : الى أين ستذهبين الآن ؟

ـ الى الجبل ، الى منزل شقيقتي في قرية شيخان .

ـ يا حرام ، انها رحلة بعيدة والليل قد أقبل . لماذا لا تنامين الليلة في منزلي ، وعند الصباح تتابعين رحلتك الى شيخان ؟ »

فازددت تقديراً لطيبتها ، ولم يساورني أدنى شك في صدق ما تقول .

رافقتها الى منزلها وانا امنّي نفسي بليلة ارتاح فيها من تعب السفر . دخلنا ذلك المنزل فالقيت فيه الرياش الفاخر والسجاد العجمي الجميل . ولم الاحظ شيئاً غريباً ، غير اننا ما أقبلنا على صالة الطعام وعلى صالة الجلوس ، حتى شاهدت جمعاً كبيراً من الرجال يحاصرون النساء في نوع من الرقص لم اعتد رؤيته من قبل . وكانوا يتناقلون الكؤوس التي كانت ما ان تمتلىء ، حتى يعودوا فيفرغونها في افواههم النهمة. كانوا في حالة من النشوة جعلتهم لا يشعرون بمن حولهم. فنظرت الى السيدة مستغربة . لم تدر بما تجيب . الا انني لفرط غباوتي قلت لها :

ـ هل هم ضيوفك ؟

فانفكت عقدة لسانها في الحال ، واسرعت تجيبني :

– نعم اننا نحتفل اليوم بأحد أعيادنا . ومن تقاليدنا في مثل هذه المناسبات أن نرقص ونغني ونقيم المآدب ! »

ارتحت لجوابها وانزويت في ركن بعيد ، ارقب المحتفين ، مستغربة طريقتهم في الاحتفاء بأعيادهم . وبعد قليل ، احضرت لي عشاءً دسماً ، فأكلت بشهية واقتادتني من يدي الى غرفة النوم . مـا ان دخلت تلك الغرفة وأجفاني مثقلة بالنعاس ، حتى طار النوم من عيني وجلست أحملق بما حولي . كانت غرفة جميلة انيقة كغرفة العروس تماماً . اقبلت السيدة عـلي ، وانا مازلت جالسة على حافة السرير انظر بدهشة الى ألوان الاغطية . وأفغر فمي أمام قماش الستائر .

ابتسمت صاحبة البيت في سرها ، واقتربت مني تساعدني على انتزاع ملابسي كنت لا اقوى على النظر اليها لخجلي من ثيابي العتيقة ، الا ان كونها نظيفة ادخل بعض العزاء الى نفسي . قضيت الليل في ذلك المنزل ، وانا مرتاحة البال الى انني في منزل صديقة كريمة ، أشفقت على غربتي وتأثرت لوحدتي . ولم أدر ما كنت تبيته لي تلك الصديقة .

وعندما أقبل الصباح ، دخلت الى الغرفة تحييني ببسمة مشرقة ، واقـتربت مني تداعبني وتسأ ني هل كان : ، هنيئاً . جلست بقربي تحدثني بلطف ووداعة وأخذت تزين لي البقاء معها وا عيش في كنفها . أظهرت لي من العطف ما كنت أشتاقه و ث عنه،وما لم تظهره لي والدتي قط.ووعدتني بأن تكون لي أماً ثانية، بل أماً حقيقية ترعاني وتحنو علي. تزّين جمالي بأحلى الثياب، وتغذي شبابي بأطيب المأكولات وألذها . وزادت على ذلك انها ستكون لي الرفيقـة الامينة التي لن تخدش مشاعري بكلمة ، بل ستقبل علي تهدهدني ، علني أنسى ما مررت به من تعاسة وشقاء .

كانت كلماتها تنساب في اذني كاللحن الناعم الحنون ، يدغدغ سمعي ويريـح نفسي القلقة . وكأنها علمت بما كنت أعانيه من ألم ، فوضعت بلباقة مدهشة يدها

على الجرح وأخذت تداويه برفق ومهارة : الاكل الطيب ، الثياب الجميلة ، العطف والرعاية ، الكلمة الحلوة والرفيقة الامينة . كل هذه الاحلام التي كانت تراودني وتبدو لي بعيدة المنال ، ستتحقق اذن على يد هذه السيدة الطيبة . ولم لا اقبل ؟ انها فرصة العمر . من يدريني اذا كانت الايام ستتيح لي مثل هذه الفرصة الذهبية مرة أخرى ؟ وتسللت فكرة البقاء معها الى نفسي بتؤدة ، وعندما رأتني أضعف أمام وعودها ، دعتني الى ارتداء ثيابي ومرافقتها الى السوق لأشاهد بأم عيني انها صادقة فيما تقول .

ذهبنا الى السوق ، فأدخلتني محلاً لبيع البياضات واشترت لي منها ما لا تحلم به أغنى الفتيات . ومنه انتقلنا الى محل لبيع الألبسة فانتقت لي منها احلاها وأغلاها . ومن محل لآخر حتى بات لدي جهاز كامل سأبدو فيه جميلة أنيقة ، واهجر هذه الثياب العتيقة الى الابد . أخذت أقفز عن الارض من فرحي ، وعادت سذاجتي تصور لي ان تلك السيدة غنية ولم يرزقها الله بولد ، وقد أحبتني وستعاملني كما لو كنت ابنتها .

عدنا الى المنزل في عربة خيل فاخرة ، عدنا نحمل الثياب الثمينة ، وكنت أنظر الى من حولي ، وكأني أسألهم ان يباركوا لي بهذه الام السخية . وما ان دخلت الى الغرفة حتى أسرعت الى المرآة أتأمل نفسي جيداً . راقني ما بدا من جمالي، فأرخيت شعري وكان طويلا تتخلله تجعدات تزيد في رونقه . وأخذت أرتدي الاثواب العديدة الحلوة ، أرتديها وأتحسس نفسي لاتأكد من أنها حلاوة الواقع وليست حلاوة حلم لن يلبث ان يمضي . أردت ان استبق الزمن وأبدو كالسيدات الكبيرات فرفعت شعري وفي نيتي ان أصنع منه « شنيون » كما كانت تفعل انيقات تلك الايام . لم أتمكن من صنع « الشنيون » ، فشبكت شعري كيفما اتفق ، وأعدت النظر الى المرآة . استرعت انتباهي على المنضدة أمامي مساحيق الزينة المتعددة الالوان . فاسرعت اتلقفها ، ووضعت منها على شفتي ما فيه النصيب . « فلغمطت » حالي لجهلي الطريقة المتبعة في مثل هذه العمليات الدقيقة .

وعاد الى ذهني ما كانت تفعله زوجة اخي في مثل هـــذه الحالات ، وحاولت تقليدها . ذوبت البودرة في الماء وطليت وجهي بهـــا ، ولم أتردد في « شحبرة » عيني بالكحل فبدتا كالمدخنة تماماً . لم أعد أعرف نفسي في المرآة ، اذ اصبـــح وجهي كالاقنعة التي يلبسونها في الحفلات التنكرية . غير انني ارتحت الى منظري الغريب هذا ، اعتقاداً مني ان هذا هو التبرج وهذه هي الاناقة . ولكي يبـــدو مشروع الاناقة كامـــلا ، ارتديت « الروب دي شامبر » ، وخرجت أتخطى في صالة الاستقبال . كنت اعتقد ان جميع ضيوف البيت سيعجبون بي ويقبلون على تهنئتي . غير انني مـــا ان خطوت الخطوة الاولى حتى ضجّ الجميع بالضحك . نظرت اليهم بدهشة فأخذ ضحكهم يزيد ويتعالى . وعندها ادركت انهم يضحكون لمنظري . فارتبكت وانسكبت الدموع من عيني فابتلت المساحيق وسال الكحل الاسود وامتزج بالبودرة البيضاء ، والبودرة البيضاء اختلطت كذلـــك بالاحمر . انســـدل شعري على كتفي ، وهرولت عائدة الى غرفتي وأنا أتعثر « بالروب » المفتوح ، وكدت أقع على الارض اكثر من مرة .

كثيراً ما تعود الى ذهني هـــذه الحادثة ، لأنها كانت نقطة انطلاق الشباب في حياتي . ومع الايام تأكدت من انني لست الانثى الوحيدة التي مرت في مثل هذه التجربة . اذ يحلو لكل انثى في مثل هذه السن ان تتعجل الزمن ، وأن تبدو ناضجة كاملة الانوثة . كما يحلو لها ابراز معالم هذه الانوثة : من صدر نافر وخصر نحيل الى شعر طويل وعينين داعجتين . وبكلمة يحلو لها ان تبرز ما حاولت ابرازه في تلك العشية التي لا انساها .

بعدما هرولت هاربة من سخرية من كنت اعتقدهم ضيوف « المـــدام » ، تبعتني هي الى غرفتي وأخذت تؤنبني آناً وتطيّب خاطري آناً آخر . ومما قالته لي وبقي راسخاً في ذاكرتي :

انك جميلة ولست بحاجة الى هذه المساحيق الشنيعة . اقلعي عن استعمالها ، لا سيما وان الله قد اعطاك اللون الجميل والبشرة الناعمة .

واقتادتني أمام المرآة وتابعت :

« انظري الى وجهك ، أرأيت كيف تبدين مشوّهة بعد أن أخفيت وجهك تحت هـذه المساحيق ؟ نصيحة يا صغيرتي ، لا تستعملي المساحيق أبـداً وستذكرينني بالخير » .

انها النصيحة الوحيدة التي اتبعتها من بين نصائحها العديدة . واذكرها بالخير الآن ، لانني بالرغم من السنين ومن ثقلها ، ما زلت احتفظ بنضارة قل أن تتمتع بها سيدة في مثل سني. وبالرغم من الهالة البيضاء التي تحيط بوجهي ، ما زال عليه مسحة من جمال تدهش جميع من يرونني، لانهم اعتادوا ان يروا سيدةالستين عجوزاً شمطـاء محدودبة الظهر . والمرأة التي تكثر من استعمال المساحيق لا تتمكن من الاحتفاظ حتى ببقايا جمالها. بل نراها عندما تتقدم بها السنون، تحاول اخفاء مرورها بمساحيق أخرى ، فتضيف بشاعة الى بشاعة .

كانت النصيحة الوحيدة التي اتبعتها ، ولكنها لم تكن النصيحة الوحيدة التي أسرت لي بها المدام . ولم تشأ العناية الالهية ان تقضي على مستقبلي ، وتستدرجني الى طريقها المظلم ، فتنبهت الى مكرها في ثاني ليلة قضيتها عندها . ما ان اقبل المساء حتى دخلت الى غرفتي تقول لي بلطف :

ـ هيا ارتدي أجمل فساتينك واتبعيني الى غرفة الطعام !

ـ انني افضل البقاء في غرفتي ، لانني لا أعرف من عندك من الضيوف .

ـ ستتعرفين بهم ونقضي سهرة ممتعة في الرقص والغناء .

فتمنعت ، وتذرعت بما اسعفني به ذهني من اعذار . غير انها اصرّت على قولها ، وارادت ان تدفعني بالقوة لتقدمني الى ضيوفها . عندها تأكدت لي نيتها السوداء ، وعرفت اي نوع من الضيوف يطرق باب منزلها ، وأي نوع من النساء يأوي الى ذلك المنزل . فعزمت على ان اسلم بجلدي من البؤرة التي رمتني بهـا سذاجتي ولكن ما العمل الآن والدنيا ليل ، ومن العسير أن أترك البيت دون أن تنتبه الي ، وتتبعني هي وكل من فيه فلجأت الى الحيلة . ارتديت ثيابي ورافقتها

الى قاعة الطعام . كنت اسير وكأنني في جنازة . عقدت ما بين حاجبي ، وأخذت أتفرس بمن حولي كاللبوة ، والويل لمن تسوّل له نفسه الدنو مني .

تضايقت « المدام » من وجهي العبوس وطلبت الي أن أمرح وأضحك كسائر الضيوف ، أو كسائر الضيفات على الاصح . فأجبتها بجفاء :

ـ انني لا أحسن الضحك ولا المرح ، ولا احب أن أختلط بأحد ! »

قبعت في زاويتي اتفرس بهم يعاقرون الخمرة ، بل يعبونها كالحيتان الظمأى ويرقصون كالملسوعين . صعب علي وجودي في منزل كهذا ، وبدا لي بيتي التعيس الفقير أشبه بالواحة الظليلة المطمئنة. فانخرطت في بكاء مرير... ما أن طرق آذانهم نشيجي حتى توقفوا عن الرقص واقبلوا علي يلاطفونني ويطيبون خاطري ، غير انني لم اعد اطمئن لأحدهم ... ازدادت الدموع وتتابع الشهيق ... وعندما يئسوا من استرضائي عهدوا بي الى احدى « البنات » من اللواتي كن يعملن لحساب « المدام » .

وكانت تلك البائسة تسوق حياتها السوداء مكرهة ، وتتمنى لو تسعفها السماء فتخرج الى حياة كريمة ؛ تأكل فيها خبزها بعرق جبينها لا بهدر كرامتها . اقتربت مني وفي عينيها ذل من سقط ، ولا يدري اذا كان سيقدّر له ان يعود الى دنيا الناس من جديد ... وكأنها أشفقت علي من أن اقاسي ما قاسته هي ، وكأن العناية الالهية اكتفت بما لحقني من ذل وعار ؛ بعد المصيبة التي حلت بي وانا ما زلت طفلة .

رقت تلك المرأة لحالي ... أخذت تحدثني بلطف الى ان ارتحت الى الطيبة المطلة من عينيها والتي لم تقوَ على تشويهها كثرة المساحيق . فدعتني الى احدى الغرف وجلست بجانبي تطيّب خاطري وتسري عني ... أهملت الجميع واهتمت بي . وبعد قليل احضرت عشاء دسماً ، ودعتني الى مشاركتها في طعامها ... استدرجتني بلباقة الى ان أروي لها قصة مجيئي الى « البيت » وكيف اطبقت علي « المدام » فوثقت بها بعد ما لمسته من رقتها واهتمامها بي . ورويت لها الشيء الكثير عن حياتي، الى ان وصل بي الحديث الى كيفية فراري من الشام وقدومي الى بيروت برفقة « المدام » ، بعد ان التقيتها في القطار . وأعدت على مسمع رفيقتي وعودها وما أغدقته علي من معسول الكلام ... فابتسمت ابتسامة حزينة ولوت عنقها تفكر في مصيرها ومصيري . وبعد قليل رفعت رأسها وحدجتني بعينين حزينتين وقالت :

هل تحسنين الغناء ، وهل صوتك جميل ؟

ــ سبق لي ان سافرت الى الارجنتين برفقة عائلتي ، وتسنى لي هناك ان أذهب الى المدرسة . علمتني الراهبات اشياء كثيرة منها الغناء والرقص الايقاعي . وكانت أدوار البطولة في التمثيليات تعود دائماً اليّ .

ــ سأعمل جهدي لاخلصك من هذا البيت الموبوء ومن شر صاحبته ، ولو تعرضت لغضبها ، لانها ستقتص مني ما في ذلك ريب . ولكن ليس بوسعي امدادك بشيء من المال تنفقينه الى ان تكوني قد تدبرت أمرك . وهذا ما يزعجني ويقلق بالي عليك .

ـ ما عليك ، حملت من الشام شيكاً بخمسين ليرة ذهب، كان أخي قد ارسلها لنا من اميركا ... وقد شجعتني طيبتــك على البوح بهذا السر الذي أخفيته عن الجميع . ولكن أرجوك أن تنقذيني من هذه المرأة لقد بت أخشاها ...

ـ اطمئني . سأسعى لانقاذك مما نحن فيه حتى لو تحملت من هذه الملعونة فوق ما نقاسيه في عملنا التعيس معها. غداً صباحاً نحتال عليها للخروج ونذهب معاً الى البنك . وبعدها أدعك في رعاية الله . »

كنا على سذاجتنا نعتقد ان بامكاني صرف الشيك ، ولم ندرك انــه يستحيل علي ذلك لان الشيك كان باسم والدتي . وما أن غادرت رفيقتي الغرفة وأصبحت وحدي ، حتى عادت الهواجس تنتابني ، وتجسم لي الاخطــار التي ستعترضني فبت أتساءل بقلق: هل تتمكن من مساعدتي على الفرار من هذا المنزل ؟.. وهب انها فعلت وانقذتني من قبضة هذه المرأة الشريرة ، فالى اين اسير والى من ألجأ ؟ يا رب سترك ... كفاني فقراً وتشرداً ! هل أذهب الى شقيقتي في شيخان ، حيث الخبز المرقوق والعنب والتين والخضرة والفيء والشباب السمر ، أم أتابع سفري الى الارجنتين البعيدة فأعود الى حي المهــاجرين الفقراء ابيع « بالكشة » ـ كما فعلت والدتي من قبل ـ او اتعاطى « شغل الابرة » ؟ أم تراني ارجع من توي الى والدتي المسكينة ، التي ربما تكون قــد ساءت صحتها بعد هذه الصدمة ؟ ماذا حل بها يا ترى ؟... قد تكون عاودتها النوبات القلبية ... رباه ما هذه الحياة؟.. وتسلل النعاس برفق الى عيني .

ما أن أقبل الصباح حتى دخلت علي «المدام» تهدد وتزمجر، وانبتني بعنف على سوء تصرفي، وعلى ما بدر مني في الليل. أغلظت لي القول ولم يكن كلامها يخلو من التهديد . فشعرت انها بدأت تعاملني كسواي من المسكينات اللواتي كانت تتجر بهن . وايقنت من انني لن أقوى على مغادرة ذلك البيت الا اذا لجأت الى الحيلة فتمسكنت أمامها ، واعتذرت لها عن خطأي وسوء تصرفي ، ووعدتها بأنني لن

أعود الى البكاء ثانية ، بل سأقبل على ضيوفها بكل لطف وبشاشة . وفيما كنت أعتذر لها بذل ومسكنة ، دخلت علينا رفيقة الامس وقالت لي :

ـ هيا انهضي . ان الطقس جميل اليوم، سنذهب الى شاطىء البحر ، وسأقدم لك ما تشتهينه ... سنتناول الشاي ، او اذا شئت سنأكل صحن حمص أو فول . لك ما تشائين !

ـ فاعترضتها « المدام » مولولة :

ـ كلا كلا ، لا لزوم للخروج . سأحضر لكما ما تريدان . فقد يقع نظر أحد أقربائها عليها ويأخذها عنوة الى الشام ..

فقلت لها مطمئنة :

ـ لا تخشي شيئاً . ليس لي أقرباء في بيروت . وأنا واثقة من انني لن التقي معارفنا في هذه المدينة .

أسرعنا في ارتداء ملابسنا ، وخرجنا من البيت . وما ان شاهدتنا نسير مسرعتين حتى نادتنا من الشرفة تدعونا الى العودة :

ـ الافضل ان لا تبتعدا عن البيت لانني خائفة الا تعود بديعة الينا .

وكان نداؤها هذا كافياً لأن يجعلني احث الخطى ، بل أقفز قفزاً علني ابتعد بسرعة عن ذلك البيت وعن كل ما كان يجري تحت سقفه .

كنت أسير متأبطة ذراع رفيقتي ، وقلبي يخفق بشدة عندما أختلس النظر الى الشارع ، خوفاً من أن تلحق بنا تلك المرأة، وتعيدنا الى منزلها وكانت كل خطوة تبعدني عنها ، تدنيني من الفرج والحرية . فرج وحرية يرافقها فقر، أفضل بكثير من الاثواب الجميلة التي ارتديتها ، لأصبح سلعة مغرية تتجر بي ، وتقودني الى الشقاء والوحل .

وفي طريقنـــا الى البنك ، طلبت مني رفيقتي ان أعطيها الشيك لترى الى اي البنوك علينا ان نذهب . دخلنا البنك ، وسلمت الشيك لأحد الموظفين ، وسألته عن الطريقة التي يجب أن أتبعها لاحصل على قيمته . نظر الموظف الي يتفحصني باستغراب ، ودعانا الى أن نتبعه . تبعناه الى الداخل ، وما أن وصل الشيك الى يد الموظف الثاني ، حتى بدا عليه الاهتمام وقال لنا : « يجب ان ننتظر المدير ! »

جلسنا ننتظر قدوم المدير. فتجمهر حولنا الموظفون يضحكون معي ويمازحون رفيقتي. جاؤونا بالقهوة واخذوا يستمهلونني ويطيبون خاطري الى أن يأتي «المدير» وإذا بي أسمع صوت أمي تولول قائلة :

ــ أين ابنتي ، أين أنت يا بديعة ؟ »

ارتمت علي لا تدري أتقبلني أم تبكي . أخذت تخلط القبل بالدموع . لم تقو رفيقتي على احتمال ذلك المشهد، فتبلل خداها، وانصرفت دون أن يدري بها أحد، وكان آخر عهدي بها !

صرفت والدتي الشيك ، وشكرت الموظفين عـــلى تصرفهم معي ، وغادرنا البنك معاً . عندما خرجنا الى الطريق ، نظرت اليها استوضحها عن كيفية مجيئها الى بيروت في هذا الوقت بالذات . فتنهدت طويلاً ، وقالت لي بصوت تعب :

ــ عندما عدت من المطبخ في ذلك الصباح ولم اجدك في فراشك ، اعتقدت أنك ذهبت الى فريدة زوجة أخيك توفيق ، او الى خالتك تتبينـــا ، هكذا لم يساورني أدنى شك ، ولم تراودني فكرة فرارك من الشام. فأنهيت عملي لاطمئناني الى انك ما زلت بجانبي . وبعد أن فرغت من ترتيب المنزل ، قصدت بيت توفيق فلم أجدك ، وتابعت سيري الى منزل شقيقتي تتبينا . لم يكن احد قد رآك أو سمع عنك شيئاً . طرقت ابواب جميع المنازل التي كنت أتوقع أن أجدك فيهـــا دون جدوى. عندما يئست من العثور عليك؛ عدت الى غرفتنا اتفقد الشيك، فأدركت انك ربما فررت من الشام الى بيروت . سألت بعض معارفنا اذا كان بامكانك

أن تقبضي الشيك وقد حرره أخوك كمال باسمي . فنفوا لي ذلك ، وقصدت من توي الى بيروت . اسرعت الى البنك اروي للمسؤولين قصة اختفـاء الشيك ، ورجوتهم ان يتصلوا بي عنـد مجيئك اليهم ، بعد أن تركت عنواني للمدير . فوعدوني خيراً ، ولبثت انتظر الى ان جـاءني اليوم من لدنهم من ينبئني انك هنا في البنك .

وهكذا اصطادتني امي ببساطة لم تخطر ببالي . لكنها على كل حال اصطادتني من براثن امرأة كانت ستضيف الى شقائي شقاء ، وذلاً على الذل الذي كنت قد تركت بلدي وأمي هرباً من شبحه المخيف .

توقفت والدتي لتلتقط انفاسها ، فسألتها :

« ما العمل اذن ؟

ــ نعود الى بيتنا في الشام .

ــ كلا لن اعود إلى الشام ! لم تقتنعي بعد انه يستحيل علي العيش في الشام . لم الاق فيها سوى الذل والعذاب . وليس لي فيها سوى ذكريات تؤلمني واود لو اتحرر منها . فكيف تريدينني أن اعود اليها الآن بعد فراري منها ، وانقطاعي عن منزلي عدة ليال ؟ كيف ابرر تصرفي للناس الذين لا بد واطلعتيهم كعادتك على قصة فراري واختفاء الشيك؟ أتريدينني أن اعود الى ابنك توفيق وهو سبب شقائي . لم يكتف بمصيبتي الاولى فحـال دون زواجي وستري ليحتفظ لنفسه بحصتك في البيت ؟ كلا لن اعود الى الشام . بل سأذهب الى بلاد لا يعرفنا فيها احد ،فنختط لنفسنا حياة جديدة بعيدة عـن التعيير والتشهير سأذهب الآن الى شقيقتي في شيخان . وسأنتظرك في منزلها الى أن تعودي من الشام . وبعدها نقرر السفر الى بلد نستقر فيه ، فنقصد اميركا مثلاً أو مصر اذا شئت . »

فأطرقت قليلاً وقالت :

انني أكره الغربة لأنها اذاقتني عذاباً مراً وحرمتني من ابنائي . وأفضل السفر الى مصر حيث يتكلم الجميع اللغة العربية . ومـــا زال خالي مقيماً فيهـــا وهو على جانب من الثراء ، ولا ريب في أنه سينتشلنا مما نحن فيه لأنه طيب وحنون .

فأبتسمت في سري ، وقلت لنفسي :

عال ، لقد اقتنعت بالسفر الى مصر . وما أن أصل الى هناك حتى ابدأ بممارسة الرقص والغناء . ولن أعدم وسيلة للتخلص منها بعدئذ ، فأقيم وحدي في مصر بعد أن أكون قد تحررت من قيودها ومن حياتها المملة الحزينة . ومن يدري ..؟

قصدنا شيخان قرية نظلة ، فرحبت بنا شقيقتي أجمـــل ترحيب . وبعد ذهاب امي الى الشام ، وبعد التجربة القاسية التي مررت بها في منزل « المدام » ، طابت لي سكينة القرية ، وارتحت لهدوئها . وكانت نظلة تتساءل بقلق عـــن مصيري وتدرك أن والدتي لا تحسن التصرف معي . وفي احدى الامسيات ، جلست بقربي تستدرجني الى الحديث ، وكان قـــد أثار فضولها التغير الذي طرأ علي ، وبـــدا واضحاً في جميع تصرفاتي . فسألتني عن سبب فراري من الشام . رويت لها ما حصل لي منذ أن غادرت غرفتنا الى أن التقيت والدتي في البنك . ولكنني اخفيت عنها عزمي على امتهان الرقص لخوفي من اعتراضها وعدم موافقتها . فقلت لها :

« سنذهب الى اميركا حيث يمكنني أن أتعاطى « أشغال الابرة » ، وأن انفق على نفسي وعلى امي الى أن يقدر لي أن اتزوج من أحد المغتربين العرب . »

حاول زوجها اقناعي بالاقامة معهم في شيخان ، وعللني بامل الزواج من أحلى شاب في القرية . غير انني تذكرت ما حدث عندما طلب يدي أحد شبان شيخان ، فاعترضت والدتي ولم توافـــق على مصاهرة « الفلاحين » لم تقنعني وعود زوج نظلة اذ لم يعد للزواج في عيني ذلك البريق الذي تجهم بعـــد تصرفات والدتي ، وبعـــد ثورة اخي على ميشال حاصباني آخر عنقود العرسان . عقدت النية على

دخول الحياة الفنية واقتحام مجالاتها الصعبة . صممت في سري على السفر الى مصر لأنني كنت واثقة من استطاعتي الرقص والغناء. وكنت اسمع أن مصر موطن الفن في الشرق وان فيها مغنيات مشهورات ... كما كان قد اتيح لي أن أرى واسمع الشيخ سلامة حجازي .

لم أشاهد الشيخ سلامة حجازي لأول مرة في مصر ، بل شاهدته وأنا ما زلت في الشام . جاء مع جوقته وغنى في مكان يدعى « جنينة الافندي » ، حيث كانوا قد اقاموا له مسرحاً كبيراً يليق به وبشهرته . لم يتسنّ لي بالطبع دخول ذلك المكان ، بل كنا شلة من الرفيقات نجتمع عند مجيء الشيخ سلامة ، ونصعد الى شرفة مطلة على « جنينة الافندي » فنشاهد التمثيليات ونسمع الغناء.

كان لغناء الشيخ سلامة أثر كبير في نفسي . فعلقت في ذهني كل اغانيه وكنت ارددها في وحدتي . ولم اقتصر على سماعه بل ابتعت رواية روميو وجولييت ، وكراساً صغيراً للطقاطيق الخفيفة ، اذ لم يكن هناك بعد ما يدعى بالمونولوجات . كان هناك التمثيل الذي يرافقه الغناء على طريقة الشيخ سلامة ، أو غناء الادوار الطويلة ومواويل ياليل يا عين . وكان الجمهور يبدي استحسانه بزفرات عميقة أو برمي الطرابيش على المسرح .

عادت والدتي من الشام لتروي لي الجديد من مآثر اخي توفيق . فلولا تدخل زوجته لما أعطى امه غرفة تضع فيها ما كان لدينا من متاع متواضع ، وذلك في منزلها الذي كان قد احتله بالقوة . ولأول مرة في حياتها ، أودعت معي كل ما كان لديها من نقود ، وطلبت الي أن اتصرّف حسب مشيئتي شرط ألا نذهب الى اميركا .

عادت شقيقتي وزوجها الى محاولة اقناعنا بالبقاء معها في قريتها الوديعة ، وذلك دون جدوى اذ كانت والدتي لا تريدني أن اقترن « بفلاح » . وكنت من جهتي أتوق الى الحياة الفنية بعد فشل مشاريع زواجي . وعندما يئسا من عنادنا واصرارنا على السفر ، كفا عن الجدال وتمنيا لنا التوفيق .

مـا ان اقبل الصباح حتى نهضنا باكراً بنشاط عجيـب ، وغادرنا شيخان مزودتين بدعوات شقيقتي وحسرتها وتمنياتها . وكان علينا أن نتدبر أمر معيشتنا في بيروت بمنتهى الحكمة والتقتير كي لا نعود الى طرق الابواب واستجداء رغيف وفراش ، كما سبق لنا وفعلنا مراراً . ذهبنا من تونا الى المرفأ وسألنا عن فندق « رخيص وكويس وابن ناس » وبتنا ليلتنا تلك في الفندق الرخيص على شاطىء البحر . وعندما صحونا من نومنا على هدير الامواج القريبة ، أخذنا نتناقش في طريقة سفرنا الى مصر .

هل يمكن لأحد أن يصدق ، مهما بلغت به السذاجة وحسن النية ، أنها كانت تريد الذهاب الى مصر سيرا على الأقدام ؟ عندما سمعت والدتي تقول وتعيد عن امكانية المسير ، ارتعدت خوفاً مـن أن نعود الى التشرد والجوع ، وربمـا الى السجن !

كانت في اصرارها على أن نذهب الى مصر سيراً على الأقدام ، تخشى على ما كان معنا من نقود ، وكانت تجهل متى سيتسنى لنا أن نعمل ونعوّض ما سننفقه في رحلتنا الجديدة . تذكرت رحلاتنا السابقة ، وكيف قطعنا المسافات البعيدة دون أن نلجأ الى محفظتنا الفارغـة . واعتقدت ، على جهلها ، أن الذهاب الى مصر كالذهاب الى طرابلس مثلا ، أو كالمجيء من الشام الى بيروت . نمشي اثناء النهار ، ولا نعدم منزلا وخياماً نقضي فيه ساعات الليل . أما أنا فكنت لا أزال اذكر الخمسة والخمسين كيلومترا التي تفسخت من بعدها قدمي وانهكني التعب. كلما كنت اذكر ذل السؤال والاشباح المخيفة التي كانت ، ما ان يقبل المساء ، حتى تتراءى لي فأرتعد من الخوف . فأكدت لها أنني لن اخطو خطوة واحدة ، فمصر بعيدة ، ولست على استعداد لأن استجدي قوتي وقوتها من بيوت المحسنين . وقد لا يتسنى لنا محسنون ، فالى من نلجأ ... انني افضل أن نذهب ولو على « ظهر البابور » ، من أن نقاسي مشقة سفر جديد سيراً على الأقدام . وعندما عاندت وكابرت قلت لها :

« اني سأخبر السلطات اذن أنك ترغميني على السير لتحتفظي بدراهمك ! »

طار صوابها وهجمت علي رافعة يدها تهم بضربي ، فصرخت بوجهها :

« زمان الاول تحول . لن تقوي على ضربي فيما بعد ، ألم ابرهن لك في الشام انني لم أعد طفلة صغيرة تخشى صفعاتك ؟ لقد أصبحت صبية الآن ، وصبية قوية . لا تضيّعي الوقت ، هيا بنا نسأل عن باخرة تقلنا الى مصر ، علّ الله يفتحها بوجهنا هذه المرة .

اقتنعت والدتي مرغمة ، ورافقتني الى الباخرة . وقبل أن نبحر كنت قد استعدت ما قاسيناه على الباخرة التي سبق واقلتنا من بيروت الى الارجنتين . وتذكرت كيف كانوا يرسلونني الى البحارة ، لآتيهم ببعض ما يحتاجونه في وجباتهم التي لم تكن تغني من جوع . عزّ علي ان نعود مرة أخرى الى ذل السؤال ، فهيأت « زوادة » عامرة تغنينا عن البحارة وعن المسافرين .

وصلنا الى ميناء الاسكندرية وأنا لا أصدق عيني ... انها مصر موطن الفن وبلاد الشيخ سلامة . لم نكن نعرف أحداً في تلك المدينة الكبيرة . التقينا ابن حلال ارشدنا الى فندق متواضع ، كان يلجأ اليه أمثالنا من ذوي المحافظ الهزيلة . مكثنا في ذلك الفندق عشرة ايام ، وقد استطبنا الاقامة فيه لحاجتنا الى الراحة بعد رحلتنا الشاقة . تناست والدتي همومها ، كانت فرحة بكل ما تشاهده في المدينة الجميلة . وكانت تعبر عن فرحها كالاطفال تماماً ، فتحاول ان تستبدل لهجتها الشامية العتيقة باللهجة المصرية . غير انها اخفقت في حفظ التعابير المصرية ، كما فشلت في تناسي قاموسها الشامي الحافل بالدعاء واللعنات .

وبعد ان شاهدنا كل ما أردنا مشاهدته في الاسكندرية تابعنا سفرنا الى مصر . وهناك أيضاً وجدنا من يرشدنا الى فندق على قد الحال . فركبنا عربة حنطور واعطينا « الاسطى » عنوان الفندق ، وسرنا على بركته تعالى . أخذ الحنطور يدور بنا ويلف ، ويلف ويدور الى ان وصلنا .

بتنا ليلتنا الأولى في ذلك البنسيون ، وفي الصباح الباكر قصدنا الى الأحياء التجارية نسأل عن خال امي ابراهيم النجار . كنا نذهب في الصباح الباكر ولا نعود إلا بعد الغروب ، وذلـــك دون جدوى ، طيلة خمسة عشر يوماً . ضقت ذرعاً بهذا البحث العقيم ، وكنت قد اهتديت الى حديقة الازبكية . فاعجبت بها وبجمال تنسيقها ، وصرت ما ان أشعر بالضيق حتى اسرع الى الحديقة اخفف فيها عن نفسي . كانت تحلو لي مشاهدة المتزحلقين . وفي أحـــد الأيام ، وبينما كنت مستغرقة في التفرس بهم ، اذا بشاب يتقدم مني ، ويدعوني الى مشاركته في اللعب. كان يدعى خميس ، وكان في منتهى اللطف والتهذيب . فتجرأت وقلت له :

« بودي ان أقبل ولكنني اجهل كيف ...

ـ لا بأس ، حاولي . »

ثم أخذني من يدي ، وفغر فاه مستغرباً عندما رآني ، من اول خطوة ، اسير بسهولة وكأني أعتدت هذه الرياضة منذ زمن طويـــل . كنت اتنقل على انغام الموسيقى بخفة ورشاقة ادهشتا رفيقي . وما ان انتهينا من اللعب ، وأزف موعد ذهابي الى البنسيون ، حتى سألني بلهفة :

« الا يمكنك ان تأتي غداً فنتابع التزحلق ؟ »

سررت لاهتمامه بي ، ووعدته بأن اوافيه الى الحديقة في موعد حددناه معاً . وفي البنسيون استقبلتني والدتي بسيل من الاسئلة ، تريد بها معرفة اين كنت، ولماذا تأخرت ؟ فأجبتها بكل بساطة :

« كنت ابحث عن خالك ابراهيم النجار . لقد سألت عنه حتى أعياني السؤال.

ـ سنذهب معاً غداً ان شاء الله ، لأنني لا أريدك ان تتجولي وحدك في بلاد أنت غريبة فيها . ربما يحدث لك شيء او يعتدي عليك أحد . وقـــد لا تهتدين الى الطريق ...

– كلا كلا ، كوني مرتاحة البال ونامي على حرير . فأنا مستعدة للبحث عن خالي الى ان اعثر عليه ... »

نمنا تلك الليلة، وكم كانت احلامي تختلف عن احلامها. كانت تتعجل الساعة التي ستلتقي فيها خالها ابراهيم النجار ، وكنت اتعجل الساعة التي سأعود فيها الى ذراعي خميس . وما ان استيقظت من النوم ، حتى أخذت استعد للقائه . فارتديت اجمل فساطيني ، واسرعت الى حديقة الازبكية ، بعد ان كررت علي والدتي رجاءها بأن لا اتأخر . أخذت اتجول في الشوارع ، وكنت اتحسر كلما وقعت عيني على الواجهات الجميلة . كانت حلاوتي تلفت الي أنظار المارة ، غير ان بعضهم كان يعلق بقوله :

« لكن باين عليها مسكينة ! »

اخيراً وصلت الى الازبكية ، ودخلت انتظر قدوم خميس . وما ان أقبل يبتسم لي من بعيد حتى نسيت والدتي وخالها واستقبلته بدوري بابتسامة مشرقة . قال لي بلهفة :

« اتسمحين لي بان اجلس بقربك ؟ »

جلس بقربي طويلاً ، وتزحلقنا طويلاً . وبعد ان تناولنا طعام الغداء معاً سألني عمن أكون وماذا جئت أفعل في مصر . فرويت قصة مجيئنا من الشام ، وقلت له اننا جئنا للبحث عن خال والدتي ابراهيم النجار .

« وهل لديك عنوانه ؟

– كلا ! »

فابتسم وربت على كتفي كأنني طفلة في السادسة ، وافهمني انه من الصعب علينا ، في بلاد واسعة كمصر ، ان نعثر على شخص لا نعرف سوى اسمه ، ونجهل حتى اسم المدينة او المقاطعة التي يقيم فيها . وكل ما تعرفه عنه والدتي أنه ربما يملك مصبنة او طاحونة . غير ان خميس كان كريماً ، فأقترح ان يساعدنا في بحثنا،

وبالفعل قمنا بجولة واسعة فسأل فيها كل من نصادفه في طريقنا عن ابراهيم النجار، ولكن دون جدوى .

وعندما عدت الى البنسيون في المساء ، رويت لوالدتي « المشقة » التي تكبدتها في السؤال عن خالها ، غير انني لم اذكر لها شيئاً بالطبع لا عن خميس ولا عن الحديقة والتزحلق . وما ان رأتني في صباح اليوم التالي اتجه نحو باب الغرفة حتى امسكت بي ، وحاولت منعي من الخروج . فهدأت من روعها بلطف ، تخلصت من قبضتها ، وهرولت الى حيث كان ينتظرني ... خميس !

استقبلني بمثل لهفة الأمس ، أخذني بين ذراعيه وعدنا الى التزحلق . كانت تتاح لي للمرة الأولى فرحة اللعب والضحك والمرح ، بعيداً عن الأعين الشامتة . عشت ذلك اليوم ، شأن غيري من الصبايا الحلوات ، اللواتي يعجب الشبان بجمالهن ويقبلون عليهن بتودد وبشاشة .

أودعت همومي في الغرفة الصغيرة ، حيث بقيت امي تنتظرني وأطلقت لصبايا العنان . كنت اتزحلق وكأن لي جناحين أطير بهما ، وكانت الموسيقى العذبة تزيد شعوري بالغبطة والسرور . وفيما انا منهمكة في التزحلق ، وكل همي ان أظهر لخميس انني أصبحت أفوقه مهارة ، اذا بي أرى الجماهير تتدفق مسرعة الى مبنى كبير بالقرب من الحديقة . وعندما استوضحت رفيقي أجابني :

« يوجد في هذا المبنى مسرح الازبكية، حيث يمثل اليوم جورج أبيض . لقد تلقى هذا الممثل الكبير دروسه في التمثيل على نفقة الخديوي نفسه . وهو يقدم اليوم روايات مشهورة منقولة عن الافرنسية أوالانجليزية. وها هم الرواد يتزاحمون لمشاهدة مسرحياته :

« الا يمكننا الدخول نحن أيضاً ..؟

ـ بكل تأكيد ! »

دخلنا مسرح الازبكية، وكانت أول مرة تطأ فيها قدمي مسرحاً ما . وجدت نفسي في دنيا ثانية ، دنيا جميلة تختلف عن دنيا غرفتنا والشيك وأمي وأخي توفيق. دنيا أين منها المدرسة والراهبات ، والشوارع الكبيرة والواجهات الانيقة . بهرت نظري الانوار بعد ظلام «التتخيتة» ، راقت لي ثياب الممثلات فنظرت الى فسطاني التعب . وبسرعة البرق ، تصورت نفسي على المسرح أرقص وأغني وانا أرفل بالحرير ، تزين عنقي المجوهرات ، وتنعكس عليها الانوار الساطعة . غبت في حلم لذيذ ، وكأنني أسمع تصفيق الجمهور وهتافه . لم أفق من حلمي الا عند انتهاء حفلة « الماتينة» ، فخرجت من أنوار المسرح الى ظلمة الشارع وعدت الى دنياي . راعني تأخيري وانخرطت في البكاء استعداداً للحساب العسير الذي سأضطر الى تأديته لوالدتي . سألني خميس بقلق :

ـ لماذا تبكين ؟

ـ لقد تأخرت كثيراً عن موعد العودة الى والدتي . والله يعلم ماذا سيحل بي الآن ؟

ـ سأرافقك الى الفندق وأعتذر لها عن تأخيرك !

ـ اعوذ بالله ! أتريد أن تأخذ نصيبك من العلقة ؟ أرجوك أن تدعني أعود اليها بمفردي .

ـ كلا لن ادعك تذهبين بمفردك وأنت غريبة عن البلد ! »

لم أر بداً من الرضوخ لمشيئته فأخذنا عربية حنطور ، واتجهنا في طريق الفندق الصغير. دخلت من الباب الكبيروأنا أتحسب لهجوم أمي ، فكم كانت دهشتي كبيرة عندما قال لي صاحب البنسيون ، ان أمي قلقت لتأخيري فخرجت كالمجنونة الى الشارع تبحث عني ، لم يقوَ أحد على اعادتها الى غرفتها ، وهي ما زالت تبحث الى الآن .

عدت لخميس اطلعه على ما قيل لي . نظرنا الى بعضنا بحيرة . ما العمل الآن ؟

أين ذهبت أمي وهي أيضـــاً غريبة لا تعرف احدا . خرجنا من الفندق وأخذنا نتجوّل في الشوارع ، نسأل عنها المارة وأصحاب الحوانيت . لم يرها أحد ، ولم نتمكن من أن نستدل على الطريق التي سلكت في بحثها عني. لم يتركني خميس بل رافقني في تجوالي هذا ، وكان قلق البال علي يتساءل ماذا سيحل بي اذا لم يقدر لي أن أعثر على والدتي . وكان ما أن يشعر بأن خطواتي بدأت تثقل ، حتى يشير الى عربة حنطور . فنتابـع تجوالنـــا الى أن أرتاح ثم نعود الى المسير . وهكذا من الحنطور الى الطريق ، ومن الطريق الى الحنطور حتى بلغت الساعـــة الواحدة بعد منتصف الليل .

عندما يئسنا من العثور عليهـــا ، قفلنا عائدين الى البنسيون ، فخفّ الخادم الي يبشرني بأن أمي لم تعد بعد . أخـــذت الدموع تنهمر من عيني وانا أنظر الى خميس بخوف وبلاهة . فهدأ هذا الاخير من روعي وقال لي : « حاولي أن تنامي الآن ، فأنت بحاجة الى الراحة . وسأبكر الى هنـــا غـــداً ان شاء الله ونتابع بحثنا معـــاً » .

لم يغمض لي جفن في تلك الليلة . وكنت أحاسب نفسي حسابـــاً عسيراً على الاويقات الهنيئة السريعة التي تناسيت فيها والدتي؛ لأعود الى حياتي البائسة القلقة من جديد . أين هي يا ترى ؟ هـــل أقنعتها بالاغتراب مرة ثانية ، وحملتها عـــلى مرافقتي الى مصر ، لأتركها وحدها تبحث عني في الشوارع المظلمة فتضل الطريق، ويصبـح علي أن أبحث عنها بدوري ؟

لم أذكر عصاها في تلك الليلة ، بل ذكرت حنوها القليل . ولم أذكر ضربها ولا اذلالها لي أمام الناس، لم أذكر لعناتها المنصبة دائماً على رأسي، لم أذكر سوى أنها أمي . وبكيت الى الصباح .

وفي الصباح وفى خميس بوعده، فوصل باكراً الى الفندق يسأل عني ويستطلع

أخبار والدتي . ارتديت ثيـــابي بسرعة وخرجت برفقته ، نتابـع بحثنا العقيم .
فقال لنا أحدهم :

« لماذا لا تنشروا اعلاناً في الصحف ، أو لماذا لا تسألون عنها في الاقسام ؟
سينشط رجال الشرطة في البحث عنها اذا كانوا لم يعثروا عليها بعد . » قصدنا
الى ادارة صحيفة المقطم ، وطلبنا أن ينشر اعلان عنهـــا ، وبعد أن تركنا لهم
عنوان الفندق ، ذهبنـــا الى قسم شبرا . فقيل لنا أن البوليس شاهد سيدة مسنة ،
تجري في الشارع مسرعة على غير هدى تبكي وتلطم وجهها قائلة بلهجة شامية :

« وين بنتي ، وين بنتي . جئت أبحث عنها ، وضعت بدوري ! »

سألها رجال الشرطة :

« أين تقيمين ؟

ــ في « دير البنات » .

كانت والدتي تقصد : في شارع « دير البنات » . وهنـــا حصل التباس . لم
يعيدها رجال الشرطة الى الشارع، بل قادوها الى دير البنات . وما ان وصلت الى
الدير حتى ولولت :

« ليس هذا فندقنا ولا نقيم هنا ! »

ادركت الراهبات الالتباس ، فطيبن خاطرها وطلبن اليها أن تمضي الليل في
الدير ، على أن تعود في الصباح الى شارع « دير البنات » .

أسرعت الى الدير برفقة خميس ، ومـــا أن رأتني مقبلة نحوها بشوق ولهفة ،
حتى عاودتها تقاليدها الحبيبة واسعفها قاموسها الحافل ، فهجمت علي تضربني
وتكيل لي الشتائم :

« وين كنت يا مقصوفة العمر ، يا ملعونة مرمرتيني طول الليل ، الله يقصف
عمرك ويريحني منك ! »

ثم التفتت الى خميس وزعقت :

« من هذا ؟ »

ارتبكت ، ولم أدر بما أجيب ، لحرصي على أن لا ينال الشاب مـــا نالني من شتائمها . غير انها لم تنتظر جوابي . بل انتفضت تقول له :

« انك أنت ولا ريب السبب في تأخيرها ، وتجرؤ على المجيء معها الى هنا يا قليل الادب يا ...!» فدفعتها عنه ثم اعتذرت له ورجوته ان يتركني أتدبر أمري معها . هرول الى الخارج وتركني أتلقى وحدي صفعاتها وشتائمها .

ومن يومها لم أر له وجهـــاً ، مع انني حاولت مراراً أن التقيه ، ونعود الى التزحلق على انغام الموسيقى في حديقة الازبكية. كنت أذهب الى الحديقة ، وأظل أنتظره الساعات الطوال، معللة نفسي بأنني سأراه من جديد مقبلاً نحوي بابتسامته ولهفته الحلوة . غير انني لم أعثرله على أثر حتى ولا مرة واحدة . وهكذا اختفى خميس الى الأبد ، وكان أول رجل في حياتي .

اعتدت التردد على الحديقة، أرفه فيها عن نفسي عندما كنت أمل البحث عن خال أمي . فأصبحت أشعر ان روادها أصدقاء لي تربطني بهم مودة قديمة . كنت أشاهد المتزحلقين ، وأتحسر على من يدعوني مرة ثانية الى مشاركته في تلك الرياضة الجميلة . وفي أحد الايام ، شاهدت بين رواد الحديقة عدداً من الوجوه الجديدة التي لم تسبق لي رؤيتها من قبل. وكان بيد كل منهم كتاباً صغيراً، يقرأون بصوت عال ويقومون باشارات كالمخبولين . استغربت تصرفهم هذا ، والتفت الى أقرب من وقعت عيني عليه أسأله بفضول : « من هم هؤلاء وما معنى اشاراتهم هذه ؟»

فضحك ملء شدقيه وقال لي :

« انهم أعضاء فرقة تمثيـــل ، وهم يستعدون للادوار التي سيقومون بهـــا على المسرح . »

ـ الا يمكنني ان أشاهدهم على المسرح .

ـ بكل تأكيد . انني أدعوك الى « مـــاتينة » اليوم . سأدخلك الى المسرح لتشاهديهم .

ـ وأين التقيك ؟

ـ تعالي معي أدلك على الباب الذي يدخل منه الممثلون . وعندما تأتين الى « الماتينة » اسألي عني اسمي فؤاد سليم .

وما ان أزفت الساعة التي كان علي أن أقابل فيها الاستاذ فؤاد سليم ، حتى هرولت الى المكان المتفق عليه ودخلت برفقته ـ برفقة الاستاذ طبعاً ـ الى المسرح أخذني من توه وقدمني الى الاستاذ جورج أبيض . كان جورج أبيض منهمكاً في الاستعداد للظهور على المسرح ، وكان يطلي وجهه بمساحيق استغربت لسذاجتي أن يلجأ اليها رجل . نظر الي يتفحصني ثم قال لفؤاد سليم :

« ما اسم هذه الكتكوتة ؟ »

اجبته على الفور : « اسمي بديعة !

ـ الله ! أنت بنت عرب !

ـ نعم !

ـ هل تحسنين القراءة والكتابة باللغة العربية ؟

ـ كلا ! انني اقرأ وأكتب اللغة الاسبانية فقط ، لانني مكثت في الارجنتين برفقة عائلتي مـــدة سبع سنوات ، وذهبت الى مدرسة الراهبات هناك . وبعد عودتنا الى بلادنا لم يتسن لي الذهاب الى مدرسة القن فيها أصول قراءة وكتابة اللغة العربية .

ـ يا خسارة ! لو كنت تحسنين القراءة والكتابة باللغة العربية لكنا تولينـــا

تمرينك عـــلى التمثيل ، لأنك جريئة ، ألفاظك واضحة تماماً ولنبرات صوتك عندما تتكلمين نغمة رنانة .

ـ هل هناك مانع ان أتعلم الآن ، لاسيا وأنا راغبة في ذلك ، وأشعر برغبة قوية للتمثيل ؟ »

فتدخل الاستاذ فؤاد سليم قائلاً :

« انني مستعد لأن أعلمها دون مقابل . ما رأيك يا استاذ جورج ؟ »

تلقفت هذه الفرصة النادرة بسرور ، واسرعت امسك بيد الاستاذ سليم ؛ وأرجوه أن ينفذ ما قاله ؛ فضحك وربت على كتفي قائلاً :

« متى نبدأ بالدرس الاول ؟

ـ غداً ان شاء الله !

ـ اين سنتقابل ؟

ـ في حديقة التزحلق .

ـ وهل تحسنين التزحلق ؟

ـ هو هو ! أصبحت استاذة في التزحلق ! »

وفي اليوم الثاني حضرت قبـــل الساعة العاشرة ؛ الموعد المحدد لمقابلة الاستاذ فؤاد سليم ، لاتمكن من التزحلق قبل ابتداء الدرس . وصل الاستاذ وشاهدني في حلقة الرقص التوقيعي ، وأخذ يتأملني دون علم مني . فاعجب برشاقتي وتنبأ لي بمستقبل باهر في علم الفن . خرجنا من حديقة التزحلق ، وانهمكنا في أول درس تلقيته في اللغة العربية . أعجب الاستاذ بسرعة حفظي الاحرف ، كما أعجب من قبل عندما شاهدني أتزحلق بخفة وأناقة .

ومع عودتي الى البنسيون عادت اللعنات تنصب على رأسي . « اين تذهبين يا ملعونة ؟ اين تمضين كل هذه الساعات التي أَملها أَنا وحدي في هذا الفندق؟ »

كنت اتحمل ثرثرتها ، لأنني كنت مصممة على أن اتخلص من حياتي معها ، وأجد لنفسي منفذا أخرج منه الى حياة بحبوحة وكرامة .فكنت الفق لها الأعذار، واقول لها تارة كنت ابحث عن خالك وطوراً كنت ابحث عن سوق للأشغال اليدوية. كانت تصدق ما ألفقه لها ، الى أن وجدت حيلة اراحتني من لعناتها مدة طويلة . فقلت لها : « لا يوجد هنا لسوء الحظ سوق للأشغال اليدوية ، ولهذا قررت ان اتعلم الخياطة . وقد وجدت محلاً رحّب بي اصحابه وسأذهب لأعمل فيه ابتداء من صباح غد ! »

وهكذا تسنى لي ان أخرج في صباح كل يوم ، دون ان تعترض سبيلي او تحقق معي . ثابرت على الدرس مدة شهرين كاملين ، الى أن اصبح بامكاني ان اقرأ بدون صعوبة . غير انني لم أحسن الكتابة كما أحسنت القراءة ، لأن كل هم استاذي انحصر في تلقيني أصول القراءة ، ليتسنى لي قراءة الأدوار وحفظها ... والآن صار علي ان انتحل عذراً يمكنني من السهر في المسرح . وسرعان ما اسعفتني مخيلتي ، فقلت لها انني اعمل في جهاز عروس يصر أصحابه على ان ينتهي في اقرب وقت ممكن . كانت تصبر على مضض ، وتسألني بتأفف متى ساتخلص من هذا الجهاز ، لأعود الى الفندق وانام باكراً . فأطيب خاطرها واطمئنها على انني لا أشعر بالتعب .

ما ان اعتليت خشبة المسرح حتى أصبح لي عدد من المعجبين يشجعونني ويصفقون لي . كما احبتني الممثلات الكبيرات ، اللواتي كنت أنظر اليهن بشغف ، علني اتمكن من التمثيل بنفس مقدرتهن . وسرعان ما ربطت صداقة متينة بيني وبين ابريز ستأتي زوجة امين عطاالله الكوميك المشهور ، كما توددت لمريم سماحة ونظلة مزراجي واستر شطاح والمرحوم عزيز عيد والسيدة فاطمة اليوسف صاحبة المجلة المشهورة باسمها وعبد الرحمن رشدي . واتضح لي فيما بعد أن استاذي فؤاد سليم كان من كتاب المسرحيات المشهورين ، كما تسنى لي ان أتعرف على كاتب آخر هو الياس فياض .

كنت اصغر ممثلة في الفرقة ، ولم يكن لي أدوار طويلة كالتي كانت تتقاسمها الممثلات الكبيرات . ولم يتسن لي الظهور على المسرح ، الا عندما كـان يتعذر على احداهن التمثيل بداعي المرض أو التعب . غير انني كنت متعطشة الى العمل اهوى التمثيل ، واحلم بالساعة التي أقف فيها أمام جمهور يصفق لي باعجاب . فكنت احفظ جميع الأدوار واتمرن على إلقائها . غير ان الفرحة لم تواتيني للقيام بدور كبير لصغر سني وقلة خبرتي . وبعد ان عملت ثلاثـة أشهر دون مقابل ، قرروا أن يكون مرتبي خمسة جنيهات فقط لا غير .

كان ذلك المبلغ زهيداً جـداً لا يمكن ان يؤمن لي حتى القوت الضروري . فمن أين لي ان أدفع بدل ايجار غرفتنا في الفندق المتواضع ؟ ناهيك عن الثياب الجميلة التي كان علي ان أظهر بها بين سائر الممثلات . وكنت في صغري أحـب الاناقة — ومن لا يحبها ؟ — واتوق شوقاً الى الساعة التي سأتمكن فيها من ارتداء ما يحلو لي من الحرير والمجوهرات ... ما العمل اذن ؟

اثناء انهماكي في عملي الفني لم انس صديقتي القديمة حديقة الازبكية ، بل كنت اتردد عليها دائما . وكنت اذا ما اسودت الدنيا في عيني ، وضاق صدري من التفكير في طريقة تقيني العوز مع والدتي ، أعود اليها علني اريح اعصابي بعض الشيء . وفي أحد الأيام ، وبينما كنت أفكر بمبلغ الخمسة جنيهات ، إذا بشخص لا أعرفه يقترب مني ويقول لي : « اتسمحين ان اقول لك كلمة على انفراد ؟ »

اثار سؤاله فضولي ، فقمت لساعتي ورافقته في ممرات الحديقة . فلم يكد يراني متجهة نحوه حتى بادرني باهتمام :

« هل أنت مرتاحة للعمل في فرقة جورج ابيض ؟ وكم تتقاضين لقاء عملك معهم ؟ انهم لا يتيحون لك فرصة الظهور على المسرح ويفضلون عليك الممثلات المسنات ما رأيك في الانضمام الى فرقة أخرى تعملين فيها لقاء أجر محترم وتبرزين مواهبك في أدوار طويلة ؟

ـ وما اسم هذه الفرقة ؟

ـ انها فرقة الشيخ احمد الشامي .

ـ واين مركزها ؟

ـ عندنا الآن جولة في الصعيد .

ـ وهل الصعيد هنا في مصر ؟

فضحك وقال :

« ألم تسمعي بالاقصر واسوان أبداً ؟

– وهل سنعمل هناك ونزور الآثار الجميلة ؟

– وسنعمل أيضاً في بني سويف والمنيا . وبعدها نذهب الى الوجه البحري . كما سنقدم بعض التمثيليات في طنطا والمنصورة ودمنهور والاسكندرية ...

– يا سلام ، هذا حلم جميل ! »

عاد يسألني : اذن أنت موافقة ؟

– نعم لكن والدتي ...

– مالها نأخذها معنا .

– اعوذ بالله ، لو علمت انني أعمل في التمثيل لقتلتني . انها تعتقد انني اتعلم الخياطة . أرى أن الحل الوحيد ، والحـــل الأفضل هو ان اعيدها الى الشام . ولكن كيف ؟ .. أرجوك ان تترك لي فرصة التخلص منها . ما اسمك بالخير ؟

– اسمي مصطفى وشقيقي هو الشيخ احمد الشامي . نحن ثلاثة أشقاء نعمل معا . أين تريدين ان اقابلك بعد ان تكوني قد تخلصت من والدتك ؟

– سأوافيك الى هنا بعد يومين او ثلاثة على الأكثر . فاذا مـــا جئت الى الحديقة في المساء تجدني بانتظارك ! »

لقد وجدت عملاً ، ولكن من اين لي أن أعمل بوجود والدتي . وهي التي تؤمن ان التمثيل شيء لا تجرؤ على ممارسته بنات العائلات . وكـــان يشاركها في اعتقادها هذا السواد الأعظم من جنود الورع والفضيلة . بدأت أفكر بطريقة تخلصني منها ، فأنصرف الى عملي ، والى بناء مستقبل بعيد عن الفقر والحاجة ، وعن كل ما قاسيته في طفولتي .

عدت الى البنسيون مقطبة الجبين ، واليأس باد على وجهي بوضوح . وكنت من وقت لآخر اصعد زفرات عميقـــة ، كمن يرزح تحت حمل ثقيل مـــن الهموم

والمتاعب . اقلقها تصرفي هذا فسألتني عن سبب ضيقي وتبرمي . لم اعر سؤالها اي اهتمام ، وكأني لم اسمع ما قالته لي . عادت تسألني وانا محتفظة بالصمت الى ان ضاقت ذرعاً بصمتي ، فأجبتها بتبرم :

« ترى لو اقتنعت مني وذهبنا الى اميركا ، اما كنا تخلصنا من الحالة التي نتخبط فيها الآن ؟ جئنا الى مصر على امل ان نلجأ الى خالك فينقذنا مما نحن فيه . ولكن اين خالك ؟ لقد بحثنا عنه مدة طويلة ولم نعثر له على اثر . لم اتمكن من ان اعمل هنا ، والخياطة تحتاج الى وقت طويل من الخبرة والممارسة ، وما زلت اعمل دون مرتب . أخشى ان ننفق ما معنا قبل ان يتسنى لي القيام بعمل يدر علينا ما نقتات به .

– لا اريد الذهاب الى اميركا مهما ساءت احوالنا . انني اريد ان اموت في بلادي .

– وانا لا اريد الذهاب الى بلادك . كفاني ما لحقني فيهـا من ذل واحتقار ، وفقر وامتهـان ، وضرب وتشهير . اذهبي اذا شئت فأتحرر انا من استعبادك !..

– الله يقصف عمرك ! كيف تريدينني ان اذهب بمفردي الى الشام ! انني لن ابرح مصر إلا برفقتك ! » .

وكعادتها هجمت علي ، وأخذت تولول وتنبش شعرهـا ، فتراكض الجيران وجاؤوا يستطلعون الخبر . تملكني الخجل عندمـا رأيت الاعين الفضولية تتجه الي ، مستنكرة ازعاجها في مثل هذه الساعة من الليل . فكففت عن المناقشة واعتذرت للجميع . غير انني كنت في تلك الدقائق القليلة قد رسمت خطة في ذهني وصممت على تنفيذها . تظاهرت بالطاعة والرضى وعند الصباح قلت ازيد في تضليلها :

« لن اذهب معك الى الشام ! بل سأرافقك الى بيروت اذا شئت ! »

ارتاحت لقراري هذا ، واسرعت تستعد للسفر . ذهبنا الى المحطة وصعدنا الى القطار ، وانا اتظاهر باللهفة عليها وعلى امتعتها . وما ان شعرت بان القطار قد بدأ يتململ ليسرع في المسير حتى نهضت وقلت لها ببساطة : « انا ذاهبة ابحث لنا عن طعام ... »

... ونزلت من القطار ...

تركت والدتي للمرة الثانية ... ثم وقفت انظر الى القطار يسرع نحو بلدي، نحو الشام حيث ولدت وترعرعت . حيث منزلي وذلي ، حيث دموعي وافراحي . وقفت وحدي ويدي على قلبي من شدة حزني على فراق امي . شعرت انني في هذه اللحظة اودع حياة واستقبل حياة اخرى . اودع دنيا الطفولة واللامبالاة ، الى دنيا العمل والمسؤولية ، تلك الحياة التي بحثت عنها واردتها لنفسي .

آلمني فراقي لوالدتي واخذت ألوم نفسي على تصرفي . وعندما أخذ الندم يعتصرني ، اردت ان اتغلب عليه ، فأخذت اتذكر قسوتها ، عصاها ، كلامها اللاذع ، صفعاتها المؤلمة ... فخف ما بي وسرت في الطريق لا ادري الى اين اذهب ولا اعلم الى من الجأ . لم يعد بامكاني ان اعود الى البنسيون ، بقيت ثيابي وامتعتي مع والدتي ، ولست احمل درهماً واحداً ...

تذكرت الميعاد الذي كنت قد ضربته لمصطفى في حديقة الازبكية ، واسرعت اليه فوجدته ينتظرني بقلق . رحب بي باهتمام ، وسررت عندما رأيته يقف ، ويحييني باحترام كأنني سيدة كبيرة .

جلست بقربه وانا لا اعي شيئاً مما يقوله لي ، فاسترعى انتباهه الحزن البادي بوضوح على قسمات وجهي . فسألني :

ــ ما بك ، كفانا الله الشر .

ـ لا شيء ...

ـ هل عدلت عن العمل معنا ؟

ـ كلا ولكن ...

ـ ولكن ماذا ، قولي لي ، انك تثيرين قلقي بعينيك الدامعتين ...

ـ لقد وعدتـــك بموافاتك الى هنـــا عندما اتدبر امر سفر والدتي. وبالفعل خدعتها وارسلتها الى بيروت ، ولكنني الآن اشعر بالندم والخجل ممـــا فعلت . انني قلقـــة عليها ، ماذا حل بهـــا يا ترى بعدما تحققت من انني هجرتها للمرة الثانية . انا هنا غريبة ليس لي مأوى ، وقد تركت ثيابي وامتعتي في القطار ... »

كنت اتكلم بسرعـــة ، وكانت الدموع اسرع مني ، تنهمر من عيني غزيرة محرقة . رق مصطفى لحالي ، وربت برفق على كتفي ، قائلا :

« ما عليك ساصحبك الى منزلنا ، وسترحب بك زوجه اخي . انهـــا سيدة اجنبية في غاية اللطف اسمها صوفي . كما سترحب بك زوجة اخي الكبير وهي مصرية ظريفة جداً . لن ندعك تشعرين بالغربة .

ـ وانت ؟

ـ انا ماذا ؟

ـ هل انت متزوج ؟

ـ كلا ، وهذا لا يمنع ان تكوني لي بمثابة شقيقة صغيرة احنو عليها وادللها .

دعاني الى منزله ، فرافقته بطيبة خاطر ، اذ لم اكن ادري الى اين الجأ اذا ما اقبل الليل . صح ما قاله لي ، فاستقبلتني زوجة اخيه بلطف وبشاشة ، وعملوا كل ما بوسعهم كي لا اشعر انني ضيفة ثقيلة على المنزل وعلى من

فيه . امضيت تلك الليلة عند شقيق مصطفى ، وكنت طوال الليل عرضة للهواجس ، لا يغمض لي جفن حتى اصحو مذعورة ارتجف من الخوف والقلق . وما زال شبح القطار المسرع بوالدتي يقض مضجعي ، حتى اطلت عليّ من النافذة اشعة الصباح الاولى . ما ان اقبل النهار ، حتى جاء كل من في المنزل يحييني ، ويطمئن على انني امضيت ليلة هنيئة . فاخفيت عن الجميع قلقي وتظاهرت بالرضى والارتياح . وعدنا الى حديث العمل . اقترحوا عليّ ان يؤمنوا لي نفقات الاكل والمبيت ، وان يؤدوا لي علاوة على ذلك مبلغ ستة جنيهات في الشهر . رحبت باقتراحهم وكنت قد بدأت اثق بهم لطيبتهم ورعايتهم لي في وحدتي المخيفة .

وسرنا على بركات الله ... بدأنا رحلتنا في بني سويف حيث قدمنا خمس حفلات متتالية . نجحت الفرقة واستقبل الجمهور التمثيليات بالتصفيق والتشجيع . اما نصيبي في التمثيل فكان مقتصراً على الظهور في الفصل الهزلي الذي كانوا يقدمونه بعد انتهاء التمثيلية . وبالرغم من ان مدة ظهوري على المسرح كانت قصيرة جداً ، الا انني اصبت قسطاً كبيراً من النجاح وكان الجمهور يستمر في تصفيقه وهتافه لي حتى بعد ان اتوارى وراء الكواليس بمدة طويلة .

انتقلنا من بني سويف الى المنيا . ولم يكن النجاح الذي اصبناه في بني سويف اقل منه في المنيا ، حيث كان عدد الجمهور يزداد باطراد . فكان ذلك يشجع الممثلين ، ويحثهم على الاجادة وعلى التفوق على انفسهم . كانت الصالة تضيق بمن فيها من هواة المسرح ، وكان المتعهدون يقبلون على الفرقة ، ويرتبطون مع رئيسها لتقديم حفلات اخرى في طريق عودتنا الى القاهرة .

كان الشيخ احمد يراقبني باهتمام ، دون علم مني ، اذ كان حسه الفني قد جعله يعتقد انني سأخطو بسرعة نحو التقدم والنجاح . سره ما رآه من اتقاني

للادوار الثانوية الصغيرة التي كانوا يعهدون الي بها . فعهد الي بادوار ثانوية اخرى كنت أحفظها عن ظهر قلب ، واعمل جاهدة على ادائها على أكمل وجه . لم اكن اتكل على الملقن ، بل كنت اجتهد ان لا يفوتني حرف واحد من دوري، بينما كان غيري من الممثلين لا يهتم في حفظ دوره بل يعتمد على التلقين . وكثيراً ما كان الاتكال يورطهم في مآزق ويعرضهم للضحك والسخرية . مآزق تفاديتها باجتهادي ومثابرتي دون كلل ولا ملل .

لم يكن يعنيني ان يكون الدور كبيراً ام صغيراً ، بل كان مثار اهتمامي بالدرجة الاولى وقبل أي شيء آخر ، حفظي للدور واتقان الالفاظ وحسن الالقاء . كان صوتي جهورياً رناناً ، كما كانت الفاظي واضحة ، اذ لم يكن لدينا انئذ مكبرات تشوه الصوت ، وتجعل من قطة تموء مطربة ناجحة او ممثلة كبيرة ، بل كان علينا ان نسمع جمهورنا حتى ولو بلغ عدده المئات . وهكذا ، كان الصوت القوي احدى اهم مقومات النجاح في الغناء والتمثيل.

كان في نية الفرقة تقديم رواية تدعى « الابن الخارق الطبيعـــة » . وكانت السيدة صوفي تقوم بالدور الرئيسي في هذه التمثيلية . فلم يلبثوا ان انتزعوا دورها الرئيسي هذا وعهدوا بـــه الي ، انا اصغر ممثـــلة في الفرقة . كانت المرة الاولى التي اظهر بها بدور « البريمـــا دونا » . لم يكن هذا الدور يقتصر على التمثيل فقط ، بل كان علي ايضاً ان ارقص برشاقة واغني بلباقة .

تلقفت هذا الدور بلهفة واعتزاز ، ووقفت عنـــد تلك الدقيقـــة ، استعيد في ذاكرتي ثمنها وما بذلته من تضحيات لاقف على خشبة المسرح ، اعيش الادوار التي لم اتمكن من ان احياها في دنياي القاسية . سانتقم من قسوة والدتي واشقائـي بتمثيل دور الصبية المرفهة التي يتسابق الجميع لارضائها واكتساب ودها كما سأنتقم مـــن الوحش الذي شوهني وانا في السابعة من عمري بتمثيل دور الغانيات اللواتي يرتمي على اقدامهن هؤلاء

الذين ترفعوا على فقري . مساكين هؤلاء ، لقد جاء وقت الحساب ، وسيكون حسابهم عسيراً . سيرتمون على قدمي خارج المسرح ايضاً ، سازدري مالهم ، وارغمهم على ان يدفعوا من كرامتهم ثمن كرامتي انا ، تلك الكرامة التي لم يساعدني انسان على صيانتها والاعتزاز بها ..

استغرب الجميع كيف كنت اتنقل على خشبات المسرح براحة وثقة واطمئنان . أديت دوري الاول ، بطريقة ادهشت اعضاء الفرقة انفسهم، كما استقبلني الجمهور استقبالا زادني ثقة على ثقة . كان يصفق لاقل كلمة أقولها ، ويستحسن كل رقصة اؤديها ، ويشجعني ويستزيدني . فتحقق كل من رآني فى تلك الليلة من مواهبي ، وتنبأ لي بمستقبل باهر في دنيا الالحان والتمثيل .

كانت الرحلة طويلة استغرقت ما يقارب الشهرين . وفي طريق عودتنا الى القاهرة ، مررنا على كل المدن التي سبق لنا ان مثلنا فيها ، وكانت بني سويف آخر المطاف . كنت قد لاحظت منذ وقت بعيد ، ان هناك شخصاً معيناً يتابع تنقلاتنا اينما حللنا ، فلا نزور مدينة او مقاطعة الا ونجده اول من حضر الى المسرح واتخذ لنفسه المقصورة الاولى . كان ينتظر ظهوري ليتابعني بعينين نافذتين تثيران فضولي . لم اكن انطق بكلمة او آتي بحركة حتى يندفع في تصفيق حاد، سرعان ما يشاركه فيه جميع النظارة . كانت تبدو عليه علائم النعمة والوجاهة ، فاذا ما اقبل على المسرح استقبله الجميع بالترحاب والتقدير . وفي احدى الليالي وبعد ان انتهينا من المسرحية ، دخل علينا وراء الكواليس ، فخف اعضاء الفرقة لتحيته ، اما هو فاتجه نحوي قائلا :

« انك مدهشة ، فانت على صغر سنك تمثلين كأحسن الفنانات واقدرهن »

ولم يشأ الا ان يجامل الاخرين فاستطرد :

« ويعود الفضل طبعاً الى الاساتذة الذين يعتنون بك ويشرفون على تدريبك . جئت ادعوكم لتناول الغداء في عزبتنا غداً ، وسأرسل لكم ان شاء الله عربات حنطور تنقلكم جميعاً الى هناك ! »

لم نكن قد عرفنا السيارات بعد . وكنا ننتقل من محل لآخر بواسطة عربات حنطور ، او على ظهور الجياد والحمير .

فقال مصطفى : « انني ارغب في ركوب جواد ! »

وقال آخر « وانا اتمنى لو ركبت حماراً » .

وكان هو يصغي مبتسماً الى كل من افراد الفرقــة . ثم اتجه نحوي وقال لي بلطف : « وانت ؟ »

اجبته بحياء : « لم يسبق لي ان ركبت الخيــل ، ولكنني اود لو حاولت لاول مرة ، يا سيد بك . »

كنت قد سمعت البعض يناديه بسيد بك ، والبعض الآخر بسيد زكي . ابتسم سيد بك او سيد زكي وقال لي : « حسناً ! »

ذهبنا الى عزبة سيد زكي فأقام لنا مأدبة حــافلة ، وأحاطنا بلطفــه وكرمه . كان يخصني دون الحاضرين باهتمامه ورعايته . سرعان ما انقضى الوقت بين ضحك ومرح ، واخذنا نعــد انفسنا للعودة . فاقترب مني وسألني بظرف :

« ــ هل لديك مانع ان نتقابل مرة ثانية ! »

ــ « لا مانع عندي ابداً . سيسرني دائماً ان اراك ! »

عند المساء جاء الى المسرح ليصغي الى التمثيليــة كعادتــه . وكان كريما لا يبخل علينا بشيء . ما ان اقبلنا على القاهرة حتى اخذ كل من اعضاء الفرقة يستعد للذهاب الى اهله ، اذ كان اكثرهم متزوجاً وله عائلة وبيت . اما انا فكنت غريبة لا أعرف احداً . وقفت اضرب أسداساً

بأخماس ، فاذا بي أفاجأ بسيد زكي يقول :

« مالك ، محتارة ليه ؟ »

أجبته على الفور : لقد انتهت الرحلة الآن ، وسيذهب كل من الممثلين الى بيته . اما انا فلا اعرف لي منزلاً اعود اليه . انني غريبة هنا ، لقد جئت الى مصر برفقة والدتي . غير انني عندما قررت العمل في الفرقة ، واتفقت مع مصطفى ، احتلت على والدتي واعدتها الى الشام لانها كانت حتماً ستعارض عملي على المسرح .

فضحك وقال : « باين عليك عفريتة ، هل تسمحين بان ابحث لك عن فندق تقيمين فيه ؟

ـ وهل ستقيم في نفس الفندق ؟

ـ اذا لم يكن لديك مانع ...

ـ لا مانع لدي اذا كنا سنقيم في غرفتين منفصلتين !

ـ موافق ...

ـ موافقة على شرط ان ترافقني الى المسارح ، لأنني أرغب في رؤية كبار الفنانين للاقتداء بهم .

ـ حسناً ! سأنفذ لك جميع رغباتك . باين عليك دمك خفيف . وقل ما نجد شامية كلامها لطيف ودمها خفيف !

وبينما نحن في الحديث ، اقترب مني الشيخ احمد ، ودعاني الى ان ارافقهم الى منزلهم . فقطع عليه السيد زكي كلامه بقوله :

« سأوصلها بنفسي الى منزلكم ! »

وبدلاً من ان يأخذني الى بيت الشيخ احمد ، اتجه بي نحو الفندق . وفي المساء سألني :

« الى اين سنذهب الليلة ؟

أجبته على الفور :

« الى الشيخ سلامه حجازي »

– « أهلاً والف مرحباً ! »

كانوا يقدمون في ذلك المساء رواية « روميو وجولييت » . اخــذت بروعة التمثيل ، كنت وانا اصغي بكل جوارحي ، واستعيد ايام طفولتي في الشام . عندما كنت استرق النظر الى الشيخ سلامة من على الشرفة المطلة على « حديقة الافندي » ، حيث كان يقام المسرح . وكان الشيخ سلامة عند مجيئه الى الشام ما زال يتمتع بصحته وشبابه . وكان غيره الآن ، وقد غدا مريضاً لا يقوى على التمثيل . إلا ان صوته ما زال جميــلا يأخذ بمجامع القلوب . وفي اليوم الثاني أردنا سماع منيرة المهدية . كانت يومئذ تغني بمقهى « اللهمبرا » .

كانت متزوجة من الاستاذ محمود جبر ولها منه طفلة واحدة . كانت السيدة المهدية ما زالت في اوج شبابها ، جميلة ذات قوام مياس ومبسم جميل وكانت القاعة تضيق بالمعجبين بها ، فاذا ما اعتلت المسرح وغنت ، « يا منعنشة يا بتاعة اللوز » ، سرت في المستمعين موجــة من الحماس الهستيري ، وأخذت الطرابيش تتطاير في الفضاء لتقع على اقدام المغنيــة الجميلة . كما كانت زجاجات البيرة تفرقع ، لتعود كما هي ولم يمسها احد . كان الغناء مقتصراً على الغناء ، ولم يكن يرافقه رقص او بهلوانات جسدية . ولم يكن هنــاك ما يدعى برقص البطن بالمعنى الصحيــح ، بل كانت الراقصة تقوم بالهز والرهز لمدة نصف ساعة على الأكثر ، ثم تعود الى قواعدها .

لم يثر اعجابي احد ، كما اثارته السيدة منيرة المهدية ، الى درجة اني

حفظت اغنيتها من اول مرة سمعتها ، وأخذت ارددها ونحن في طريق عودتنا الى الفندق . عندما سمعني السيد زكي ادندن بجانبه ، فغر فاه بدهشة وقال لي :

« – كيف يمكنك ترديد اغنيات لم تسمعيها الا مرة واحدة ؟ »

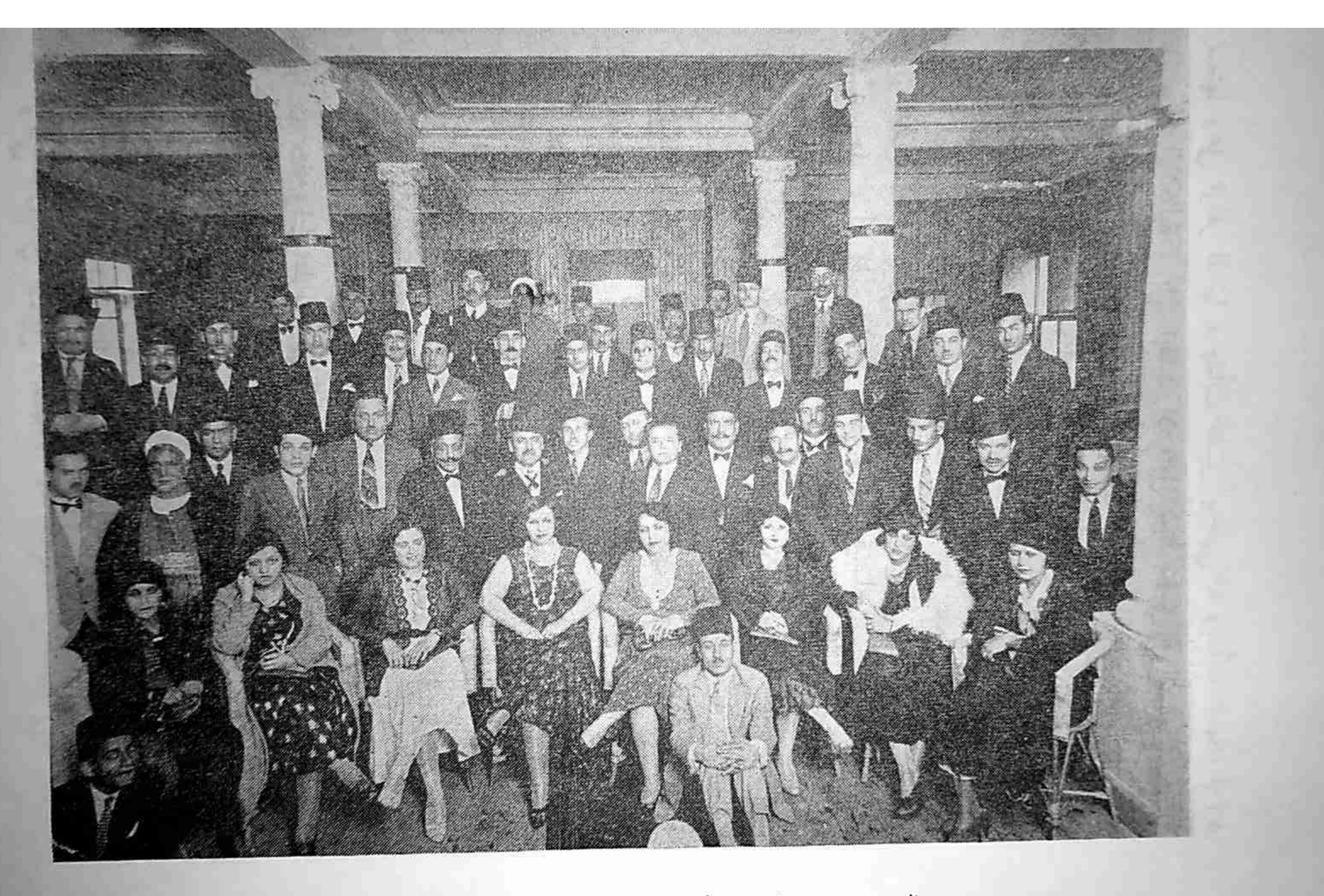
– وهل الفن والطرب مقتصر على المصريين فقط ؟ »

ومن يومها أصبحت من مدمنات صوت منيرة المهدية واخذنا نتردد على مقهى « اللهمبرا » في كل ليلة تقريباً . كما ذهبنا على ما اذكر الى مقهى الف ليلة وليلة ، حيث كانت تغني السيدة توحيدة . لم ارتح لها لانها كانت تؤدي ادواراً طويلة مملة ، وكان صوت منيرة يفوق صوتها قوة وجمالاً .

اقمت في بني سويف مع السيد زكي مدة طويلة . وكان يصحبني معه الى القاهرة ، كلما اتاح له عمله الذهاب الى المدينة الكبيرة . كان محامياً مشهوراً ، يقصده المتقاضون من كل الجهات . لم يكن يهملني بالرغم من اقباله على عمله بشغف ولذة ، وبالرغم من انصرافه الى رعاية شؤون موكليه . بل كان يصرف اكثر اوقاته بصحبتي ويرافقني الى المسارح والمقاهي . وكان صاحب مزاج ، يحب الفن والفنانين ، فاذا ما حدث ان نسيت كلمة واحدة من احدى اغنيات منيرة المهدية اسرع هو وهمس بها في اذني بلطف .

كان قد مضى علي خمسة اشهر برفقة السيد زكي ، خمسة أشهر تمتعت فيها بالحياة والحب والشباب ، عندما افقت الى نفسي ، وعادت الهواجس تنتابني وتقلقني على مصير والدتي وعلى مصيري انا بعدها .

كان السيد زكي كريماً في حبه ، كما كان كريماً في هداياه ، لم يبخل علي بشيء ، عشت بقربه حياة الصبايا المترفات ، إلا ان هذه الحياة علي



السيدة منيرة المهدية ونجاة علي ونادرة وامال حسين سنة ١٩٢٤

سعتها وعلى توافر لذائها ، بدأت تضيق بوجهي ، وبدأت املها . لم ترق لي حياة الاتكالية ، بل ايقنت ان اعمل شيئاً بنفسي ، ان ابني مستقبلا فنياً يقيني العوز ، ويؤمن لي ما احتاج اليه ، دون اللجوء الى السيد زكي وامثاله . وتملكني شعور بالضيق ، لماذا ارتضيت لنفسي ان أكون عالة على انسان لا هو أخي ولا هو زوجي ولا حتى خطيبي . أأرتضي لنفسي العيش على هامش المجتمع في صباي ، كما سبق لي ان قضيت طفولتي ؟

لماذا لا استفيد من مواهبي ، وابرزها كما سبق لي أن عملت في فرقة الشيخ احمد . ألم اقم بالادوار الكبيرة خير قيـــام ، ألم يستقبلني الجمهور بالتصفيق والهتاف ؟ ألم يعجب السيد زكي نفسه بمقدرتي ورشاقتي ؟ لماذا إذن ارتضي لنفسي هذه الحياة المغمورة ، ولا استعد لما يخبئه لي الغد ؟ هـــل يمكن ان تدوم صداقـــة السيد زكي لي ؟ وماذا انتظر لأعود الى العمـــل ؟ ولكن السيد زكي كان كريمـــاً معي ، وهل سأتمكن من أن اصارحه بهذا كله ؟

لم تطل مدة تساؤلي ، اذ كان على السيد ان يذهب الى القـــاهره ، فطلب مني ان اصحبه اليها وقال اننـــا سنقيم فيها مدة شهر على الاقل . وفي احد الايام بينما كنت اتجول بمفردي في الشوارع ، وانظر الى واجهات المحال ، اذا بي التقي السيد يوسف شمعون احد معارفنا اللبنانيين .

نظرت الى السيد شمعون وانا لا اصدق عيني ، وكأني التقيت قريباً لي افتقدته منذ وقت طويل . وكان قد قدم من بيروت الى مصر في مهمة صحفية . عندما وقع نظره عليّ ، بدت عليـــه الدهشة ، فاقترب مني مسرعاً وقال : « بديعة ! ماذا تصنعنين هنا ، واين تقيمين ؟ ما شاء الله لقد اصبحت صبية وصبية حلوة . قولي ماذا جئت تعملين في مصر ؟

لم اذكر السيد زكي بل اجبته بقولي :

« انني اعمل في التمثيل ... »

– اين تعملين ، بودي ان اشاهدك تمثلين

– انني اعمل في فرقة متجولة

– الله ، أتعملين في الشوارع والمقاهي كالغجر ، او كالفرق الصغيرة التي يغني افرادها في الطرقات ؟

– كلا كلا ، انها فرقة تتجول في الارياف وتنتقل من بلد لآخر .

– دعك من العمل في الفرق المتجولة هذه . سأصحبك الى بيروت اذا اردت ، واجـد لك عملاً اكثر فائدة واقل ارهاقاً . ولكن ماذا تعلمت في مصر ؟

– لقد تعلمت التمثيل على يد اساتذة كبار حتى اصبحت اتقنه الآن ، وقمت بأدوار « البريما دونا » وصفق الجمهور اعجاباً بي . . .

– تعلمت التمثيل !... واين تريدين التمثيل في بلادنا وليس لدينـا مسارح ولا فرق . لو تعلمت الرقص والغناء لكان بامكاني ان اجد لك عملا بكل سهولة .

– ومن قال انني لا احسن الغناء ؟ لقد حفظت جميع اغاني وطقاطيق السيدة منيرة المهديه . ولدي المـام بالرقص ايضـاً ، بوسعي ان اؤدي الرقص الغربي والشرقي معاً ، ولا يجاريني احد في التزحلق بخفة ورشاقة .

– عال عال ، انت تحسنين كل هذه الأشياء الجميـلة ، وما زلت تتسكعين هنا في الفرق المتجولة . تعـالي معي الى بيروت وتصبحين اول فتاة عربية تعمل في الرقص والغناء . سيقبل عليك الجمهور ، ويفضلك على الفنانات الاجنبيات اللواتي يعملن الآن عنـدنا . كم كنت تتقاضين لقاء عملك في الفرقة ؟

– حسب الظروف .

– اسمعي نصيحتي وعودي الى وطنك . ألم يوحشك لبنـان ؟ ألا

تتشوقين الى الشام والى رؤية اهلك ؟ اذا ما قررت السفر اتصلي بي في جريدة المقطم . »

عدت الى الفندق وكلام السيد شمعون يتردد في أذني : « ستصبحين اول فتاة عربية تعمل في الرقص والغناء . سيقبل عليك الجمهور ، وسيفضلك على الفنانات الاجنبيات . ألم يوحشك لبنان ، ألم تشتاقي الى الشام ؟ » .

الا ان هناك شيئاً لم يقله السيد شمعون ، شيئاً كنت انتظره منذ وقت بعيد ، منذ خرجت من منزل ابن عمي مذلولة ، كسيرة القلب . لم يتبادر الى ذهن السيد شمعون سؤالي :

« ألا تريدين الانتقام من جورج وليان مصابني ، ألا تريدين ان تكيلي لهما الصاع صاعين ؟ انك حرة في التصرف باسمك كما تشائين ، وهو كل ما تبقى لك من إرث » .

لماذا لا أعود الى بيروت ، واعمل في الفن تحت اسم « بديعة مصابني » لماذا لا اجعلهم يقولون ابنة عم الوجيه جورج مصابني تعمل « ارتيست »

استقبلت السيد زكي عند عودته بترحيب وبشاشة ، الا انه ما لبث ان لاحظ قلقي ، واسترعت انتباهه حيرتي . حاول ان يستدرجني الى الكلام ، فتمنعت في اول الامر ، فألح ، وألح بلطف وعناد . أطلعته على مقابلتي للسيد شمعون ورويت ما قاله لي . كان السيد زكي شهماً نبيلاً كعهدي به فلم يمانع ، بل قال :

— يعزّ عليّ كثيراً ان أفارقك ، وانت تعلمين مدى حبي لك . لكنني لا أريد ان أكون حجر عثرة في طريق مستقبلك . لا شك في انك موهوبة ؛ وقد رأيتك بنفسي تقومين خير قيام باصعب الأدوار وأدقها . وبوسعك ان تعملي في التمثيل هنا في مصر ، وتبقي على صداقتك لي ، اما اذا كنت مصممة على العودة الى بيروت ، فلا يسعني إلا ان

اتمنى لك التوفيق . اما اذا ذهبت الى هنـــاك ولم توفقي في عملك ، فارجعي الى مصر وستجديني بانتظارك .

ما ان أقبل الصباح حتى اسرع بنفسه يسأل عن يوسف شمعون ، ودعاه الى العشاء والى سهرة قضيناها معــاً عند منيرة المهدية . تحدث طويلاً اليه وأبقاه معنا ، الى ان حددنا موعد سفرنا الى بيروت قضينا ما تبقى لدينا من وقت في القاهرة بين سهر وسمر ، الى ان حان وقت الفراق .

آلمني فراق السيد زكي ، وعزت علي عشرته الطيبة ، وكرمه ، ونبل اخلاقه . لكنني كنت مصممة على ان أعود الى بيروت لاجرب حظي فيها ، ولأطمئن الى مصير والدتي ، بعد ان أرهقني الندم على ما بدر مني نحوها . وكنت في الوقت ذاته أتخوف من ان لا أصيب في بيروت النجاح الذي سبق لي ان نلته في مصر . هل سيقبل البيروتيون عليّ ، كما أقبل اهل الصعيد وسكان المدن التي مرت فيها فرقة الشيخ احمد ؟ انني قادمة على مجازفة لا يعلم نتائجها الا الله . فالاتكال عليه .

ودعت السيد زكي .. واتجهت الى بيروت !

عدت الى بيروت عن طريـــق البحر . وعـــاد برفقتي السيد يوسف شمعون الذي لم يكن يخفي سروره لنجاحه في اقناعي بالمجيء الى لبنان . كان متفائلاً من نجاحي ، متأكداً من انني سأكون عند حسن ظنه بي وبمواهبي . وكانت ثقته هذه تتسرب الي شيئاً فشيئاً ، فبـــدأت ارتاح الى فكرة العمل في المدينة التي زرتها صغيرة واقمت فيها فقيرة . وكنت قد اتفقت معه على ان يقدمني الى « مدام جـــانيت » ، وهي اول من اذخل « الموزيك هول » الى بيروت . كانت « مدام جانيت » من الجنسية الفرنسية ، وكانت تدير نوعاً من الكباريه ، تتعاقد للعمل فيه مع عدد كبير من الفنـــانات الاجنبيات : من فرنسيات ورومانيـــات ونمساويات والمانيات ... ولم يكن يوجد اي اثر لاي فنانة عربية في كل بيروت .

عندما وصلنا الى المدينة قادني السيد شمعون الى فندق صغير لم أعد اذكر اسمه . كنت اسير بقربه ، واستعيد ذكرى اليوم الذي تسللت فيه مـــن المنزل المشبوه ، ذلك المنزل الذي انقذتني منه احدى ضحاياه . وتساءلت اين والدتي يا ترى ؟ هل ما زالت هنا ام عادت الى دمشق ، ام فرت من وحدتها فقصدت شقيقتي نظلة في قريتها العالية ؟

عند المساء اصطحبني السيد شمعون الى كباريه « مدام جانيت » . جلسنا بالقرب من المسرح ، اخذت اترقب وصول الفنانات وكانت اول مـــرة اشاهد فيها ما يسمونه « بالنمرو » . جاءت الفنانات وعرضن ما امكنهن من فن ومفـــاتن . كنت قد تناولت كأس عرق واحـــد ، وكانت المرة

الأولى التي اذوق فيها طعم العرق . فشعرت بنشوة دفعتني الى ان اصفق بحماس ، لكل حركة تقوم بها الفنانات . اخذ رواد الكباريه ينظرون إليّ باستغراب ، خصوصاً وان ارتياد الكباريهات في تلك الايام ، كان مقتصراً على الرجال فقط . ولم يكن مألوفاً لديهم ان يروا فتاة تدخل مكاناً كهذا ، ثم تجالس رجلاً تشاركه الشراب ، وتزعج من حولها بتصفيقها الحاد المتواصل . واعتقدني بعضهم غريبة ، قادمة من احدى البلدان الاجنبية وكثيراً ما كان يحدث لي هذا الالتباس ، ان في مصر ام في الشام ام في بيروت ، إذ كان لون شعري وصفاء بشرتي ، يحملان من يراني على الاعتقاد بانني لست عربية . وكنت الاحظ الدهشة البادية على الوجوه ، عندما يصغون اليّ اتكلم اللغة العربية بطلاقة .



مدام جانيت

ما ان انتهى القسم الاول من « النمرو » حتى اقبلت نحونا « مدام جانيت » ترحب بالسيد شمعون وتسأله :

ـ هل المادموازيل اجنبية ؟ انها تبدو كالغربيات تماماً .

فضحك وقال : قد تبدو هكذا لكنها ابنة عرب .

ـ واين تقيم ؟

ـ انها قادمة من مصر حيث عملت في الفن .

ـ باين عليها . وماذا تعلمت في مصر ، الرقص ام الغناء ؟

ـ فأسرعت اجيبها :

ـ الرقص والغناء معاً ؟

– أترغبين في العمل معنا ؟

– ليس لدي مانع .

– ومتى تريدين القيام بتجربة صغيرة قبل البدء بالعمل ؟

– عندما تشائين .

– أيمكنك الحضور غداً في النهار ؟

– في اي ساعة من النهار ؟

– من العاشرة الى الثانية بعد الظهر .

– حسناً !

– هل لديك ثياب للعمل ؟

– كلا !

– وماذا كنت ترتدين في عملك في مصر ؟

– لم اعمل في « الموزيك هول » في مصر ، بل مثلت ادواراً عديدة في مسرحيات كبيرة !

– وهل سبق لك ان رقصت وغنيت في تلك الأدوار ؟

– نعم وعلى احسن وجه ، بشهادة اساتذتي وكل من شاهدني .

– على كل حال احضري غداً ، وسنتدبر الامر !

وهكذا لم يكلف السيد شمعون نفسه عناء سؤال مدام جانيت ، بل حملها على ان تطلب مني هي بنفسها العمل في مقهاها . كان يعرف انها تبحث عن فتاة عربية تعمل عندها ، الى جانب الفتيات الاجنبيـات . واكتفى بأن رافقني اليها ، فما ان رأتني حتى أسرعت تعرض علي العمل في صالتها .

كانت مدام جـانيت سيدة حازمة قديرة ، يعرفهـا افراد الطبقة

الارستقراطية في بيروت . وكانت حالتها بعيدة عن التهريج ، كما كانت فناناتها يترفعن عن الابتذال . وحدث ذات ليلة ان تقدمت مغنية مشهورة تــلم ما كانوا يسمونه « بالكيت او البارصة » ، وكان برفقة الفنانــة زوجها . فاقترب منها احد الوجهاء البيروتيين وأسر اليها :

« سأعطيك خمسين ليرة ذهباً اذا ما رافقتني الى نهر الكلب » .

فحدجته طويلا وأجابت :

« وزوجي مستعد لاعطاء اختك مئة ليرة ذهباً ، اذا رافقته الى حيث تقول !

طار عقـل الوجيه وامسك بكرسيه ليقذفها به . فحال رفــاقه دون ذلك وقالوا له :

« طرقت الباب فسمعت الجواب . ان مجرد عملها في هذا المكان لا يعني انها سترافقك الى حيث تريد . »

كان العمل عملا بالمعنى الصحيح ، وكانت الفنانة تتصرف بنفسهــا حسب مشيئتها .

عند انتهاء السهرة عدت الى الفندق الصغير ،وفي رأسي الف حلم وحلم . لم انم ، ومن اين لي أن انام ؟ وقفت أمام المرآة ، انظر الى قوامــي تارة ، والى بشرتي وعيني وشعري تارة اخرى . واسائل نفسي بقلق ، هل ان الفنانات الاجنبيات اجمل مني ، هل بامكاني ان اقف على المسرح بنفس ثقتهن ؟ سرني جواب المرآة ، اذ عكست امامي صورة صبيــة حسناء ، لا تنقصها رشاقة الاوروبيات . واخذت استعيد واعيد الاغنيات والطقاطيق التي حفظتها في مصر ، وفي المقهى حيث كانت تغني السيدة منيرة المهدية . بقيت على هذه الحال الى أن ازفت الساعة العاشرة صباحاً فتوجهت مسرعة الى صالة مدام جانيت .

وجدت « المدام » تنتظرني برفقة عازف البيانو الذي سيمتحن صوتي . فرحبا بي وقال لي العازف يشجعني : « هيا يا صغـيرتي الحلوة ابدئي بالغناء ، اسمعينا صوتك ، لا بد انه في مثل جمالك . »

اخترت اغنية كان لها منزلة خاصة في نفسي فغنيت « عصفـوري يا عصفوري » . راقت لهما الاغنية وارتاحا الى صوتي ، وسرعان ما الف العازف اللحن ورافقني على البيانو . كان اللحـن لطيفـاً ، فاستحسنه الموجودون واخذوا يرددون معي بعض مقاطعه . سألني عازف البيانو ، وكان يدعى نيكولا ، اذا كنت اعرف الحاناً اخرى . فأجبته باعتزاز :

« هو هو ، عندي مجموعة من الطقاطيق لم يسبق لأحد ان سمعها في كل سوريا . » (كنا ما زلنا قبل الحرب الكونيـة الاولى) . فسرت « المدام » ، وارادت ان تشجعني فاقتربت تربت على كتفي قائلة .

« سأهديك اول فستان تظهرين به على المسرح ، ومن بعدها تتدبرين أمرك بنفسك » .

ومما يسرني ذكره ان « مدام جانيت » ما زالت على قيد الحياة ، وهي تقيم في لبنان . التقيتها عدة مرات وكأني التقي شبابي ، اذ زارتني هنا في شتورا ، كما ذهبت اليها في مصيفها في برمانا . وما اجمـل ما استعدناه من ذكريات وحسرات خلفها الشباب لكلينا .

كنت في صباح كل يوم أذهب الى الصـالة وأجلس بقرب نيكولا الذي كان يكتب « النوطا » ، ويرافقني على البيانو . كنا نتمرن عـلى القطع التي سألقيها ، وكنت قد اخترت اغنيات لا بد ان الامهات والآباء على الاصح ما زالوا يذكرونها : « يا منعنشة يا بتـاعة اللوز » ، « مصر الجديدة » ، « يا شمعة العز » ، « اسمر ملك روحي » . وكانت جميعها من أغاني السيدة منيرة المهدية . وبعد ان انتهينا من اعداد الاغنيات قالت لي « مدام جانيت » :

« والآن اريد ان اراك ترقصين .

– عال ولكن لا يمكنني الرقص إلا اذا رافقتني موسيقى عربية .

– ألا يمكنك الرقص إلا برفقة الألحان العربية ؟

فتدخل نيكولا قائلا :

« دعيها لي . حاولي يا بديعة الرقص على هذا اللحن ! »

واخذ في عزف لحن كان شائعاً في تلك الايام :

آه يا اسمر اللون
حياتي الاسمراني ،
حبيبي وعيونو سود
اما الكحل رباني .

أعجبني اللحن والكحل والسمار ، فأخذت اتنقل بخفـــة ورشاقة ، لا أكـــاد ألمس الارض . فتحمس لي الفنانون ، وصاروا يصفقون بحماس ويستعيدونني ، وانا أجود ، الى ان ارتميت من التعب . وبعد ذلك حددنا ليلة ظهوري على المسرح ، وكانت ليلة الخامس عشر من ايلول سنة ١٩١٤ ليلة من ليالي العمر لم ولن أنساها .

كانت صالة « مدام جانيت » تقع حيث تقع سينما « كريستال » اليوم ، وكانت في منتهى النظافة والتنسيق . أضفت عليها صاحبتها هـــالة من الذوق والاناقة ، وكانت تشرف بنفسها على كل كبيرة وصغيرة فيها . كان يقصدها علية القوم من بيروتيين وضيوف ، جاؤوا من الجبل اللبناني او من البلاد العربية المجاورة .

كانت الصالة تقدم برامج جميلة متقنة ، وكان عدد الفنانات في تلك الليلة اليتيمة يزيد على اربع عشرة فنانة اجنبية ، كنت اصغرهن ، والعربية الوحيدة بينهن . كن ينظرن الي باستخفاف وترفـــع وازدراء . وكنت

أخشاهن لخبرتهن الطويلة ، تلك الخبرة التي كانت تنقصني . كن انيقات يرتدين الأزياء الجميلة ، بينما كنت ارتدي الفسطان الذي قدمته لي « المدام ».

وما ان شاهدنني استعد لدوري حتى قالت احداهن : « ان هـــذه الفتاة العربية جديدة وجاهلة ، ولا يمكننا ان نظهر قبلها على المسرح . دعيها تقدم نمرتها قبلنا » .

فسألتني المدام :

« هل لديك مانع في الظهور الآن ؟

ـ لا مانع عندي البتة !

فوقفت بجانبي تشجعني ، واخذت الموسيقى بالعزف . اتكلت على الله وتقدمت على المسرح بخفة وتمهل . وما ان تقدمت بضع خطوات ، حتى تعالت عاصفة من التصفيق . عندما رأيت الجمهور يرحب بي على هـــذا الشكل ، هدأ روعي وخفت طرقات قلبي وابتسمت ارد له التحية . غنيت اول قطعة « عصفوري يا عصفوري . » وبعد ان انتهيت منهـــا ماجت الصالة بعاصفة ثانية من التصفيق والاستحسان . اخـــذت اغني والجمهور يعيدني ويستزيدني ، وتحول الحماس والاستحسان الى نوع من الجنون عندما قدمت رقصتي الاولى . واخذ كل من في الصالة يناديني بأعلى صوته ، الى ان تقدمت صاحبة الصالة ، واعتذرت عني ، اذ كان قد انهكني التعب .

وبعد ان ارتحت قليلا وابدلت ثيابي ، اقتربت مني « مدام جانيت » « هيا يا حبيبتي خذي هذا الصحن ولمي « الكيت » اسقط في يدي . لم اكن اعلم ان تلك كانت عادة الفنانات ، ينزلن بين النظارة ويجمعن ما يجود به هؤلاء . صعقت عندما سمعت صاحبة الصالة تدعوني الى القيام بما كانت تقوم به باقي الفنانات . وكنت اخشى ان التقي احد معارفنا ، اذ كنت قد احتفظت باسم عائلتي . كان اقاربي من كبار تجار بيروت ، وكنت

اتوقع ان التقي بهم في كل دقيقـــة . رضيت عـــلى مضض ، امسكت بالصحن وسرت بين جموع النظارة ، الذين جادوا عـــلي بكرم منقطـــع النظير . وعندما لم يعد صحني يتسع لمزيد ، تطوع احد الموجودين وقدم لي قبعته لاتابع تجوالي في الصالة . بعد انتهائي من مهمتي ، عدت الى المسرح وانا اقفز من الفرح ، اذ لم اكن اعلم ان من حق « المدام » ان تقاسمني ما جاد علي به الجمهور . وفي هذه المرة ايضاً رضيت على مضض ، اخذت مدام جانيت « حصتها وبقي لي على ما اذكر مـــا يقارب الثمان ليرات ذهباً .

ليس بامكاني ان اصف فرحتي بهذا المبلغ ، الذي كان لي بمثابة ثروة كبيرة . اذ كنت في مصر اعمل طيلة شهر كامل لقاء مبلـــغ مماثل . نادتني « المدام » قائلة :

« هناك من يريد معرفتك ، تعالي اقدمك لهم . »

اذن صح ما توقعته . رافقتها الى الصالة ، حيث قدمتني الى عـــدد من شبان بيروت الاغنياء . اذكر منهم ابراهيم سرسق ، انيس طراد ، قيصر حبيس ، واكيم نجار ، جورج فرج الله وغيرهم .

فنظروا الي بفضول وسألني احدهم :

« هل انت من عائلة مصابني ، اقصد عائلة مصابني المعروفة ؟

ــ نعم !

ــ وهل يعلمون انك « ارتيست » ؟

ــ كلا ، ولكنهم حملوني على ان اصبح « ارتيست » .

ــ كيف ؟ لا يمكنني ان اصدق ان هناك صـــلة قربى تجمـــع بينك وبينهم .

ــ هل لك معرفة بهم ؟

ـ طبعاً !

ـ طيب ، ارجوك ان تبلغهم سلامي ..

ـ وماذا أيضاً ؟

ـ ان تقول لهم ان ابنة عمكم بديعة تعمل ارتيست عند « مدام جانيت » ...

ـ وكيف توصلت الى العمل هنا ؟

ـ اسأل ابناء عمي انهم ادرى بالسبب ؟

ـ ألا يمكننا معرفة هذا السبب ؟

ـ ولم لا ! مات ابي واحترقت مصبنتنا وتراكمت علينا المصائب فلجأت اليهم مع والدتي ، وانا طفلة شريفة . فأرادني جورج ان أكون خادمة في منزله ...

ـ وليان ؟

ـ اما شقيقه ليان فطردنا بسرعة كي لا نزعج الخادمة الزوجة الحاكمة بأمرها في بيته ...

ـ والآن ؟

ـ والآن لم اعد احفل بهم ، واريد ان أعيش حياتي على هواي .

ـ وهل ما قلته لنا صحيحاً ؟

ـ اذا لم تصدقوني اسألوا شيخ الحي فضول الصباغة او الياس الفران لانهما حاولا حمل جورج على الاهتمام بأمرنا .

ـ وماذا قال جورج ؟

ـ جورج جبان . لم يجرؤ على الاهتمام بابنة عمه ، فتركها تخرج الى الشارع فقيرة مذلولة .

ـ ومن بعدها ؟.

ـ ومن بعدها تجولت في بلاد الله وكانت هذه الصالة آخر المطاف .

ــ اتريدين الاحتفاظ باسمك ؟

ــ طبعاً !

ــ وإذا اعترض ابناء عمك على ذلك ؟

ــ من حقي ان احتفظ باسمي ، ولا شأن لهم بذلك ؟

ــ واذا حاولوا منعك ؟

ــ فليحاولوا . لو كان هذا الاسم عزيزاً عليهم ، لما تركوني عرضة للفقر والمرض والجوع .

ــ اذن انت مصممة ؟

ــ نعم ! ان اسمي هو كل ما تبقى لي من والدي وسأحتفظ به .

ــ انهم اغنياء ...

ــ سيصبح لي مثل ثروتهم .

ــ سيثور جورج ولا ريب ، عندما يعلم انك تعملين هنا .

ــ ليفعل ما يشاء .

ــ ألست تخشينه ؟

ــ انني لا اخشى سوى الله !

ــ انه ابن عمك .

ــ لم يراع هو حرمة القربى ، ولمـــاذا اراعيها انا ؟ لقد ارادني ان اكون خادمة واردت ان اكون سيدة نفسي .

ــ ستعملين هنا مدة طويلة ؟

ــ سأعمل ما طاب لي العمل ..

ــ لن تتراجعي عن قرارك ؟

ــ كلا ! أرجو ان نتحدث في موضوع آخر » .

أجبت على اسئلتهم الفضولية باقتضاب ، واقتنعوا اخيراً بانني فعلا من

عائلة مصابني وابنة عم جورج وليان . وكنت بعد النجاح الذي اصبته ، والذي لم أكن اتوقعه ، قد اصبحت اثق بنفسي ، واستمد من ذلك النجاح قوة وصلابة . لم اعد اعبأ بمن يعرفني او يعرف اقربائي ، بل شعرت ان بامكاني ان اتحدى العالم اجمع . لقد تسنى لي ان انتقم منهم ، وان اذيقهم ما اذاقوني اياه . طردوني من منزلهم ، وعاملوني معاملتهم لخادمة فقيرة ، وها ان أغنى اصدقائهم يجالسونني ويتوددون الي بمنتهى اللطف والرقة . لقد احتقروا فقري فأصبح الذهب ملء يدي .

وبسرعة البرق تطاير الخبر في بيروت . خبر مفاده ان في صالة جانيت ارتيست ابنة عرب تغني أغنيات منيرة المهدية ، وترقص كأحسن ما يكون الرقص وارشقه . انها جميلة وجذابة ، هذا المهم ، اما الأهم فهو ان هذه الفنانة تنتمي الى عائلة مصابني ، واقرباؤها من تجار بيروت المعروفين . اسمها بديعة وهي قادمة من مصر ، حيث تعلمت الرقص والغناء على يد أشهر الاساتذة وأقدرهم .

ومن جراء هذا الخبر ، عرفت صالة جانيت في تلك الايام ، اقبالاً لم يسبق لها ان عرفته من قبل . فأخذ الشباب يقصدها من كل حدب وصوب ، من الاحياء البعيدة ومن القرى العالية ، حتى أصبحت تضيق بمن فيها . كنت ما ان أظهر على المسرح ، حتى تعلو عاصفة من التصفيق والهتاف . وكنت قد استبدلت الفسطان الذي قدمته لي « مدام جانيت » في الليلة الاولى ، بفساطين اخرى تزيد جمالي وتبرز فتنتي . ماذا حل بالفنانات الاجنبيات اللواتي احتقرنني وترفعن علي ؟ لقد تمزقن غيظاً ، وكن ينظرن الي وفي عيونهن حقد الانثى الغيور الغاضبة . اما انا فكنت ابتسم مشفقة عليهن ، وكان نجاحي انتقاماً كافياً فش غلتي ، واراحني مما كن عليه من تعنت وكبرياء . كما انتشرت الاغاني التي كنت ارددها واصبحت على كل شفة ولسان .

جنت مدام جانيت من عملي عندها أرباحاً طائلة . كنت في كل ليلة اجمع من « الكيت » ، مبالغ وفيرة تقاسمني عليها وأحتفظ لنفسي بما تبقيه لي منها ، وعندما تأكدت من نجاحي واقبال الجمهور المتزايد ، اتفقت مع السيد أسعد طراد واستأجرت محلاً جديداً ، لنعمل فيه اثناء اشهر الصيف . كانت تلك الصالة تقع على الزيتونة ، وهي ما زالت قائمة الى الآن ، وتدعى « مقهى الحمراء » .

باشرنا بالعمل وانتقل جمهورنا معنا الى الصالة الجديدة .

وفيما انا في نشوة النجاح والشهرة ... اعلنت الحرب الكونية الاولى . فذعر الناس ، وعدلوا عن ارتياد الاماكن العامة . كان على البيروتيين كرعايا اتراك ، ان يحاربوا في الجيش التركي .

لم تكن تروق لهم فكرة الانخراط في جيش دولة ، اذاقت بلادهم من الهوان والتنكيل . فكانوا يتهربون من الجيش ما أمكنهم إلى ذلك سبيلا . فمنهم مثلاً من كان يدفع جزية معينة ، ومنهم من كان يرحل الى الجبل اللبناني ، ومنهم من كان يفضل ان يتوارى عن الانظار . وكان اذا ما اتفق لأحدهم ورماه سوء طالعه في صفوف الجيش التركي ، انقطعت اخباره ، اوعاد هزيلاً مريضاً لا يقوى على شيء . كم من عائلة ثرية انفقت ثروتها في دفع جزية ابنائها . وكم من عائلة تفرق شملها هربا من « العسكرية » .

كان الاتراك يعلمون مدى كره البيروتيين لهم ولجيشهم ، وكانوا

يعلمون ايضاً الأساليب التي كان يتبعها هؤلاء ، لانقاذ انفسهم من موت محتم . فكانوا يداهمون المنازل الهادئة والاماكن العامة المكتظة بالناس . كم من مرة ذعر جمهور صالتنا ، عندما كان يجد الجنود الاتراك يطوقوننا للبحث عن من تحتم عليه سنه الانخراط في صفوف المحاربين . كان ما ان يقبل الجنود ، حتى يضطرب كل من في الصالة ويفر بجلده من وجههم الأمر الذي اوقف العمل في المقهى الجديد ، وحمل « مدام جانيت » على اقفاله والعودة الى الصالة القديمة . بقينا مدة من الزمن لا نرى احداً ممن اعتادوا التردد علينا والاقبال على برامجنا باستمرار ، الى ان اعتادوا حالة الحرب وألفوها ، وعادت التجارة الى سابق عهدها ، بعد النكسة الـتي اصابتها في ايام الحرب الاولى .

وجد في لبنان كما يوجد في كل بلدان العالم ، من تآمر مع الاتراك على اهله وجيرانه . تاجروا بكل ما وقعت عليه أيديهم ، تاجروا بقوت الناس وبأرواحهم . لم يتورعوا عن الاسهام مع السفاح جمال باشا في الحصار الاقتصادي المشهور ، الذي حصد المئات من اللبنانيين ، وحمل المئات الاخرى على الهجرة الى البلدان البعيدة . وما زلت الى الآن عندما تقع عيني على قرية نائية ، وعلى ما فيها من بيوت خربة ،اتذكر تلك الايام ، واذكر ما كانت عليه تلك المنازل قبل عـام ١٩١٤ من خير وبحبوحة . دبت المجاعة في كل انحاء لبنان وعم الضيق الجميع ، وكنت ترى البيوت الجميلة تباع ببضعة ارغفة او برطل من الشعير .

وكنت قلقة على مصير شقيقتي نظلة في قريتها البعيدة . ماذا حل بها يا ترى ؟ هل ما زالت على قيد الحياة هي وابناؤها ؟ ام انها لاقت حتفها من الجوع والمرض ، شأنها شأن المئات من اللبنانيـين سكان القرى ؟ وتساءلت عن الطريقة التي تمكنني من ان ارسل لهم ما ينقذهم من الجوع والمرض . وفـيما كنت في حيرتي تلك ، جاءني رسول من قبل احمـد الشرقاوي ، وبادرني بقوله :

« سنقيم حفلة ساهرة نريدك ان ترقصي وتغني فيها ..

– وما هو المبلغ الذي سأتقاضاه لقاء ذلك ؟

– خمس ليرات ذهبا .

– ولكن يجب ان تستأذنوا « مدام جانيت » اولا .

– سنفعل .

– بقي شيء آخر ! كيف تريـدونني ان ارقص واغني من غـير موسيقى ؟

– لقد اتينا بتخت صغير ، مؤلف من عازف عود ، وقانون وكمان ودف ودربكة ..

– وهل لي ان أعرف موعد هذه السهرة ؟

– بعد ثلاثة ايام ..

– حسناً ، ولكن يجب ان اجتمع بالعازفين ، لنتدرب معاً على الاغاني التي سألقيها في حفلتكم .

– ومتى تريدين الاجتماع بهم ؟

– غداً قبل الظهر !

وفي الغد حضر افراد التخت في الموعد المحدد . دخلوا الى الغرفة التي كنت اقيم فيها في الفندق والدهشة بادية على وجوههم كانوا لا يبالون بوجودي ولا يوجهون لي الكلام ، بل يتبادلون المجاملات مـع بعضهم البعض ، اعتـقاداً منهم بأنني اجنبية لا أدرك ما يقولون . فضحكت وبادرتهم :

– لماذا لا توجهون لي الكلام ، انني ابنة عرب مثلكم .

– ولماذا لم نسمع عنك قبل اليوم ؟

ـ لأنني قادمة من مصر حيث تعلمت الرقص والغناء . ولدي أغاني جديدة لم تسمعوها من قبل ، واذا شئتم غنيتها برفقتكم في حفلة الليلة .

— وهل ترقصين ؟

— امال ، افرنجي وعربي .

شرعوا في العزف ، وشرعت في الرقص ، حتى ايقنت من انني سأنجح كما نجحت في صالة « مدام جانيت » . تابعنا تدريبنا خلال ليلتين متتاليتين الى ان أزف موعد السهرة .

ذهبت الى الحفلة الساهرة ، وكانت اول حفلة خاصة أحييتها في حياتي . وكم كانت دهشتي كبيرة ، عندما وجدت نفسي وجهاً لوجه امام اصحاب الاسماء التي كانت ترددها بيروت ، وقلبها منقبض من الخوف والرهبة . كان هناك عبيدو الانكدار واحمد عبد العال والجاك واحمد الشرقاوي وشقيقه خليل . وكانوا قد اقاموا هذه الحفلة تكريماً للضباط الاتراك ، الذين لم اكن قد التقيت احدهم بعد . اما الذي لفت نظري واسترعى انتباهي بين هؤلاء جميعاً فكان ضابط تركي جميل يدعى صلاح الدين ، وكان لصلاح الدين هذا ما لم يكن لسواه من زملائه الضباط ، اذ كانت تربطه بجمال باشا علاقة قربى وثيقة ، وصداقة شخصية حميمة .

اخذت في مراقبة الضابط التركي الوسيم ، وسرعان ما تبين لي انه يتابعني بنظراته اينما اتجهت ، ولم يحاول اخفاء اعجابه بي . سرني ان أكون قد رقت له ، وتمنيت لو انني تمكنت من ان ارحب به بكلمة رقيقة . ولكن لسوء حظنا معاً لم يكن صلاح الدين يحسن اللغة العربية ، وكنت من جهتي ما زلت أجهل اللغة التركية ، ولم اكن اعرف منها بعد سوى عبارة :

« تركشا بلمسن الله ثان كركماسن » .

اي ان « من لا يعرف التركية لا يعرف الله » .

غير أن القلوب ليست بحاجـة الى تزويق الكلام ، وكانت النظرات كافية لأن تربط بين قلبينا . ومتى كانت الكلمات هي التي تقرب فنانة ناشئة ، من ضابط وسيم في بلاد يجهل لغتهـا ، ويحترس من صداقـة رجالها . حدث لنا ما يحدث عادة في ظروف مماثلة ، فكانت منـه نظرة ومني ابتسامة ، منه تحية ومني اغنية وثنية ، الى ان اصبحنا اصدقاء دون ان تعوزنا التعابير المزوقة . ابقيت على صداقة صلاح الدين مدة طويلة ، كنا نحيي خلالها السهرات الجميلة في كل اسبوع تقريباً . لم يكن يرفض لي طلباً مهما كان صعب التحقيق . وكنت ما زلت اعيش في الفنـدق الصغير ، الذي قصدته يوم وصلت الى بيروت ، برفقـة السيد يوسف شمعون . ولم ينقصني شيء بالرغم من الضيق الخـانق التي كانت تتخبط به البلاد .

بدأت المجاعة تأخذ بخناق سكان الجبل ، وكانت تروى عنها قصص مخيفة تقشعر لهـا الابدان . فمنهم من كان يؤكد ان ليس في الجبل ما يقتات به اهله ، ومنهم من كان يقول انه رأى بأم عينه البعض يأكلون لحم الكلاب والقطط . وبالفعل اشتد الضيق الى درجة ألفنا معها اخبار الموت من الجوع . ولم يعد احد يحفل بالموت والموتى ، بل كان كل همه ان يدرأ عن نفسه ما حصل لجاره او لابنه او لأخيه . ومن بين القصص العديدة التي رويت في تلك الايام السوداء ، قصة موجعة لم ولن أنساها .. قصة تقول انه كان لاحدى النساء ولد وحيد هو كل ما أبقته لهـا المجاعة . غير ان المرأة لم تقوَ على اعالته ، فما عتم ان مات جوعـاً . وما ان شعرت امه انه فارق الحياة ، حتى أقبلت عليه كالمجنونة لا لتبكيه وتتحسر عليه ، ، بل لتفتح يده الصغيرة بقسوة وتنتزع منها كسرة خبز كانت قد حصلت عليها بعد جهد كبير .

كانت هذه الاخبار تتردد بكثرة ، وكانت تقلقني على مصير شقيقتي في قرية شيخان . فلم أعد اقوى على الصبر ، بل قصدت الى صلاح الدين أطلب منه اذناً بأن اذهب الى قرية شقيقتي وآخذ لها كمية من الطحين والسكر والأرز . لم يمانع ، بل أغدق علي بكرم ما طلبته منه ، وأرسل برفقتي احد افراد حاشيته لينقذني من التفتيش في مخفر النهر .

ذهبت الى شيخان ، غير انني لم اقطع الطريق سيراً على الاقدام هذه المرة ، ولم أطرق ابواب المحسنين استجدي رغيفاً وفراشاً ، بل امتطيت جواداً مطهماً ، وجررت ورائي ثلاث حمير تنوء باحمالها . كنت في طريقي الى القرية الجميـلة ، استعيد ذكرى الطفـلة البائسة المشردة ، التي كانت تسير بجهد الى ان ترتمي من الاعياء . ذكريات قريبة ومرة ، لن اقوى على التحرر منها ، وان كنت قد تحررت من الفقر والحاجة . ترى لو لم ألجأ الى الفن ، هل كنت سأنجو من كابوس الفقر ، وهل كان بامكاني ان أسير الآن على هذا الجواد الأصيل ، وان آخذ لشقيقتي هذه الخيرات ، بينما الناس تبيع منازلها لقاء بضعة أرغفة او قبضة من الشعير القـديم ! ولو لم أحيي تلك الحفلة لما التقيت الضابط التركي ، ولولاه لما كنت الآن في مأمن من الجوع والموت .

كان منزل شقيقتي يقع في اول شيخان ، وكان يبعد مسافة كبيرة عن سائر منازل القرية . تعمدت ان أصله في الليـل ، ليحول الظلام دون الاعين الفضوليـة ، ولأتقي هجوم من قسا عليهم الجوع ، فلم يعـد بامكانهم ردع انفسهم عـن ارتكاب اي شيء . وكان منظر الاحمـال الثقيلة تتهادى على ظهور الحمير ، كافياً لان يحمل الجائعين على مهاجمتنا والاستيلاء عليها . ولكن الله سلم ، ووصلنا الى شيخان ، دون ان يعترض سيرنا أحد . كانت اول مرة أقابل فيها شقيقتي ، بعد ان فارقت والدتي وعملت على المسرح . فوجئت نظلة بظهوري امامهـا على حين غرة ،



بديعة سنة ١٩١٥

فشهقت من فرحها وارتمت علي تقبلني وتبكي . لم أسألها عن زوجها ، بل نظرت الى ثيابها السوداء وادركت انه توفي منذ وقت قريب .

جلست شقيقتي بقربي تنظر الى ثيابي الأنيقة ، وكأنها تتساءل من اين لي هذا ؟ غير انها لم تشبع فضولها ، بل بادرتني بلطف :

ـ اين امي .. هل ما زالت تعيش معك ؟

أجبتها برفق : أرجوك ان تدعي هذا الحديث لمرة اخرى !

نهضت أهمّ بالعودة ، فحاولت ان تستبقيني عندها في تلك الليلة ، الا انني اعتذرت لها ، وقلت ان علي ان أعود الى بيروت ، لانجاز عمل هام لا يمكن تأجيله .

عدت الى المدينة فوجدت صلاح الدين بانتظاري . شكرته على صنيعه وصرت أترقب الفرص لارسال ما يسعني ارساله الى منزل شقيقتي . وفي هذه الاثناء اشتد الحر بعد انقضاء فصلي الشتاء والربيع ، واستحال علينا العمل في الصالة القديمة ، فارتأت « مدام جانيت » ان نعود الى الزيتونة . ولكن قبل ان أرافقها الى المقهى الجديد قلت لها بصراحة :

ـ لم يعــد بامكاني العمل مع الاوركسترا ، أفضّل ان يرافقني تخت عربي .

ـ كم يكلف مثل هذا التخت ؟

ـ لست ادري .. على كل حال سأحضرهم غداً وستلمسين الفرق !

وفي اليوم الثاني ، أحضرت التخت الذي كنت أرقص وأغني برفقته في السهرات الخاصة ـ تلك السهرات التي كان يستطيبها صلاح الدين ـ فاستحسن الجمهور عزفهم ، وصفق لنا كثيراً . استعادوني مراراً وتكراراً الى ان رجوتهم ان يكفوا عن التصفيق والهتاف . لمست « مدام جانيت »

الفرق ، وتأكدت من ان الجمهور يفضل التخت على الاوركسترا . غير انها قالت لي مترددة :

– لديّ فرقة اوركسترا كاملة ، ولن أتمكن من ان ادفع لكل هؤلاء العازفين في التخت .

فهونت عليها بقولي :

– سنكتفي بثلاثة منهم .. تدفعين انت نصف اجرهم وأدفع انا النصف الباقي .

عملنا مدة طويلة على هذا الاساس ، وجنى كلانا ارباحاً طائلة كانت تبعد عنا شبح الخوف من الجوع المتربص بالجميع .

لم تطل بنا المدة حتى انفصلت عن « مدام جانيت » احدى الفنانات ، بعد ان تجمع لديها ما مكنها من اخذ محل لحسابها . كانت تدعى « مدام سيمون » ، وكانت لا تنقص عن صديقتها وزميلتها خبرة ودراية . فافتتحت محلاً جميلاً يستقبل الرواد من محبي الرقص والتزحلق . كان هذا النوع من المقاهي جديداً على البيروتيين ، فأقبلوا عليه بكثرة . كما اعتدت الذهاب اليه كلما سنحت لي الفرصة . كان قد مضى علي وقت طويل لم تتسن لي فيه ممارسة الرياضة التي سبق لي وأدمنتها في مصر . كنت اسرع الى مقهى « مدام سيمون » ، بصحبة صديقاتي من الفتيات العربيات ، لاتحدى الاجنبيات واتفوق عليهن خفة ورشاقة .

وقد تحول هذا المقهى الآن الى « مقهى الشامات » ، وما زلت اتردد عليه لأدخن النرجيلة واستعيد ذكريات الصبا والحب والجمال ... « ... أواه لو قدر المشيب ! » .

بعد انقضاء الصيف ، ومع تباشير ليالي الشتاء الطويلة ، جاءني من يعرض علي العمل في مقهى « كوكب الشرق » . كانت شهرتي قد

تطايرت في كل انحاء المدينة ، وكان الجمهور يقبـل على مقهى « مدام جانيت » ، خصيصاً ليشاهدني ارقص وليسمعني اغني « يا منعنشة يا بتاعة اللوز » وغيرها . اقبل اصحاب « كوكب الشرق » يعرضون علي مبلغاً سال له لعابي . وكيف لا يسيل لعابي لثلاثين ليرة ذهبيـة من ذوات الحصان . وعدوني بأن لا يقاسموني على « الكيت » ، واعفوني من دفع اجر الموسيقيين وتكفلوا بنفقات التخت . كنا قد عدنا مع « مدام جانيت » الى المقهى الشتوي ، وكانت هي ما زالت تقاسمني على البارصة .

اغراني مـا عرضه علي اصحاب كوكب الشرق ، غير ان ضميري لم يطاوعني على هجر « مدام جانيت » دون علمها . ففاتحتها بصراحة :

« ان أصحاب « كوكب الشرق » ، يعرضون علي مبلغ ثلاثين ليرة ذهبية من ذوات الحصان ، ويتركون لي البارصة ، ويتكفلون بنفقـات التخت اذا ما قبلت العمل عندهم ...

ـ وهل انت راغبة في العمل هناك ؟

ـ شئت ان اطلعك على عرضهم قبل ان اتخذ اي قرار ...

ـ انها ولا شك شروط مغرية ، ولكن لا تدعيها تخدعك . لقـد جئت الى هذه الصالة فنانة صغيرة مغمورة لا يعرفها أحد . وأصبح لك الآن معجبون من علية القوم ، اعتادوا رؤيتك هنا . ويختلف روادنا عن رواد « الكوكب » الذين لا يأتون الى المقهى إلا لشرب العرق ولعب الورق والطاولة ...

ـ ما همني ما دامت شروطهم مغرية ؟...

ـ ان الفنان لا يستطيب فنه إلا اذا تجاوب معه الجمهور . انهم هناك لا يحسنون السمع ...

ـ قد يكون ذلك صحيحاً ، ولكن يؤسفني ان اضطر الى التعاقد معهم ! »

وهكذا بدأت عملي في « كوكب الشرق » . عز علي ان ابتعد عن الصالة التي كنت ادين لها بقسط من شهرتي ، غير انني قلت في نفسي : « لا بأس ، يمكنني ان اعود اليهـا اذا لم يرق لي العمل في « كوكب الشرق » .

كان مقهى « الكوكب » يقع فوق محل « أبو عفيف » في ساحة الشهداء ، وكان فيه مسرح صغير تعمل عليه فرقة اوركسترا ، مؤلفـة من عازفات نمساويات .

ولم يكن يوجد بينهن من الرجال سوى اب وابنه . كن صبايا جميلات يعزفن بمهارة أشهر ألحان تلك الايام . ولكن عند التحاقي « بالكوكب » تبدل كل شيء ، وصرت انفرد باعجاب الجمهور واقباله دون سائر الفنانات . وكان كل من في الصالة يترقب مجيء التخت العربي ليصغي إلى البشرف ، ثم ليراني اقبل بخفة وعياقة ، ارقص واغني فيصفقون ، فأعود لأرقص واغني من جديد . اقف على المسرح بنشوة واعتزاز ، وكأني املك الدنيا . اين مني الآن ضعف ومسكنة وذل الطفولة ؟ اين مني هذه النظرات التي تكاد تلتهمني ، أنظار من كانوا يحتقرونني ويشيرون إلي بالأصابع ؟ لقد ولى عهـد الشماتة والسخرية ، ولى الى غير رجعة ، وحـل محله عهد الاعجاب والافتتان والتحسر . ليتحسروا ما طاب لهم ، ليتحسروا بقدر ما تحسرت !

سرعـان ما بدأت امسك بالصنوج ، وارقص كالفراشة الشقراء ، السكرى باشعة الشمس . اقبل الناس على « الكوكب » اقبالاً لم يعهده اصحاب ذلك المقهى من قبل ، وكثيراً ما كان المتفرجون يتسابقون على السلم ، او يتدلون من النوافذ ليسمعوني اغني او يشاهدوني ارقص . غير انني ما لبثت ان تذكرت كلام « مدام جانيت » ، عندما شعرت ان بين رواد « الكوكب » ، من كان ينسى نفسـه في « دق ورق » او « دق

طاولة » ، فيأخذ في الصياح كأنه في معركة ، او يرمي حجر الطـاولة وكأنه يرمي قنبلة مدوية . لم يكن جميع رواد « الكوكب » من السميعـة الذين يستطيبون اللحن ، ويستعذبون التثني . تضايقت من ذلك الضجيج في بادىء الامر ، غير انني الفته مع الوقت ولم اعد آبه له .

كنت بعد انتهائي من عملي اجالس من يحلو لي من الرواد . لم يكن صاحب المقهى يجرؤ على ارغامنا على مجالسة احد ، غير اننا كنا نفعل ذلك عندما تروق لنـا رفقة احد الشبان الطيبين . واذكر انني لم أكن اقوى على الشراب ، فشكوت امري الى السيد مطر صاحب « الكوكب » ، الذي قال لي :

ــ عندما يسألونك ماذا تريدين اطلبي نبيذاً ...

ــ قلت لك انني لا اقوى على الشراب ...

ــ سنرسل لك عرق سوس بدلاً من النبيذ .

وهكذا كان . كنت اطلب نبيذاً ، فيأتونني بعرق سوس دون علم الزبون ، فأتناول منه كل ليلة ما يزيد على الثلاثين او اربعين كأساً . لم تطل بي المدة حتى أصبت باسهال مؤلم اجهدني وكاد يقضي عليّ . قصدت الطبيب استطلع ما بي . احتار هـذا الاخير بأمري ، ثم سألني بعد جهد :

ــ ماذا تعملين ؟

ــ ارقص في مقهى « كوكب الشرق »

ــ وهل تتناولين كمية كبيرة من الكحول ؟

ــ كلا ، انما اشرب عرق سوس بدلاً منها .

ــ وكم تتناولين منه في كل ليلة ؟

ــ ما بين ثلاثين واربعين كأساً .

ـ اشكري الله اذن على انك ما زلت على قيد الحياة .

لم تكن مجالسة الفنانة لأحد رواد المقهى ، تحتم عليها شيئاً على الاطلاق بل كانت تعود الى منزلها في آخر الليل آمنة مطمئنة ، دون ان يعترض طريقها احد . كان « العرض غالياً » .

لم يكن رواد الصالة يقصدونها للمتعة الرخيصة ، بقدر مـــا كانوا يقصدونها الترويح عن النفس ، لانعـــدام وسائل التسلية في تلك الايام . لم يكن هناك راديو ولا سينما ولا تلفزيون ، ولا ما يرفه عن الاعصاب المرهقة ، سوى عدد قليل من الملاهي على نحو ما ذكرت .

وكانت الفنانة سيدة نفسها ، تتعاطى مهنتها بانفـــة واعتزاز . اذكر في هذا المجال حادثة وقعت لي اثنـــاء عملي في « كوكب الشرق » . كان يتردد علينا باستمرار شاب يدعى بديع بلوطـة ، وكان كريم النفس ينفق عن سعة . في احدى الامسيات ، وفـــيما هو في نشوة الالحان ، ارسل يستدعيني ليقدمني لاصدقائه . وعدته بالمجيء غير انني شغلت عنه ونسيت دعوته . فكررها ، ونسيتها للمرة الثانية والثالثـــة . وعندما اقبلت على الصالة بادرني ، والغيظ يقطر من عينيه : « لماذا يا ست لم تلبي دعوتي ؟

ـ آسفة كنت مصممة على المجيء ، لكنني شغلت بعض الشيء ...

ـ وهل يصح ان ننتظرك ولا تأتين ؟

ـ اكرر اعتذاري ، لم اقصد اهمال دعوتك ...

ـ ماذا اذن ؟

ـ كل ما في الامر انني نسيت ...

ـ هذا عيب .

ـ اسمع ، ما دمت لم تقتنـــع باعتذاري فلن اكرره لك . انني على كل حال حرة بأن لا ألبي دعوتك .

ـ .. ! ارتيست ! »

وما ان تفوه بالكلمة النابية ، حتى اسرعت انتزع فردة حذائي واقذفه بها ، تلقاها وهو مسرع على السلم . امسك بفردة الحذاء ولم يعيدها الي الا بعد اسبوعين . هكذا كنا نعامل من تسول له نفسه مس كرامتنا .

عندما رأى السيد مطر صاحب مقهى « كوكب الشرق » اقبال الرواد على الغناء العربي ، طلب الي ان ابحث عن فنانات عربيات يساعدنني في عملي . لم يطل بي البحث حتى عثرت على الشقيقتين بهية وثريا سميكة . كانت احداهما تعزف على القانون ، بينما كانت الثانية تحسن العزف على العود ، ولم يكن جمالهما يقل عن مهارتهما في العزف . عملت معهما مدة من الزمن ، صادفنا خلالها من الاستحسان ما جعل اصحاب مقاهي دمشق يقبلون على التعاقد معنا . جاءنا من هنـــاك السيد ابو فاضل ، صاحب « مقهى القوتلي » ، واصطحبنا معه الى ملهاه .

كان مقهىً جميلاً ، منسقاً على أحسن طراز ، يمتاز عن سواه من المقاهي بوجود مسرح واسع يمكن للفنان ان يصول ويجول عليه ، من غير ان يخشى السقوط على النظارة . وكانت غرف الفنانين من الرجال بعيدة . لم نكن نراهم إلا خارج المسرح او على خشباته ، اذ لم يكن احدهم يجرؤ على اقتحام غرفنا .

عند وصولي الى الشام وجدت في نفس المقهى الذي كنت أعمل فيه ، الاختين « شطاح » وكانتا من اشهر مطربات تلك الايام . كما التقيت ايضاً جميلة دحروج وعفيفة مواس . كن جميعهن من الفنانات المرموقات ، من حيث الجمال والشهرة ، إلا ان الشقيقتين « شطاح » كانتا تمتـــازان عن سواهما بأن احداهمـــا كانت تحسن العزف على العود ، بينما الثانية لم تكن تجارى في العزف على القانون . كنت المسيحية الوحيدة بينهن اذ كن من بنات « الحارة » اليهوديات .

كنت « جديدة في الكار » ، تنقصني الخبرة التي اكتسبتها من العمل الطويل على المسارح المختلفة ، ومن احياء عدد لا يحصى من الحفلات الخاصة . غير انني على سذاجتي ، أدركت بسرعة الطريقة المثلى التي تمكنني من التصفيق انتزاعاً . كان جمهور تلك الايام يهوى الاناقة ، ويحب الثياب المزركشة . وسرعان ما تفهمت عقليته تلك ، واعتنيت بمظهري ايما اعتناء . كنت ارتدي لكل طقطوقة اقدمها فسطاناً خاصاً . لم أكن اؤدي اغنيتين بنفس الزينة ، بل كنت اسرع الى غرفتي ابدل ثيابي بسرعة البرق ، واعود الى المسرح متباهية بما علي من جميل الثياب وبارق الحلى . وكنت على هذا المنوال ، ابدل اربعة او خمسة فساطين في الليلة الواحدة . بينما كان سواي من فنانات المقهى ، يبقين على حالهن من اول السهرة الى آخر ساعات الليل .

كانت قد درجت العادة في تلك المقاهي ، على ان تظهر جميع الفنانات على المسرح في نفس الوقت ، برفقة التخت والعازفين ، وذلك طول مدة البرنامج . وتأتي كل مطربة او كل راقصة على حدة ، تقدم اغنيتها او تؤدي رقصتها وتعود الى مكانها . وكن يتهافتن على الجلوس في المقدمة ليلفتن انظار الجمهور الى درجة انهن كن في بعض الاحيان يقتتلن على محل في اول المسرح . كنت أصغرهن ، ولا أبالغ اذا قلت انني كنت ايضاً احلاهن ، فاتفقن جميعاً على ان لا يدعنني أقف إلا في المؤخرة ، بطريقة تحجبني عن انظار المعجبين .

لم تطل بي المدة حتى أدركت انها مكيدة مدبرة ضدي لمحاربتي ، وحمل الجمهور على اهمالي . فقلت لصاحب المقهى :

ـ لقد اتفق الجميع على ان لا يدعنني اقف إلا في المؤخرة .. وسيان عندي ان وقفت في اول المسرح او في آخره . ساءهن ما ألاقيه من نجاح ، فتآمرن علي وأرغمنني على تقديم أغنياتي في اول السهرة . سأفعل

مـــا طلبته مني على شرط ان ألم « البارصة » بعد تأدية عملي وأعود الى غرفتي .

فأجابني باستغراب ! :

ـ ولكن درجت العادة عندنا على ان تعود الفنانة وتقف على المسرح الى ان ينتهي البرنامج بكامله ..

ـ ما لي وللعادة التي درجت عندكم ، سأبتكر عادة جديدة . لن افعل إلا ما قلته لك ، ولك ان تتدبر الامر على هواك ! »

اسقط في يد صاحب المقهى بعد ان اوضحت له سبب تصرفي الغريب . كانت زميلاتي في العمل يعتبرنني دخيلة على دنيا الفن في الشام ، وبالفعل لم أكن قد عملت بعد في المدينه التي كنت قد رأيت فيها النور . كان رواد الملاهي ومحبو السهر والسمر ، ما زالوا يجهلون وجودي ولا يعلمون عني شيئاً .

وكنا في تلك الحقبة من الزمن لا نملك من سبل الدعاية ، سوى ارسال مناد الى التجار اصحاب المحال الكبيرة ليعلمهم انه « بتاريخ كذا ، ستصل فرقة كذا . الى المقهى الفلاني » . وينتقل من محل الى آخر ، يشوق هذا ويدعو ذاك ، الى ان يمر على جميع اهل السوق . وكان زيادة منه في محاولة اجتذاب البعض ، يقول لهم ان « فرقة كذا » مؤلفة من اجمل الفنانات بينهن . . . و . . . كانت الدعاية مقتصرة اذن على هذه الطريقة البدائية ، وكانت تفتقر الى الأساليب التي ابتكرها عصر السرعة ، والتي تعود اليوم على اهل الفن بالشهرة الواسعة في كل بـــلد تصله صحيفة او اعلان صغير .

لم أشأ ان ادع لعائلتي فرصة معرفة وجودي في الشام ، قبل ان أبدأ بالعمل خوفـــاً من ان يتعرض لي احدهم ، كما اردت ان افاجىء الجمهور

علـــني اظفر باستحسانه . طلبت من صاحب المقهى ، ان لا يـــدع مناديه يذكر اسمي في الاسواق ، ولم اصارحه بخوفي من اقاربي . وبالرغم من التكتم الشديد الذي رافق وصولي الى الشام ، ما عتم ان انتشر خبر عملي على المسرح . واخذ الناس يتساءلون ، وهم بين مصدق ومستغرب ، كيف تعمل على المسرح فتاة مسيحية ابنة عائلة معروفة . هل صحيح انها بديعة ابنة المصابني ، ام تراها شبيهة لها ؟

كانت تصلني وانا في غرفتي الصغيرة ، ما تتناقله الالسن عن حيـــاتي وعملي ، وعن اشقائي ومكانة عائلتي . كنت اتقبل تلك الاخبار بابتسامة حزينة ، اوليس الذين يترحمون على والدي اليوم ويذكرون ابناءه بالخير ، هم انفسهم الذين اشاروا الي هادرين : ارجموهــــا . لقد تناسوا يومئـــذ خطاياهم على انواعها ، ورجموني باكثر من حجر . لم يبالوا بمكانة عائلتي يوم كنت اهرول الى منزلي خوفاً من ان التقي احدهم ، فتصفعني ابتسامته الساخرة . والآن ، لقـــد فات الوقت ، وهجرت عالمهم الى غير عودة ، هجرته الى الأبد .

وكان بين الذين سمعوا ذلك الخبر ، وصعب عليهم تصديقه شقيقي توفيق ، فاراد بعـــد تردد طويل ان يتأكد بنفسه من وجودي في مقهى القوتلي . وزيادة منه في الحرص على ان لا يراه أحد ، تنكر وجاء بمفرده ليجلس على طاولته وحيداً لا يكلم أحداً ، ولا يدع لأحد فرصة التحدث اليه . شاهد البرنامج بكامله ، غير أنه لم يعرفني في بادىء الامر ، للتغيير الذي كان قد طرأ علي من جراء النعمة والبحبوحة . كنت وانا ألقي أغنيتي ، ارى من بعيد ، رجلاً مقنعاً يتفرس بي باستغراب ، ثم يضع يده على رأسه بحزن وأسى .

ولكن ما ان نزلت عن المسرح ألم « البارصة » ، واقتربت منه حتى كشف القناع عن وجهه . صرخت مذعورة :

« اخي توفيق ! » فهجم علي كالذئب الكاسر يريـد تمزيقي دون ان يبالي بوجود احد . وولولت مستغيثة :

« الحقوني ، ان هذا الرجل يريد قتلي ! »

تراكض جميع من في المقهى وأبعدوه عني . هاج وثار كالحيوان المسعور . اخذ يتخبط بين الايدي القابضة عليه دون ان ينبس بكلمة واحدة من حزنه وخجله . وعندما تعذر عليه الوصول الي ، نظر الى من حوله بانكسار وتمتم :

« اعذروني انني غلطان ! »

وخرج من المقهى ليبكي في الطريق ، خرج يتعثر بذله وانكساره ، « عين بعين وسن بسن » . خرج ليبكي ، ووقفت ابتسم متشفية بدموعه . لقد ابكاني دموعاً ، وها انا ابكيه دماً . لقد أذلني وانا طفلة بريئـة ، وحطمني وانا فتاة شريفة ؛ وها انا أذله في عنفوان رجولته ، وأخرجه من المقهى باكياً ، منكس الرأس . شعرت بلذة الانتقام ومرارته . لقد تسنى لي اخيراً ان أكيل له الصاع صاعين ، ولو على حساب نفسي .

انفردت في غرفتي ، استعيد ما حصل لي على يد هذا الشقيق المحترم . لقد حرمني من الحياة العائلية ومن الامومة الباكرة . لقـد أبعد ما بيني وبين العيشة الرخية الهانئة ، وجـاء الآن يدافع عن الشرف الرفيع . ويشهد الله انني كنت أفضل الف مرة الحياة ، ولو في كوخ صغير ، تظلله المحبـة والسترة ، على الثياب المزركشة وبريق الحلى والليرات الذهبية ، والوقوف الى ما بعد منتصف الليل ابتسم مكرهة لهـذا وذاك . وقررت ان اترك الشام وذكرياتها الحاضرة في ذهني ابـداً ، ونويت العودة الى بيروت ، لأتابع حياتي الجديدة في عالمي الجديد .

كنت خلال اقامتي في فندق القوتلي التابع للمقهى الذي كنت أعمل فيه قد تعرفت على فتاة تدعى ملكة . كانت ملكة تقوم بخـدمة النزلاء

عـــلاوة على عملها في الفندق نفسه . كنت قد اعتدت عليها وأحببتها للطفها ولاعتنائها بثيابي وامتعتي ، ولم يخطر ببالي قط انها ستصبح يوماً من الايام زميلة لي تعتلي المسرح لترقص وتغني .

مضت السنوات ، وأبعد الزمن ما بيني وبين مقهى القوتلي ، وفي احدى الليالي بينما كنت اقضي السهرة في مقهى البارزيانا ، اذا بي ارى راقصة تتثنى برشاقة ، وتبتسم لي ابتسامة معرفة . لاح لي في بادىء الامر انني أعرف هذا الوجه ، ولكن استحـــال علي ان أذكر صاحبته . وما ان انتهت من نمرتها ، حتى أقبلت نحوي تقول :

– ألم تعرفيني ؟

– انني اذكر هذا الوجه ولو لم أعد اذكر صاحبته ...

– يو ! انا ملكة ، هل نسيت ايام الشام ، ومقهى القوتلي ، والثياب المزركشة التي كنت اساعدك على ارتدائها ؟

– اسمعي يا ملكه لقد سرني جداً ان التقي بك من جديد ، ولكن اليك مني هذه النصيحة : لا تحاولي الغناء لان صوتك نشاز ، بل اكتفي بالرقص الذي تجيدينه كما تبين لي الآن !

فضحكت وقالت :

« وهل سمعتني اغني تواشيح او قصائد . لم اغن سوى :

آه يا معـــلم يا معلم

البحر كبير يا معلم

وشخطور صغير يا معلم !

ان الجمهور يضحك علي وانا أضحك عليه لاصغائه الى صوتي النشاز ، كم اتمنى لو اذهب معك الى مصر ، ام انك لا تريدينني ان اعمل معك واسمع المصريين صوتي النشاز ؟

ـ سآخذك الى مصر في اول فرصة ممكنة !

افترقنا من جديد ، ومرت سنوات عديدة جئت بعدهـا الى الشام ، لأتعاقد مع عدد من الفنانات السوريات . عدت فالتقيت ملكـة وكانت تعمل مع ماري جبران . تعاقدت معهما ، وجئت بهما الى مصر . كانت ماري جبران ما زالت حلوة صغيرة السن ، وكان صوتها في غاية الروعة يسحر المستمعين بصفائه ورقته ، التي كانت تضاهي رقة اوتار العود عندما تنقر عليه بنفسها . فأسميتها ماري الجميلة ، وابدلت اسم ملكة بملكة جمال . لم تعد تجوز عليهما الا الرحمة . تبين بعد وفاتهما ان ملكة تركت ثروة لا بأس بها ، بينما لم تخلف ماري جبران سوى ولد ذكر دون ثروة ولا معين .

ما ان عدت الى بيروت حتى انتشر خبر وصولي بين اصحاب الملاهي وكانوا قـد لمسوا النجاح الذي رافق عملي في « كوكب الشرق » . كان يوجد في ساحة الشهداء حيث يقـع « مقهى الفردوس » اليوم ، مقهى جميلا اطلق عليه اسم « مقهى المرصد » ، لصاحبـه ابي عباس . وابو عباس هذا ، كان يستهويه الغناء العربي ، اذا ما رافقته الليرات الذهبية التي ينفقها الرواد عن سعة في ساعة صفاء وانشراح . فأراد ان يقتدي بأصحاب « كوكب الشرق » وحاول ان يستميل الجمهور الى مقهـاه . وعمد الى التعاقد مع بعض الفنانات المعروفات من مطربات وراقصات .

ما ان سمـع ابو عباس بخبر عودتي من الشام حتى أحال عليّ من يقنعني بالعمل معـه . راقت لي الفكرة ، وبدأت أحيي في ملهـاه الليالي الجميـلة ، ونلت من الاستحسان والاعجاب ، ما جعل زميلاتي يتمزقن غيظاً مني . ولكن لم تحاول الاساءة الي والنيل مني سوى واحدة منهن وكانت تدعى عدلة . كانت تقدم نمرتها على المسرح قبلي ، فاتفقت مع بعض الحاضرين على ان يطلبوا منها أغنية ، كنت قـد انفردت في تأديتها . غير ان الجمهور لم يتقبل منها هذه الأغنية بمثل ما كان يتقبلها

مني ، اذ كان صوتها منكراً .. فبـدا الاستياء على الجميع ، وأخذوا يصفرون لها باستنكار ، بينما شرع اصدقاؤها بالتصفيق . ضاعت الأغنية وضاع صوت عدلة بين الصفير والتصفيق ، ونزلت من المسرح ترغي وتزبد : « انت السبب يا ... »

وهجمت على غفـلة مني ، فأمسكت بشعري الطويل وأخذت تشده بقسوة . لم أتمكن من الدفاع عن نفسي لأنها كانت قد باغتتني ، فتمكنت مني ومزقت فسطاني بعد ان قطعت لي عقـداً من الماس الحقيقي كنت أفاخر به . تراكض الرواد وخلصوني منها بعد جهد ، وعندما أفلت من براثنها افتقدت العقد فلم أجده ، بل رأيت حباته وقـد تناثرت تحت الاقدام . حاولت جمعها ، غير اني لم أعثر إلا على عدد قليل منها .. وعندئذ ثارت ثائرتي ، وأدركت ما كانت ترمي اليـه عدلة من وراء هجومها علي بهذه الصورة القذرة . كان قلبها يتآكل من غيرتها مني ، وكانت تريد ان تحول دون ظهوري على المسرح بفسطاني الجميل وعقدي الثمين .. فافتعلت هذه المعركة ليتسنى لها ان تحرمني مما كان يثير غلتها . عزّ عليّ ان تكون قد حرمتني من اول حلية ثمينة في حياتي ، فلحقت بها أريد ان أمسح بها الارض . غير انهم حالوا بيننا ، وأبعدوني عنها قبل ان أفشّ غلتي منها . وعلى كل حال فان العلقة التي قد تنالها مني ، لن تعيد لي الفسطان ولا حبات الماس .

هجرت « المرصد » وصاحب « المرصد » ، وانقطعت عن العمـل ، منزوية في منزلي بعيداً عن الحسد والغيرة . خشي ابو عباس ان اعود الى « كوكب الشرق » ، ويعود معي الى ذلك المقهى ، المعجبون الذين كانوا يتبعونني حيثما ذهبت . راعه ان ينقطع هؤلاء عن ملهاه ، وتنقطع معهم ارباح وفيرة كان يجنيها منذ ان بدأت اعمل عنده . وبعد ان ثبت له انني ضحية بريئة لحقد عدلة وكيدها ، حاول استرضائي بجميع الطرق . لكنه لم يفلح ، اذ اشترطت عليه ان يلغي العقد الذي يربطه بها ، اذا ما اراد

ان أعود الى مقهاه . عندما يئس من اقناعي ، ذهب اليها وارغمها على ان تأتي الى منزلي تعتذر عما بدر منها . اذعنت عدلة لأمره مرغمة ، وجاءت الى منزلي ذليلة صاغرة تعتذر عن سوء تصرفها . وهكذا عدت الى المسرح بعد ان لقنت الجميع درساً ، تعمدت ان يتذكروه دائماً .

لم تكن هذه الحادثة الوحيدة من نوعها بين الفنانات ، بل كان بينهن من يثيرها نجاح زميلة لها ، فتحاول الاساءة الى هذه الزميلة بشتى الطرق . ما زلت اذكر هذه الحادثة ، واتذكر كيف انها حملتني على ان احذر كل من اعمل معه . لكنها لم تحل دون ان احب بعض زميلاتي محبة الاخت لاختها ، كما حدث لي مع ماري بار مثلا . كانت ماري بار صبية سمراء حلوة في غاية اللطف ، ذات قوام معتدل يصلح للرقص . كما كانت خفيفة الروح تتذوق النكتة وتجيدها . اما اسمها « بار » ، فقد اطلقه عليها رواد بار على الزيتونة كانت قد عملت فيه مدة من الزمن . ارتحت لماري هذه ، ولقنتها بعضاً من اغنياتي ، كما علمتها كيف ترقص وتتثنى بخفة ورشاقة ، لم يصعب عليها ادراك ما كنت أنتظره منها وسرعان ما اجادت الرقص وأحسنت الغناء . احببت ماري واحبتني ، وشرعت اقدم بعد النمر برفقتها . استحسن جمهورنا فكرة ظهورنا معاً ، واخذ يشجعنا بالتصفيق الحاد والهتاف المتواصل . لم تعد علاقتي برفيقتي علاقة عمل فحسب ، بل تعدتها الى صداقة متينة ، لا يشوبها الخبث ولا تشوهها المداورة . كانت تلازمني كظلي ، وأباحت لي بانها تحب شاباً يدعى نهاد وجمعتني به . كان هو ايضاً يبادلها حباً بحب واخلاصاً باخلاص ، وتطورت علاقتهما الى درجة حملته على وعدها بالزواج . فثارت ثائرة العائلة الكريمة ، وتساءلت بهلع : ماذا سيحل بالشرف الرفيع لو اقترن « المحروس » بعاملة بار ؟ ان مثل هذه المخلوقات لا يصلحن إلا للترفيه عن المحروس ، اما ان يقترن به فهذا شيء لا يجوز . لم يذعن نهاد لارادة اهله ، بل واظب على زيارة ماري ، ولكن حرصاً

منه عليها كان يلتقيها سراً ، وكثيراً ما كنت اسهل لهما فرصة الاجتماع .

كنت مـا زلت اعمل برفقـة ماري بار في « المرصد » عنـدما حضر من حلب زكي ضاهر وبشير القصير ، وكانا من اصحاب المقاهي المعروفة هناك . كان بشير القصير ، قصيراً جـداً وضخم الجثة ، على خفة دم وطيبة قلب متناهية ، ولم يكن شريكه زكي ضاهر أقل منه طيبة . لم يكن لهما سابق معرفـة بعالم الفن ، بل كانا يجهلانه تمـام الجهل . كانا يديران مقهى فخماً مقسماً على الطريقة الغربية الى ثلاثة اقسام : الاول لفرق التمثيل ، والثاني لفرق الاوركسترا . وكانت تعمل


بديعة في احدى بدلات الرقص

عليه في ذلك الوقت فرقة العازفات النمساويات التي عملت برفقتها في « كوكب الشرق » . اما القسم الثالث فكان مخصصاً للغناء العربي والرقص الشرقي . كان صاحبا المقهى قد أطلقا عليه اسم « لونابارك » . وكان في حلب مقهى ثان يدعى « طبخ نفخ » ، جاء صاحبه الى بيروت ، وتعاقد مع فرقة عازفين ، رافقتها الى حلب مطربة مشهورة لم اعد اذكر اسمها . وكان قد سبق صاحبي « لونا بارك » الى المرصد ، جرجي جرو الملقب بجيجو وميخائيل مغربية صاحبا مقهى « الشهبندر » ، واتفقا مع هدية مساميري وشقيقتها مهيبة ، واصطحبا معهما فرقة شرقية كاملة . وهكذا بعد وصول

اصحاب المقــاهي هؤلاء ، لم يبق في بيروت سواي انا وماري بار ، والغريب اننا لم نرق لاحد من هؤلاء في بادىء الأمر . ولكن صاحبي « لونا بارك » وجدا ان اناقتنا تليق بمحلهما الجميل ... فعزما على التعاقد معنا .



كان صاحبا « لونا بارك » حلب في مأزق حرج ، اذ كانا قد ارتبطا مع الممثل الكبير جورج ابيض ، الذي كان سيأتي الى حلب مع فرقته . كما كانا قد ارتبطا ايضاً مع اوركسترا اجنبية مشهورة ، ولم يبق عليهما الا ان يجدا من يؤمن لهما الغناء والرقص في المقهى العربي . وهكـــذا لم يجدا بداً من مفاوضتنـــا ، بعد ان سبقهما اصحاب المقاهي الاخرى الى الارتباط مع باقي المطربات المعروفات ، وبعـــد ما لمسا نجاحنا المستمر في « المرصد » . فقصدا من توهما الى ابي عباس صاحب « المرصد » وفاتحاه في امر الاتفاق معنا ، بعـــد ان تأكدا من انه لا يمانع في عملنـــا في « اللونا بارك » .

فأجابهما باستغراب :

« وكيف يمكنني ان احول دون عملهما في حلب بعـــد انقضاء فصل الشتاء عندنا ؟ فانا لسوء الحظ لا املك مقهى صيفياً ، ولو كان لي مثل هذا المقهى لما سمحت لهما بالذهاب البتة . غير ان لي شرطـــاً ، هو ان تعيدا بديعة وماري الى « المرصد » عند انتهاء فصل الصيف ، لئلا اخسر ، بانقطاعهما عن العمل عندي ، قسماً كبيراً من جمهوري ...

فسأله صاحبا اللونا بارك :

ـ هل لنا ان نعرف كم تتقاضى بديعة لقاء عملها في ملهاك ؟

ـ انها تتقاضى اربعين ليرة ذهباً في الشهر ..

ـ وماري ؟

ــ عشرين ليرة ذهباً ..

ــ هل بامكانك ان تجمعنا بهما ، علنا نتوصل الى اتفاق ؟

ــ بكل طيبة خاطر !

أرسل ابو عباس يستقدمنا ليجمعنا بهما . وعنــد وصولنا الى مكان الاجتماع ، استقبلنا الجميع بلطف وايناس ، وخضنا حديثاً طويلاً عن حلب وسمعة حلب ، وعن كيفية تقديم البرامج المختلفة . وقال لنا بشير :

ــ لقد بحثنا كثيراً عن مطربة تليق بملهانا ، وتتمكن من ارضاء الجمهور الحلبي ، الذي لا يقبل على المطربة الا اذا كانت ذات صوت جميل ، تؤدي الالحان بثقة وأمانة . على اننا لم نوفق الى الآن إلا بمطرب من الشام يدعى عبدالرحمن الشافي ، له لون انفرد به دون سواه ، وهو غناء القصائد والادوار والمواويل والليالي . ونحن الآن نبحث عن مطربة . لذلك أحببنا ان نستقدمكما الى حلب ، بعد نجاحكما الذي شاهدناه بأنفسنا في « المرصد » .

ثم التفت الي وقال :

ــ ما هو المبلغ الذي تريدينه يا ست بديعة للعمل معنا ؟

فأجبته على الفور :

ــ خمس وسبعون ليرة ذهباً .

ــ وانت يا ست ماري ؟

قالت ماري دون تردد : « ثلاثون ليرة ذهباً » .

وافقــا بسرعة وبدون مماطلة أو مناقشة ، فأخرج كل منهما كيسه ، وقدما لنــا اجرة شهر كامل . عنــدما أمسكت بالخمس والسبعين ليرة ، نظرت الى يدي كالبلهــاء اتفرس بوهج الذهب . ورأيت ماري تنظر هي الاخرى الى ما كان معها من الليرات بفرح ودهشة . كانا كريمين

لا يساورهما ادنى شك في امانة أحد ، فلم يطلبا منا وصلاً لقاء هذا المبلغ الضخم الذي قبضته كل منا مقدماً . واستغربت فيما بعد ، ان يكونا قد رضخا لشروطنا بهذه السهولة ، اذ كنا قد طلبنا منهما أكثر بكثير مما كانت تتقاضاه اية مطربة مهما بلغت شهرتها .

كنت لا أزال على علاقتي بالضابط التركي صلاح الدين ، الذي كان يمدني بكل ما احتاج اليه كي أقي شقيقتي وعائلتها في شيخان خطر الجوع والمرض . وكان المرض قد عم بيروت والجبل على السواء ، ولم يسلم من مخلبه الا القليلون . لم يعد في الجبل اي مورد بعد ان يبست المزروعات وانعدمت المحاصيل ، اذ لم يبق من يزرع ولا من يحصد . وبعد مدة وجيزة من تأزم المجاعة ، اخذ صلاح الدين في تأدية مهمات خطيرة كانت تضطره الى السفر خارج لبنان . فينقطع بالتالي المورد الوحيد الذي كان يساعدني على اعالة شقيقتي . فخطرت لي فكرة استقدامها الى بيروت مع اولادها لنقيم في نفس المنزل ، وليتكفل صلاح الدين بالانفاق عليهم دون صعوبة اثناء المدة التي سأقضيها في حلب .

وافق صلاح الدين على فكرتي ، وحصل لي على اذن لاحضار شقيقتي الى بيروت . فجاءت نظلة بعد ان وجدت لها منزلاً مناسباً في محلة الصيفي . وكانت عائلتها الصغيرة مؤلفة من ابنتيها املي وماري وابنها انطوان . اما انا فسرني ان اترك الفندق الصغير ، وأعود الى منزل اتذوق فيه لذة الحياة العائلية . غير ان قلقي على مصير والدتي كان يقض مضجعي وينغص علي هذه الحياة العائلية الهنيئة . فقلت لنظلة ذات يوم :

ــ ما رأيك لو ذهبت الى الشام ، وجئت بوالدتنا الى هنا ؟ فأنا شديدة القلق عليها .

واستحسنت نظلة الفكرة .

تركت عملي في « المرصد » وتوجهت الى الشام ، موقنة بانني ما ان

التقي والدتي حتى اعود بها بسرعة الى بيروت . ولم أكن اتوقـع ان اجدها على الصورة المحزنة التي قابلتني بها عند وصولي الى منزلنا . طرقت الباب وانتظرت طويلاً . وعندمـا لم يجبني احد ، دفعته ودخلت لأجد امي مريضة في الفراش . كانت ترقد كالاموات من شدة المرض وفرط الهزال . لم تكن تقوى على النهوض ، وهي مع ذلك مضطرة لان تقوم بخدمة نفسها اذ كانت وحيدة لا يطرق بابها ولا يفتقدها انسان .

راعتني هذه الصورة المجسمة لما قاسته طوال حياتها من حرمان وألم . فاقتربت منها برفق اسألها عما بها . فلم تقو على الكلام ، بـل واجهتني بسيل من الدموع انهمر على خديهـا الهزيلين . اخذت اهدهدها واعتذر عما بدا مني نحوها ، وأؤكد لها انني لن ابتعد عنها بعد الآن . فكفت عن البكاء ، وراحت تقول بصوت ضعيف متقطع :

ـ بعدما تركتني في القطار العائد من مصر ، تصورت ان حادثا ما قد وقع لك ، فأخذت في البكاء والتحسر عليك ، تابعت طريقي الى الشام وعدت الى منزلنا أعيش كيفما اتفق ، الى ان شاهدك اخوك توفيق وانت تغنين وترقصين في مقهى القوتلي هنا . اقتحم علي البيت في تلك الليلة وهو يزمجر كالمجنون وانقض علي يريد قتلي لاعتقاده انني كنت اعلم بعملك على المسرح . فتراكض الجيران على صراخي وخلصوني من بين يديه بعد ان كاد يجهز علي . وبعد هذه الحـادثة ، اقمت عليه دعوى ربحتها بسرعة ، وأرغمته على اخلاء البيت الذي تستأجره الآن عـائلة غريبة . ومنذ ان برح المنزل مع عائلته وانا اقيم وحدي لا ارى احداً ولا يذكرني احد » .

آلمني جداً ما حل بها في ضعفها وشيخوختها ، هي التي كانت مـا تنفك تردد : « الدنيا آخرة مش اولة » . لم اعـد أبالي بالعمل ولا بالنقود ولا بالعقود ، بل انحصر همي في ان اعتني بها بعد ان حلت بها كل

هذه الويلات . فأرسلت اخبر نظلة في بيروت بحالة والدتنا ، وارجوها ان تعطي عنواننا لصلاح الدين عله يتمكن من المجيء الى الشام ويساعدنا اذا ما احتجنا الى مستشفى . ولكن ما ان مر اسبوعان على وجودي معها ، حتى عاد اليها بعض من نشاطها ، وتماثلت للشفاء .

لم أكد افرح بشفاء والدتي حتى استرعى انتباهي بعض الحبوب في وجهي ، وسرعان ما ارتفعت حرارتي وارتميت على الفراش فاقدة الوعي . استرحمت والدتي ورجوتها ان تستدعي الطبيب الذي سبق وعالجها اثناء مرضها . حاولت ان تنهض من الفراش لتذهب الى الطبيب ، غير انها لم تقو على المسير . وفيما نحن نتخبط في هذه الحالة المحزنة ، اذا بنا نسمع طرقات على باب المنزل الخارجي . أطلت والدتي من النافذة لتستطلع باستغراب من الذي تذكرنا وجاء يطرق بابنا . وما ان نظرت الى الخارج حتى ابتعدت مذعورة وقالت لي :

– بالباب جندي يسأل عنك ..

فأشرت لها بأن تفتح الباب ، لكنها أخذت تقرع صدرها :

– يا ويلي .. في آخر الزمان « عسكري » يدخل بيتنا !..

فتمتمت لها بوهن :

– يا ماما ، اعملي معروف افتحي الباب .

شدت حبل الباب على مضض ، ودخل منه صلاح الدين . كان مهذباً جداً ، فانحنى امامها يقبل يدها باحترام . وارتاع لمنظري وانا ارتجف من شدة الألم وارتفاع الحرارة . فأسرع ينادي الجندي الذي كان يرافقه . كتب له كلمة صغيرة ، وأرسله كي يستدعي الطبيب .. حاول ان يستدرج والدتي الى الحديث ليعرف منها سبب مرضي ، ولكن صعب عليها فهم ما يعنيه ، لأنه كان ما يزال يجهل اللغة العربية .

بعد برهة وجيزة حضر « الطبيب » وأجرى لي فحصاً دقيقاً ، وقال انني مصابة بداء الجدري ، وأمر بنقلي الى المستشفى .

كانت المستشفيات ابان الحرب الكونية الاولى تضيق بمن فيهـا من المرضى ، مع ان الاتراك كانوا قد صادروا جميع القصور والدور الكبيرة وتركوا اصحابها يتدبرون امرهم كيفما اتفق . كانت هـذه المستوصفات الجديدة لا تكفي لايواء العدد الكبير من المرضى الذين كانوا يؤمونها في كل ساعات النهار . استصعب الطبيب ايجاد سرير لي في أي من هـذه المستشفيات ، لكنه نزولاً عند رغبة صلاح الدين والحاحه وعده بأن يعمل المستحيل كي لا يدعني أعاني من الجدري وحيدة في منزلي . وبر الطبيب بوعده . لم يمض وقت طويل حتى عاد في عربة خيل لينقلني الى المستشفى وكعادة أهل حيِّنا ، تراكض الجيران عندما شاهدوا الممرضين يصعدون سلالم منزلنا ، ويعودون بعد قليل حاملين النقالة التي طرحوني عليها وانا ألهث من الألم . ما ان شاهدتني والدتي أغادر البيت على هـذه الصورة المحزنة حتى انطرحت فوقي وأغمي عليهـا من فرط التأثر . أفاقت من اغمائها لتجد نفسها محاطة بالراهبات من كل جانب في مستشفى في حي المهاجرين ، كان قبـل ذلك قصراً جميلاً لحقي بك العظم . كن مثل ملائكة الرحمة بثيابهن البيضاء وابتساماتهن الرقيقـة ، تلك الابتسامة التي تؤنس المريض في أشد حـالات بؤسه . كن يعتنـين بي وبهـا على حد سواء . فعـاد الينا شيء من الطمأنينة عندما أدركنا اننا لم نعد وحيدتين في منزل لا يطرق بابه انسان . مكثنا على هذه الحالة عشرة ايام تقريباً ، وعندما ابتدأت احسن قليلا ، الغيت الاربطة السميكة التي تخفي ذراعي ، وتحول دون استعمالي يدي .

استغربت ذلك وحاولت ان اسأل الراهبة عن السبب ، فـأشارت بلطف الى انها ستعود بعد قليل لتحدثني عما اريد . انتظرت قدوم الطبيب وما ان دخل الى غرفتي حتى سألته بلهفة عن سبب ربـط ذراعي على

هذه الصورة . فأجابني بكل بساطة :

« انك مصابة بداء الجدري ، ويخشى ان تحكي وجهك باظافرك فتشوهيه . »

كانوا قد اخفوا عني نوع المرض الذي كنت اعانيه ، ولم يخطر على بالي قط انه الجدري . فما ان سمعت ما قاله الطبيب حتى طار عقلي ، وصرخت اطلب مرآة لاشاهد فيها ما حل بوجهي . لم يلب طلبي احد ، فنهضت من سريري ثائرة لارتمي على الارض من فرط الضعف . عاودتني الحمى وغبت عن رشدي اكثر من اسبوع كامل اهذي وابكي دون وعي . وما ان افقت من غيبوبتي الطويلة حتى ثارت ثائرتي على الجميع ، واخذت اطرد من يخطر بباله زيارتي في غرفتي . كنت في ساعات وحدتي عرضة لهواجس مخيفة : ماذا سيحل بوجهي يا ترى ؟ هل سيتشوه واخسر جمالي وهو رأسمالي وثروتي ؟ لقد كان هذا الجمال ، المهدد الآن على هذه الصورة البشعة ، سبب خلاصي من الجوع والفقر والتشرد . وهو نفسه الذي مكنني من ان انتقم من الذين قسوا علي واذلوني . لولا هذا الجمال لما تمكنت من الجلوس على موائد اكبر اثرياء بيروت ، ولما استطعت ان اتحدى ابناء عمي بالرغم من جاههم وغناهم . ولولا هذا الجمال لما انقذت شقيقتي واولادها من الجوع والمرض ، بواسطة الضابط التركي صلاح الدين . ترى لو دخل علي صلاح الدين الآن ووجدني دميمة ، فهل سيظل على اهتمامه بي ؟

ولولا هذا الجمال هل كنت سأنال كل هذا النجاح على المسرح ، وتتساقط علي الليرات الذهبية بهذه الغزارة ؟.. ولولا هذا الجمال ، وهذا هو الاهم ، هل كنت سأتمكن من ان أبكي شقيقي توفيق بدل الدموع دماً ، وأن اخرجه من الملهى ذليلا منكس الرأس ؟ توفيق !.. انه كسواه من رجال الشرق ، يستبيحون لانفسهم كل شيء ، ويحرمون

سواهم اي شيء ، ولا يسلم شرفهم الرفيع الا اذا حافظ عليه غيرهم ، ولا بأس عليه اذا هم الحقوا بـه بعض القـذارات من وقت لآخر . توفيق ..! يجب ان اتابع انتقامي منه . ولكن كيف سأتمكن من ذلك اذا ما تشوه جمالي ؟

وقررت الانتحار ...

ان الانسان ضعيف والحياة ثمينة عزيزة . كنت ما ان يفكوا أربطتي لأتمكن من تناول طعامي ، حتى ارجوهم ان يعيدوها بسرعة خوفاً من ان انهش وجهي . غير ان العناية الالهية واعتناء الطبيب بي ، حالا دون ان يصاب وجهي بأي اذى . كانت طريقة معالجة الدكتور داود بسيطة للغاية ، اذ كان يملأ زجاجة صغيرة « بالسلماني » الذي كانوا يستعملونه في التطهير ، ويرش منها على البثور في جسدي بواسطة رشاشة كولونيا كنت أنظر الى المرآة وانا لا أصدق انني ما زلت جميلة ، ولم اتحول الى فتاة دميمة ينفر من منظرها الناس . شكرت الله على نعمته ، وتركت المستشفى بعد ان اقمت فيه مدة سبعين يومـاً . قضيت مدة النقاهة في منزلنا بالشام برفقة والدتي ... ولم اشك من الوحدة ، اذ كان صلاح الدين يزورني باستمرار .

عندما عـاد الي نشاطي واصبحت اقوى على العمل ، قررت المجيء الى بيروت ، واطلعت امي عـلى سبب قدومي الى الشام . قلت لهـا بلطف :

« آن لنا ان نعود الى العيش معاً يا ماما . لقـد جئت الى الشام خصيصاً كي آخذك الى بيروت ، فيجمعنا من جديد منزل واحـد مع شقيقتي واولادها » .

وبدلاً من ان تجيبني اجهشت بالبكاء ، اقتربت منها أسألها عما بها : قالت :

« انني ابكي عليك يا ابنتي . كيف تريدينني ان اعيش معك وانت تسوقين هذه الحياة ، وتقفين على المسارح لتغني وترقصي امام السكارى والمعربدين ؟ كيف تريدينني ان آكل خبزاً ثمنه هدر كرامتك ؟ لقد ربيتك وتعبت في المحافظة عليك رغم كل ما حدث ، وعندما كبرت وأصبحت شابة على وشك الزواج ، جاء أخوك يحول بينك وبين الحياة الشريفة ، بينك وبين رجل تعيشين معه بالحلال . انني اعرف انك لم ترم بنفسك في هذا الجحيم إلا من الألم واليأس . وماذا يمكنني ان أفعل الآن ؟ انك على كل حال ابنتي ! ولكن اقربائي ... هل سيرضون بهذا الواقع وجلهم من الكهنة والاساقفة الاتقياء الورعين ؟ كنت أفضل الف مرة ان اسمع خبر موتك ، من ان اسمع انك تعملين على المسارح . لقد أصبحنا مضغة في افواه الناس . وما كنت يوماً إلا سبباً في ذلنا وعارنا . كان قدومك شؤماً منذ يوم ولادتك ، ليتني خنقتك في المهد . قبل ان تصبحي صبية تجلب لنا الفضائح ! »

كانت تتحدث بصوت متعب يائس كأنه حشرجة ، فأدركت انها تعني كل كلمة تقولها . فقبلتها بلطف وقلت لها :

« لندع للماضي ما قـد مضى ! ليس باليد حيـلة الآن بعدما وقع المكتوب . اذا كنت لا تريدين الإقامة في منزلي ، فسأستأجر لك غرفة خاصة ، تعودك فيها شقيقتي نظلة لتقوم على خدمتك . لا يجوز ان تبقي هنا وحدك وانت مسنة ومريضة !

اقتنعت بعد الحاحي الطويل ، وقبلت بان ترافقني الى بيروت . كانت ضعيفة جداً ، فلم تتحمل تعب الطريق . ما ان سار بنا القطار مسافـة قصيرة حتى اغمي عليها من الاعياء . وعندما افاقت من غيبوبتها نظرت إلي بحزن وقالت :

« لا تتركيني يا بديعة ، لن اتعبك كثيراً بعد الآن اذ اصبحت قريبة

جداً من القبر . لم يعد لي سواك ... لقد تخلّى عني الجميع . لم اعد اقوى على الحياة يا ابنتي ، ولم اعد اريدها ، انها تعيسة مرة . لقد قتلني همك وما زلت احبك اكثر من الجميع . فانا عندما اعود الى ضميري ، ادرك ان لا ذنب لك في ما حصل ، وما كنت إلا ضحية » .

كانت ما ان تكف عن البكاء حتى يغمى عليها ، وما ان تفيق حتى تعود الى البكاء . انحطت قواها ولم تعد تقوى على الوقوف ، فاضطررنا الى ان ننقلها الى المنزل على ايدينا .

استقبلتها نظلة بالبكاء ، وكانت قد فارقتها منذ سنوات عديدة . اقلقها ضعفها ، فأسرعت تستدعي الطبيب وكان يدعى الدكتور نقاش . لم يخف علينا هذا الاخير خطورة حالتها ، وقال انها تشكو من تعب في القلب ، وان داء الزلال هو سبب تورم اعضائها . وخلص الى ان الاعمار في يد الله ..

كنت لا افارق غرفتها ، اجلس بقربها ، اهدهدها ، واعمل كل ما بوسعي كي اسعد دقائقها الاخيرة ... وكانت ما ان تصحو من غيبوبتها المتواصلة ، حتى تنظر الي نظرة شفقة واسى وتسترسل في الدعاء ... كانت تطلب من ربها ان يتوب علي ويهديني الصراط المستقيم ، لان عملي على المسرح كان في نظرها كفراً وضلالا ، فتستغفر الله عني وتسأله لي الهداية والتوفيق ... وتطلب منه تعالى ، شأنها شأن جميع الامهات ، ان يحول بين يدي التراب الى ذهب ... ما لبثت ان رحمها الله ولم يطل بعذابها .. لقد رافقتني دعواتها الاخيرة ، طيلة حياتي المليئة بالعمل والعذاب ، بالفقر والغنى .

كان خبر عودتي من الشام قد وصل الى اصحاب الملاهي ، ومنهم ابو عباس صاحب ملهى « المرصد » ، الذي اسرع الى مـــنزلي يقدم تعازيه بوفاة والدتي . وقبل ان ينصرف بدقائق قال لي وهو يقترب من الباب مودعا :

« انا لله وانا اليه راجعون ، عندما تعاودك فكرة العمل ، فالمحـــل وصاحب المحل تحت امرك » .

- « شكراً ! سنبحث هذا الامر في حينه ! »

وفي هذه الاونة بالذات ارسل حسن بك الانجى مع رجلـــين مـــن اخصائه ، يستدعينا للعمل عنده في طرابلس . اعتذرنا عن القبول بحجة اننا مرتبطتان مع اصحاب لونابارك حلب . فأكدا لنا انهما مرا بحلب وقابلا بشير وزكي ، اللذين اطلعاهما على اتفاقنا ، غير ان الملهى لم يجهز بعد . وطلبا منا انا وماري بار ان نعمل في طرابلس ولو لمدة شهر واحد . فوافقنا بعد ان تعهـــدا لنا بدفع نفس المبلغ الذي سبق واتفقنا عليه مع صاحبي « لونا بارك » حلب .

وعادت بي طريق طرابلس سنوات عديدة الى الوراء .. كنت ارى من خلال بحبوحة اليوم فقر الامس وحرمانه ، كان يلوح لي شبح والدتي وهي تجر رجليها من التعب .. كما كانت تتراءى لي الاشباح التي كانت تخيفني وانا أسير برفقتها ، وأتستر وراء حجابي الممزق . لم تعـــد والدتي تخشى الاشباح اليوم وهي حيث هي الآن في عالم النور والطمأنينة .. كما

لم أعد أخشى انا تلك الاشباح ، وانا حيث انا في دنيا الانوار والمتعة والبحث عن الذهب .

كان حسن بك الانجى من وجهاء طرابلس ، يحترمه الجميع ويأخذون برأيه ، كما كانت له سطوة ورهبة . ففرض نفوذه على عــدد كبير من مقربيه . وأقام مسرحاً منظماً أشرف بنفسه على تنسيقه وترتيبه . كانت الالواج مريحة ، تقصدها علية القوم لنستمتع برؤية أجمل برامج تلك الايام . ومن حسنات مسرح حسن بك العديدة ، انه كان قد حرم لعب الورق والطاولة والدومينو . فلا منازعات ولا زعيق ولا شجار دائم يشوش الجو الفني . كنا نشعر بنشوة لذيــذة ونحن نرى جميع من في المسرح متجهاً بنظره الينا يرقبنا باهتمام واستحسان . كما كان أفراد التخت مرتاحين الى ذلك الجو ، وكان بينهم عازف العود الشهير محيي الدين بعيون . لم تكن تخلو ليلة واحدة من نمرة فكاهية يصفق لها الجمهور بحماس كبير ، اذ كان لطرابلس ممثل هزلي يدعى حمود الاكشر . وكان حمود الأكشر هذا بديناً ضخم البنية في غاية الدمامة ، الا انه كان يتمتع بما يفتقر اليــه عادة الممثلون الهزليون ، وهو خفــة الدم . كان من اظرف الممثلين الذين أتيحت لي فرصة التعرف اليهم : يصعد الى المسرح ويبدأ في انتزاع ملابسه بين ضجيج النظارة وضحكهم . وما ان يصبح في ثيابه الداخلية حتى يبدأ بالرقص بجسمه الضخم ، وكأنــه كتلة من اللحم والشحم أصيبت بدوار فأخذت تدور على نفسها .

ومما اذكره ايضاً عن حسن بك انجى انه لم يكن يسمح للفنــانات اللواتي يعملن على مسرحه بالاقامة بعيداً عن مركز عملهن . بل كان قد أعد لهن غرفاً خاصة خلف مبنى المسرح نفسه ، ووضع تحت تصرفهن خادماً أصم أبكم . وكان لا يدع احداهن تحتاج الى اي شيء ، بل كان يوفر لهن المآكل والملابس عل حسابه الخاص .

انني ما زلت احن الى طرابلس ، واذكر بالخير تلك المدة التي عملت فيها هناك . لقد استقبلنا الطرابلسيون بحفاوة بالغة وشجعونا ايما تشجيع وكان سيل الهدايا لا ينقطع عنا ابداً . كما كانت العادة عندهم ان يرشوا الراقصة او المغنية بالذهب والفضة ، بدلاً من لم « البــارصة » الذي لم يكن مألوفاً لديهم شأن ملاهي بيروت ودمشق . وما أكثر ما تساقط علينا من الذهب والفضة من يد الطرابلسيين ، الذين كانوا يتذوقون الانغــام الحلوة والقدود الطيعة .

عملت في طرابلس برفقة ماري بار مدة شهر كامل ، ولم يدعنا حسن انجي نذهب الى حلب ، إلا بعد ان مددنا اقامتنا اسبوعين آخرين ، جاء بعد انقضائهما بشير القصير ليأخذنا الى ملهى « اللونا بارك » .

حلب ايام زمان !... وما عساني ان اقول عن حلب ايام زمان !.. كانت وما زالت المدينة التي يحلو فيها الغناء ، لانهــا تحب النغم وتتعشق الغناء وتطرب للقامة المياسة .

ما ان وصلنا الى حلب ، حتى اسرعت برفقة ماري بار نزور ذلك المسرح الجديد من نوعه في بلادنا ، والذي سمعنا الجميع يتحدثون عنه باعجاب شديد . لم يسعنا عندما وصلنا اليه ، إلا ان نفغر فاهنا دهشة امام الانوار الجميلة والهندسة الانيقة . والتقينا هناك بفرقة العازفات النمساويات ، اللواتي عملت معهن في « كوكب الشرق » ، وقد كن يؤلفن فرقة اوركسترا في غاية الظرافة ... أقبلت عليهن أحييهن بلهفة ، وبعد السلام والكلام ، سألتهن بفضول :

« أيروق لكن العمل هنا ، ام تفضلن العمل في بيروت ؟ »

فأجبنني بصوت واحد :

« نو ! نو ! خلب اخسن بكتير ، ما فيش لعب تريك تراك ولا دومينو ولا دوشة ، والناس هنا بيخب مازيكا كتير كتير » .

كان ملهى « اللونا بارك » يقـــدم في كل ليلة حفلتين تدعى الاولى منهما عصرية والثانية مسوية . وكان اهالي حلب يقبلون على « اللونابارك » اقبالا منقطع النظير .

كنت قد استقدمت معي من طرابلس بضعة اقمشة شرقية مزركشة ، فعملت منها فساطين ارتديها على المسرح ... ثم اقبلت على العمل بحماس لم اشعر به من قبل . كنت اقف لأغني : « انت سوريا بلادي » ، وانا فخورة بزي الفتاة العربية الذي كنت ارتديه ... كما كنت اقدم اغنيـــة « زوروني كل سنة مرة » ... وماسمعتها من فيروز مرة ، إلا وتذكرت حلب وليالي حلب ، وكل من زارني فيها بدعوة او بغير دعوة . كما كان يحلو لي ايضاً غنـــا « يا مايلة عالغصون » و « طلعت يا محلى نورها » . وكنت كعادتي ابدل اربعة او خمسة فساطين في كل ليلة ، فأقبل الجمهور علينا كما لم يقبل على سوانا من الفنانات اللواتي سبقت لهن زيارة حلب ، الى درجة انهم كانوا في بعض الليـــالي ينتزعون مقاعـــد الاوركسترا ، ليجلسوا عليها اذا لم يجدوا محلا شاغراً في القاعة . ولم تطل بنا المدة حتى شاعت اغنياتنا وصارت على كل شفـــة ولسان . ولا ابالغ اذا قلت اننا « قطعنا رزق » سوانا من الفنانين ...

اثناء عملنا في « اللونا بارك » ، حضر اليه الممثل الكبير الاستاذ جورج ابيض بكامل فرقته . وكانوا قد استعدوا له من قبل وصوله بمدة طويلة . فمن مسرح كبير يتسع لعدد وافر من الممثلين الى قاعة فخمـــة كأحسن واجمل ما كانت عليه القاعات في تلك الايام . وكان هو من جهتـــه قد جاء بستائر مخملية ذات ألوان زاهية ، كما حمل معـــه من القاهرة مناظر تمثيلياته العديدة ، وعدداً لا يحصى من صناديق الالبسة ... وكانت فرقة جورج ابيض مؤلفة من اشهر ممثلي المسرح العربي على الاطلاق ، ومنهم من لم يزل على قيد الحياة ، ويمكنه ان يثبت ما اقوله في هذا المجال . كما

صحب الفرقة المطرب حامد مرسي ، الذي يذكر ولا ريب تلك الايام ، ويتذكر ما حصل له في حلب .

ما ان علم عشاق الفن في المدينة بقدوم جورج ابيض وفرقته ، حتى اسرعوا يحجزون لانفسهم المقاعد الامامية ، وذلك قبل عدة ايام من تاريخ تقديم التمثيليات .

كنا في تلك المـــدة قد بلغنا اوج شهرتنا ، بحيث كنا سبب فشل الممثل الكبير دون اي قصد منا . اذ كان الجمهور ما ان يجلس قليلا في مسرح التمثيل ، حتى يعود ادراجه الينا ليشاهد رقصاتنـــا ويصغي الى اغانينا . وما لبث جورج ابيض ان عاد الى القاهرة بخفي حنين ...

كان عملي المتواصل على المسرح ، ومشاهدتي المستمرة لمختلف البرامج قد ارهفا حسي الفني . وبدأت انوع نمري واسبغ عليها لوناً جديداً على الجمهور العربي . فعندما بدأت بتقديم اغنية « انا رأيت روحي في بستان » مثلا ، ارتديت بذلة كاملة مؤلفـــة من بنطلون اسود قصير وجاكيت ، وحملت عصا صغيرة حييت فيها الجمهور ، أما شعري فكان يتوجه طربوش احمر . وعند تأديتي لأغنية « الحليب قشطة » كنت احمل على رأسي وعـــاء مليئاً بالحليب ، وكنت اقوم فعلا ببيع الحليب لمن يريد من الزبائن .

اما عن « البارصة » فحدث ولا حرج ، كانت ماري تعود كل ليلة بسبع او ثماني ليرات ذهبـــاً ، بيـنما كنت لا اعود الا بخمس عشرة او بعشرين ليرة ذهباً على اقل تعديل . غير اننا لم نكن نحتفظ بهذه المبالغ بل كنا نتقاسمها مع الاوركسترا . ولسوء حظنا لم نرق لسيدات حلب ، فخشين منا على ازواجهن وقدمن احتجاجاً الى صاحبي الملهى . لم نتمكن من اقناعهن باننا لم نأت الى حلب الا بناء على دعوة الحلبيين انفسهم ، واننا لا نضمر شراً لاحد ، وليس في نيتنا ان نسيء الى اي من البيوت التي استقبلنا اصحابها بالترحاب . غير انهن لم يقتنعن وتمسكن بشكواهن .

وامام هذا الاصرار لم يسع صاحبي « اللونا بارك » الا الاذعان الى اوامر سيدات حلب، فأصدرا أوامرهما بان لا تتجول أية فنانة بين الجمهور . فما كان منا الا ان اعترضنا بدورنا بحجة اننا لم نقبل بالراتب الزهيد الا طمعاً « بالبارصة » . وهكذا اضطرا الى ان يرفعا مرتبي من خمسة وسبعين ليرة ذهباً الى مائة وخمسين ، كما اصبح مرتب ماري تسعين ليرة ذهباً بعد ان كان لا يزيد على الاربعين ليرة فقط . فاحتج العازفون لاننا بعد انقطاعنا عن لم « البارصة » ، لم نعد نقتسم معهم ما نقبضه من صاحبي « اللونا بارك » . وانتهى الخلاف عند هذا الحد !

وفي هذه الاثناء حضرت الفرق التي سبق واتفق معها اصحاب المقاهي العديدة في حلب . واولى تلك الفرق كانت فرقة هدية وشقيقتها وهيبة . كانت وهيبة سليطة اللسان ، تحلو لها المشاكسة الدائمة والنهش في سيرة غيرها . وقديماً قيل ان « لا عداوة أقسى من عداوة الكار » . ما ان وصلت الى حلب ، حتى أرادت ان تطمئن على مصيرها عند قوم يحسنون السمع ، ويطربون للحن الجميل . فسألت جيجو جرو وميخائيل مغربية ، وكانا قد شاهدانا في مقهى المرصد في بيروت ولم نرق لهما ، سألتهما وهيبة ببساطة لا تخلو من اللؤم :

ـ كيف حال تلك التي تدعى بديعة ... وصديقتها ماري بار ؟..

فأجابها ميخائيل مغربية ، وكان رحمه الله يجيد الكلام البذيء :

ـ ان ... بديعة بالعة السوق ، وساحرة اهل حلب ، مع انها لا تجيد الرقص ولا تحسن الغناء .

وتابع صديقه جرو قائلاً :

ـ اننا اول من شاهدهما في مقهى « المرصد » في بيروت ، ولم يرق لنا برنامجهما ، ولو عرفنا انهما ستلاقيان هذا النجاح ، لما ترددنا في الاتفاق معهما واستقدامهما على نفقتنا .

فقالت وهيبة بحنق :

ـ معلهش ، غداً يذوب الثلج .. ويبان الـ .. مرج !

وكانت تعني بكلامها هـذا ، انها ما ان تبدأ بالعمل حتى تضربنـا على اعيننا ، فيهجرنا رواد صالتنا ولا يعود يتحدث عنا احد .

فلم يوافقها جيجو على كلامها واردف قائلاً :

ـ انني اعتقد اننا لن نقوى على مقاومة هذه الملعونة !

روى لي احدهم مـا دار بين وهيبة وجيجو وميخائيل من حديث ، فوضعت يدي على قلبي خوفاً من مقالب جديدة لن تتورع وهيبـة عن تدبيرها لي ، وبدأت انتظر وانا قلقة لا اعرف الراحة .

اخذ جيجو وميخائيل بالدعاية للملهى « الشهبندر » الذي كانا يتقاسمان ادارته . وشيعا في المدينة ان وهيبة وهدية مساميري افضل من بديعـة مصابني وماري بار بالف مرة . فصدق الناس ، وفي ليلة افتتاح الشهبندر خف الاقبال علينا ، فأخذ الذعر طريقه الى قلبي وندمت على تركي « المرصد » وهجري طرابلس ومجيئي الى حلب . اندفعت في البحث عن الطريقة التي تمكنني من استرداد جمهوري غـير انني لم ابحث طويلاً ، اذ ان الليـلة الاولى نفسها لم تنته الا بعـودة معظم رواد ملهانا ساخطـين متبرمين « بالشهبندر » وفنانيه . كنت كلما شاهدت احدهم عائداً الينا نادماً على هجرنا ولو لساعـات معدودات ، اتنفس الصعداء واحس بأنني انتقمت من هدية ووهيبة شر انتقام ، والبادي دائماً اظلم ولم يمر اسبوع واحـد على مقهى « الشهبندر » ، حتى هجره الجميع ولم يعد يطرق بابه انسان ، فأقفله صاحباه وسرحا الفرقة .

كان الحلبيون يتحدثون بحماس واعجاب عن برنامجنـا ، وعن مـا استجد في طريقة تقديمه من ثياب جميلة مزركشة كثياب الاميرات الشرقيات ،

الى اغنيات حلوة ، والحان يعزف فيها الطرب .

ساء جيجو وميخائيل ان ننال هذا الاطراء من الذين قاطعوا صالتهما ، وحملوهما على اقفالها في اول الموسم ، فارادا ان يشاهدا بنفسيهما الطريقة التي « نسحر بها الحلبيين » على حـد تعبير جيجو . جـاءا الى ملهى « اللونا بارك » ذات مساء ، وجلسا في الصالة على مقربة من المسرح ، فأخبرني افراد التخت عن وصولهما . وعندما خرجت انشد اغنيتي المشهورة « حليب يالبن قشطة » اقتربت منهما اقدم لهما الحليب الذي كنت احمله في وعاء على رأسي . فما كان من ميخائيل الا ان انتفض واقفاً وقـال لي مغتاظاً :

ـ نحن لسنا بحـاجة اليك ، بيعي الحليب الى هؤلاء المغفلين الذين يصفقون لك كل ليلة !

فأجبته بهدوء : ومن قال انني سأبيع لك الحليب بيعاً ؟ بل سأقدمه لك هدية ..!

وافرغت ما كنت احمله من الحليب على ثيابـه . فضج الحاضرون بالضحك شامتين منه ، ساخرين من سوء تصرفه !

وبعد ان انتهيت من تقديم نمرتي ، أسرعت ارتدي ثيابي ، واقتفيت اثر وهيبة ، فألفيتها خارجة من الصالة تتمزق من الغيظ .. دنوت منها أحييها ، وأسألها بسذاجة :

ـ أراك هنا الليلة ! ما الخبر ؟.. وقـد سمعت انك تعملين في مقهى الشهبندر ؟..

فأجابت بغصة :

ـ نعم ، لكن تعذر علينا العمل الليلة ، لأن شقيقتي هدية مصابة بألم في حنجرتها .

ـ سلامتها ، على كل حال ذاب الثلج وبان الـ.. مرج .

وابتسمت ..

شعرت بأنني انتقمت لكل ما دبرته لي من مكائد ، وكل ما أشاعته عني من افتراءات وأكاذيب . ولم تكن المرة الاولى التي أوفق فيها الى الانتقام ممن أساءوا الي ، اذ ان حياتي ، منذ ان ثرت على الفقر والمهانة ، قد تحولت الى سلسلة متتابعة من الانتصارات المرفقة بالانتقام ممن احتقرني وأذلني ..

انتهى موسم الصيف في حلب ، وانتهى معه عقد عملنا في مقهى « اللونابارك » وعدت الى بيروت برفقة صديقتي وزميلتي ماري بار ، التي كانت ما زالت مقيمة على محبتي ، مخلصة لعملها معي . وما ان علم السيد مطر ، صاحب « كوكب الشرق » بخبر عودتي من حلب حتى زارني في منزلي وطلب الي ان أعود الى العمل في مقهاه ، لقاء أجر لا يتعدى الاربعين ليرة ذهباً لي ، وثلاثين ليرة لماري . فذكرته بما كنا نتقاضاه في حلب ، لكنه أقنعنا بأن ليس بامكانه ان يدفع هذه القيمة ، نظراً لمدخوله المحدود الذي لم يكن يتجاوز « نفس نارجيلة وفنجان قهوة » .

وافقنا على العمل عنده واستقبلنا رواد « الكوكب » بالترحيب والتصفيق والهتاف . كانت ليالينا زفة متواصلة ، ما ان نصعد على المسرح حتى تتعالى آهات الاستحسان وتتساقط الطرابيش من حوالينا . فتعـود الى ذاكرتي ايام كنت أصحب السيد زكي الى مشاهدة منيرة المهديـة على مسارح القاهرة ، وأحلم بالساعة التي سأقف فيها مزهوة لأصغي بدوري الى عبارات الاعجاب . كان صاحب مقهى « المرصد » ينتظر الفرصة المناسبة لينتزعني من « كوكب الشرق » . ولم ينتظر طويلاً حتى أحال علي السيد منير .. وكان صديقي الجديد هذا لطيف المعشر حلو الكلمة ،

فأقنعني بالعودة الى « المرصد » . وبالطبع انتقل معي جميع المعجبين بي ، وكان عددهم قد تجاوز المئات .

كانت الحرب العالمية الاولى ما زالت على أشدها ، والمجاعة تمسك برقاب السواد الاعظم من سكان البلاد ، غير اننا لم نشعر بها والحمد لله . كان لدي في منزلي غرفة خاصة ، اختزن فيها ما يكفي مؤونة الاسرة لمدة طويلة . ولم أكن قد نسيت انني ذقت الجوع والتشرد ، يوم لم يكن احد يعرف ما هو طعم الجوع ، وهذا ما دفعني الى ان اطرده من منزلي ، كما حاولت طرده من بعض الاجسام الهزيلة التي كان يتفق لي ان اصادفها . ففي صباح احد الايام ، وبينما كنت اقف على شرفة منزلنا ، شاهدت طفلة تبحث في نفايات الشارع عن شيء تأكله ، فناديت شقيقتي نظلة وطلبت اليها ان تأتيني بالطفلة الجائعة . وما ان رأت تلك الصغيرة نفسها امام ما احضرته لها نظلة من طعام ، حتى اقبلت عليه بشراهة ونهم وكأنها حيوان صغير . تركتها تأكل ما طاب لها ، دون ان تساورني اية فكرة بان التخمة قد تؤذيها . وسرعان ما بدت عليها آثار التورم ، وماتت بعد اسبوع واحد . لم تمت من الجوع بل ماتت من التخمة ! يا للسخرية !.. وتجددت الحادثة نفسها مع والدة مسكينة ، كانت تبحث عما تقتات به مع ولدها الصغير . آويناها في منزلنا وقدمنا لها ما يطرد الجوع من جسدها وجسد طفلها الهزيل . لم تصب المرأة بأذى ، بل تمكنت من مقاومة الجوع والتخمة ، اما طفلها فلم تطل به المدة حتى لحق بالصغيرة الاولى .

كنت اقف مشدوهة امام هذه الحوادث ، لا ادرك لها معنى ، واحاول ان افهم لماذا كنت جائعة مشردة يوم كان للناس رغيف يقتاتون به ومنزل يأوون اليه ؟ وما للجوع يقضي عليهم ، وانا منزلي عامر بكل ما حرم منه هؤلاء المساكين ؟ كان يتعذر علي معرفة ما ابحث عنه ، كما كان يتعذر علي ادراك حكمة الله في احكامه ، فأردد « سبحانك ربي فيما ارتضيت ! »

لم تطل المدة حتى جاءتني جـارة لي ، كانت تعمل في مأوى تديره الراهبات على طريق نهر بيروت . كانت جارتي قد علمت برغبتي في تبني طفل او طفلة ، فجاءت لتقول لي ان الراهبات قـد اذعن خبر وجود ايتام صغار في الدير ، لمن يريد تبني احدهم وفي مقدوره الانفاق عليه . قصدت من توي الى الدير برفقة طبيبي الدكتور نقاش ، فرحبت بنـا الراهبات ، وعرضن امامنا جميع اطفال المأوى . استرعت انتباهي طفلة شقراء ذات عينين زرقاوين تشع منهما البراءة ، الا انها كانت هزيـلة وكأنها لا تقوى على الوقوف . فوقع اختياري عليها واصطحبتها الى منزلي ويا ليتني لم افعل ، غير انني لم اكن قـد سمعت بعد قول من قـال : « يا مربي في غـير ولدك وباني في غير بـلدك » . لم ألحظ لفرحتي بها انها شرسه نمرودة بل كنت اعزو ذلك الى الجوع والحرمان ، واعتقد انها ما ان تدرك ان لهـا اسرة ومنزلاً حتى تعود الى طباع الاطفـال الابرياء المساكين . تبين لي فيما بعد ان اباها كان قد اقام عدة سنوات في اميركا الجنوبية ، وانه تزوج بعد عودته الى لبنان ورزق بها واسماهـا خوليا . فأطلقت عليها بدوري اسم جولييت . غير انهـا كلما كبرت ، ازدادت شراسة على شراسة . .

بينما كنا نعمل في ملهى « المرصد » والاقبال علينا يزداد ليلة اثر ليلة ، اقبل ميخائيل مغربية صاحب مقهى « الشهبندر » في حلب ، وسهر عنـدنا ليلة دعانا بعدها الى العشاء مع جميع افراد التخت . وما عتم ان فاتحني في امر العمل في ملهاه ، فذعرت لطلبه اذ اننا كنا ما زلنا في الشتاء ، ولا يعقل ان اهجر دفء بيروت لاقبل على برد حلب القارس . لكنه قال لي:

« سأحول فندقي القديم الى ملهى شتوي ، وسأوفر لك فيه ما يقيك البرد » .

فتابعت احرجه :

« وكيف تريدني ان أعمل عندك ، بعد ان شيعت في كل انحاء حلب انني لا اعرف الغناء ولا احسن الرقص ؟ »

ـ انا لا انكر انني شنعت عليك كثيراً ، لانك كنت سبب اقفال محلي الصيفي على كل حال انا اعتذر عما بدر مني ، ومستعد ان اعوض ..

ـ ومن هو المطرب الذي سيعمل معنا في ملهاك ؟

ـ انه شقيق زكي مراد ، الذي يفوق اخـاه بجمال الصوت وحسن الاداء ، كما ستعمل معك جميلة دهبية واختها .

كنت سأذهب الى حلب بمفردي ، لأن صديق ماري بار كان قـد ثار على احكام العائلة الكريمـة ، وقرر الاقتران بماري والسفر الى اميركا . فاتفقت مع ميخائيل على ان اعمل عنده مدة خمسة عشر يوماً ، بمثـابة تجربة لقـاء خمسين ليرة ذهباً ، يدفع لي بعدها مرتباً شهرياً قـدره مئتا ليرة ذهباً فيما لو نجحت . وقد فرض عليّ هذا الشرط ، لاعتقاده بان نجاحي منوط بوجود ماري الى جانبي . قبلت على مضض ، وسافرت الى حلب برفقة الملحن الجديد عزت الجهلي ، وبترو احد عازفي التخت .

واول قطعة غنيتها في حلب كانت من تلحين عزت الجهلي « فستق مملح لذيذ يا فندي » . فراجت في موطن الفستق واصبحت على كل شفة ولسان . بعد انقضاء الخمسة عشر يوماً المتفق عليها ، وبعدما تأكدت من نجاحي ، قلت لميخائيل انني لن ابقى عنده بل سأعود الى بيروت . فجن جنونه واحال عليّ اصدقائي لاقناعي بمتابعة العمل في ملهاه . اذعن لجميع شروطي بعد ان كان قد حملني على قبول ما فرضه عـليّ في بيروت . فاصبح الشهر ثلاثين يوماً ، بعد ان كان في حسابه اربعة وثلاثين يوماً ، كما ارغم على دفع مئتي ليرة ذهباً عند انتهاء كل ثلاثين يوماً .

عدت الى بيروت بعد ان انهيت عملي في حلب وانا اتلهف على طفلتي



بديعة وابنتها بالتبني

جولييت . اقبلت على المنزل احتضنها بشوق واقبلها ما طاب لي التقبيل ، غير انهـا قابلتني ببرود غريب ، وكأنها لا تعرفني ! لم آبه لتصرفها هذا ، بل سررت للتغيير الذي طرأ عليها ، اذ كانت قد اصبحت طفلة جميلة ، خداها كتفاحتين طريتين لهما طعم وعبير .

مـا ان استقررت في منزلي ، واخذت قسطاً من الراحة بعد ليالي العمـل المتواصل في حلب ، حتى بادرتني شقيقتي بقولها : « لقد خطر لي يا اختاه ان انصحك بشراء منزل نأوي اليه ، هناك منزل جميل في حي الرميل كان يقدر ثمنه قبل الحرب بالف ليرة ذهباً ، وهو الآن معروض للبيـع بالف ليرة تركيـة فقط ... اسمعي نصيحتي ، بيعي الاساور الذهب واجمعي ما عندك لشراء هذا المنزل ، لا تدعي الفرصة تفوتك ... »

وفيما نحن في الحديث اذا بالسمسار جبران مقبل ـ وهو ما زال حياً يرزق ـ يدخل علينا ويشترك مع شقيقتي في اقناعي بشراء ذلك المنزل ، وكان مبنياً على الصخور وقريباً جداً من البحر عـلى حدود ملك عائلة العشي . اقتنعت لما قـالاه لي ، ودفعت عربون ذلك البيت مئتي وخمسين ليرة تركية .

عدت الى العمل ، في مقهى « كوكب الشرق » هـذه المرة ، حيث

كانت قائمة المعجبين تزداد يوماً بعد يوم . امـا المعجب الأول الضابط التركي صلاح الدين ، فلم اعد اجتمع به الا لماما ، لانه كان كثير التجوال بين تركيا والمانيا . وكان اذا ما اتفق له وعـاد الى بيروت ، يسأل عني فيجدني قد ذهبت بدوري الى طرابلس او الشام او حلب . امـا الذي حملني على اهمال صلاح الدين ، فهو معرفتي بصديقي الجديد السيد منير . كان منير هذا يحمل عني اعباء منزلي ، ويدخر لي ما يمكن ادخاره مـن عملي في « كوكب الشرق » كي يتيسر لي دفع ثمن البيت . كان منير كريماً طيب القلب ، فارتحت له ، الى ان كان يوماً دخلت على خياطتي فوجدت عندها سيدة قصيرة القامة ذات وجه جميل ومبسم ناعم . فاقبلت الخيـاطة ترحب بي ، ثم التفتت الى تلك السيدة وقدمتهـا لي : السيدة فلانة زوجة السيد منير . فسألتها بفضول :

ــ وهل السيد منير متزوج ؟

ــ نعم !

ــ ولكن ...

ــ نعم انه متزوج وله ثلاثة اطفال ...

فنظرت اليها باشفاق ، انها شابة وجميلة وام لثلاثـة اطفال ، وهي مع ذلك ترنو الي بانكسار ولا بد ان الغيرة تحرق قلبها . فقلت لها بلطف :

« صدقيني يا سيدتي ، لو كنت اعرف انه متزوج وله اطفال لما قبلت بصداقته قط . على كل حال اطمئني ، فانا اعرف كيف اتخلص منه ...

ــ ان اخي من زبائن « الكوكب » الدائمين وانت تعرفينه . كان منير يدعي في البدء انه يتأخر بسببه ، غير ان امره افتضح عندما سألت اخي فقال انه لا يرافقه في سهراته . لقد اصبح في المدة الاخيرة سريع الغضب يضيق باطفاله ويهددني بالطلاق لأقل كلمة اتفوه بها . بت اخشاه واخشى

ان يحرمني من منزلي واولادي . ارجوك اعيـــديه الينا دون ان يعلم انني قابلتك وتحدثت اليك . »

كانت تتكلم بصعوبة والدموع تنهمر من عينيهـــا الحزينتين ، فطيبت خاطرها ووعدتها بقطع علاقتي بزوجها .

« راحت السكرة وجاءت الفكرة » ، بعـــد ان ودعت زوجة السيد منير وخرجت من منزل الخياطة اخذت اتساءل : كيف يمكنني ان اقطع علاقتي به دون ان ابدي لذلك سبباً ؟ انه كريم ، لم يبد لي سوى الحب واللهفة ، وقد وعدني بأن يدفع عني ما تبقى من ثمن البيت على ان يستوفي مني المبلغ بالتقسيط . ولم يعد يفصل بيني وبين تسجيل البيت سوى بضعة ايام !

بينما كنت اتخبط في حيرتي هذه ، جاء الى ملهى المرصد تاجر معروف من تجار حلب الاثرياء يدعى محمد ، كان يصحبه شاب تركي وسيم اسمه جميل بك . عرّفني محمد على صديقه التركي ، وجلسنا نتحدث الى ان جاء موعد تقديم نمرتي ، فابديا من الاستحسان ما دفعني الى ان اقبـــل على صداقتهما . وتتابعت مقابلاتي لجميل ، كنت اتعمدها كي يصل الخبر الى منير فلم تطل المدة حتى جاء صديقي القديم يعاتبني :

« انت طائشة متهورة ، وستذكرينني عندما تحتاجين الى شيء .. الى دراهم مثلاً .. »

– وهل تنكر ان لي عندك ما ادخرتة من عملي ؟..

– معاذ الله لكنك بعت صداقتنا بثمن بخس للغاية ، ولم يعد بامكاني ان اخدمك بعدما تنكرت لي ولعواطفي !..

كنت على وشك ان انصحه بأن يحتفظ بعواطفه لأهل بيته ، عندما تذكرت وعدي لزوجته بأن لا ادعه يعلم بمقابلتنا . وبسبب اهمـالي للسيد منير ازداد تعلقي بجميل بك ، وكنت ما زلت اؤمن بالحب ، وبأقـــوال

الرجال المزوقة المخادعة . وفي ساعة صفاء طلب مني جميل بك ان اصحبه الى حلب ، واعترف بانه لم يعد يطيق فراقي . فكرت بما قــاله لي ، وتمنيت لو اتبعه الى المريخ . غير انني احتفظت ببقية من منطق وتذكرت انني ان لم اسجل البيت في الموعد المحدد ، فسأخسر البيت والعربون معاً . لاحظ جميل ارتباكي وطلب مني ان افصح عما بي ، واعداً إياي بتنفيذ جميع رغبــاتي – شأنه شأن بني جنسه قبــل وصولهم الى ما يبتغون – فرويت له ما حصل لي مع السيد منير وكيف انني ما زلت بحــاجة الى مئتي ليرة ذهباً لاتمم الصفقة . بعد مشاورات ومحادثات طويلة دارت بينه وبين صديقه محمد ، عرض جميل ان يدفع لي المبلغ شرط ان اكتب باسمه ربع البيت . فوافقت على هذا الشرط الارعن لغباوتي وكي لا أدع السيد جميل يشمت بي ويسخر مني .

تمكنت من شراء ذلك البيت ، وسجلت ربعه لجميل بك ، غير انني لم ارتح الى هذه الشراكة . وتساءلت لماذا أصر على ان أسجل له ربع البيت ؟ لماذا لم يقتنع بتسليفي المبلغ على ان أعيده له فيما بعد ؟ ولكنه الحب ، لعنة الله عليه ! كنت كلما طرح عقلي سؤالاً ، أسرع قلبي بالجواب : انه يحبك ، وقد يكون أصر على شرطه هذا كي يحتفظ بك . فصدقت قلبي ، وكان أشد غباوة مني . ولم أكن اعلم ما يخبئه لي ذلك الشاب الجميل الذي يبدو في غاية الكياسة والتهذيب .

تركت بيروت وذهبت برفقته الى حلب دون ان اهتم بالعمل ولا بمن يعملون . كنت أعيش على الحب ، واعتقده قوتاً كافيــاً يقيني العوز والدموع . امضيت شهرين بصحبة جميل بك في حلب ، بين سهر وسمر وحب وأشواق ، الى ان علم الجميع بوجودي في المدينة وفي منزل جميل بك بالذات . غير انني كنت في عالم غير عالمهم ، عالم نسيت وتناسيت فيه الليرات والمقاهي والتصفيق والهتاف ، وحتى الفساطين الجميلة المزركشة ، الى ان جاء صباح دعتني فيه سيدة من الجيران الى تنــاول القهوة في

منزلها . فلبيت دعوتها بطيبة خاطر ، ودخلت بيتها لأجد عندها بشير القصير وزكي ضاهر صاحبي مقهى « اللونابارك » .

باغتتني المفاجأة وجلست اتحدث اليهما بلطف ودون تكليف ! لم يخفيا عليّ انهما جاءا ليدعواني الى العمل في ملهاهما . لم ارفض البحث معهما في هذا الموضوع بل طلبت اليهما فرصة للتفكير . وبعد انصرافهما جلست الي جارتي تقنعني بالعودة الى العمل :

« ... ان الحب لا يدوم يا ابنتي ، اغتنمي فرصة شبابك واعملي ما امكنك ... الرجال لا زمام لهم ... »

الرجال لا زمام لهم ... الرجال لا زمام لهم .!

« الرجال لا زمام لهم !.. وهل كان لاشقائي زمام عندما تركونا في غربتنا انا ووالدتي ... تركونا نصارع الفقر والجوع ... وهل كان لأخي توفيق اي زمام ؟.. الرجال لا زمام لهم !.. وهل يختلف هـذا المخلوق الذي نسيت العالم بقربه عن سواه من الرجال ؟.. وانتزعني صوت جارتي وهي تتابع حديثها : « انت كنز لا تدفني هذا الكنز في اجمل ايام زهوته! يا ليت لي ابنة لها مواهبك !.. »

تركت جارتي تسترسل في حديثها ، وعدت بذاكرتي الى ما حصل لي مع جميل في بيروت عندما طلب مني ان ارافقه الى حلب .. ترى لو لم اكتب له ربع البيت ، هل كان اعطاني المئتي ليرة التي كنت بحـاجة اليها ، لا لشيء الا لأهجر عملي وارافقـه الى حيث يريـد ؟ انقشعت الغشاوة عن عيني ، وعدت الى المنزل اضرب أسداساً بأخماس ، واتحسب للقائه عند المساء .

استقبلته كعادتي ولم يظهر له في بادىء الامر اي تغيير في تصرفي معه ، ولكن عندما طلبت كأس عرق ثانية استرعى انتباهـه ارتباكي واخذ في مراقبتي . وما ان عدت اطلب الكأس الثالثة على غير عادتي ـ اذ كان

شربي للعرق لا يتعدى الكأس الواحدة ــ ما ان رآني اقبل على الخمر بهذا الشكل حتى ناداني الى غرفته ، واخذ يلاطفني ويستدرجني لأبوح له بسبب تغييري المفاجيء . فارتميت على صدره ابكي دون ان أنبس بكلمة واحدة . تابع مداعباته لي وأصر على معرفة ما بي . وما ان سمع مني خبر مقابلتي لصاحبي المقهى حتى انتفض ، وسألني بعنف اذا كنت قد انهيت اتفاقي معهما . فلم ار بداً من الاحتيال عليه ، فأجبته بالايجاب . وزدت على ذلك اننا حددنا موعد الافتتاح بعد شهر واحد . فقفز واقفاً وصاح :

ــ هكذا بهذه السرعة ودون ان تسأليني رأيي ؟

ــ نعم لقد تصرفت دون علمك ، ولي في ذلك عذر فأنا اتحمل مسؤولية بيت واسرة ، اسرة اختي التي احبها حبي لوالدتي ، لأنني لم اسمع كلمة عطف طيلة حياتي الا منها هي .

بدأت اشعر بالندم ، واخذ ضميري يؤنبني بعد ان تركتها في بيروت تتخبط في الجوع والفقر ، وانت تعرف الضائقة الآخذة برقاب جميع من في لبنان . لقد جئت بها من شيخان لانقذها من الجوع وقد مضى على مجيئنا الى حلب شهران ، لم أعد أملك فلساً واحداً أمدها به . والآن علي ان أعمل بسرعة ..

ــ ولم هذه السرعة ؟

ــ لأن ليس من يعيل شقيقتي واولادها غيري ، ولم يعد لها اي مورد بعد ان اتى الجراد على ما تبقى من مواسم الجبل . وقد اتفقت مع صاحبي المقهى على ان أبدأ العمل بعد شهر على وجه التقريب . ارجوك ان لا تقف في سبيلي ..

ــ اعملي ما يحلو لك فلولاك لما مكثت في حلب كل هذه المدة بعيداً

عن اهلي ، تركت عملي في اسطنبول . ومـا دمت قـد نويت هجري فسأعود الى تركيا ..

– وانا سأعود الى بيروت لأفتقد اختي واولادها وجولييت . لقـد وعدني صاحبا المقهى بأن يؤمنا لي مرتب شهرين سلفاً ، وهكذا سأتمكن من ان أعيد لك المبلغ الذي دفعته عني لأستعيد ربع البيت ..

فعادت اليه لكنته التركية وقال بحنق :

– عال عال يا بديعة خانم ، عملت ترتيبات تمام ، كل شيء عندك جاهز ، ما شاء الله ، ما شاء الله . انت شاطرة بتدبري حالك مظبوط . عفارم ، عفارم ! »

انتظرت بفارغ الصبر قدوم صاحبي المقهى في اليوم الثاني ، وانتهينا بسرعة من وضع شروط العقد . فوافقا على ان يؤمنا لي نفقات الاقامة مع نفقات عازفي التخت ، وفرقة كاملة من الفنانات . اما مرتبي فكان مئتي ليرة ذهباً في الشهر . طلبت منهما سلفة شهرين لأتمكن من زيارة شقيقتي وجولييت في بيروت . وقلت لهما :

– ليس من حقي ان آخذ هذا المبلغ الآن ، اذا كنتما لا تثقان بي !

فقفزا معاً وبذرا ما كان في كيسيهما من ذهب على الارض وطلبا مني ان آخذ ما أشاء . شكرتهما على حسن ظنهما بي ، ولم أمس سوى مرتبي.

ما ان تأكد صديقي من انني عازمة على هجره وعلى العودة الى حياة العمل ، حتى بـدا على حقيقته خبيثاً ماكراً كالثعلب العتيق . فأخذ يراقبني ويسيء معاملتي ، غير انني كنت أتحمله على مضض علني أتمكن من استرداد ربـع البيت المسجل باسمه في بيروت . وعندما حصلت على الاربعمئة ليرة جئت اسأله بلطف :

– هل يمكنك ان ترافقني الى بيروت كي أعيد لك المبلغ الذي سلفتني

اياه قبل مجيئنا الى حلب ، وترجع لي ربع البيت المسجل باسمك ؟

– انني لا أحب بيروت ، ولا أرغب في مرافقتك اليهـا . لكنني سأعمل توكيلاً لصديقي محمد افندي ليفك التسجيل ويقبض منك مبلغ مئتين وخمسين ليرة ذهباً .

– ولكنك لم تسلفني سوى مئتي ليرة فقط !

– صحيح . انما ثمن البيت يقدر الآن بألف ليرة ذهباً ، وانا أريد حصتي بالتمام والكمال .. واذا كان هذا لا يروق لك فاعملي ما تريدين .

« فبلعتها » وتابعت :

– حاضر افندم ، ولكنك بعتني بثمن بخس للغاية . لقد عادت عليك هذه الصفقة بخمسين ليرة وعادت علي بدرس لن أنساه .

– لم أبعك ، بل انت التي قررت هجري .

فزعقت بوجهه :

– وانا أحمد الله على خلاصي منك قبل ان يهلك اهلي من الجوع . هل فكرت بأن تمدني يوماً بمبلغ ولو ضئيل ارساله لهم في بيروت . لشد ما كنت غبية عندما اصغيت لكلامك الفارغ ، وهجرت عملي لأتبعك الى هنا . ولكنك لقنتني امثولة لن انساها . وسأعرف كيف أعامل الرجال بعدك !

افترقنا الى غير لقاء ! واصبحت اتحاشى امثاله ممن يحسنون الاخذ ، ويجبنون عن العطاء . ومن من الرجال لا يحسن الأخذ ، ومن منهم يقوى على العطاء ؟

انتقلت بعد هذه الحـادثة من طور الصبية الساذجة التي ترتاح الى الكلام المزوق وتؤمن بالاحلام المزهرة الى نمرة مخيفة تنقض على فريستها بسرعة مخيفة . وتعلمت كيف لا أعطي الا بمقدار وكم من مرة اخـذت واسرفت في الأخذ دون ان أعطي أي شيء . لم اعد اذكر من قـال

الويل لمن يقع في براثن امرأة ذاقت مرارة الخيبة . لم اذق وحدي تلك المرارة ، بل اذقتها لعدد كبير من الذين اجتذبهم بريق عملي وجاءوا يحومون حولي ، فكانوا يعودون بدون اجنحة . ومع ذلك لم تخل حياتي من قصص حب جميلة ، وكنت بالرغم من تحسبي وعدم ثقتي بالرجال الضحية الدائمة ، وهناك مثل كثيراً ما يتردد على ألسنة الصعايدة في مصر : « كل ما أجول التوبة ترميني المجادير . »

عدت الى حلب بعد أن زرت شقيقتي في بيروت وارتحت الى انها واولادها و صغيرتي جولييت بأمن وطمأنينة .

بدأنا عملنا في ملهى « اللونابارك » وأقبل علينا عشاق الطرب والجمال اقبالا منقطع النظير . كانت خيوط الفجر الاولى تطل علينا ، ونحن ما زلنا في نشوة الغناء وسكرة النجاح . وكان الجمهور لا ينفك يطالب باغنيات جديدة ، دون أن يشعر بمرور الوقت ، وكم تمنى ان يصل الليل بالنهار . كانت حلب باسرها قد تبنت بديعة وأحبتها وتناقل أخبارها الصغار والكبار على حد سواء : بديعة ابتسمت ، بديعة ارتدت فسطاناً أزرق ، بديعة زارت بيت فلان ، بديعة نظرت الى فلان وطالت نظرتها اليه . حتى الباعة كانوا ينادون على الفستق قائلين : : طيب يا فستق ، يلي اكلت منك بديعة يا فستق » .

كان الحلبيون وما زالوا أهل كيف وطرب يحبون الغناء ويقبلون على أهل الغناء بالثناء و التشجيع ، كما كانت حلب دائماً نقطة انطلاق كل فنان ناجح . وكان بامكانك أن تجد في كل منزل من منازل تلك المدينة الطيبة ، جميع آلات الموسيقى الشرقية كالعود والنقرظان والدربكة والطار . وجميع أعضاء الأسرة من كبيرهم الى أصغر صغير فيهم كانوا يحسنون العزف على احدى هذه الآلات ، و يؤلفون تختاً جميلاً منظماً أحسن تنظيم كما كان معظمهم يحسن الرقص على أنغام على الموشحات الاندلسية ويجيد رقص

السماحي الصعب . وماذا أقول عن أصواتهم ؟ ان الاصوات الجميلة في حلب كثيرة جداً ، وقد تكون سبب تذوقهم للموسيقى وتقديرهم للموسيقيين . والطرب لديهم بمثابة القوت الضروري الذي لا عيش بدونه . هل كان يدور بخلدك قط انهم في الصباح الباكر وقبل ان يذهبوا الى أعمالهم ، يقصدون الحدائق الجميلة فيتناولون القهوة والحليب وطعام الصباح على انغام الموسيقى والاصوات اللطيفة ؟ و عند المساء كانوا لا يأوون الى منازلهم الا بعد أن يذهبوا الى الحدائق مرة ثانية ، ويستمعون الى ما طاب لهم من الاغاني القديمة والحديثة . كانت تشترك في هذه النزهات عائلات باسرها بفتياتها وسيداتها ، وعلى ذلك كانت الحدائق تغص بمن فيها .

عند انتهاء موسم الصيف وما ان بدأت استعد للعودة الى بيروت ، حتى اقترح علي بعض اصدقائي ان ابقى في حلب ، لاحيي فيها سهرات في منزل استأجره لحسابي الخاص . كانت قد درجت العادة على ان تحيي الفنانة ليالي الانس في منزلها ، فيقصدها عشاق الفن من كل حدب وصوب ، ويرشقونها بالنقود الفضية والذهبية فيما هي ترقص او تغني . وكم كانت المنافسة شديدة بين الذين يريدون ان يستأثروا برضى الفنانة وصداقتها . كان كل منهم يتباهى بغناه وكرمه ، فيعود ذلك بالربح على الفنانة وحدها . اطلعني اصدقائي على هذه العادة المألوفة لديهم ، ورووا لي قصصاً عديدة عن فنانة معروفة اسمها هيلانة اسكندر ، كانت قد سبقتني الى هذا العمل . فراقت لي الفكرة ، وطلبت اليهم ان يسهموا معي في تأسيس منزل جميل ، يصلح لاستقبال من اراد زيارته من وجهاء حلب والمقاطعات المجاورة . وسرعان ما اصبح لدي بيت انيق ، اخذت احيي فيه الافراح والليالي الملاح ، وكانت تجتمع فيه رجالات المدينة . عندما اعلنت الهدنة بين الحلفاء ودول المحور ، تشتت الجيش التركي ودخلت الجيوش المنتصرة حلب ، فجاء معها جعفر والي ونوري باشا السعيد وناجي

بك السويد وغيرهم من الشخصيات الكبيرة . وكثيراً مــا كانوا يترددون على منزلي اثناء اقامتهم في الشهباء .

لم انس خلال هذه المدة الدرس الذي لقنني اياه جميــل ، فكنت لا اصدق ابتسامة ولا ارتاح لثناء ، بل احمل مــن قصد منزلي على اعطاء اقصى ما يمكنه ان يعطيه ...

ما ان استقرت الحالة وعاد الاطمئنان الى قلوب الناس ، حتى قررت العودة الى شقيقتي في بيروت ، وحملت معي ما خف حمله وغلا ثمنه مــن سجاد واقمشة وتحف على انواعها . وما زلت اذكر الحلبيين بالخير ، فلهم يعود الفضل فيما وصلت اليه من شهرة ونجاح ، كما اقالني كرمهم مــن العثرة التي كان قد اوقعني بها تسرع الشباب وطيشه .

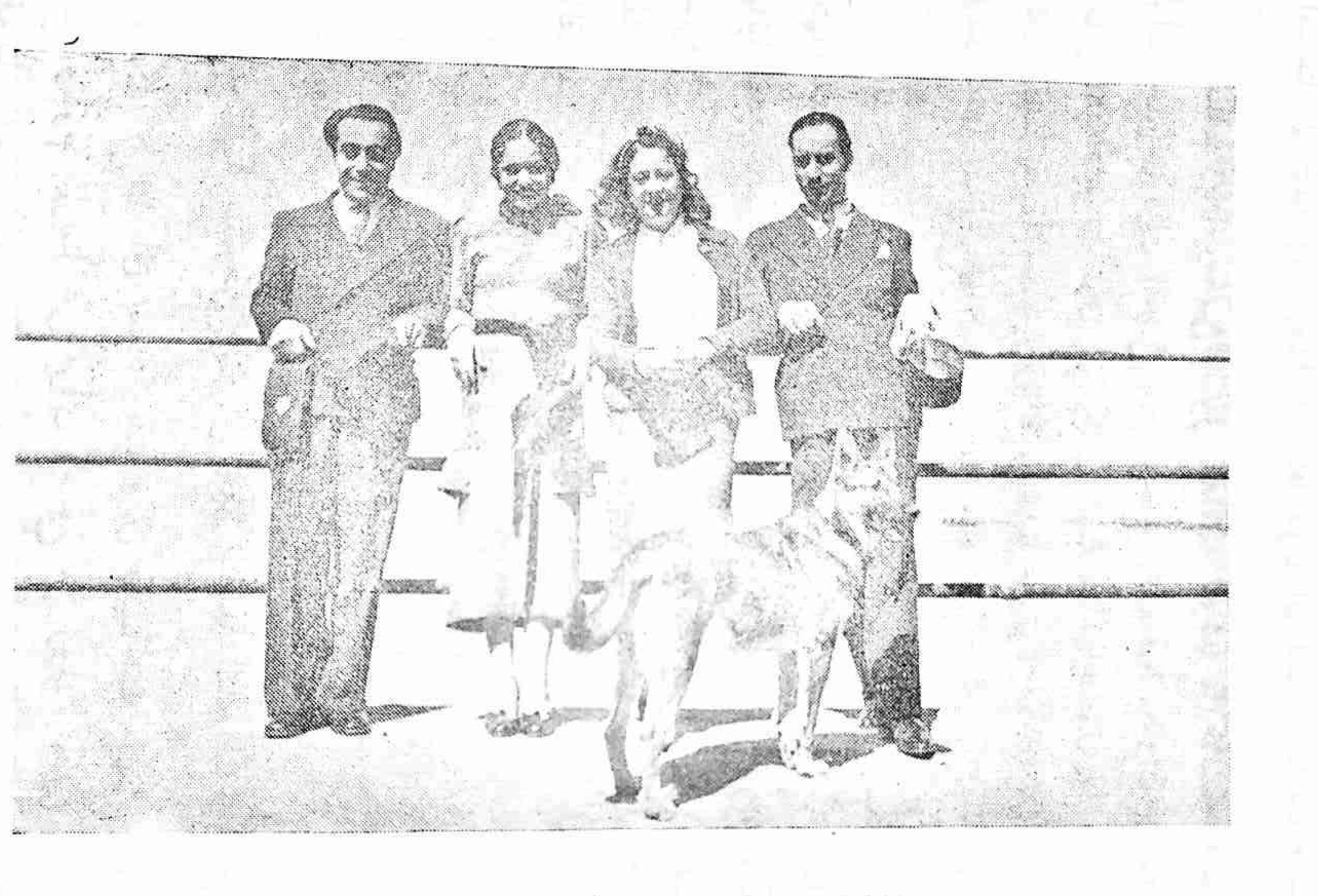
بعــد النجاح الذي اصبته في حلب ، لم يعــد يروق لي العمل في الملاهي التي يكثر فيها ضجيج لاعبي الطاولة والدومينو . وللأسف لم يكن ملهى من ملاهي بيروت يخلو من ضجة هؤلاء اللاعبين . وهكذا رفضت جميع العروض التي قدمها لي اصحاب الملاهي ، لأنني لم أعــد استطيب الغناء الا في جو من الهدوء والسكينة ارتاح فيه الى تجاوب الجمهور .

بقيت معتكفة في مــنزلي ، الى ان حضر الى بيروت عزت الجهلي والممثل الكبير الاستاذ حسين رياض ، الذي لم يكن كبيراً في تلك الايام ، بل كان يحاول تمثيل ادوار نجيب الريحاني ، ويقلد صوته وحركاته كما كان حافظاً جميع رواياته ، التقيتهما ، وعرض علي حسين رياض ان نكوّن فرقة تمثيلية ونذهب الى فلسطين . رحبت بفكرته بحماس ، لأنني كنت قد بدأت افتقد التمثيل ، ولم تكن بيروت لتسنح لي فرصة اشباع رغبتي اذ كانت كما هي اليوم خالية من المسارح . بــدأت في تكوين الفرقة يستخفني الفرح ، واستدعيت الممثلين الذين كان امين عطاالله قد تركهم مشردين دون ان يكلف نفسه عنــاء إعادتهم الى بلدانهم حسب شروط

عقدهم معه . كما جمعنا فرقة من الحيوانات الأليفة كالكلاب والسعادين ، واتجهنا الى فلسطين !

كانت حيفا اول المطاف . وكنت ما زلت أجهل عمل المسرح وادارته ولا افقه شيئاً عن طريقة اعداده ، ولا اعلم ان الدعاية هي اولى دعائم النجاح . نزلنا حيفا دون ان نكون قد حجزنا فندقاً نأوي اليه ولا مسرحاً نعمل فيه . ما ان بلغنا المدينة حتى تفرق شملنا ، وصار كل منا يبحث على حدة عن مكان يبيت فيه ليله . كما كان كل منا يتنصل من المسؤولية ويلقيها على عاتق غيره . كل هذا وانا محتارة ، لا أدري ما العمل لحل هذه الازمة ، التي لم أكن اتوقعها .

أمضينا ليلتنا الأولى كيفما اتفق ، وفي الصباح الباكر شرعت في لم شمل الممثلين المبعثرين في كل انحاء حيفا ، كما شرعت في البحث عن مسرح نعمل فيه . ولسوء الحظ كان اصحاب المقاهي متعاقدين مع فرق راقصة ، ولم نوفق بمسرح واحد يصلح لتمثيلياتنا . بعدما يئسنا من بحثنا العقيم ، جاء من يقول لنا ان في الحي اليهودي مسرحاً قد يكون صالحاً للعمل ، ولكن اذا عملتم هناك قاطعكم العرب لانكم في حي يهودي وقاطعكم اليهود لانكم عرب ، فالحالة متوترة جداً بين الطرفين ولا تنتهي مظاهرة الا لتقوم اخرى . هذا ونحن ما زلنا كالبدو الرحل ، نتجول في شوارع حيفا برفقة كلاب وسعادين الفرقة . تجولنا الى ان بلغنا الساحة فوقع نظر صاحب مقهى الزهر علينا ، واسرع يدعونا الى تناول القهوة في ضيافته . لبينا دعوته بسرور وفيما نحن في حديث طويل عن المسارح والمقاهي والفرق ، اذا بطلقات نارية تلعلع في الفضاء فجأة ، واذا بالتظاهرات تتعاقب بسرعة . دب الذعر في نفوسنا لمنظر المتظاهرين الهادرين كالرعد ، ولم يعد يهمنا العمل بقدر ما اصبح يهمنا ان ننجو بأنفسنا . فاقترح علينا صاحب مقهى الزهر ان نذهب الى يافا حيث كان يوجد مقهى البنور الواقع في الحي العربي ، وزاد على ذلك قوله ان



عزت الجاهلي وبديعة على كوبري بديعة سنة ١٩٣١

الأمن مستتب في يافا ، وليس فيها تظاهرات ولا عيارات نارية ولا ما يدعو الى الذعر والخوف . لم ننتظر ان يتابع صديقنا كلامه ، بل اسرعنا نلم شملنا ومن حيفا الى يافا دون ان ننسى الكلاب والسعادين !

وصلنا يافا ومقهى البنور بالذات . وشد ما كانت دهشتنا عندما رأينا جدران ذلك المقهى من الزجاج الشفاف ، وان بامكان أي كان ان يشاهد تمثيلياتنا دون ان يكلف نفسه عناء الدخول ، غير ان المسرح كان منسقاً تنسيقاً حسناً راق لنا وقصدنا من تونا صاحبه نفاتحه بامر العمل . فرحب بنا بتحفظ قائلا :

« انني لا امانع في ان تعملوا عندي ، ولكن عليكم ان تنتظروا انتهاء مدة تعاقدي مع الفرقة الموجودة الآن في المقهى . واذا ما قررتم نهائياً تقديم التمثيليات على هذا المسرح ، فلن اتدخل في شؤونكم البتة ، تصرفوا كما يحلو لكم في امر الدعاية والتذاكر وباقي النفقات ولن أتقاضى منكم سوى عشرين بالمئة من دخل الشباك كما سأمدكم بالستائر والمقاعد ... »

اسرع حسين رياض يستوضح :

« ومتى تنتهي مدة الفرقة التي تعمل عندك الآن ؟

– بعد اسبوع واحد ..

– حسناً ! سنتمكن اذن من تجهيز أنفسنا اثناء المدة المتبقية لنا . »

وهكذا تم الاتفاق بسرعة بيننا وبين صاحب مقهى البنور . كنا نجتمع ونقوم بتمارينا على مرأى ومسمع من رواد المقهى ، الذين كانوا يراقبوننا وهم يرشفون القهوة أو يدخنون النارجيلة . كنا في حيرة من أمرنا ، فان اقفلنا الستائر ضاقت أنفاسنا من الحر ، وإن فتحناها شاهد الناس التمثيليات قبل موعد تقديمها ، وذلك من خلال جدران الزجاج

الشفاف . وبقينا على هذه الحالة الى أن ازف موعد عملنا ، فأقبل علينا الجمهور بحماس انسانا ما كنا قد قاسيناه .

عملنا طيلة خمسة عشر يوماً ، وكنا نقفز خلالها من نجاح الى نجاح ، الى أن اندلعت الثورة في يافا وتتابعت المظاهرات ، فأقفلت المدينة باسرها ولم يعد أحد يجرؤ على ترك منزله . توقفنا عن العمل بضعة أيام على أمل أن تعود الأمور الى مجراها الطبيعي ، ولكن لم يكن لانتظارنا جدوى . وكان اعضاء الفرقة في هذه الاثناء يتقاضون مرتباتهم كاملة ، فقررت والحالة على ما كانت عليه أن أصرفهم بالحسنى . وهكذا كان ، وبقيت في فلسطين برفقة جولييت وفتاة كانت تقوم بخدمتها . كنت انتظر الفرج بصبر ، وإذا به يأتي برفقة سيدة من يافا تدعى روجينا كانت تعمل مع شقيقتها على مسارح المدينة .



« ... عندما جاءتني السيدة روجينـــا كنت في حيرة من امري ، لا ادري ماذا افعل ولا كيف اتصرف : هــل اعود الى بيروت للعمل في مقاهيها برفقـــة ضجيج لاعبي الطاولة والدومينو وصراخهم المتواصل ، ام اظل في فلسطين الى ان تخف حدة التوتر وترجع الامور الى مجراهـــا الطبيعي ؟ جاءتني السيدة روجينا فيما كنت اتخبط في حيرتي هذه ، وفاتحتني بأمر العمل على مسرحها . فلم اكن على بينة من امري ، واردت مماطلتها حتى اكون قد عزمت على امر معين . لم ارفض مبدأ العمل عندها ، غير انني طلبت لقاء ذلك مبلغ ثلاثمئة ليرة ذهبية في الشهر ، اي ما يعـــادل العشر ليرات ذهبية عن كل امسية احييها في ملهاها ، هذا عدا نفقـــات التخت . فما كان منها الا ان فتحت محفظتها ودفعت لي مبلغ ثلاثمئة ليرة ذهباً نقداً وعداً . اسقط في يدي لانني لم اكن اتوقع منها هذا التصرف، بل كنت اعتقد انها ستعرض عني عندما تسمعني اصرّ على هـــذا المبلغ الكبير . غير انها تصرفت بذكاء ادهشني وحولت حيرتي الى احراج ، فلم اعد ادري كيف اتخلص من هذا المأزق . سألتني بلطف :

ــ متى نبدأ بالعمل ؟

فاجبتها مرتبكة :

ــ ارجوك ان تمهليني الى الغد ، فاراجع نفسي واقرر متى يمكنني ان اعود الى المسرح !

رحبت باقتراحي بكل طيبة خاطر ، ونهضت تهم بالانصراف . لحقت

بها لكي اعيد لها المبلغ ، ففوجئت بها تقول :

– ارجوك ان تحتفظي بهذا المبلغ الضئيل حتى ولو لم توافقي على الغناء في ملهانا ...

قالت هذا وانصرفت مسرعة .

عدت الى وحدتي انظر الى كومـــة الذهب الموضوعة على المنضدة بجانبي ، وأتحسر على ما أنفقته في مغامرة الفرقة التي لم تعمل سوى خمسة عشر يوماً ، وفي مسرح جدرانه من الزجاج الشفاف . وعقدت النية على ان لا أعود الى المقامرة بمالي على هذا الشكل ، انها اول وآخر مرة . أتراها كانت حقاً آخر مرة ؟ كلا ، اذ انني كثيراً ما ارتكبت حماقات من هذا النوع طيلة حياتي الفنية . وفي المساء تركت جولييت برفقة الخادمة الصغيرة وهيبة ، وتوجهت الى مسرح السيدة روجينا ، كي أكون على بينة من نوع الغناء والرقص اللذين يرغب فيهما جمهورها . شاهدتني روجينا مقبلة من بعيد ، فأسرعت تستقبلني قائلة بأعلى صوتها :

– اهلاً وسهلاً بالست بديعة مصابني .

سمعها كل من في الصالة ، وتعالى الهتاف والتصفيق . فحييت الجميـــع ورافقتها الى المقصورة الامامية . اخذوا يبحلقون فيّ بفضول . وهكذا أصبحت محط انظار الجميع ، وانشغلوا بي عن مطربات المقهى . كان عند السيدة روجينا عدد كبير من الفتيات الجميلات ، وقـــد سمعتهن في تلك الليلة يؤدين أغنياتي بكثير من الاعجاب والارتياح . عند انتهاء البرنامج ، حاولت العودة الى الفندق الذي كنت اقيم فيـه ، الا ان السيدة روجينا اقبلت تستحلفني ان اتناول طعـــام العشاء في ضيافتها ، وبرفقـــة بعض اصدقائها . لم يسعني الا أن ارحب بهذه الدعوة اللطيفة ، وجلست اسامر عدداً من وجهاء مدينة يافا . امضينا سهرة لطيفة بين كأس ونغم وثغر جميل ، الى أن أطل علينا الفجر ، فاستأذنت بالانصراف . وقبل ان تدعني

ابرح المكان عادت تستوضحني عن موعد عملي عندها . فأجبتها :

ـ عند عودتي من مصر ان شاء الله !

ـ ومتى تعودين ؟

ـ بعد خمسة عشر يوماً بالتحديد ، أكون اثناءها قــد تعلمت اغاني جديدة ، لم يسبق لجمهورك ان سمعها من أية مطربة . واذا شئت وقعت لك ايصالا بالمبلغ الذي سلفتني إياه .

ـ كلا ، كلا ، انني امينة منك ومن أنك ستعودين بعد خمسة عشر يوماً كما تقولين !

والحقيقة انني كنت بحاجة ماسة الى ما قدمته لي من نقود ، بعــد الافلاس الذي لحق بي نتيجة سوء ادارة الفرقة التي جئت بها الى فلسطين، ونتيجة الاضرابات المتواصلة التي حالت دون متابعتنا العمل هناك .

* * *

ما لبثت أن غادرت فلسطين متجهة الى مصر ، فنزلت في فنــدق بشارع عماد الدين ، وكنت قد اصطحبت جولييت وخادمتها وهيبــة . سرتني عودتي الى أرض الكنانة وقد اشتقت الى نيلهــا وعشرة أهلهــا الطيبين ، كما افتقدت مسرح التمثيل وانواره ، تلك الانوار التي يختلف بريقها عن بريق انوار مسرح الالحان والرقص ومــا اليهما . مــا إن استقررت في القاهرة حتى طالعتني اعلانات عن مسرح عــلي الكسار ، وكانت بجانب إعلانات كبيرة باسم نجيب الريحاني . عنــدما قرأت هذا الاسم الذي رافقني سنين عديدة من حيــاتي ، سرت في رعشة غريبــة لم أدر لها سبباً . قررت أن أدخــل الى مسرح نجيب الريحــاني رغم الازدحام الشديد حول شباك التذاكر . وعندما حال اقبــال الجمهور في

تلك الليلة دون وصولي الى الشباك ، رجوت أحدهم أن يقطع لي ثلاث تذاكر ، ففعل وهكذا تمكنت من الدخول بالرغم من لكمات المزدحمين على الباب وتأففهم بوجهي .

لا يمكنني أن أصف فرحتي عندما وقع نظري على حسين رياض جالساً بقربي ، فرحب بي وأخذ يسألني باهتمام عن سبب مجيئي الى مصر. كانت رواية تلك الليلة من وضعه ، وكانت تدعى « انت وبختك » ، مثلت دور البطولة فيها فتحية أحمد — وكانت ما زالت صغيرة السن — كما اشترك معها السيد بهنسي . لم يخل برنامج تلك الامسية من النمر الغربية ، بل استرعت انتباهي احدى الفنانات الاجنبيات من ذات الجمال الصارخ . سألت حسين رياض عمن تكون هذه الفاتنه . أجابني مبتسماً :

« هذه حبوبة الاستاذ نجيب ! »

شاهدت التمثيلية كما تابعت باقي النمر بانتباه لذيذ ، الى أن قال لي حسين رياض في النهاية :

— هل ترغبين في التعرف على الاستاذ نجيب الريحاني ؟

— اتمنى ذلك ..

— إذن اتبعيني ، سأقدمك له ! »

تبعته الى غرفة نجيب الريحاني الذي كان محاطاً بالأستاذ بديع خيري وبعدد كبير من المهنئين المعجبين . كان يستقبلهم بابتسامته المعروفة ، ويجيب على مديحهم بذكائه المعهود . وعندما جاء دوري التفت ناحية حسين رياض يسأله :

« من أين لك هذا ؟

— يا ليتك تعرف من أين لي هذا ، إن هذه الفتاة التي تقف امامك هي من أشهر فنانات بر الشام !..

ـ يمكنني اذن ان اتابع ، انها من أشهر فنانات بر الشام ، وقد قدمت الى مصر كي تلطش كم رواية على كم لحن وتعود بها الى هناك . ألم يكن الاستاذ حسين يقلدني في بلدكم يا ست بديعة ؟

ـ ان ألطش عدة ألحان هذا معقول وهذا ما عقدت النية عليه . أما الروايات التمثيلية فقد تبت عنها توبة صادقة لن ارجع عنها !

ـ ولماذا هذه التوبة الصادقة ؟

ـ اسأل الاستاذ حسين فهو عالم بما حصل لي ولفرقتي . ان بامكاني الرقص والغناء والتمثيل في آن واحد .

فضحك نجيب وشاركه في ضحكه بديع خيري ، وتابع حديثه :

ـ يبدو عليك انك جريئة ، ما رأيك لو جربت حظك في مصر ؟

ـ ما هو المبلغ الذي قد تدفعه لي لقاء عملي معك ؟

ـ وما هو المبلغ الذي قد تدفعينه انت كي أجعل منك ممثلة كبيرة ؟

ـ اذا كنت ترغب في ان اعمل على مسرحك ، ارجوك ان تفصح عن المبلغ الذي تود دفعه لي ...

ـ يبدو من كلامك انك في منتهى الذكاء ، وسأدفع لك مرتب احسن ممثلة في فرقتي .

كنت أتوقع ان يدفع لي مبلغ اربعمئة او خمسمئة جنيه مصري على الاقل ، غير اني فوجئت به يقول :

ـ سأدفع لك كما ادفع للوسي تماماً ، أي مبلغ خمسة واربعين جنيهاً ..

ـ في الاسبوع ؟

ـ ايه ؟ انت عاوزة تشاركيني ؟

ـ كلا يا استاذ انني لا اناقشك في الشراكة ، ولكنني اناقشك في

المعاش ، أتدري ما هو المبلغ الذي اتقاضاه في يافا ؟

– قولي بدون مبالغة ...

– انني أتقاضى ثلاثمئة ليرة ذهباً عدا نفقات الفندق والتخت والسفر ..

– يا سلام ، بقى دي مش مبالغة ، طيب على شان خاطرك حاعمل مرسوم خاص بستين جنيهاً ..

– آسفة لن اترك الثلاثمئة ذهبية لأعمل بستين جنيهاً ...

– وانا انصحك بالتريث لانك قد تندمين ..

* * *

ودعت نجيب الريحاني وبديع خيري واستأذنتهما بالانصراف ، رافقني حسين رياض الى خارج المسرح ونصحني بالتريث قبل اعطاء رفض نهائي .. لكن لم يكن للتريث داع اذ كنت مرتبطة بوعدي للسيدة روجينا ، التي كانت تنتظر عودتي بعد اسبوعين على الاكثر ... اذن فجدالي لنجيب الريحاني كان عقيماً ولا طائل تحته ... وبالرغم من الفارق الكبير بين مرتبي في « بر الشام » كما كان يقول المصريون ، وما عرضه علي الريحاني في تلك الليلة ، لم يسعني الا ان أتحسر على عدم تمكني من العمل مع هذا الفنان الكبير ، الذي كان له في نفسي اثر عميق منذ اول لقاء . وكأنني مشدودة اليه بسلك عجيب ، عدت في مساء اليوم التالي الى مسرحه ، فألفيت نفس الرواية ، استغربت ذلك واستوضحت بعض المارة فتضاحكوا من جهلي ورووا لي انها – أي الرواية – ما زالت تقدم منذ اكثر من خمسة أشهر ، وان اقبال الجمهور عليها يزداد باضطراد . دخلت الى المسرح كي اشاهدها للمرة الثانية . وشهادة حق ان من يتذوق تمثيليات الريحاني ، لا يملها حتى ولو شاهدها أكثر من مرة ومرتين . عند انتهاء الفصل الاول تسللت الى الكواليس علني اعرف كيف يغيرون المناظر ويعدون المسرح ، فالتقيت احدى ممثلات الفرقة وكانت صبية ظريفة . سألتها عن

اسمها ، فقالت : دولت ، وكانت لم تزل زوجة لاحد المصريين الاقباط رزقت منه بطفلة اسمتها ايفون ، وبعد انفصالها عنه اقترنت بكميل شامبير عازف البيانو الشهير ، اما زوجها الثالث والاخير ، فقـد كان الممثـل الكبير المرحوم جورج ابيض ...

وفيما كنت اتحدث الى السيدة دولت ، اقبل علينـا نجيب الريحاني وقال لي :

ـ انت بتعملي ايه هنا ؟

ـ بتفرج ...

ـ بتتفرجي على ايه ، ما تيجي تشتغلي وتشوفي كل شيء احسن ؟

فاستغربت دولت :

ـ هي المادموزيل أرتيست ؟

فأجابها نجيب بمرح :

ـ هوهو ما بتعرفيش حاجة ، الآنسة بترقص وبتغني وبتمثل كمان !

غالبت دولت ضحكة ارتسمت على شفتيها وسألتني :

ـ صحيح الكلام ده يا .. يا ..

ـ محسوبتك بديعة ..

ـ اسم على مسمى .

مال نجيب الريحاني على اذنها وأسر لها بشيء ، تبين لي فيما بعد انـه طلب اليها ان تسير بي الى مكتبـه . لم ادر كيف بلغنا ذلك المكتب ، جلست دولت الى جانبي واخذت تحاول اقناعي بالعمل معهم ولو لمدة قصيرة ، واذا حدث ولم يرق لي العمل فلدي متسع من الوقت كي اعود الى يافـا او حلب او بيروت .. كانت دولت تدعم كلامها بحجج معقولة جـداً

جعلتني اوافق على ما تقوله لي ، وينطبق علي المثل : « الزن في الاذن أقر من السحر » . ورأيتني اترك الثلاثمئة ليرة ذهبية واقنع بالعمل لقاء ستين جنيهاً مصرياً لا غير .

في المساء وبعد ان وقعت العقد مع نجيب الريحاني ، اخذت جوليبت ومربيتها وتناولنا طعام العشاء في الباريزيانا . لم تلبث ان راحت السكرة وجاءت الفكرة ، واصبحت أتساءل كيف سمحت لنفسي ان اوقع عقداً جديداً ، وانا مرتبطة بعقد آخر ؟ ومن اين لي ان اعيد الى السيدة روجينا مبلغ الثلاثمئة ليرة ذهباً التي انفقتها في رحلتي الى مصر ؟ هـل يمكنني ان اعيدها من اصل الستين جنيهاً التي سأتقاضاها من مسرح الريحاني ، وقـد لا يكفيني هذا المبلغ لنفقاتي ونفقات جولييت ومربيتها ؟ وبقيت هكذا في دوامة مسرعة من الافكار المتضاربة ، الى ان قررت ان اعتذر من نجيب الريحاني واعود الى يافا . وهكذا كان !

عدت الى فلسطين وبدأت بالعمل بسرور ونشاط ، وكنت قد تعلمت في مصر عدداً من الاغاني الجديدة التي سريعاً ما راجت في سوريا ولبنان واصبحت على كل شفة ولسان . ولست ادري لماذا اهملها ملحنو اليوم ولم يعيدوا لها شبابها ، مع انها رافقت حقبة طويـلة من زمن آبائهم ، وكان لها عندهم منزلة خاصة ، منها :

« يا نواعم يا تفاح يا حاجة حلوة كويسة .

يا سلمى يا سلامة رحنا وجينا بالسلامة .

البحر بيضحكلي وانا نازلة املأ القلل . »

رافق عملي في فلسطين في هذه المرة نجاح كبير ، وكانت ما تجمعـه « البارصة » في كل عشية يوازي مرتب شهر في مسرح الريحاني ، هذا عدا عن مرتبي والهدايا الثمينة التي كان يرسلها لي المعجبون دون علمي او

موافقتي . وبعد ان انهيت عقدي مع السيدة روجينا ، تنقلت في جميع مدن فلسطين ، ومنها ذهبت الى طرابلس فحلب ، وعندما بدأت اشعر بالتعب عدت الى منزل شقيقتي في بيروت ، واشتريت بيتاً ما زال قائماً الى الآن قرب مخفر الجميزة ...

* * *

وفي هذه الاثناء ، عاد امين عطاالله وجمع فرقة من الفنانين الذين كان لهم شأن كبير في عالم التمثيل . اقتنعت بالذهاب معهم الى فلسطين – للأثر الطيب الذي كانت تلك البلاد قد تركته في نفسي – غير ان العمل في تلك الفرقة لم يرق لي كثيراً من جهة لانني كنت قد ادمنت الحرية التامة ، ومن جهه ثانية لانني تضايقت من تصرفات امين عطاالله الذي كان يخص زوجته ابريز ستاتي بالادوار الرئيسية . كما كان قد احضر معه من مصر رتيبة احمد ، شقيقة فتحية احمد ، ولكن الفرق بين الشقيقتين كان شاسعاً للغاية من حيث الاخلاق الطيبة والمعاملة الحسنة .

لم تطل بي المدة حتى انسلخت عن عطاالله ، وجمعت فرقة خاصة واتجهت بها الى حيفا . وفي حيفا التقيت لاول مرة بالمطربة ذات الصوت الذهبي ، التقيت ماري جبران . غير انها في تلك الايام كانت ما زالت صغيرة ، وكانت قد سبقتها الى دنيا الفن خالة لها كانت تعمل معنا . كنا ما ان ننتهي من العمل على المسرح في كل ليلة ، حتى تجمعنا والدة ماري ، وتأتي خالتها بطبلة وامها بدف وتدعوانها الى الغناء . فكانت رحمها الله تغني « رمان يا رمان » او تقلدني احسن تقليد ، كنا جميعاً نشجعها بالتصفيق ونرشها بالنقود ، ولم اشك يوماً في انها ستصبح فيما بعد مطربة كبيرة ، ولكن الشيء الذي لم اكن اتوقعه ولا اتمناه لها ، هو انها ستصل الى ما انتهت اليه .

كم كانت فلسطين طيبة في بساطتها ، وكم كانت ظريفة في سذاجتها قبل ان تدنسها اقدام اليهود ، وتنقل اليها ما نقلته من « مدنية » مزيفة ! ..

بعد ان أنهيت عملي في حيفا دعاني بعضهم الى إحياء حفلة في الرملة . لبيت دعوتهم بطيبة خاطر ، غير انني لم أكن أتوقع ان أقف للغناء على بضعة ألواح من الخشب ، وضعت في داخل خيمة كبيرة . امـــا المقاعد فكانت عبارة عن كراسي قش صغيرة ، كالتي توجد في بعض المقاهي المهجورة على شاطىء البحر . وعند وصولنا الى ذلك المسرح العجيب لم نثر ولم نتفوه بكلمة ، بل ضحكنا للمفاجأة ، وأبدلنا ثيابنا وراء بعض « الشراشف » التي جيء بها من المنازل المجاورة . أقبل كل من في البلد على حفلتنا تلك ، وكانت التذاكر تعطى لجميع من يطلبها . واذا اتفق ان لم يجد احدهم كرسياً ، جلس على الارض في منتهى البساطة . اما وجهاء المنطقة فكان كل واحد منهم قد جاء بمقعد من منزله ووضعه حيثما اراد .

لم يكن يهودي واحد يجرؤ مهما بلغت فيه روح المغامرة على دخول نابلس . أذكر فيما أذكر اننا أثناء عملنا في تلك المدينة ، كنا قد اصطحبنا عازفاً يهودياً يدعى شحاده . ولم يكن لنا غنى عن شحاده هذا لأنه كان يجيد عزف جميع أغانينا ، فأسميناه محمد لنخفي امره على النابلسيين . وكان كل ما لديه من أمتعة عود ووسادة وبقجة وضع فيها ثيابـــه . غير ان صاحبنا « شحاده » ما ان رأى الاقبال ولمس حاجتنا اليه ، حتى عاد لأصله فتنمرد علينا وطالب بزيادة غير معقولة . حاولت اقناعه بالحسنى ، غير انه غالى في طلبه وهددني بهجر عمـــله معنا ، فما كان مني عندما سمعته يهددني على هذا الشكل إلا ان قلت له :

ــ اسمع .. اذا مـــا حدثتك نفسك في ان تخطو خطوة واحدة خارج المسرح ، ناديتك باسمك بأعلى صوتي ، وجعلت كل من في البلد يعرف ان اسمك شحاده .

ويظهر ان محمد المزيف كان قد نسي انه في نابلس ، المدينة التي تكره اليهود ، فأجابني باستهزاء :

ـ هـل تريدين التهويل علي ، وماذا سيحل بي اذا ما عرفوا ان اسمي شحاده ؟

ـ شحاده ، ارجع ..

طرق اسم شحاده اذن احد النابلسيين ، فتسمر في مكانه وأخذ ينظر حواليه ، والشرر يتطاير من عينيه ، ثم حدجني بقوة وسألني :

ـ من يدعى شحاده هنا ؟

ارتبكت ، ونظرت الى شحاده ، فرأيته يرتعد من الخوف .. أشفقت عليه وتمالكت نفسي لأجيب النابلسي :

ـ انه يدعى محمد ، غير ان له لؤم اليهود وجحودهم ، ولهذا لقبناه بشحاده ..

انصرف النابلسي مزمجراً ، اما شحاده فلم يعد يقوى على الكلام ، فأعاد العود والوسادة والبقجة الى مكانها بين أمتعة سائر افراد الفرقة .

كنت اول مطربة تطأ اقدامها ارض نابلس .. ولا يمكنني عندما أعود الى تلك الايام ، إلا ان أشعر بغصة على سرعة مسيرها . كان النابلسيون يعيشون في رغد وبحبوحة ، كما كانوا كرماء يرحبون بالغريب حتى ولو كان ذلك الغريب اول مطربة تأتي برفقة فرقة كاملة من الفنانات للعمل في مدينتهم . كانوا اذا ما تعسرت عليهم الهـدايا الثمينة أرسلوا لنا الجبنة والقشطة والحلويات والدجاج واللحوم على أنواعها . وما أقوله عن نابلس ينطبق ايضاً على جنين ورام الله !

وفي غزة ، آخر مطافنا في فلسطين في تلك الرحلة ، وقعت لنا حادثة طريفة لا يمكنني ان أنساها البتة . كنت قد أقبلت على توقيع العقد بكل

حماس ، ولم أكن أدري ان ليس في غزة كلها مسرح نعمل فيه . وعندما باشرنا بالعمل ، وصلنا في المساء الى قاعة مؤلفة من قسمين يفصل بينهما حاجز . لم ندر في بادىء الأمر ما الغاية من وجود هذا الحاجز الشنيع ، ولكن ما ان بدأت الآلات الموسيقية بالعزف ، وما ان شرعنا في الغناء حتى سمعنا بالقرب منا حميراً تنهق ، وجمالاً تشخر ، وبغالا ترقص وتطرق الارض بقدميها . لم يعد احد من الحضور يتمالك نفسه ، فتهالك الجميع من الضحك . وساد هرج ومرج لا مثيل لهما . وتبين لنا فيما بعد ، انهم عندما أعيتهم الحيلة جعلوا من احـد الاصطبلات مسرحاً ، وأخفوا الحيوانات وراء الحاجز . ويا لها من ليلة ! كنا عندما نكف عن الغناء تهدأ الحيوانات ويعود اليها روعها ، ولكننا ما ان نبدأ بالغناء حتى تعود الى هيجانها ، ويستحيل علينا متابعة البرنامج .

لكنهم في الليلة الثانية نقلوا الحيوانات الى مكان آخر ، ودعوا حاكم ووجهاء المدينة . وكانت ليلة من ليالي العمر . راق برنامجنا للجميع ، وبعد انقضاء مدة العقد ، دعينا الى عدة حفلات في منازل العائلات الكبيرة المحافظة .

عندما بدأت أشعر بالتعب وتملكني الاعياء ، سرحت اعضاء الفرقـة واتجهت الى مصر .

نزلت في سان استفانو علني ارفه عن نفسي واستعيض عن ارهاق ليالي السهر الطويـلة . وكانت تنتظرني هناك مفاجأة سارة اذ التقيت بعدد من اصدقائي الفلسطينيين منهم حبيب ... وشقيقه ميشال ، كما التقيت بسامي الشوا عازف الكمان الشهير ، وبابراهيم بك احد اثرياء المصريين واحد اصدقاء نجيب الريحاني الحميمين . فما ان التقاني ابراهيم بك حتى بادرني بقوله :

– بقى كده ياست بديعة ، تسيبي الاستاذ نجيب وتروحي لبر الشام . ما يصحش كده ابداً ...

ـ قسمة ونصيب ...

ـ يجب ان تعودي للاستاذ نجيب وتفي بالعقـد الموقع بينكما ، ولا يمكنك العمل في مصر الا في فرقة الريحاني ، اذ انه محبوب من الجميع ، كما ان جميع الطبقات تقدر فنه ومواهبه ...

ـ قد يكون عبقرياً الا انه شحيح للغاية ...

ـ ما هو المبلغ الذي عرضه عليك لقاء العمل معه ؟

ـ انني في سوريا وفلسطين لا اعمل باقل من ثلاثمئة ليرة ذهبيـة في الشهر ...

ـ ثلاثمئة ايه ؟ ده رئيس الوزارة ما يحصلش عليهم في مصر ، دانت لازم بتهزري ...

ـ التقيت في الفندق هنا ببعض اصدقائي من الفلسطينيين ، يمكنك ان تسألهم كي تتأكد من كلامي ...

ـ ونجيب دفع كام ؟

ـ ستون جنيهاً آخر ما عنده ...

ـ عال ، ومع ذلك لم توافقي ؟

ـ وكيف لي ان اوافق على العمل بستين جنيهاً في الشهر ، وانا اقيم في سان استفانو وادفع ستة جنيهات كل طالع شمس ، ده معقول ؟

ـ مش معقول طبعاً ، ولكن يجب ان تضحي في سبيل مستقبلك ...

ـ ليس لي مستقبل في مصر ، انما مستقبلي في سوريا ولبنان وفلسطين. انني الفنانة الوحيدة هناك ، بينما يوجد في مصر عدد لا يحصى من الفنانات

ـ وهذا عين الخطأ ، اذ لا يوجد لغاية الآن في مصر فنانة بامكانهـا تأدية اللون الذي تؤدينه انت . هناك مطربات وراقصات ولكننا ما زلنا

نفتقر الى النوع الذي تجيدينه ، واذا ما تتلمذت في مدرسة الريحاني فسيشار اليك بالبنان ، وسيحدث لك هنا ما حدث لك في الشام . اسمعي نصيحتي ورافقيني الى الاستاذ نجيب !..

انني لا اورد هذا الحديث على سبيل الثرثرة ، بل اورده لابين الحقيقة لمن قد يتهمني بانني اسأت معاملة نجيب وتنكرت له ، لا سيما وان السيدة فاطمه اليوسف قالت بالحرف الواحد في كتابها « ذكريات » : وكان الريحاني معروفاً بالبخل وبتقديره المال تقديراً كبيراً .:. حتى انهم يذكرون انه ظل مصراً على الا يطلق بديعة مصابني ... بالرغم من كل شيء ، على امل ان يرثها يوماً ، ولكن المقادير شاءت ان يموت الريحاني وان تنازع بديعة مصابني بقية الورثة في تركته ...

رحم الله الزميلة القديمة واحسن اليها ، وياليتها اوضحت اتهامها اكثر مما فعلت لاتمكن من تفنيده ، ومن تبيان الملابسات التي احاطت بحياتي مع الريحاني . انني لم ارغب في العمل معه ، ولم اقتنع بسهولة بهجر مئات ليرات الذهب في بلادي ، لالحق بفرقته الا بعد ان بذل ما بوسعه لاقناعي. كان الجميع ينظرون اليه من خلال فنه ، لم يتسن لاحد ان يعرفه مثل ما عرفته انا ، ولا ان يقاسي منه مثل ما قاسيت . لن اقسو عليه ولن انسى العشرة الطويلة ، بل سأنصفه وسانصف نفسي معه ، سأروي حياتنا معاً بكل ما تخللها من حزن وفرح ، من مآسي ومهازل ، وساحاول ان اعطي صورة واضحة عن الريحاني الانسان كما عرفته ، دون ان احمل عليه ودون ان اتغاضى عما قاسيته طيلة السنوات العديدة التي قضيتها معه .

لقد تخللت حياتي قصص حب عديدة لم اكن ابحث عنها ، بل كانت تعترض طريقي وتحول بيني وبين متابعة عملي براحة بال وصفاء ذهن .

فبينما كنت مستغرقة في حديثي مع ابراهيم بك ، جاءني ميشال ودعاني الى نزهة على شاطىء البحر . فاغتنمتها فرصة لابتعد عن صديق نجيب الريحاني علني اوفق الى الرأي الصواب . كنت اريدها نزهة بريئة هادئة ، ولم اكن ابحث عن حب جديد ، كما لم اكن اتوقع سماع ما قاله لي ميشال :

« انني اعرف الحب لاول مرة ، وانا على استعداد لان اضحي بكل شيء في سبيلك اذا ما وافقت على صداقتي ! .. »

قادني الى ركن منعزل وتابع كلامه المعسول الذي كنت ارتاح لسماعه. رغم وقع المفاجأة اردت ان اضع حداً له فسألته :

ـ والآن ماذا تريد مني ؟

ـ انا تحت امرك ...

ـ وانا انصحك بالابتعاد عن الفنانات ، انك ما زلت شاباً صغيراً لا تعرف ما تخبئه لك الحياة . اقتد باخيك واحصر همك في عملك ، ولا تقترب من الفنانات اذ ليس بامكانك مصادقتهن .. »

فما كان منه الا ان انتفض واقفاً بسرعة مذهلة ، وهددني بالانتحار اذا لم اقتنع وارضخ لمشيئته . فابتسمت لكلامه واردفت :

ـ « لا تتحدث عن الانتحار بهذه السرعة ، لا سيما والحياة عزيزة على كل منا . اسمع نصيحتي يا صاحبي ولا تقف في طريقي . لقد جربت حظي في الحب ولم اوفق . انكم تنسون غداً من تنتحرون في سبيلها اليوم ، انني اروق للرجال ولكنني اعرف انهم لا يحفظون العهد .! »

ابتعدت عنه وعدت ادراجي الى الفندق ، عدت الى حيث كانت تنتظرني جولييت وخادمتها . جلست بقربهما اتحدث اليهما براحة واطمئنان اعتقاداً مني بانني تخلصت من هذا الحب الملحاح ! لم يكن ميشال من الذين يغلبون على امرهم بسهولة ، بل كان يعرف ما يريد ولا يقنع الا

بعد ان ينال ما أراد . فاخذ يتبعني كظلي ، ينزل الى البحر اذا مـــا رآني اخرج من باب الفندق ، واذا ما طاب لي ان اتنزه في احـــدى الحدائق اسرع يسير بجانبي ليعود الى حديثه المعتاد . فاحترت بأمره وامري معه ، وحاولت مراراً ان اتخلص منه بالحسنى ولكن دون جدوى . وعند انتهاء الاسبوع الاول من اقامتي في سان استيفانو ، اردت مراجعة حسابي فقيل لي ان ميشال سدد كل ما عليك من نفقات . لم اكن قد نسيت بعـــدما وقع لي في حلب مع جميل بك الذي وعدني بالقمر قبـــل ان استجيب لعاطفتـــه ، ولم يتورع عن اقتناص خمسين ليرة ذهبية مني ، عندمـــا اجبرت على هجره وعلى العودة الى عملي . كنت فيما مضى اعتقد ان الحب هو ما نمثله على المسرح ، وما نصفه في اغانينا الحلوة ، كنت اعتقده دنيا ثانية ، دنيا كلها طيبة وهناء ، ولكن سرعان مـــا تبين لي انه ليس سوى ملهاة لمن يمتلكون الثمن !

لم تكتب لي النجاة من ميشال ... ففي احدى الامسيات الهادئة ، وبينما كنت جالسة على الشاطىء ارقب الامواج تقبل بحياء لتدبر بغنج ورقة ، اذا باحدهم يتقدم من وراء ظهري ويغمض لي عيني بيديه سائلا :

ــ احذري مين ؟..

ــ انه بالطبع مجنون ليلى ...

ــ كلا بل انه ميشال مجنون بديعة ، واذا لم تصدقي اطلبي مني ان ارمي نفسي في البحر ، وسترين كيف تنفذ رغبتك في الحال !

فقلت له مستهزئة :

ــ هيا دعنا نرى شجاعتك !..

ما ان سمعني اسخر منه هكذا حتى اسرع نحو البحر ، فخيل لي لفرط غباوتي ، انه سينفذ حتما تهديده بالانتحار ، فلحقت به اناديه باعلى صوتي .

وعندما دنوت منه امسك بيدي ورماني بعنف في البحر وانا بكامل ثيابي. صحوت على نفسي اتخبط في لجج الميـاه ، ومن حسن حظي انني كنت احسن السباحة . ولكن ميشال لم يدعني اعود الى الشاطيء ، بل وجدهـا فرصة سانحة لتقبيلي ، وفاتني ان اسأله عندئذ اذا كان هـذا هو نوع الانتحار الذي كان يعينه في تهديده المتواصل ... وهكذا بدأت صداقتنا وطالت زمناً غير قصير ، ما زال ميشال حياً وما زلت اذكره بالف خير، ومنذ مدة قريبة جداً ، زارني شاب وسيم في مزرعتي في شتورا وقال لي:

ــ لقد كلفني ابي بان ازورك وابلغك سلامه ...

ــ ومن هو ابوك ؟

ــ انه ميشال ...

ــ اين هو وكيف حاله اليوم ؟

ــ لقد اصبح لاجئاً اليوم وهو يقيم في الشام ...

احتضنت ابن ميشال ... وكأنه اعـاد اليّ بعضاً من شبـابي ... وعندما ودعني ليعود الى ابيه ، شعرت بان شبابي قد ولى للمرة الثانية ... نظرت حولي فـلم ار سوى الحيوانات الصغيرة التي ارتضيت رفقتهـا طائعة مختارة واستعضت بها وبالايتـام الصغار عن المجد والشهرة والذهب والانوار .

عدت الى بيروت بعد ان قضيت وقتاً طيباً في الاسكندرية ، عدت دون ان اقابل الاستاذ نجيب الريحاني ... وتشاء الصدف ان يقصدني عنـد وصولي الى بيروت موفد من قبل حسن افندي الانجى يدعوني الى العمل في طرابلس ... كانت ذكرى اقامتي السابقة في تلك المدينة الجميـلة لا تزال تراودني من وقت لآخر ، فتعيد لي ما لقيته من نجاح هناك ، وما اسبغه

علي الطرابلسيون الكرام من تشجيع مادي ومعنــوي .. لم امانع قط في الذهاب الى عاصمة الشمال ، بل أقبلت عليها بحماس واندفاع .. وفي غمرة فرحتي بالعودة الى المدينة المحبوبة ، فاتني أن اسأل موفد حسن الانجي عن الفرقة التي تعمل على مسرحهم .. لم أتمكن من العمل منذ الليلة الاولى ، اذ كان علي أن اجري بعض التمرينات التي لا بد منها ، غــير انني لم اشأ أن اقضي سهرتي وحيدة ، فقصدت الى المسرح أشاهد باقي الفنانين والفنانات ... وشد ما كانت دهشتي عندما رأيت أنني سأعمل مع هدية وشقيقتها مهيبة ، وكان قد وقع خلاف بيننــا في حلب على نحو مــا ذكرت ...

ما إن رآني الجمهور قادمة من بعيد ، حتى رحب بي كــل من في الصالة وضجت القاعة بالتصفيق .. وازداد الحماس عندما انتبه الحاضرون الى ألوان فسطاني الأربعة ، وكانت ألوان العــلم العربي ... كان بــين الحضور في تلك الليلة عارف بك الحسن ، فاستخف به الحماس ووقف بالناس خطيباً . تعالى من جراء ذلك الهتاف والتصفيق ، هاجت الصالة وماجت ، واسرع الجنود يلقون القبض على الذين اعتبروهم مشاغبــين مخلين بالأمن ، أما أنا فنجوت من السجن في تلك الليلة ، بأن غــافلت الجنود وهرولت نحو المسرح ... اخفاني الفنانون وانكروا وجودي بينهم وكانت مناسبة لاعادة الحياة الى مجاريها بيني وبين هدية ومهيبة . ابدلت فسطاني في الحال ، ومنذ ذلك التاريخ اصبح الفرنسيون يراقبونني ايــنما اتجهت وكيفما توجهت .. عملت في طرابلس بعد هذه الحادثة ، ونالني من الاستحسان ما الفته وما رافق عملي الفني منــذ ان أعتليت خشبات المسرح ، كما جاء الى تلك المدينة وانا ما زلت أقيم فيها أمين عطا الله وفرقته ، وبعدها انتقلت الى حلب ، الا أن الجيش الفرنسي كان يضيق علي الخناق ويراقب جميع اغاني . وفي هذه الأثناء كان نجيب الريحاني قد حضر الى الشام وعمل فيها ولم ينجح ، فتوجه الى بيروت واتفق وصوله

اليها مع عودتي الى منزلي في محلة الصيفي . وعندما ارتحت من عناء السفر ابدت لي شقيقتي رغبتها في أن تعود الى قريتها شيخان ، فلم امانع بل وافقتها على فكرتها ، وفي المساء ، ولكي أجعلها ترفه عن نفسها قبل ذهابها الى قريتها البعيدة ، اصطحبتها الى مسرح نجيب الريحاني.

جلست مع شقيقتي في مقصورة قرب المسرح ، وسرعان ما اصبحت محط انظار الجميع . وعند انتهاء الفصل الاول من التمثيلية التي كانوا يقدمونها في تلك الليلة ، جاءني أحد أصدقاء نجيب الريحاني للقائه ، فرافقته بطيبة خاطر . وكان يصطحب نجيب صديقه مصطفى حنفي ، فتعاون الجميع على اقناعي بالاشتراك معهم في تلك الرحلة ، وعاد يذكرني بالعقد الذي ابرم بيننا ولم يدعني ابرح المكان الا بعد أن أقسمت لهم بان ارافقهم في تلك الرحلة الفاشلة . ومما قاله لي نجيب ، رحمه الله ، اننا ما ان ننتهي من جولتنا حتى نعود الى مصر ، وهناك سيهتم بي ويخصني بالادوار الأولى في جميع مسرحياته ، كما أخذت عهداً عليه بان يكون مرتبي الشهري مئة وخمسين ليرة ذهباً .

لم توافق شقيقتي في بادىء الأمر على ذهابي الى مصر ، بل عز عليها أن ابعد عنها وعن الاولاد ، غير انها عادت عن رأيها بعد فترة وتمنت لي التوفيق . وقبل عودتها الى قريتها رجوتها أن تأخذ من البيت كل ما تريده او تحتاج اليه ، وفوضتها بان تبيع ما يتبقى . ودعت أختي بغصة في القلب ودمعة في العين ، واصطحبت جوليت والتحقت بفرقة الريحاني .

كنا ما زلنا في سنة ١٩٢٢ ، وما ان دخلت فرقة الريحاني حتى التقيت فتى نحيلاً يرتدي البنطلون القصير ، ولا يتجاوز عمره الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة على الأكثر . فتساءلت عمن يكون وما هو الدور الذي يقوم به في الفرقة ، فاقتربت منه اسأله بفضول عن اسمه ، فأجابني هامساً بخجل .

ـ محمد عبد يلوهاب !..

ـ وماذا تعمل في الفرقة ؟

ـ اغني بين الفصول ..

ـ ولا تمثل ابداً ؟

ـ كلا بل أكتفي بالغناء بين فصل وآخر ، وهذه هي اول رحلة اقوم بها !..

ومن أين لي أن اعرف ونحن ما زلنا في سنة ١٩٢٢ ، ان ذلك الاسم الذي همسه بخجل هذا الفتى الأسمر النحيل ، سيردده ملايين العرب في مختلف امصارهم .. تحققت بعدها من أن نجيب الريحاني كان بالفعل اول من دعا عبد الوهاب للعمل في فرقة منظمة ، وكان مرتبه على ما اذكر خمسة عشر جنيهاً في الشهر . كان الجمهور يحب عبد الوهاب لصغره ، ولجمال صوته وحسن اداثه للمقطوعات التي كان يقدمها بين فصول الرواية ..

وعندما التحقت بفرقة الريحاني ، لم يجدوا لي ادواراً اقوم بها في التمثيليات الجاهزة ، فصرت أتقاسم ما بين الفصول مع عبد الوهاب ، يغني هو مرة واغني مرة الى ان انتهت مدة عملهم في بيروت فرافقتهم الى فلسطين ونزلنا في حيفا . ما ان وصل نجيب الى المدينة حتى اعلن انه كشكش بك الحقيقي ، وليس من سبقه من الممثلين . وكان امين عطاالله قد سبق نجيب الى بيروت وطرابلس والمدن السورية ، ومثل شخصية كشكش بك . بعد الفشل الذي مني به نجيب من جراء ذلك في بيروت والشام ، توجه الى فلسطين لانه لم يعد يحتمل ما يسمعه من الجمهور من ان :

« امين عطاالله هو كشكش الحقيقي وانه ، اي نجيب ، جاء لتقليده . هذا « صوته جعر ودمه ثقيل » ، اما امين فدمه خفيف ونفهم ما يقول ! » وكان امين عطاالله قد حور نكات نجيب الريحاني من اللهجة

المصرية الى اللهجة السورية واللبنانيـــة ، وكان بامكان الجمهور السوري واللبناني ان يفهمها بسهولة ويتذوقها ، وهكذا قطع امين على الريحـاني مجال استحسان الجماهـير في سوريا ولبنان . اخذ القنوط يتملك نجيب ، فاتجه بنا الى حيفا حيث لاقت مسرحياته نفس مصيرها في بيروت والشام ، وكنت مـع المطرب الصغير عبد الوهاب نستـأثر بتصفيق الجمهور ونحظى بتشجيعـه . فتضـايق الممثلون من فتور الجمهور ولامبالاته بهم ، واخذوا يبدون تذمرهم من العمل في الفرقة ، واسرع شريك نجيب مصطفى حفني الى العودة الى مصر مذعوراً من الخسارة اللاحقة بهم باستمرار . كما هجرت معظم الممثلات الفرقة ، ولم يشذ عبد الوهاب عن القاعدة ، بل ذهب بدوره الى بلاده .

بديعة ونجيب الريحاني بعد زواجهما

لم يبق في فرقة الريحاني الا عدد قليل جداً من الممثلين ، وعدد اقل من الموسيقيين . تابعنا رحلتنا « كالعسكر المكسور » ، الى ان انتهى بنا المطاف في غزة فوصلناها على آخر رمق ، اذ لم يعد لدينا ما ندفعه ثمن تذكرة قطار العودة .. رجوت نجيب ان يتركني أتدبر أمري في فلسطين ، قاطعة على نفسي عهداً بأن أوافيه في مصر .. غير انه أصر على البقاء بجانبي ، وفيما نحن نتخبط في حيرتنا تلك ، التقيت احد معارفي الحلبيين

واستدنت منه جنيهين . هذا ما انتهى اليه امرنا مع الريحاني في تلك الرحلة .

* * *

كان ، ونحن في القطار ، يحدثني عن المستقبل بتفاؤل غريب رغم فشلنا في تلك الرحلة ، ويمني نفسه بالنجاح والثروة ، ويبلور لي العمل معه مغدقاً على الوعود البراقة بان يعيد الي أضعاف أضعاف ما خسرته وما انفقته في جولتنا تلك . وبالفعل كنت قد انفقت كل النقود التي حملتها من بيروت ، غير انني احتفظت بمجوهراتي الثمينة .

وصلنا مصر وأقمنا في فندق متواضع في شارع عماد الدين ، سرعان ما لحقت بنا اليه والدة نجيب ، وكانت رحمها الله قبطية سمراء ، لم تكن جميلة بل كانت خفيفة الدم سريعة النكتة . ارتحت لوالدة نجيب واحتضنتني هي بحنان وخصتني بمحبتها ، وبعدما اختبرتني مدة طويلة ، قالت لابنها :

« باين عليها بنت حلال ، لا تدعها لسواك ! » ..

فاسرعت اجيبها بصراحة :

« انني معجبة جداً بالأستاذ نجيب على المسرح ، انما لا اعتقد انه يوافقني كزوج » .

— نعم نعم نعم ؟ نجيب الريحاني على سن ورمح ومش عاجبك يا ست بديعة ، ده مدوخ ستات وفنانات مصر وأوروبا كمان ..

— « عندك حق يا لطيفة هانم ، ولكن بعدما دوخ سيدات مصر واوروبا داخ بدوره .. »

فعلق نجيب على كلامنا ضاحكاً :

« اذا كنت تريدين ذلك يا لطيفة هانم ، فسأنفذ رغبتك في اول فرصة ، عندما ترضى علينا الست بديعة .. سأعمل قريباً ان شاء الله وسأدوخها بدورها .. »

« بعد فترة وجيزة من وصولي الى مصر أخذت اهتم بأمر جولييت . أردتها ان تتلقى دروسها كبنات الأسر ذوات الآباء الموسرين كي لا تشعر مثلي بمرارة اليتم فسجلتها في مدرسة « البون باستور » وفي القسم الداخلي منه . أردت لها ان تعيش في جو مشبع بالعلم والتقوى والتهذيب . وبعد ان ارتحت الى مصيرها في المدرسة انصرفت الى شؤون عملي ..



جولييت في يوم قربانتها سنة ١٩٢٤

كان الريحاني قد بدأ يعد العدة لرواية افتتاح الموسم ، وكان اسم تلك الرواية « الليالي الملاح » ، اقتبسها من الف ليلة وليلة . ووفى نجيب بوعده بأن يعهد الي بالأدوار الرئيسية في رواياته ، فكنت ادعى « بدر البدور » في تلك التمثيلية على ما أذكر . ولكنه كان خالي الوفاض لا يملك ما

يمكنه من تجهيز الملابس والديكور ، وما الى ذلك من متطلبات المسرح . وفيما كان يتخبط في محنته هذه اذا بالسيد ماتوسيان صاحب ماركة السجائر المشهورة باسمه ، يحضر ويطلب منـــه ان يقوم بالدعاية لنوع جديد من السجائر ، على شرط ان يقوم نجيب بعمله هذا في الاسكندرية . وتعهد السيد ماتوسيان من جهتـــه ، بأن يدفع عشرة جنيهـــات في اليوم ، وخمسة جنيهات لي . كما أخذ على عاتقه بأن يؤمن جميع نفقات الفرقة والمسرح والدعاية واقامة الجميع في الاسكندرية مدة شهر .

رحب نجيب بهذا العرض وسره ان الفرصة ستسنح له كي يلم شمـــل فرقته ، ويجري التمرينات اللازمة لافتتاح الموسم في القاهرة بعد العودة من الاسكندرية . لمنا شملنا بصعوبة لأن السيد ماتوسيان شذ عن القاعـــدة المتبعة ولم يقدم لنا اية سلفة قبل بدء العمل بل اكتفى بأن سفرنا عـــلى حسابـــه ، وكان يدفع لنا مرتباتنـــا كل اسبوع . عملنـــا على مسرح « الكونكورديا » في الاسكندرية ووفقنا الى نجاح كبير ، غير ان نجيب لم يكن مرتاحاً اذ ان دخله كان محدوداً حسب العقد المتفق عليه بينه وبين السيد ماتوسيان .

وفي احدى ليالي الصفاء ، حضر الى المسرح في الاسكندريـــة صديق لنجيب كان يدعى كمال بك الطرابلسي ، وقصد من توه اليه . وصادف وجودي مع الاستاذ في تلك الآونة فأصغيت الى حديثهما . قال كمال بك موجهاً كلامه الى نجيب :

ــ لقد استمعت مؤخراً الى صوت مطربة جديدة ، صوت مدهش لا بد ان يكون لصاحبته مكانة كبيرة في المستقبل .. ولا ابالغ اذا قلت انني قل ما استمعت الى صوت قريب منه من حيث الصفاء والغنى .. انها فتاة صغيرة تدعى ام كلثوم ...

فقاطعه نجيب ضاحكاً :

ــ ام ايه ؟..

ــ وماله ، ام كلثوم ...

ــ طيب وشكلها ايه ام كلثوم دي ؟

ــ انها فلاحة صغيرة ولكن صوتها لم يخلق ربنا مثله بعد ...

ــ وهي فين ؟.

ــ سنسمعها بعد قليل ، وانا فخور بأنني اكتشفتها ، ومنذ ان أصغيت الى صوتها للمرة الاولى تنبأت لها بمستقبل باهر . لقد أقنعتها كما أقنعت أهلها بأن تحيي حفلة هنا ، في الاسكندرية ، لأنني أريد ان يقاسمني الجمهور رأيي بأن هذه الفلاحة الصغيرة ستكون أكبر مطربة في عصرنا !

فسألته بدوري :

ــ وهل حددتم موعد حفلة ام كلثوم ؟

ــ ان موعد حفلتها قريب جداً باذن الله وهي ستغني على مسرح محمد علي وسأحضر بنفسي لاصحبكم الى هناك !

وفي موعد حفلة ام كلثوم حضر كمال بك حسب وعده لمرافقتنا الى الحفلة ، غير ان نجيب اعتذر لان موعد غناء ام كلثوم كان يوافق موعد ظهوره على المسرح . فتطوعت لمرافقة كمال بك ، ولكن نجيب لحق بي الى الخارج قائلاً :

ــ لا تتأخري بالعودة انني بانتظارك ، اسمعي ام كلثوم دي .. يا اخي ما كنت تسميها حاجة تانية غير الاسم ده ؟

ــ قد يكون اسمها غريباً على سمعك ولكن لن يمضي وقت طويل الا ويصبح هذا الاسم عالمياً .

عند وصولنا الى مسرح محمد علي حيث كانت ستغني ام كلثوم ، اشار كمال بك الى الاقبال الغريب على شباك التذاكر ، وقال لي ضاحكاً :

ـ أرأيت كيف ان غرابة الاسم اثارت فضول الناس ، فجـاؤوا يستمعون الى صاحبته .

وبالفعل استحال علينا وجود مقاعد في الصالة ، غير ان كمال بك قادني الى حيث التقيت أُم كلثوم للمرة الاولى . نظرت اليها بفضول وكانت لم تتجاوز بعد الخامسة عشرة او السادسة عشرة على الاكثر ، سمراء قصيرة القامة ذات وجه مستدير . لم تكن جميلة غير ان الذكاء كان يبدو بوضوح على قسمات وجهها ، كما كانت خفيفة الدم جداً . وكانت ترتدي لحفلتهـا تلك ، الكوفية والعقال ومعطفاً اسود فوق فسطانها . كان يحيط بأم كلثوم عدد من المشايخ ذوي العمائم ، وقيل لي عندمـا استوضحت عمن يكون هؤلاء ، انهم افراد عائلتها : ابوها وعمها وخالهـا وشقيقها خالد ، وهم يقومـون بدور موسيقيي تخت ام كلثوم . فاستغربت ذلك ووقفت انظر اليهم مشدوهة من منظر هـذا التخت الغريب ، الى ان ارتفع الستار ، فظهرت المطربة الصغيرة وظهر معها افراد تختها ، وكان منظرهم غريبـاً للغاية . بدأ الجمهور يتململ ليظهر دهشته ، غير ان احـداً من الحضور لم يجرؤ على التفوه بأية كلمة ، خوفاً من كمال بك الذي كان يشغل في تلك الأيام منصب محافظ الاسكندرية .

وقبل ان تبدأ ام كلثوم بالغناء اخذ افراد التخت « يزنوا » كي يؤدوا لها النغم الصحيح ، وبعدها غنت المطربة الجديدة . كان صوتها جميلا جداً ، الا انه صغير بالنسبة لسنها وصغير ايضاً بالنسبة لكبر الصالة . قابل الجمهور غناءها بالتصفيق والتشجيع ، كما هنأتها بدوري ، وعدت مسرعة الى مسرح الريحاني اروي لنجيب ما شاهدته في « محمد علي » ..

عند انتهاء مدة عملنا في الاسكندرية ، عدنا الى القاهرة ، وكان الطقس ما زال حاراً ، وكان الناس مـا زالوا في المصايف ، علهم يتقون قيظ القـاهرة في تلك الايام . فعدنا الى جمع فرقتنا وشرعنا في تقديم بعض من

رواياتنا القديمة ، معللين انفسنا بافتتاح موسم حافل عند انتهـاء الحر ولم نكن نعرف كيف نتدبر امر نفقاتنـا ، اذ كان مدخولنا شحيحاً للغاية ، فالروايات قديمة والقـاهرة مقفرة الا من عدد قليل مـن الذين لا يخيفهم الحر ..

كان نجيب قد بدأ يمثل علي دور المحب الولهان الذي تعميه الغيرة ، كان لا يدعني اقابل احـداً ولا اتحدث الى احد ، بحجة انني يجب ان احافظ عـلى بهجتي ، كما كنت من جهتي ابادله تمثيلا بتمثيل ، واظهر له الحب والوله . وفي احد الايام جاءني يقول :

ـ بديعة ، لم يعد بوسعي ان اخفي عنك شيئـاً ، ان حالتنا المـادية تزداد سوءاً على سوء ، اذ لم يعد بامكان مصطفى حفني ان يمـدنا بالمال لمتابعة الدعاية وللانفاق على الالبسة وسائر اللوازم الضرورية . ارجوك ان تسلفيني مئتي جنيه ، وسأفيك المبلغ على اقساط ، على ان ادفع في كل يوم عشرة جنيهات من اصل الدين ، وخمسة جنيهات لقاء عملك في الفرقة ..

ـ ولكنك تعرف يا نجيب ان ليس لديّ مال اتصرف به ، ومجوهراتي هي كل ما تبقى لي منذ ان عملت معك ، اتريد مني ان ابيعها ؟

ـ ابداً معاذ الله ، ولكن يمكنك رهنها وهكذا نتمكن من افتتاح الموسم وعلى كل حال لا تخشي شيئاً ، سأعيدها لك بأسرع ما يمكن ، وستضيقين بالجنيهات بمجرد ان نبدأ العمل .

وهكذا بدأت تمثيلية نجيب الريحاني الطويلة معي ، كان رحمه الله يستلف مني ثم ينسى او يتناسى وفاء الدين .

عندمـا طلب مني ان ارهن مصاغي كي اسلفه ما يمكنه من افتتاح الموسم ، لم اظهر له استيائي من كلامه ، غير اني امتعضت من طلبه هذا كما صدمتني حقيقته . ولكن ما العمل ولم يعد باليد حيلة ، كنت قـد

عملت طيلة اقامتنا في الاسكندرية لقاء لا شيء . كان نجيب يقبض مرتبي ومرتبه من ماتوسيان ويدفع لي وعوداً ، كان يعدني ويسوفني وعندما الح في مطالبته ، يقول لي بضيق :

ـ هو انت عايزه الفلوس ليه ، ما انت مش محتاجة حاجة ، اقامتك في الفندق مؤمنة ومالك ومال الفلوس ووجع القلب ! »

وبمرونته المعروفة كان ينتقل بالحديث لموضوع آخر .

الازمة المالية التي كان يتخبط فيها ، كلما وفق في عمله ، الا انه كعادته كان يتهرب من الدفع ، او يدفع مرة لينسى مرات ..

لم الح عليه كثيراً بالمطالبــة ، اذ كنت مأخوذة بالنجاح الذي اصبته بسرعة ، كما احتللت بسهولة فائقة مكانة مرموقة فائقة في عالم الفن ، الى درجة اصبحت على كل شفة ولسان : ومما يروى ان احد القضاة سأل زميلاً له :

ــ هل شاهدت « الليالي الملاح » ؟

فأجابه زميله :

ــ لا تسألني اذا شاهدتها بل اسألني كم مرة شاهدتها !

وبالفعل قدمنا تلك الرواية خلال ستة اشهر متتاليــة ، وكنا نمثلهــا ثلاث مرات في الليلة الواحدة . اسكرني النجــاح كما اسكرني بريــق الشهرة ، فلم اعد اهتم بمرتبي كما اهملت ما كان لي في ذمة نجيب ، وتركت الامور تسير على البركة .

ولكن لكل شيء نهاية مهما كان هـذا الشيء جميلاً ومتقناً . والجمهور مستهلك جشع ، لا يرحم ، يرغب الجديد دائماً ويتطرق الملل الى قلبــه بسرعة اذا لم تغذه دائماً بانتاج مبتكر . كنا نعد جمهورنا بشيء ولا نفي

بوعدنا الى ان هجرنا ، وانخفض دخلنا من جراء ذلك من مئتي جنيه في الليلة الى مئتي قرش .

جاء الصيف ونجيب وبديع خيري منصرفان عن الاستعداد للموسم الجديد ، الى ان داهمنا موعد الحفلات دون ان يكون في جعبتنا شيء . ارتجلت رواية الافتتـــاح ارتجالاً ، فشنت علينا الصحافة الفنية هجوماً عنيفـــاً ، وتساءلت كيف تجرأنا وقدمنا للجمهور هذا الافتتاح السيء . وكنت من جهتي قد ضقت ذرعاً بتسويف نجيب ومماطلته ولامبالاته ، كما اصبحنـــا على وشك الافلاس ، ولم أعد ادري كيف اتدبر امر اقساط جوليت المدرسية . ونجيب غائب عن هذه الحقائق ، لا يشعر بحاجتنا الى عمـــل سريع ، بل كان اذا ما ذهب لينام فخمس عشرة ساعة او اكثر اذا لم اوقظه انا .

امام هذا الواقع المؤلم وبعد ان اعيتني الحيـــلة ، قررت ان افر منه واعود الى بيروت .

كانت اخباري قد انقطعت عن شقيقتي مدة طويلة ، ولم اتمكن من ان ارسل لها من مصر ولو هدية صغيرة اتذكرها بهـــا ، وما ان علمت بوجودي في بيروت ، حتى اسرعت من قريتها ترحب بي بشوق ولهفة وروت لي ما سرني عن اخبار عائلتها الصغيرة ، وطلبت مني ان أكون شاهدة زواج ابنتها ماري . كما رحب بي أصحاب المقاهي ودعوني الى العمل ، فلبيت طلبهم بسرعة اذ كنت بحاجة ماسة للنقود . عدت للغناء في « كوكب الشرق » . كنت ما ان اقف على مسرح الكوكب ، حتى استعيد ذكرى قريبة وعزيزة ، ذكرى مسارح القـــاهرة وما لقيته عليها من نجاح وتشجيع . ولم أكن اتمالك نفسي من التحسر على نجيب الريحاني الفنـــان الكبير ، والانسان الغريب الاطوار .

كان بامكان نجيب ان يجمع ثروة طائلة ، لو انه كلف نفسه عناء تقديم

رواية واحدة جديدة كل شهر او كل شهرين على الأقـل . اذ كان له على الجمهور سحر غريب ، وكان يكفيه ان يقف امـام هذا الجمهور ، ويقوم ببعض الحركات المعبرة الصغيرة كي تضج القـاعة بالضحك . كما كان رحمه الله لا يخشى ان يوجه نقده الفكاهي اللاذع ، للحكومة والوزراء والامراء أنفسهم . الا ان علته الكبرى كانت الاهمال ، فهو مهمل في كل شيء ، في المـأكل والملبس ولا يحب إلا النوم ، الى درجة كان يتمنى ان يصل الليل بالنهار .

وكان اذا ما فرغ من عمله ، وكانت تلك الساعة احب الساعات الى قلبه ، يسرع برفقة بديع خيري الى منزل هـذا الاخير ، وكان الاثنان يتزودان بزجاجة كونياك وقليل من الطعمية او البيض المسلوق والمشوي ، ويسهران الى الصباح . كانا يمضيان وقتهما في التدخين المتواصل ، وفي رواية النكت والضحك الى ان تداهمهما اشعة الفجر . وكانا يحاولان تركيز بعض فصول الروايات حيثما اتفـق وكيفما تهيء لهما ذلك ساعـات الكيف والانشراح . كانا يعملان الساعات الطويلة واذا لم يرق لهما ما امضيا الليل في كتابته ، مزقاه وعادا اليه من جديد . كان نجيب يعود منهوكاً من تلك السهرات المتواصلة ، ليرتمي من الاعياء وينام طول النهار ، لم يكن يهتم او يعبأ لشيء « خربت او عمرت زي بعضه » . كثيراً مـا كان يروي لي في ساعات صفائه قصص الفقر والبؤس التي سبق له ان عاشها ، الى درجة انه كان يقضي النهار على صحن فول ، ولكنه لم يعتبر ، وهـا ان الثروة قد اصبحت طوع بنانه وهو لا يكلف نفسه عناء جمعهـا . كانت اغلب روايات الريحاني مقتبسة من الف ليلة وليلة او مترجمة عن المؤلفات العالمية وكان يحضرها ويدخل فيها نكات بديع خيري ، يعهد بتلحينها الى الشيخ سيد درويش او داود حسني او زكريا احمد ، وما زال عدد كبير من الحان تلك الروايات يتردد الى الآن . كانت مصر بمن فيها تروي نكات الريحاني وتغني الحان رواياته ، وهو غارق بالديون يعيش ليومه ولا يبالي بغده قط.

يقول مثل عامي : « ان القط لا يهرب من العرس » .

لو كانت الحياة مع الريحاني عرساً على الاقل او قريبة من العرس ، لما هربت منهـــا وعدت مسرعة الى بيروت . لم اتمكن ولم اشأ العمل مع غيره من الفنانين المصريين ، لأنني كنت اعترف بفضله على صقل مواهبي وابرازها ، كما كنت اقدر نصائحه حق قدرها ، ولم انس انه علمني اللهجة المصرية وكان سبب شهرتي في بلاده . كنت قبل معرفتي بالريحاني لا اتقيد بأصول ، واعمل كيفما اتفق ، وكان هذا النوع من الغنـــاء والرقص جديداً على جمهور تلك الايام فكان يتقبل ما اقدمـــه له على علاته . كانت لي شهرتي الواسعة في لبنان وسوريا وفلسطين غير ان مصر لم تعرفني وتقدرني الا عندما عملت مع الريحاني .

وبعدما انجزت عملي في كوكب الشرق ، ذهبت الى حلب ، ولم أعمل مرة في حلب إلا وكان النجاح والثروة والاقبال من نصيبي . وكنت قبل ان أبرح لبنان قد فوضت شقيقتي نظله بأن تبيع المنازل الثلاثة التي كنت قد اشتريتها في بيروت . عز على نظلة ان افترق عنها ، وان أقطع كل صلة لي بلبنان ، وكانت تتوقع ان استوطن مصر في هذه المرة ، وان لا أعود الى العيش في بيروت . كنت قد رويت لها بعض ما وقع لي اثناء عملي مع نجيب ، فتكدرت من معاملته ، وخشيت ان اتهور وأبيع منازلي لأنفق ثمنها على روايات قد تنجح وقد لا تنجح . عملت ما بوسعها كي تردعني عن البيع وعن السفر النهائي الى مصر . غير انها لم تتمكن من اقناعي ، فغلبت على امرها وأكرهت على القبول . جاءني السمسار جبران مقبـــل بثمن موافق فقبلته على الفور وبعت ما كان لدي من املاك في بيروت . كانت شقيقتي تتحسر على تلك المنازل الجميلة ، غير انني طيبت خاطرها ووعدتها بأنني سأبني عمارة في مصر يفوق دخلها دخل تلك البيوت . كما وعدتها بأن اصطحبها الى القاهرة . غير انها لم توافق على السفر ، اذ كانت تستعد

لعرس ابنتها اميلي . رافقتها الى شيخان ، حضرت عرس ماري وتغيبت عن عرس اميلي ، لأنني كنت منهمكة بمعاملات البيع والتسجيل .

وكان نجيب الريحاني قد افتقدني بعد هذه الغيبة الطويلة ، فأرسل الي محمد شكري كي يستدعيني الى مصر . ومما رواه لي محمد شكري وحفزني على العودة ، هو ان نجيب قد أعد روايات جديدة يتوقع لها نفس النجاح الذي لاقته تمثيلية « الليالي الملاح » ، وانه قـد وفق الى شريك وممول جديد اسمه علي يوسف ، دفع ديون الريحاني وأخذ عليه وعداً قاطعاً بأن يقدم كل شهرين رواية جديدة . فسررت جداً لهذه الانباء وصدقتها ، وتأكدت من ان نجيب قـد ملّ الديون وانه عازم على العمل الجدي . ولكنني مع ذلك لم أحمل معي سوى مبلغ خمسمائة جنيه ، كي استعيد مصاغي المرهون وأدفع الاقساط المتأخرة لمدرسة جوليبيت .

عدت مع شكري الى مصر . فاستقبلني الريحاني بشوق ، ثم أخذني الى منزله ، وكان قد جهز شقة جديدة .

... كان نجيب قد حضر شقة صغيرة ، غير انها كانت خالية خاوية ، لم يكن فيها مقعد نجلس عليه . نظرت اليه مستفهمة : كيف يمكننا ان نعيش في هذا المنزل من غير أثاث ، ولا حتى مما نحتاج اليه .

فضحك وقال :

ـ ما تزعليش .. ما ان نبدأ بالعمل حتى أجهزه لك بالقطيفة والحرير والسجاد العجمي . وجل ما أطلبه منك هو قليل من الصبر حتى نفرغ من تحضير الرواية الجديدة .

فصدقته على عادتي وسكت .

وفي اليوم الثاني نهضت باكراً اوقظه كي نذهب الى المسرح . لم يمانع في مرافقتي في ذلك الوقت المبكر ، بل طاوعني . واتجهنا معاً الى حيث كانت

تجري التمارين . التقيت هناك علي يوسف المتعهد الجديد . غير انني صدمت عندما تبين لي ان الرواية التي كان يستعد لهـا الممثلون لم تكن جديدة بالمرة ، بل كانت تمثيلية قديمة تدعى « ايام العز » ، وتذكرت انها كانت آخر رواية اشتركت في تمثيلها قبـل عودتي الى سوريا . الا ان نجيب كعادته غير وبدل وعدل فيها ، على أمل ان يذر الرماد في اعين جمهوره فيجعله يعتقد انه أمام عمل جديد قام به . ومما زاده ثقة بنجاح « ايام العز » انه أدخل عليها بعض الالحان الجديدة . وغير الفصل الثالث ، بحيث أصبح لا يدرك التحوير إلا من كان دقيق الملاحظة ، ومن كان له المام في التمثيل . تقدمت منه أسر له بأنه كان من الاصلح ان يقدم للجمهور رواية جديدة يفتتح بها الموسم ، لأنني أشك في نجاح هـذه التمثيلية القديمة ، فأجابني بخشونة :

ـ وانت مالك ، انا عارف شغلي .. انا صلحت فيها الكثير ، ولم نقدمها الا في نهايـة الموسم الماضي ، انني متأكد من ان الجمهور لن يتعرف عليها .

فأجبته بنفس اللهجة :

ـ تعرف شغلك .. واذا لم يرق لي العمل معك فانني اعرف طريق العودة !

تابعنا تمريناتنا دون ان أبدي اي اعتراض على أي شيء .

صح ما توقعه نجيب ، وكان اقبال الجمهور علينا كبيراً ، غير اني لاحظت ان ذلك الجمهور كان يقبل على مشاهدة نجيب ومشاهدتي أكثر من اقباله على مشاهدة التمثيليات نفسها . واذا لم يكن لدينا من جديد نقدمه له فسرعـان ما يعرض عن مسرحنا . كان ذلك الجمهور ينتظر من نجيب انتاجاً جديداً ولكن نجيب كان منصرفاً عنه الى السهر مع بديع خيري ، لان « ربما لا يمكنها الا ان تعود لعادتها القديمة » . عـاد للسهر في الليـل وللنوم في

النهار ، وعدت لنصحه ولمحاولة اقناعه بالعمل . وعندما تغلب علي القنوط هددته بالفرار فقال لي متهكماً : « انك كاليهود تحبين المال اكثر من اي شيء آخر . ولكنني اختلف عنك في ذلك تماماً ، الا انني لا آبه للمال ، لا يمكنني ان اضحك الناس ساعة يشاؤون ، وليس بوسعي ان اؤلف المسرحيات وأمثلها وادير الفرقة في نفس الوقت .. »

– « ولماذا لا تدع لبديع خيري مهمة التأليف وتنصرف انت للتمثيل ولادارة الفرقة ... »

فثار وانفجر :

« انك لا تقدرينني حق قدري انني احترم بديع واثق به ولكنني اتفهم ذوق الجمهور اكثر منه ، واذا لم اعطه فكرة التمثيلية واركزها له فهو لا يرتاح الى عمله ، ولا يمكنني بالتالي من ان اكيف المتفرج .. ولكن هذه هي الدنيا .. ليس من يقدر الفنان الا بعد موته . انني لا انكر اننا نقتبس تمثيليات المؤلفين الاجانب غير اننا نتفانى في تمصيرها وجعل الجمهور العربي يقبل عليها ويستسيغها .. »

كنت اصغي اليه بصمت ، اعطيه بعض الحق ، وليس الحق كله ، لانني كنت اعرفه على حقيقته ، واعرف ان ما دام في جيبه قليل من المال ، فليس من قدرة تحمله على العمل الا بعد ان ينفق آخر درهم منه . قد لا اتجنى عليه قط اذا ما قلت انه كان انانياً ، لا يفكر الا بما يعود عليه بالنفع ، ولا يبالي بما قد يحصل لغيره . كان مثلاً اذا ما ضاقت بوجهه الدنيا ولم يعد لديه ما يقوم بأوده ، كان في حالة كهذه لا يتورع عن الاستدانة من اي كان . اذ كان من السهل عليه ان يستلف بدون اية ضمانة ، لشعبيته ولمحبة الناس له . ولكن ما ان يقبل موعد وفاء الدين حتى يتوارى عن الانظار . كان في الهزيمة كالغزال لا يدع لأحد فرصة لقائه او العثور عليه . ومما اذكره انه في احدى

المرات اراد ان يبتاع من محلات شيكوريل الاقمشة اللازمة لصنع ستائر المسرح وثياب الممثلين ، وكان قد شاع عنه انه لا يدفع ما يتوجب عليه فارغمه اصحاب المحل على امضاء تعهد خطي بالدفع في مدة معينة . وعندما انقضت المدة ولم يدفع وقعوا الحجز على املاكه ، وكان كل ما يملكه لا يتجاوز امتعة المسرح . نشرت جميع الصحف اعلانات البيع بالمزاد العلني ، وتحدد موعد البيع وهو غافل عن كل ما يحدث ، واذا ما سأله احد عن اعلانات الصحف استغرق في الضحك في تهكم ولامبالاة . ازف موعد البيع قبل ان يفي بوعده ويدفع ثمن الاقمشة ، فحضر مأمور الاجراء وشرع في بيع ما كان موجوداً في المسرح ، ونجيب مسترسل في نوم الهناء ، واذا ما تجرأ احدهم على ايقاظه انفجر في وجهه مزمجراً :

« دعهم يأكلون بعضهم ! » وهكذا الى ان اقبل احد اصدقائه ورمى عليه المزاد . حصل ذلك الصديق على امتعة المسرح بأبخس الاثمان ، وصار يؤجرها لنجيب لقاء مبلغ معين . وما زلت احمد الله على انني لم اكن معه في تلك المدة ، لانني كنت افضل الف مرة ان احرم نفسي حتى من القوت الضروري ، ولا ادع لاحد فرصة النيل من كرامتي . كان اهمال نجيب ولامبالاته يورطانه في مآزق يدفع ثمنها من كرامته .

* * *

كنت ما زلت غريبة لا اعرف احداً في مصر ، ونجيب كان من جهته لا يدعني اتعرف على احد . كان عندما استوضحه عن سبب منعي من مصادقة احد ، يجيبني بانني لن احافظ على بهجتي الا اذا ابتعدت عن الجمهور ، اذ لا يجوز للفنان ان يختلط برواد المسرح ، لئلا يفقدوا الصورة التي يتخيلونها عنه . وكنت من فرط حبي له وسذاجتي وطيبة قلبي ، اصدق ما يقوله واقتنع بأية حجة يبديها .. الا انني كنت اضيق بحياة المنفى التي كنت اسوقها معه : من البيت للمسرح ومن المسرح للبيت ، دون ان ارى

احداً او اتحدث لمخلوق. وكثيراً ما كنت افرّ منه واعود الى بلدي استنشق الحرية من جديد. ولكن لم اشأ في هذه المرة ان ابتعد عنه الا اذا مـا حملني على اليأس من العمل برفقته. فعرضت عليه ان نقدم « الليالي الملاح» الى ان ينتهي من اعداد التمثيلية الجديدة. استصوب فكرتي ووافق عليها بسرعة، اقبل الجمهور علينا خلال خمسة عشر يوماً، ثم اخذ بعدها يتململ من الضجر ويطالبنا بالجديد. خف ايراد الشباك، وانقطع عنا رواد مسرحنا ففاتحت نجيب بأمر رواية جديدة فقلب سحنته ولم يكلف نفسه عنـاء الجواب. ساءني منه هـذا التصرف وقررت هجره والعودة الى موطني. ومما زاد في عزمي على المجيء الى بيروت، ان الحر في القـاهرة كان شديداً الى درجة لا تطاق. اتعبني الحر كما اتعبتني الوحـدة التي كنت اعيش فيهـا ونجيب الى جانبي. كنت اذهب الى المسرح بمفردي واتركه يغط في نوم عميق. كان عليه بحكم عمله ان يكون اول من يؤم المسرح ليدرب الممثلين ويوزع عليهم ادوارهم، وكان اذا ما سولت لأحدهم نفسه بان يتغيب ولو بضع دقائق عن موعد التمارين، اتخـذ بحقه الاجراءات وخسم عليه مبلغاً يزيد على مرتبـه اليومي. كنت اصل بمفردي فيجتمع حولي الفنانون يسألونني عن « الاستاذ »، فأحس بالارتباك ولا ادري بماذا اجيب: هل اقول لهم انني ايقظته ثلاث مرات وانني عملت له قهـوته بيدي، على امل ان ينهض من سريره ويرافقني. كان يتناول قهوته ويقول لي: « اسبقيني سألحق بك بعد دقائق! »

وكنت موقنة بانه لن يلحق بي قبل ساعات، لأنه اذا ما اتفق له ان دخل الحمام مثلا شرع في قراءة الصحف، وبعـد ان ينتهي من قراءة الاخبـار يشرع في ارتداء ملابسه، فينظر الى المرآة ويسترسل في اداء حركات تمثيلية تنسيه نفسه ومرور الوقت. وفي هذه الاثناء يكون الممثلون قد ملوا الانتظار وقطعوا الامل من مجيئه، فيخرجون من المسرح الواحد تلو الآخر. عندئذ يحضر « سعادة البيك » ليجد نفسه وحيـداً والصالة

فارغة الا من المقاعد . تلك كانت خطته في العمل . وكان على ذلك محبوباً جداً من الممثلين والجمهور معاً ، فما ان ينتشر خبر تقديمه رواية جديدة حتى يقبل الناس بشغف ، ليشاهدوه ويشاهدوا ما ابتكره لهم من فنون التمثيل .

اضحك الناس وهو يبكي

انني لم اصف الى الآن الا بعض النواحي التي كانت تؤخذ على نجيب كانت تؤخذ عليه كانسان يعيش في مجتمع يجب عليه ان يصدقه ويحفل بما يطلبه منه . غير ان طبيعته البوهيمية كانت تحمله على الانصراف الى الحياة التي تحلو له دون التقيد بأي اعتبار . ومما لا شك فيه ان نجيب الريحاني كان من اكبر الفنانين العرب على الاطلاق . لقد كنت في عداد الذين اتيحت لهم الحياة بقربه ، فعرفته على حقيقته كما لم يعرفه احد .

قبل عودتي الى لبنان طرأت عليّ فكرة اقامة بعض حفلات في الاسكندرية ، الى ان يمن الله علينا بالفرج ويفرغ من اعداد الرواية الجديدة . استحسن فكرتي هذه واحضر علي يوسف متعهد حفلاته ، وطلب منه ان يجهز لنا ما نحتاج اليه في الاسكندرية . وقع الاتفاق بينه وبين المتعهد على خمس عشرة حفلة نحييها في المصيف البحري الجميل . ذهبنا الى الاسكندرية وبدأنا بالتمثيل على مسرح « اللهمبرا » ، فاقبل الجمهور علينا اقبالاً منقطع النظير ، اقبالاً لم نكن نتوقعه .

وفي احدى الليالي وبينما كان نجيب يؤدي دوره على المسرح والجمهور مستغرق في الضحك ، وصله نعي والدته ـ اي والدة نجيب ـ وكان يحبها حباً كبيراً ، وقع عليه خبر وفاتها وقع الصاعقة ، تسمر في مكانه ولم يدر كيف يتصرف ، والجمهور ينتظر منه ان يتابع الرواية . عاد الى المسرح مسرعاً وعيناه مملوءتان بالدموع وتابع التمثيل ، كان عندما ينفجر الجمهور ضاحكاً ينفجر هو باكياً ، فيعتقد من يراه انها دموع الضحك مع ما

تحمله من مرارة وألم . ما ان انتهت الرواية واسدل الستار حتى انطرح مغمياً عليه من فرط التأثر والارهاق .

كان فناناً جباراً يعرف ان دموع الضحك يشوبهـا دائماً طعم الألم والشقاء . ومن يومها اصبحت هـذه الواقعة اسطورة يحلو لمن يشاء من الفنانين ان ينسب لنفسه مثلها عله يثبت مقدرته الفنية . غير انني اشك في صحة ما يدعون .

عزّ على نجيب الريحاني ان تكون والدته قد لاقت وجه ربهـا بعيدة عنه ، وهو معيلها الوحيد ، اذ لم يكن احد من اشقائه الخمسة يقوى على الانفاق عليها : توفيق متزوج وله ولد واحد ، يوسف وبعده نجيب . امـا جورج فقد توفي اثناء اقامتنا في الشام ، ولم يكن توفيق يعرف التوفيق اذ كان كسولا لا يحب العمل ، بل كان عمله يقتصر على ملازمة اخيه ونشر اعلانات الدعاية ، وكان عندمـا يندفع في العمل يقف على باب المسرح يستقبل الرواد . اما يوسف فكان مريضاً مشلولاً يسير محدودب الظهر ، وكان عـلى مرضه يدعي العلم والفلسفة ويمتهن التنويم المغناطيسي . كان يعيش كالمنبوذين لا يصادقه احد ولا يقترب منه مخلوق لتشويهه وشراسة اخلاقه ، غير اننا كنا نجيب وانا نشفق عليه ونكلفه في بعض الاحيان ان يجلس في شبـاك التذاكر . وكان جلوسه في ذلك الشباك شؤماً علينا ، اذ قلّ ما كان يقبل على المسرح جمهورنا المعتاد اذا اتفق ليوسف وجلس ليقطع التذاكر . لم نكن في بادىء الامر نعير هذه الظاهرة اقل اهتمام ، ولكن عندما تأكدت لنا صحة ما رواه لنا البعض عن وجه الشؤم هذا ، دعوناه الى العمل داخل المسرح . . كان نجيب يعيش في هـذه الاسرة الغريبـة ، وكانت والدته احب مخلوق اليه . ما ان افـاق من اغمائه في تلك الليلة حتى ابدل ثيابه ، اصطحب اخويه توفيق ويوسف ، واستقل الجميع قطار الصعيد كي يودعوا والدتهم الوداع الاخير .

وعند عودة نجيب من اداء الواجب الحزين ، اقترحنا عليه ان يلغي الحفلة ، فرفض بقوة وقال لنا :

« ان واجبي كفنان يحتم علي ان اقوم بما تعهدت به . وهل تأجيلي لحفلة اليوم سيدعني انسى والدتي بهذه السهولة ؟ لقد كان لهـا علي فضل الامومة وفضل الصداقة والزمالة ، اذ كثيراً ما كنت استنجد بها عندمـا تعصيني نكتـة فتمدني هي بعشرات النكت والطرائف . كانت ذكية خفيفة الدم ، وانا مدين لها بمـا وصلت اليه من الشهرة ، لن انساهـا بسهولة ولن الغي حفلة الليلة ، ربما كان بين الجمهور من هو حزين مثلي ولجأ الي كي اخفف عنه .. »

اشار الى العمال بأن يرفعوا الستار ، كان المسرح في تلك الليلة يغص بالمتفرجين ، ما ان ظهر نجيب حتى تعالت عاصفة من التصفيق اثلجت قلب الفنان الحزين ، فشعر ان جمهوره يقاسمه حزنه وانه ما جاء في تلك الليلة الا كي يشجعه ويشد من ازره . فاندفع نجيب كما لم يمثل في حياته قط ، اجـاد في تأديـة دوره بحيوية وعمق ، حملت الناس على الضحك والبكاء معاً . امـا نحن فكنا نراقبه من الكواليس لاننـا كنا نخشى ان يغلب عليـه الحزن ويتوقف عن التمثيل .. وتبين لنا اننا كنـا نجهل نجيباً ، اذ كان على المسرح انساناً آخر ، كان يتحول الى فنـان كبير وكبير جداً .

بعد ان انتهت الحفلة اقبلنا عليه نهنئه ، القى علينا نظرة حزينة تعبة وقـال :

« قد اكون رفهت ولو قليلاً عن من هو اتعس مني .. من يدري ؟.. »

* * *

انتهت مدة عملنا في الاسكندرية ولم ينته نجيب من اعـداد الرواية

الجديدة ، اذن لم يعد امامنا الا ان نرجع الى القاهرة وحر الصيف على اشده . وتأكد لي من ثم ان نجيب لن يعمل في وقت قريب لان في جيبه ما يكفيه لمدة من الزمن .

كانت بين ممثلات الفرقة فنانة اجنبية تردد لي دائماً بانني اهدر وقتي وعمري هدراً مع نجيب . كانت تنصحني وتعطيني امثلة عديدة على غدر الرجال ، فتقص علي مأساتها ، وتروي لي انها سبق واحبت وافرطت في الحب الى درجة اهملت معها عملها وضحت بشبابها ومستقبلها . لم يقدر حبيبها عطاءها بل تزوج من غيرها ، اخرجها من حياته وتنكر لها . وهي الآن مضطرة لأن تعمل كيفما اتفق كي تقوم بأودها ولكي تنفق على والدتها العجوز . بكت زميلتي الاجنبية وابكتني معها ، وعادت تردد على مسمعي بأن اتعظ بها وبأن لا أسلك السبيل الذي سلكته من قبلي . نصحتني بأن ادخر لشيخوختي ما يمكنني ادخاره وانا لم ازل شابة جميلة ، يمكنني لو اردت ان احصل على الثراء الواسع ... اصغيت لها باهتمام ووعدتها بان اتصل بها اذا ما خطر لي فكرة هجر نجيب وفرقته ، واشترطت عليها ان تساعدني على تدبير امري ، لانني لم أكن اعرف احداً في الاسكندرية ، وان كنت افضل الحياة في تلك المدينة على الحياة في القاهرة او في لبنان . سرت فيولا – كان هذا اسم صديقتي الاجنبية – بوعدي لها وتركتني لافكاري وهواجسي ... ان الخمسمائة جنية التي جئت بها من بيع املاكي في لبنان على وشك ان تطير ، هذا من جهة ، ومن جهة ثانية فان الاقبال على المسرح قد خف ، والفرقة قلقة على مصيرها ، اذ كانت تساورها الشكوك في نوايا نجيب وفي قدرته على العمل المتواصل . بت ليلتي تلك عرضة لهذه الهواجس الى ان قابلت فيولا في اليوم الثاني ، فأسرت لي بان نذهب الى مقهى « التريانون » في وقت الاستراحة ما بين الحفلتين . خرجت برفقتها الى ذلك المقهى ، وهناك صرحت لي بأن هناك من يريد التعرف بي ، وهو شخصية بارزة في المجتمع المصري ، ابن

عائلة كريمة يحترمه الجميع وله ثروة طائلة . وزادت على ذلك قولها : ان مجرد مقابلتي لن تحتم علي شيئاً ... وبامكاني ان اعود الى عملي اذا لم ترق لي فكرة صداقته ... لم يبدر مني في أول الأمر لا رفض ولا قبول ، بل اصغيت الى ما تعرضه علي صديقتي بذهول ، فهزتني من كتفي وقالت :

ـ كفاية ، اسمعي نصيحتي ، وقابلي هذا الرجل فلن تندمي . انما ارجوك ان لا تدعي الاستاذ يعلم بما اقوله لك ، لأنه لو علم فانه سيطردني من عملي فينقطع مورد رزقي الوحيد .

وعدتها بأن أبقي حديثنا سراً بيننا . وعدنا الى المسرح معاً . وعند انتهاء الحفلة مالت علي فيولا تسر لي :

ـ غداً الساعة الحادية عشرة في مقهى التريانون ..

فأومأت لها برأسي بأنني فهمت ما تعنيه ..

ترددت كثيراً قبل ان أذهب الى ذلك الموعد ، ولكنني عندما ادركت انني لو بقيت على هذه الحالة سأنفق ما ادخرته من تعبي ، وبالتالي تسد السبل في وجهي . ارتديت ثيابي بسرعة وخرجت من الغرفة على مهل ، وانا استرق النظر الى نجيب لخوفي من ان يستيقظ .. وكنت أتلفت من حولي لكي لا يراني احد فيخبر نجيب بأنني غادرت المنزل دون علمه .

ذهبت الى المقهى ، فألفيت فيولا تنتظرني وحدها . جلست بقربها ، وبعد ان استرددت أنفاسي من الخوف ، سألتني بلطف اذا كنت اريد ان التقي الرجل الذي سبق لها ان حدثتني عنه . فاستغربت سؤالها وهي جالسة بمفردها . قالت لي انه هنا ، وينتظر اشارة منك . فأجبتها بسرعة :

ـ دعيه يأتي قبل ان يحضر احد ويرانا برفقته ..

.. كان ذلك الرجل الذي أرادت فيولا ان تجمعني بــه جالساً بعيداً عنا برفقة احد اصدقائه . ما ان وقع نظري عليه حتى تذكرت انه كان

يجلس دائماً في المقصورة الاولى . قدمتهما لي رفيقتي باسمي احمد وعبدالعظيم . ولم أدر للوهـلة الاولى من منهما المتيم بي ، ومن منهما الذي يصر على معرفتي والتودد الي . كان كل من الصديقين في غاية اللطف والتهذيب ، كما كانت آثار النعمة بادية على كل منهما . غير اني ما عتمت ان فهمت ان احمد هو الذي يبغي صداقتي ، ولم يكن رفيقه عبد العظيم الا صديقاً يأتمنه على اسراره ويبثه شجونه . كان احمـد في الاربعين او الخامسة والاربعين ، رصيناً ، قليل الكلام ، متواضعاً لا يحب الفخفخة ، ولا المباهاة بثروته او بمركزه الاجتماعي . وكان صديقه عبد العظيم يتولى الكلام عنه فسألني :

– ان صديقي احمد بك يحبك يا ست بديعة ، وهو على استعداد لتلبية طلباتك مهما كان نوعها . فما رأيك ؟

أجبت بعد تردد :

– لا يمكنني ان أجيب الآن لأنني مرتبطة بالعمل مع نجيب الريحاني، والى ان ننتهي من التمثيل في الاسكندرية نعود الى بحث الموضوع .

فألح علي قائلاً :

– بل يجب ان نبت بالموضوع الآن لأنك اذا ما وافقت على المشروع سنسرع بتجهيز منزل جميل نستقبلك فيه عند عودتك الى القاهرة . سنجهز هـذا البيت بما يليق بالست بديعة من الموبيليا والسجاد العجمي وستائر القطيفة ، كما سيكون لديك عربية حنطور مع جوادين اصيلين ..

كنت أصغي الى كلامه واعتقده يبالـغ في وعوده لحملي على الموافقة ، فضحكت بتهـكم .. غير اني عندما لمست الصدق الواضح في كلامه ، طلبت اليه ان يوافيني في اليوم الثاني برفقـة صديقه الى نفس المقهى ، فوافقا معاً على اقتراحي ، وافترقنا على ان نلتقي .

عدت الى الفندق لأجد ان نجيباً ما زال مستغرقاً في نومه ، لم اشأ ان اوقظه كي لا يلحظ التغيير البادي علي بوضوح ، غير انني عندما لم اعد اقوى على احتمال الجوع قلت له :

ـ انني انتظرك في المطعم . انتظرته طويلاً وعندما يئست من مجيئه تناولت طعامي بمفردي ، وكنت اتساءل كيف يمكنني ان اتخلص منه دون مناقشة وخصام .. فخطرت على بالي فكرة اخذ امتعتي الى المسرح والهرب من هناك ، لاعتقادي انه يستحيل علي ترك الفندق دون موافقة نجيب . وكنت اخشى ان اقابله واطلعه على ما عقدت النية عليه ، كي لا يسألني ما الذي حملني على هجره ؟ ومن سهل لي سبيل الفرار ؟ هذا من جهة ، ومن جهة ثانية كنت ما زلت احبه ، واخشى ان اضعف امامه واعود عن قراري ، فتفوتني الفرصة الذهبية وقد تكون فرصة العمر . بدأت في تنفيذ فكرتي فجئت بثيابي الى المسرح ، دون ان ادع احداً يعترض سبيلي او يدرك ما كنت احسب له . وعندما التقيت فيولا في الليل سألتها هل صحيح انه سيجهز لي منزلاً على الشكل الذي وصفه لي صاحبه ، وهل هو حقاً على هذا الجانب من الثراء . فأجابتني فيولا مؤكدة :

ـ انه غني جداً واكرم مما تتصورين ، لقد وعدني بهدية ثمينة وبمبلغ خمسين جنيهاً اذا ما هيأت له فرصة الاجتماع بك . لا تنسي ميعادنا غداً الساعة الحادية عشرة !

وفي اليوم المحدد ذهبت الى المقهى فالفيت احمد بك بانتظاري ، وكان قد احضر لي من الهدايا ما لم اكن احلم به على كثرة ما تلقيته من الهدايا الثمينة سررت بهذه الاشياء الجميلة غير انني رجوته ان يحتفظ بها الى ان اوافيه الى القاهرة ، فأرشدني الى فندق اقيم فيه الى ان يتم تجهيز المنزل ومن ثم استوضحني عن اسمي الحقيقي كي يكون الفرش وايجار الشقة باسمي انا ، وكي اكون المالكة الحقيقية لكل ما يقدمه لي كنت اجيب على اسئلته وكأني في حلم جميل اخشى ان اصحو منه ، الى ان وجدت

نفسي فعلاً ربة بيت . كان بيتاً جميلاً يحتوي على افخر الرياش ، يقع في اول محطة مصر في ملك اوروند . وكانت شقتي تلك ، مؤلفة من اربع غرف وصالة استقبال ومطبخ مجهز باحدث آلات ذلك الوقت . كانت حكاية من حكايات الف ليلة وليلة ، وزاد في دهشتي وجود عربة حنطور بجوادين اصيلين اشتراهما لي من علي فهمي ، كما أمن لي العربجي والسائس معاً . لم يدعني اهتم بشيء بل وجد اصطبلاً للجوادين كما استحصل على طباخ ماهر لم ادر كيف وقع عليه .. دخلت الى ذلك البيت وانا مأخوذة بما اشاهده ، اتنقل من غرفة الطعام الى صالة الاستقبال الى المطبخ ، اكلم نفسي واسألها من اين لي كل هذا العز بعد العذاب والفقر والتشرد . وكنت افيق من ذهولي لانظر حولي خشية ان يشاهدني احد ، فيخالني قد جننت او اصابني مس . وفيما كنت مسترسلة في التحدث الى نفسي ، اذا بامرأة سمراء في الاربعين من العمر تدخل علي وتقدم لي نفسها على انها الخادمة ، وان عبد العظيم بك ارسلها لتضع نفسها تحت تصرفي . استأنست بوجودها وعدت اتنقل برفقتها بين الغرف والحمامات التي كانت اجمل من حمامات فندق سان استفانو .

وعند المساء جاء احمد وعبد العظيم ، وكان برفقتهما فارس ثالث يرتدي الزي المصري ويلبس على رأسه عمامة ، فعرفاني عليه على انه الشيخ ابو العلي . فضحكت وقلت له : « ابو العلاء المعري ؟ » علق ابو العلي على كلامي بقوله : « شامية ودمها خفيف دي صدفة غريبة » .

جلسنا الى مائدة الطعام ، وكان الطباخ قد حضر لنا اشهى المأكولات المصرية ، وكانوا من جهتهم قد جاؤوا بالحلويات والاطايب . لم ادع الارتباك يتغلب علي بل تظاهرت بانني معتادة على النعم ، ولست جديدة على دنيا الاناقة والغنى . وبعد برهة قال لي عبد العظيم :

اتفضلي يا ست ان جميع الفواتير باسمك ، ايجار البيت والتلفون والغاز

والفرش من محلات مدكور باشا . واذا كنت بحاجة لأي شيء اخر اسرعي بتكليفي به لأن صديقنا احمد بك لا يهتم الا بنفسه . لقد قدمت تعبي اما هو فلم يقدم سوى ماله فما رأيك بما فعله كل منا ؟

اسرع ابو العلي يجيب :

أتريد ان تأتي الى هذا المنزل الجميل تنعم فيه بالمأكل والمشرب اللذيذ وبرفقة الست بديعة دون اي ثمن ؟

بين عبد الوهاب وام كلثوم

امضينا سهرة ممتعة استمعنا فيها صوت « ابو العلي » كما اصغينا الى ما رواه لنا عن القصائد التي كان يعدها لأم كلثوم ، وفاض بالثناء عليها وعلى استعدادها الموسيقي الكبير . كان ابو العلي من المعجبين جداً بصوت ام كلثوم ، اذ كان نجمها قد بدأ يلمع في مصر ، واخذت شهرتها تتسع . لم يكن المعجب الوحيد بل كان لها عدد من المعجبين يرافقونها دائماً ولا تفوتهم حفلة من حفلاتها .. وكانت هي من جهتها قبل ان توافق على اي عقد ، تشترط ان يدعى هؤلاء حتى الى الحفلات الخاصة ، وذلك كي يصفقوا ويطيبوا لها فيأخذ الحماس بالجمهور ويندفع هو بدوره الى التصفيق والهتاف . كانت مهمة هؤلاء اذن لا تتعدى التطبيب للمطربـة الناشئة ، وكانوا يحتلون دائماً المقاعد الامامية . وما زلت اذكر منهم جزاراً كان يدعى دبشة .. ودبشة هذا كان خفيف الدم حاضر البديهة دائم النكتة ، فما ان تنقطع ام كلثوم عن الغنـاء ، حتى ينهض هو ويبدأ بالقاء النكات وسرد الطرائف المضحكة . واذكر منهم ايضاً محامياً فاشلاً ولكن على جانب من الثراء يدعى بولس ، ومناع الذي لم يكن وزنه يقل عن المئة واربعين كيلوغراماً . كان هذان الآخران يتراشقان بالنكات او يمسكان « القافية » مـع دبشة . كانت ام كلثوم في بادىء الامر تفرض شلتها

هذه فرضاً على كل من اراد ان يتعاقد معها على احياء حفلة خاصة او عامة . ولكن ما ان عرف افراد هذه الثلة ، وسمعهم الجمهور ، حتى اخذ يطالب بهم ويلح في سماعهم في كل حفلات المطربة الجديدة . وكانت ما زالت تغني بمرافقة تخت « الدبابير » المؤلف من ابيها واخيها وعمها . ولكن عندما اخذت شهرتها تتعدى المحيط الضيق الذي عرفته في اول حياتها الفنية ، فرض عليها اصحابها ونصحوها بان تأتي بتخت محترم من الفنانين المحترفين . فقدموها الى محمد القصبجي الذي لحن لها عدداً كبيراً من اجمل اغانيها .. كما اشترك في التلحين لها اشهر موسيقيي تلك الايام .. وبسرعة البرق نجحت ام كلثوم وذاع صيتها ..

... وتسألونني عن عبد الوهاب .. بعدما هجر فرقة الريحاني وتركها تحل مشاكلها بنفسها في فلسطين ، عاد من توه الى القاهرة حيث تعهده المرحوم الشيخ سيد درويش ، فصقل مواهبه وقدم له الحاناً في غاية الروعة .. تتلمذ محمد عبد الوهاب على يدي ذلك المطرب العبقري ، فسار مسرعاً على خطاه واصبح يلحن اغانيه بنفسه .. وما عتم ان التقى احمد شوقي بك ، فاستضافه الشاعر الكبير ، وبنى له في حديقته في الهرم ، عشاً جميلاً يأوي اليه برفقة الالحان والقوافي ، بعيداً عن الصخب والضجيج اخذ عبد الوهاب في غناء قصائد شوقي بك واخذ اسمه يتردد على السنة الناس ، وكان من مقومات نجاحه علاوة على جمال صوته وروعة الحانه ، شكله الانيق واخلاقه الحسنة ولطفه المحبب ..

بدأت منافسة شديدة بين عبد الوهاب وبين ام كلثوم ، وانقسم الجمهور الى معسكرين ، كان حماس عشاق كل منهما يتعدى الهوس فتعلو المناقشة ويشتد الجدال ، وكثيراً ما كان ينتهي الجدال بالخصام والتراشق بالكلام القارص ... على ان عبد الوهاب لم يدع بمطرب الملوك والامراء مجازفة ، بل كان لقبه هذا يرتكز على ان جمهوره كان دائماً من علية القوم

من الطبقة الراقية والنخبة المثقفة التي تستسيغ اللحن وتطرب للنغم . فاذا ما اتفق لك ودخلت الى مسرح يغني فيه عبد الوهاب ، الفيت السكينة والهدوء يخيمان على المكان ، تتخللهما تنهدات ناعمـــة من حناجر انعم ، وتصفيق من اكف مخملية وهمس ووشوشة : « كمان والنبي يا عبدو » ، اما اذا حضرت حفلة لأم كلثوم فتلاقي الازدحام على اشده ، ويصم اذنيك التصفيق والهتاف الى درجة انها كانت تضطر هي نفسها الى التوقف عن الغناء ، الى ان يعود الجمهور الى صوابه ويهدأ من الحماس الهستيري الذي كان ينتابه عند سماعها ..

ما مـــن مرة اصغيت لأم كلثوم او لعبد الوهاب بعد مرور تلك السنوات الطويلة ، الا وعدت بذاكرتي الى تلك الايام الجميلة .. ايام الشباب والجمال والحيوية .. ايام الانوار والحب والآمال الواسعة .. ولكنهـــا ايام مضت ولن تعود . . يكفيني ما ذقت من حلاوتهـــا وما اذاقتني من مرارتها !

* * *

والآن لنعد الى منزلي الجميل ، ذلك المنزل الذي آويت اليه بعد طول تشرد وعذاب .. ارتحت اليه وسعدت بكل ما فيه .. بفرشه الجميل الذي سبق لي ان شاهدت مثله في مـــنزل طردت منه طرداً وكان منزل ابن عمي ليان .. ارتحت الى جدرانه تدرأ عني شر الليل وذئـــابه .. كنت سعيدة أروي سعادتي لمرآتي في كل صباح ، فتجيبني ان السعادة واضحة على ملامحي .. لم أشأ ان اتذوق ذلك النعيم بمفردي ، بـــل شأني شأن جميع السعداء ، اردت ان يشاركني فيه احب الناس الى قلبي . فأرسلت استدعي ابنتي جوليت من المدرسة التي كنت قد ادخلتها اليها لاتفرغ الى عملي مع الريحاني .. واحضرت لها معلمة تلقنها دروساً خاصة ، كي لا تنسى مـــا تعلمته في المدرسة .. كانت تلك المعلمة شابـــة فقيرة يتيمة

الوالدين تدعى كلير .. وكلير هذه كانت تسكن غرفة صغيرة وتعلم اصغر الاطفال في الليسيه فرانسي .. آويتها في منزلي ، انست بوجودها وحملت الجميع على اعتبارهـا صديقة لي ، وليس مجرد معلمـة لجولييت .. كان مرتبها الشهري يبلغ الخمسة عشر جنيهاً ، عدا الهدايا التي كان يقدمها لها احمد بك كي تعتني بابنتي . غير ان كلير لم تحفظ جميل احمد بك ، كما لم تحفظ جميلي انا ايضاً . فما ان وطئت اقدامها المنزل حتى بدأت تتجسس على كل من فيه ، لتعرف اسرارنا وتلم بظروف حياتنا . كان لا يفوتها شيء من تصرفاتنا ، كما كانت كثيرة السؤال عن مصدر هـذا وسبب ذاك . سارت عـلى هـذا المنوال الى ان اطلعت على اسرارنا جميعاً ، فتعرفت على الريحاني بوسائلها الخاصة ، واصبحت تنقل له كل ما يجري بيني وبين احمد بك . ائتمنها نجيب واغرقها بالدعوات المجانية الى مسرحه فانساقت معه وانقلبت على احمد بك بالرغم مما كان يغدقه عليها هـذا الاخير من المال والهدايا ..

سرعان ما اصبحت تغتنم فرصة انفرادها بي ، حتى تستدرجني للكلام عن نجيب وعن سبب هجري له وفراري منه . كنت ارتاح للحديث معها ، فاروي لها ما حدث لي مع الريحاني ، وكيف دخل احمد بك حياتي وجاء بي الى هذا المنزل ..

كانت كلير تصغي الى ما ارويه بكل انتباه ، فتبدو لي ملهوفة عـلى مصلحتي تريد لي ولابنتي الخير . كنت اثق بها واعتقدها تخلص لي النصح عندما كانت تقول لي بدهاء :

– يا ترى يا ست بديعة لو رضي نجيب الريحاني ان يتزوجك ويعيش معك بالحلال ، فيصبح لك منزلاً حقيقياً تكوني صاحبته وسيدته الشرعية، ألا تعتقدين ان حيـاة الاستقرار مع زوج ما افضل من هذه الحياة التي تسوقينها مع احمد بك ؟.. ان احمد بك رجل كريم ولكن لا تربطك به

صلة شرعية ، والكل يعرف انك لا تزيدين عن كونك صديقة ينفق عليها من ماله .. أأنت مرتاحة الى هذه الحياة ؟..

عودة الى الماضي

كانت تبثني سمومها بمكر ودهاء ، فتتسلل كلماتها الى فكري رويداً ، وتعيدني الى ما كنت أتهرب منه منذ طفولتي ، منذ الحادثة المشؤومة التي وقعت لي وانا في السابعة من عمري ، تلك الحادثة التي ارغمتني على العيش في كنف رجل لا هو اخي ولا زوجي .. لم يبق لي مخلوق اعتمد عليه فبت اعتمد على الخالق وحده . اخي ؟ لم يبق لي احد من أشقائي . وكنت قد شاهدت احدهم لآخر مرة عندما رافقت نجيب الريحاني في رحلته الى فلسطين .

وصلنا القدس ونزلنا في احد فنادقها ، ومن ثم انصرفنا الى الاستعداد للتمثيل .. وكان ذلك الفندق مبنياً على طريقة منازل الشام القديمة . غرف تتابع على الاربع جهات ، تفصلها عن بعضها ساحة صغيرة تتوسطها بركة ماء نظيفة . وبينما كنا نذاكر في احدى الامسيات ، قبل ان تزف ساعة صعودنا الى المسرح ، اذا بنا نسمع هرجاً وأصواتاً كثيرة تتصاعد من الشارع المؤدي الى الفندق . وكان يتخلل هذه الضجة اسم بديعة .. سألني نجيب : هل انت بديعة التي يقصدون ؟ فنفيت له ذلك مستغربة ، وقمنا معاً كي نعرف سبب هذه الضجة المفاجئة . أطللنا من الشرفة ، فاذا بنا نشاهد شيخاً بعمامة خضراء يتشاجر مع من ارادوا منعه من الدخول ، ويقول لهم بشدة :

ـ أريد ان أشاهد اختي بديعة !

عرفته للحال .. كان شقيقي الذي هجر منزلنا في الشام ولجأ الى احد الجوامع هناك ، ومن ثم رفض العودة الى العيش معنا . عرفته من

ثوي رغم مرور سنوات عديدة على فراقه لنا . ناديته باسمه وانا أغالب دموعي .. أسرع يقبلني ويسألني عن احوالي . بدت لي قامته أقصر مما كانت عليه عندما كان ما زال يقيم في بيتنا في الشام . سألته عن سبب ذلك فروى لي قصة طريفة مؤلمة حدثت له وأدت الى تشويه قامته على هذا الشكل . اذ كان يعيش وحيـداً في احد منازل الشام بعد ان درس وأصبح شيخاً عالمـاً ، عندما تعرف الى ولد يتيم رق قلبه لضعفه وفقره. فآواه في منزله وانفق على تربيته ، الى ان أصبح شاباً في الثانية عشرة من العمر . الا ان التربية الصالحة لم تجـد في ذلك الولد العـاق . كان يعلم ان لأخي مبلغاً من المـال ادخره من عمله ، وهو يخبئه في صندوق مفتاحه في عمامته . فما كان من الولد الا ان هجم على اخي وهو يغط في نومه وشرع في ذبحه ، كي يسرق ما لديه من المـال . فاستيقظ اخي قبل ان ينتهي ربيبه من ذبحه ، فأمسك به وهو على آخر رمق ، واستغاث بأعلى صوته . تراكض الجيران فخلصوه منه ونقلوه الى المستشفى ، حيث أجريت له الاسعافات اللازمة . ومن يومها حصل له هذا التشويش الذي أدى الى قصر قامته .

روى لي اخي قصته المحزنة ثم سألني بألم :

« أصحيح ما سمعته انك تعملين بالتمثيل ؟ »

لم أشأ ان اقص عليه ما وقع لي من مآس ، وما تحملته من تعذيب بعد هجره لنا ، فطيبت خاطره قائلة :

« نعم انني أعمل في التمثيل ، ولكنني أعمل برفقة زوجي مدير الفرقة وفتاها الاول » .

وعرفته على نجيب الذي ساعدني على اقناعه باننا زوجان نعمل معاً . انطلت الحيلة عليه ، فأخذ يشجعنا ويناقش نجيب في بعض امور الشرع الاسلامي ... كانت تلك آخر مرة شاهدت فيها أكبر أشقائي ...

اعاد إلي كلام كلير ما كنت أحاول نسيانه من مآس مررت بها ، ومرارة ما زال طعم علقمها تحت لساني ... العار والذل والتعيير ... هل ان حيـــاتي حلقات متصلة من المهانة لا أفر منها إلا وتعدو ورائي بسرعة ، وتعكر علي صفو سعادتي الظاهرة ؟ كيف السبيل الى الاهتداء الى ما يجب علي فعله ؟ انني اسوق الآن حيـــاة راضية مطمئنة ، وحولي من مظاهر الغنى والترف ما لم أكن أحلم به قط ، والرجل الذي أعيش في كنفه طيب كريم ، يعاملني معاملته لسيدة بيتـــه ، وان كنت لست سوى صديقة له . فأثور على كلام كلير وأجيبها مغالطة نفسي :

« انني سعيدة بهذه الحياة ، ان احمد بك رجل كريم ، انقذني من الحيرة التي كنت أتخبط بها ، ومن الفقر الذي كان يتربص بي .. »

كانت كلير تخشى غضبي فكانت تسكت على مضض ، لتعود للتحدث عن نجيب والزواج والرجل الحلال ، عند اول فرصة تسنح لها . لم اكن قد نسيت نجيب الريحاني الفنان الكبير الذي قادني الى الشهرة ، وركز علي أضواء المسارح ، وصقـــل مواهبي وأصبح اسمي في مصر على كل شفة ولسان . ولكن لم تكن تخطر لي قط فكرة الزواج منه بعد ان ساكنته وصادقته ، وعرفت نواحي ضعفه وانكشفت لي سيئاته ...

كانت كلير ذكية ماكرة تعرف ما تريد ، فلا تدع فرصة سانحة الا وتزين لي حياة الاستقرار مع زوج شرعي لي عليه حقوق يعترف بهـــا الجميع .. وتذكرني بأن احمد بك رجل كريم ، ولكنه متزوج وله اولاد ، وما ان يستفيق من حلمه او يمل من هذا الحلم حتى ينقطع عني ويعود الى منزله ، فاعود الى نفسي اذكرها بأن هذا النعيم الذي ارتع فيه لن يدوم ، وانني سأبلغ نهايته عاجلا ام آجلا . ان صديقي متزوج وله اولاد ، وانه لن ينقطع عن منزله الى غير رجعة ، ولكنه سيعود مهما طال امد علاقته بي ... لم تكن تربطني به رابطة حب ، كمـــا انني لم اكن احب نجيب

الريحاني ، بل كنت اسعى دائماً الى مصلحتي بعـد الصدمة التي سببها لي جميل بك في حلب ، كما سبق وذكرت .. وكنت ابرر لنفسي الحيـاة التي احياها ، فأقول لنفسي انني لم اسيء الى اسرة احمد بك ، اذ انه ما زال يحتفظ بزوجته ، ويرعى اولاده . انه لم يشأ الا الترفيه عـن نفسه دون الاساءة لأحد ، ولم اكن لأوافقه ابداً لو انه اراد التخلي عن عائلته لسببين ، اولها اني كنت اقدر الحياة العائلية لحرماني منها ، وثانيهما اني لا ارضى بخراب البيوت لأنني كنت محرومة من المنزل الذي ارتاح اليه .

كنت أضن بصداقة احمد بك لا لكرمه فحسب بل لأخلاقـه النبيلة ، وانسانيته المتناهية .. لم اكن في نظره صديقة ينفق عليها ، بل كنت سيدة يحترمها ويغدق عليها من عطفه ، وحنانه ، وكأنها جزء من حياته . لم يكن كسواه من الاثرياء الذين اذا ما اتفق لهم ان انفقوا درهماً على فنانة او على صديقة ، حسبوا انهم اشتروها وانها اصبحت شيئاً يتصرفون به على هواهم ، ثم لا ينفكون يذكرونها بجميلهم عليها .. كما لم يكن بالرجل المغفل الذي يمكن لأية امرأة استغلاله ، بل كان نبيهاً يعرف مـا يفعل ، ويقدم على عمله عن رضى ، وكنت كلما جاءني بهدية ثمينة اقول له بضيق :

ـ انك تغمرني بكرمك فما حاجتي الى هذا ؟

فيجيبني مبتسماً :

ـ لو كنت طلبت مني ان آتيك بالهدايا لقلت في نفسي انك تحاولين استغلالي ولا تنشدين صداقتي الا لمصلحة . ولكنني احمـد الله على انك « بنت حلال » .

وكنت عندما اسمع كلامه هذا ، الذي كنت استسيغه اكثر من العسل لفرط ما تمنيت سماعه ، الوم نفسي ، وامتنع حتى عن التفكير العابر بنجيب الريحاني ، وكنت لذلك اثور على كلير وارغمها على السكوت اذا ما ارادت العودة الى حديث الزواج الحلال .. والحرام .. وظللت على هذه الحال

سنةً كاملة اتقلب على مثل الجمر ، ولا اعرف اياً من الرأيين هو الصواب : زواجي من الريحاني ، والفقر وعدم الاستقرار ؛ ام صداقتي لأحمد بك ، والغنى والراحة والطمأنينة ...

* * *

لم تدم حيرتي هذه ، ففي يوم من الايام بينما كنت جالسة الى جولييت خالية البال آمنة ، مطمئنة ، اذا بجرس التلفون الى جانبي يرن ، فأمسكت بالسماعة بسرعة ظناً مني بان احمد بك يتصل بي ليذكرني بشيء نسيه قبل ان يغادر البيت ، ولكنني انكرت صوت المتحدث فأجبت باقتضاب : « النمرة غلط » ، واقفلت الهاتف . غير ان محدثي عـــاد الى الاتصال بي ، وكنت قد اشتبهت بصوت نجيب ، فأمسكت بالسماعة ويدي ترتجف من الصدمة ، لم يدعني أفتح فمي او انبس ببنت شفة ، بل فاجأني بعتاب طويل لم يترك لي معه فرصة الدفـــاع عن نفسي ولو بأبسط الحجج ، وقال لي :

« انا آت اليك ، لا تدعيني أسبب لك فضيحة بين الجيران ، فافتحي لي الباب لأنني لن اعود قبل ان اراك » .

وسقط في يدي ولم ادر كيف اتصرف ، أأدعه يدخل المنزل في غياب احمد بك ، واتركه يخرق حرمة منزل ليس بمنزله ، او أجعله يعود دون ان اراه او افتح له باب المنزل مع انه هددني باثارة فضيحة اذا لم امتثل لما يريد .. وما العمل لأتجنب فضيحة تلصق باسم أحمد بك ، الرجـــل الكريم الذي لم يضن علي بشيء ؟ وقبل ان استقر على رأي سمعت دقات عنيفة على البـــاب ، فهرعت دون وعي ، وفتحت البـــاب بسرعة ... ودخل نجيب الريحاني منزلي ليقتحم حياتي من جديد ... وما ان رأيتـــه حتى خانتني اعصابي ، وارتميت مغشياً علي ... فأحاطني بذراعيه ، وأخذ يتملقني حيناً ، ويقبلني حيناً آخر ... ولما طالت غيبوبتي وتبين له انني

لم أكن افتعل ذلك اسرع يبحث عن ماء يرشني به . ودخل غرفة كلير وطلب اليها ان تسرع لاسعافي ... فحملاني معاً الى سريري .. وما ان افقت حتى عدت الى ثورتي عليه ، وعلى تصرفاته الخرقاء .

ونظرت اليه بحنق ثم اجهشت بالبكاء ... فما كان منه الا ان قال لي بهدوء : « انني ما رأيتك من قبل اجمل مما انت عليه الآن » . وعاد يضمني الى صدره ، ويقبلني بشوق ، وشراهة امـــام كلير ، فتبين لي عندئذ انهما متفقان وان نجيب ينفذ خطة رسماها معاً ، بعد ان احاطته كلير علما بكل ظروف حياتنا وتبينت ذلك في النظرات التي كانا يتبادلانها فانتفضت بين ذراعيه كالنمرة المفترسة ، وقلت له :

ـ انت عايز ايه عايز تخرب بيتي ؟

ـ ان هذا البيت ليس بيتك بل بيته هو ، وما ان يعلم انك ستعودين الي حتى يسترد كل هذه الاشياء الجميلة التي آثرك بهـا . انني لا اريـــد المنزل ، بل اريدك انت ، لنتزوج ونذهب معاً الى اميركا ..

ـ عال عال يا استاذ نجيب ، يظهر انك جهزت كل شيء .. الرواية وتذاكر السفر ، أليس كذلك ؟ ومن قال انني سأوافق على مشاريعك بعد ما ذقت منك ومن كسلك واستهتارك ما ذقت . كفاني ، ارجوك ان تتركني اتدبر امري بنفسي .. وتأكد انني لن اصحبك الى اميركا لانني اخشى ان نموت جوعاً ونحن غرباء في بلاد لا نعرف فيها احداً ..

ـ انني اضن على صباك ان ينقضي ، وعلى جمالك ان يذوي ، وانت مقيمة على سذاجتك هذه ، تعيشين حياة الحريم غير مبالية بالمواهب التي قد تدرّ عليك الثروة ، اذا عرفت كيف تستفيدين منها . ستمضي الايام مسرعة وقد تعودين الى رشدك ولكن بعد ان يكون شبابك قد ولى ، وجمالك قد ذبل . والندم مرّ لو تعلمين . لقد عرضت عليك آخر واثمن عرض استطيع ان اقدمه لامرأة !

ـ العرض الثمين هذا هو الزواج منك ؟

ـ نعم ، ولم لا ؟

ـ ولم لا ؟ اتراني لو تزوجت ممثلا حتى ولو كان نابغة عصره ، اتراني سارتاح من العمل على المسارح ، وامتنع عن التشرد من بلد الى بلد ، وارتداء الملابس الخليعة ، وعرض ساقي العاريتين وعن السهر الى الصباح والرقص والفقش ، والترفيه عن اناس قد لا اتكلف السلام عليهم لو لم اكن منغمسة في الجو الفني . زد على ذلك انني سأقوم بهذه الاعمال تبرعاً وبدون مقابل ، لو اصبحت الزوجة السعيدة للاستاذ الكبير .. اتراني اقبل بهذه المغامرة ، وبهذا المستقبل المظلم على هذا الشكل ؟

ـ ولكنك ستتزوجين نجيب الريحاني ، نجيب الريحاني الفنان الذي تجهلينه انت والذي لا تقدره بلاده . وهذا ما يدفعني للهجرة الى بلاد لا يعرفني فيها أحد لعل أهلها يتعرفون علي ويقدرون فني أكثر مما يقدره ابناء وطني . وسترين كيف انني سأتفانى في عملي هناك ، ولم يسبقني الى تلك البلاد احد من زملائي بعد ان « يلطش » رواياتي لينسبها لنفسه ، كما وقع لي في لبنان ، وسوريا ، وفلسطين . لقد عرضت عليك رأيي وآمل ان توافقيني ونرحل الى اميركا علنا نوفق الى ما لم نوفق اليه هنا ! »

وعندما ابتعدت عنا كلير همس لي بقوله : « لا اخفي عنك ان لدي ما قيمته الف جنيه مصري ، اوراق كريدي فونسيي . هي كل ثروتي ، سآتيك بها لتحتفظي بها . وتقرضيني نفقات السفر . انني حريص على هذه الاوراق ويصعب عليّ بيعها ، فقد تربح احداها ، من يدري ؟ وعلى اية حال سأعود اليك غداً لأعلم ما يستقر رأيك عليه ! »

رجوته ان لا يعود الى منزلي مرة ثانية ، ووعدته بأن اسعى للقائه ، واتحدث اليه خارج البيت . ومضى وتركني عرضة للهواجس ، والحيرة التي لم تدعني اعرف طعم النوم الليل كله . وعندما اقبل النهار لم اعد

ادري كيف اتصرف مع احمد بك ، وكنت اخجل من ان اهجر الرجل الذي اكرمني وجعلني سيدة بيت . وفي المساء جاء احمد بك كعادته وكان يجهل ما حدث في غيابه ، وما سيحدث في حضوره . فرحبت به كما عودته ولكنه كان ذكياً ، فطناً ، دقيق الملاحظة فما لبث حتى سألني ما بي . فتكلفت الاعياء وادعيت انني اشعر بألم في معدتي . فاستدعى طبيباً ما كاد يفحصني حتى اكد لي وله اني في صحة وعافية وان ما اشكوه غير ذي بال . وانصرف احمد بك في تلك الليلة كئيباً بعد ان تمنى لي شفاء عاجلا ونوماً هنيئاً .

وما ان خرج من المنزل حتى كان نجيب الريحاني يتحدث اليّ بالتليفون . فرجوته ان يمهلني قليلا ، لانني لن اقوى على اتخاذ اي قرار بهذه السرعة . فوافق على ان نجتمع في الغد ليعرض عليّ فكرة كان متأكداً من انها ستروق لي ، ومن انني سأوافق عليها بسرعة ! وفي صباح الغد جاءني الى المنزل واطلعني على وسيلة تمكنني من ان اقطع علاقتي باحمد بك دون مناقشة ولا خصام ! وهي ان اعود الى التمثيل الى جانبه ، الامر الذي قد لا يعترض عليه احمد بك ، فنمثل رواية تدر علينا بعض المال نصلح به امرنا ثم نعقد زواجنا ونرحل الى اميركا بلاد الذهب .

كانت الرواية الجديدة التي ارادني نجيب الريحاني ان اشترك فيها رواية « البرنسيس » ، وكان يعتقد بأنها انجح من سابقتها « الليالي الملاح » ، ويرمي الى ان يخلق بها لنفسه شخصية جديدة ، يستغني فيها عن الذقن والجبة ، والقفطان التي اعتاد جمهوره ان يراه بها . اراد ان يمثل شخصية الرجل « المودرن » الواقعي الذي يعيش كما يعيش سواه من ابناء جيله . وعرض عليّ ان اقوم بدور « البرنسيس » اي بدور البطولة النسائية في هذه التمثيلية التي شاء ان يقدمها في بلده قبل رحيله عنها ليذكره مواطنوه

دائماً بالخير اذا لم يقدر له ان يعود. وقد يسهل له نجاح « البرنسيس » سبل العودة اذا ما فشل في اميركا، واضطر ثانية الى العمل في مصر.

راقت لي فكرة التمثيل هذه، وكانت اقوى حجة اقنعني بها الريحاني للعودة اليه. فلقد كنت بدأت امل حياة الرتابة، والركود التي كنت احياها في كنف احمد بك. واسرعت انظر في المرآة فالفيت نفسي وقد زاد وزني، واصبحت اقرب الى البدانة مني الى الخفة، والرشاقة. فخشيت على نفسي ان اصبح سيدة من سيدات الحريم اللواتي لا هم لهن سوى الاكل، والشرب، والنوم. وهكذا تمكن نجيب الريحاني من ان ينتزعني من احمد بك ويعيدني اليه..

وعندما اتى احمد بك في المساء يصحبه صديقه عبد العظيم، كنت قد عقدت العزم على ان ادعي الملل من حياة الهدوء، والرتابة التي عشتها منذ عرفته ورضيت بصداقته والتزمت البيت بعيداً عن جو المسارح. فبادرته بقولي: « لقد مللت هذه الحياة، وعدت احن الى العمل بعد ان ابتعدت غن المسرح طول هذه المدة، وبودي لو اعود الى التمثيل..»

فقال عبد العظيم مستنكراً:

« معاذ الله! فانت لست في حاجة الى العمل، وهل هناك مسرح يليق بك؟ »

واجبت: أليس في مصر كلها مسرح يمكنني ان اعمل به سوى مسرح الريحاني؟.. هذه ام كلثوم، انها لا تجد غضاضة في الغناء في « البوسفور » على فكرة فان هذا المسرح يقع على خطوتين من منزلنا، فياليتك تهيء لي فرصة الاجتماع باصحابه. فاستنكر احمد بك بدوره قائلا:

« ان ام كلثوم لا تعمل سوى مرة في الاسبوع، وعملك يختلف عن عملها تماماً اذ عليك ان تظهري على المسرح كل مساء. كما انك ستضطرين

الى مخالطة الراقصات والمغنيـــات اللواتي لن ارضى لك بصحبتهن قط ، اذ انك اشتهرت بالتمثيل . وعلى هذا فاننا لن نتمكن من مشاهدتك في مثل هذا الجو . ولا تنسي ان « البوسفور » مقهى وليس مسرحاً ، وقد لا تجدين اسرة واحدة بين رواده . انني اضن باسمك على مثل هذا المقهى »

فتابعت تمثيل الدور الذي اعتزمت تمثيله لهـــذا الصديق الكريم ، وانا خجلة من نفسي .

ــ ما العمل اذن ، والريحاني منقطع عن العمل في هذه الفترة ؟.

ــ الى ان يعود الريحاني الى العمل يكون قد فرجها الله . ارجوك ان تقلعي عن هذا الحديث ، لأننا لا نرضى لك التمثيل في مكان لا يليق باسمك ، ثم ان نجيب الريحاني عازف عن العمل في هذه الايام .

كان قد مضى على حديثنا هذا عـــدة ايام ، عندما شاع ان نجيب الريحاني منهمك في اعداد رواية جديدة ، ستكون بديعة مصابني بطلتها الاولى . فحدثني احمد بك في هـــذا وطلب الي ان أبين حقيقة الامر . فخجلت منه ولكنني تمالكت نفسي وسألته :

ــ هل لديك مانع لو اني لبيت طلب الريحـــاني اذا ما استدعاني الى التمثيل معه ؟

فأجابني مطرقاً :

ــ انني لا أريد ان احرمك من هوايتك لا سيما وانك تتمتعين بمواهب لا يشك في قدرها احد ، ولكن يصعب علي في الوقت نفسه ان احرم نفسي منك ، ومن الحياة بقربك ، تلك الحياة التي تعودتها وسعدت بها .. انني حائر بين امرين : حرمانك من التمثيل ، ام حرمان نفسي من اعز مخلوق لدي . ثم لا تنسي انني على علم بما كان بينك وبين الريحاني ،

فكيف تريدينني اذن ان ارضى بعملك الى جانبه ، وانا لا ادري مـــاذا يكون اذا ما عدت الى مسرحه .

وعز علي تأثره البادي بوضوح على محياه ، وقطعت حديثه لاخفف عنه وقلت له :

ـ دعنا الآن من هذا الحديث .. فـــان هــذه الاخبار ليست سوى شائعـــات تتفتق عنها مخيلات الناس .. فالى ان يعود نجيب الريحـــاني الى التمثيل ويدعوني الى العمل معه نكون قـــد اهتدينا الى وسيلة نتفق عليهـــا .

ولكن لم تمض بضعة ايام على حديثي مع احمد بك ، حتى اتصل بي نجيب ليقرأ لي الرواية الجديدة التي انتهى من كتابتها . لم ادعـــه يأتي الى منزلي بل وافيته الى احـــد المقاهي المنعزلة في مصر الجديدة ، حيث اطلعني على دوري في التمثيلية وقرأ لي التمثيليات التي سأؤديها على المسرح غير انه رغم الحاحي رفض ان يذكر لي حوادث الرواية متذرعاً بضيق الوقت وقـــال لي : ان المهم هو ان ارتاح الى دوري . وكان دوري لطيفاً مرحاً ، فرضخت الى مشيئته بعد ان عللني بانني سأعرف موضوع الرواية عندما اشترك في التمرن عليها مع سائر ممثلي الفرقـــة . فاقتنعت بحجتـــه ولم يساورني ادنى شك فيما كان يبيته لي . وتركته وعدت الى منزلي بعد ان اتفقنـــا عل ان يتصل بي عند تحديـــد موعد اجراء « البروفات » .

واستقبلت احمد بك كعادتي في تلك الليلة ، باللهفة والترحاب ، وأخبرته بأنني اجتمعت بالريحاني وتم اتفاقنا على ان نعمل معاً . وأصغى الي احمد بك بصمت . وكنت أرى لون بشرته يميل الى الاصفرار كلما مضيت في الحديث ، غير انه لم يقل كلمة تسيء اليّ ، بل نصحني بالتروي والتبصر والحكمة ، ولم يعد الى هذا الموضوع ثانية . غير ان الاعلانات عن الرواية

كانت قد ملأت جدران الشوارع ، وكانت تعد الجمهور برواية جديدة شيقة يقدمها نجيب الريحاني ، وتشترك في تمثيلها بديعة مصابني ، حتى ان رواد المسرح باتوا يتلهفون الى موعد افتتاح الموسم الجديد . وفي هـذا الجو من الترقب والفضول تحدد موعد تقديم رواية الريحاني الجديدة . ولم يكن نجيب قـد أطلعني على موضوعها ، بـل اكتفى بتلقيني دوري ، والأغنيات التي كان علي ان اؤديها . جاء موعد الليلة الاولى او « البرميير » وانا على هذه الحال أتساءل عن سبب تحفظ نجيب ، إذ لم يكن يدعني اختلط بسائر الممثلين ، لكي لا اعرف مـا هي الحوادث التي سيقومون بتمثيلها ، مكتفياً بقوله :

ـ انك ستؤدين دورك على أحسن وجه .

وغص المسرح في يوم التمثيل بالمتفرجين ، حتى كاد يضيق بمن فيه ، وكانوا قد جاؤوا لمشاهدة الرواية التي أشاد بها الجميع . فلم يخب ظنهم في هذه المرة ، بل صفقوا لنا كثيراً ، وكانت تلك الليلة ، ليلة تاريخية في حياتنا الفنية .

وبعد هذا النجاح الكبير عز علي ان أرى احمـد بك يصلى نار القلق والغيرة ، وهو الرجل الذي أكرمني ولم يضن علي بشيء . فعرضت عليه ان أترك المسرح وأعيش في كنفه ، فلم يوافق ، بل أجابني بلطفه المعهود :

ـ كلا ، لن أرضى ولن أسمح بأن تنقطعي عن التمثيل ، لأنه عليك يتوقف نجاح هذه الرواية ، التي لو توقفت لانقطع رزق سائر الممثلين ، ولخربت بيوتهم قبل ان ينخرب بيت نجيب . غير انني لن أقوى على مشاهدتك في كل ليلة على عادتي التي درجت عليها ، لأنني لا أريد ان يلمح اصدقائي غيظي من مشاهدتك على المسرح برفقـة نجيب . ولكنني سأوافيك الى هناك عندما أجد فرصة مناسبة .

... لم ألح على احمد بك لموافاتي الى المسرح ، ولكنني كنت اراقبه

في صمت ، فأحصي عليه تنهداته ، واراقب مسحة الحزن على وجهه . فأندم على ما بدر مني واعقد النية على ان لا اعود ثانيـة الى التمثيل . ولكن مـا ان التقي كلير ونجيب حتى يشحذا همتي من جديد ويغرياني بالاضواء والشهرة والثروة . وبالفعـل كانت الأضواء مغرية ، والشهرة والنجاح أشد اغراء . فما ان أقف على المسرح وأشاهـد الجمهور يلهب أكفه بالتصفيق ، حتى أنسى كل ما عقدت النية عليه ، وأسكر من هذه الخمرة الشيقة ، خمرة النجاح والاستحسان والمديح .

بلغت من النجاح ما حمل نجيب نفسه ان يشعر بالغيرة من محبة الجمهور لي واقباله علي . وكنا قبل ظهور رواية « البرنسيس » ، اذا مـا اتفق لنا ان سرنا معاً في احد الشوارع ، او اذا جلسنا في مقهى او في حديقة عامة ، تدفق علي الناس وأشاروا الي ان هذه بديعة مصابني ، واقبـلوا علي ليحيوني . ولم يكن احد منهم يعرف نجيب او يحفل به ، لا انتقاصاً من قدره ، بل لان معرفته كانت تتعذر عليهم وهو في ثيابه العادية ، وكانوا قد اعتادوا رؤيته بالذقن الطويلة والجبة والقفطان . وهذا ما حمله على كتابة قصة « البرنسيس » التي استوحاهـا من قصتي معه ومع احمد بك . وقد تبين لي بعد ان مثلناها لأول مرة على المسرح ، ان حوادثها تنطبق تماماً على ما حصل لنا نحن الثلاثة . كما تبين لي ايضاً لماذا لم يكن نجيب يرضى بان يطلعني على حوادثها قبل ان يعرضهـا على الجمهور ، فأصاب في رواية واحدة هدفين : اولا انه استغنى عن الماكياج والجبة والقفطان وظهر على حقيقته كي يتعرف عليه الجمهور . ثانياً انه أظهرني بمظهر المرأة الجشعة التي لا تقدر الفن ، والتي قست عليه وهجرته لفقره ولحقت بالصديق الغني لتشبع نهمها الى الجاه والغنى . غير انه لم يكن يتوقع ان أصيب هذا النجاح بالرغم من الصورة التي أعطاها عني للجمهور فأقبل علي المعجبون وتزايـد عددهم الى درجة انني لم أعد أتمكن من

الاجابة على جميع الرسائل التي كانت تصلني ، او الرد على التلفون الذي كان يرن دون انقطاع .

استمررنا في تمثيل رواية « البرنسيس » مدة شهرين متواصلين ، وكان الجمهور يقدر اننا سنتابع تقديمها شهرين آخرين على الاقل ، لما لاقته من الاستحسان لدى الجميع . غير ان نجيب الريحاني تعمد اشاعة خبر زواجي منه ، كما اذاع خبر سفرنا الى اميركا . فتناقلت الالسن هذين الخبرين واضاف اليهـا الناس من عندهم الشيء الكثير . ولم يعـد يوجد من لم يسمع او لم يتحدث بقضيـة زواج نجيب الريحـاني من بديعة مصابني وسفرهما معاً الى بلاد الذهب . فكانت اسئلة الفضول تتساقط علي من كل حدب وصوب ، من الاصدقاء والاعداء على حد سواء . وعندما استحال علي كتمان الحقيقة عن احمد بك صارحته بكل شيء ، وافهمتـه انني لم ارجع الى نجيب إلا لانه يريد ان يتزوجني ، واصبح من ثم كغيري من السيدات اللواتي يعشن في كنف رجل ، لهن عليه حقوق لانه حلال لهن . ورجوته ان يقدر ظروفي . فأجابني بهدوء :

« لو انك ستتزوجين بغير نجيب الريحـاني لكنت اقتنعت بانه زواج سترة ، وان زواجك سيقيك العوز ويؤمن مستقبلك . ولكنني لسوء الحظ موقن من ان زواج نجيب الريحاني منك ليس سوى زواج مصلحة من قبله هو . اذ انه بحـاجة كبيرة اليك فأنت تقومين بتمثيل ادوار صعبة الى جانب اتقانك الرقص والغناء . ولغاية الآن لم تظهر على مسارحنا قط فنانة مثلك يمكنها ان تجمع ما بين التمثيل والرقص والغنـاء . وهذا هو سبب اقبال نجيب الريحاني عليك واصراره على ان تتزوجيه وان تقوما معاً بالسفر الى اميركا . وعلى كل حال فأنت حرة في ان تتصرفي حسب مشيئتك ، ولن اقف حجر عثرة في طريق مستقبلك . غير انني اريـدك ان تعلمي انك صفعتني من حيث لا تدرين ، ولكنه ذنبي وانا مستعد لدفع ثمنه .

لست اعني المـال الذي انفقته بل اعني ثمنـاً اعز بكثير . لقد سعدت بقربك وكان بودي ان تطول حياتنا معاً أكثر ممـا طالت ، إلا انك قضيت على احلامي ولم اعد اؤمن بالاحلام ، لا سيما وانه ستتعذر علي رؤيتك بعد زواجك .

ـ هون عليك يا احمد بك فأنت رجل ثري وكريم ، وبامكانك ان تجد صديقة غيري تنسيك ايامك معي . ومن يدري فقد تكون صديقتك الجديدة أكثر وفاء مما أنا عليه .

ـ لقد لقنتني امثولة لن انساها ، امثولة ستجعلني ابتعد عن جميـع النساء حتى عن زوجتي .

احضرت له جميع هداياه ، وقلت :

ـ انني لا اطمع بشيء يا احمد بك ولم ارض بصداقتك لانك غني ، كلا بل لانني احترمتك ووثقت بك كل الثقة ، هـذه هداياك سأتركها هنا واهجر هذا البيت بما فيه . لن آخذ منه سوى ثيابي فقط . ولكنني لن انساك ولن انسى معروفك طيلة حياتي ، ارجوك ان تعفو عني وتسامحني . وارتميت على صدره اجهش بالبكاء . فأبعدني عنه بلطف ، وبعد فـترة صمت سألني :

ـ هـل حددتم موعـد الاكليل ؟ انني سأعاملك كما لو كنت ابنتي تماماً . وسأعتبر ان هذا المنزل بما فيه هدية للعرس ، اقدمها لك مرفقة بتمنياتي في ان تسعدي في زواجك من نجيب الريحاني ، وان لا يأتي يوم تندمي فيه على تسرعك .

وافترقنا . وكان هذا آخر عهدي باحمد بك ، الرجل الكريم الذي لم اعرف أنبل منه طيلة حياتي .

• • •

خرج احمد بك من منزلي كما خرج من حياتي ، فبدأت صفحة جديدة من المغامرات مع نجيب الريحاني ، اذ كانت حيـــاة ذلك الفنان الكبير سلسلة متصلة من الافراح والدموع من النجـــاح والفشل ، ومن النشاط المتدفق والكسل الخامل الملول .

بعدما تركني احمد بك في وحدتي نظرت الى ما حولي من متاع فاخر ورياش انيق ، واكبرت في صديقي نبله وعزة نفسه ، ابيت ان احتفظ بما تركه لي ، وخجلت من ان اتمتع بعد زواجي بما تكرم علي به رجل احبني فهجرته ، واسعدني فأشقيته . ومن ثم قررت ان ابيع كل ما تبقى لي منه ، واعتزمت على ان افاتح نجيب في الامر . ولو ان نجيب مانع في ذلك لكنت احتقرته وتمنعت عن الزواج به . الا انه كان حكيماً وكان يقدر موقفي ، فوافقني على ما اعتزمت القيام به ولو بعد تردد .

ثم قال لي :

ــ نحن على كل حال لن نمكث في مصر ، بل سنرحل الى اميركا بعد زواجنا مباشرة ، فما حاجتنا الى هذه الاشياء ؟

انتقلنا الى فندق الكونتيننتال ، واقمنا مزاداً لبيع كل ما احتواه المنزل الذي اهداني اياه احمد بك . وكم عزّ عليّ ان ارى الناس تتدفق على منزلي لتخرق حرمة حياتي الخاصة وتعبث حتى بستائر غرفتي . لم اكن اعرف بالتمام ثمن الاشياء الجميلة التي بعتها في ذلك النهار . ولكن ما ان انتهى البيع وانصرف الجميع ، حتى وجدت ان المبلغ الذي تجمع لدي لم يزد على الالف وسبع مئة جنيه ، ثمن كل ما احتواه ذلك البيت من اثاث وتحف . كان نجيب بجانبي دائماً يشجعني ويهون علي ، فطيب خاطري ووعدني بان يجهز لي بيتاً جميلاً بعد عودتنا من اميركا .

وبعدما انتهينا من عملية المزاد حددنا موعداً للاكليل ، واحتفظنا بسرية الموعد كي لا يتسرب الى الصحف ، فتتناوله الاقلام وتكثر حوله الاشاعات

جرت مراسيم الزواج في منزل الدكتور خليل جودة الذي قام بدور الشاهد لذلك الزواج ، كما دعونا «كلير» كي تكون بدورها الشاهدة الثانية . كانت حفلة عائلية لم ندع اليها احداً ، وما ان انتهت المراسيم الدينية حتى تركنا الضيوف القلائل ، وتسللنا الى الخارج دون ان يدري بنا احد ، واستأجرنا عربة حنطور اتجهت بنا الى ضفة النيل .

استطبنا نسيم الليل فطالت نزهتنا قرب مياه النيل ، ولم نعد الى فندق الكونتيننتال الا عند ساعات الصبح الاولى . كان نجيب مـــا زال يرتدي السموكن كما كنت قد احتفظت بثوب العرس الابيض ، وما ان اطللنا على باب الفندق حتى استقبلنا الجميع من مصريين واجانب بالهتـــاف ، والتفوا حولنا يعبرون لنا عن اطيب تمناتهم . والغريب اننا عندما اختلينـــا في غرفتنا اعترانا خجل لم نكن ندرك معناه ، فنظر كل منا الى صاحبه وكأنه جديد المعرفة به ، مع اننا كنا قد عرفنا بعضنا معرفة عميقة ، منـــذ زمن بعيد ، ولم تكن هذه هي المرة الاولى التي تضمنا فيها جدران غرفة واحدة . ولكن يظهر ان بركة الزواج الحلال والمراسيم الدينية ، كانت قد حلت علينا واعادت لنا شيئاً من الخجل الذي افتقدناه من قبل ، ثم امضينـــا شهر العسل ما بين الاسكندرية ورأس البر .

لم نمض الوقت في ارتشاف العسل فقط ، بل انجزنا جوازات السفر ، وتأهبنا للرحلة البعيدة . واصطحبنا في تلك الرحلة جوليت بصفتها ابنتنا نحن الاثنين ، كما رافقنا من الممثلين محمود التوني وفريـــد صبري وألمظ ستاتي ، التي ما ان عرفت اننـــا قاصدون البرازيل حتى رجتنا في ان نصحبها معنا ، لتلتقي ابنها الذي كان قد قصد الى تلك البلاد منذ عدة سنوات . وكان الدخول في تلك الايام الى البرازيل مسموحاً لاي كان ولكن دخول العاصمة كان يتطلب كشفا طبياً بسيطاً ، اذ لم يكن الطبيب يدقق إلا في احد امراض العيون وهو التراخوما . اما اذا كان المسافر لا



بديعة ونجيب الريحاني قبل سفر الفرقة الى تونس

يشكو من ذلك المرض فبوسعه الدخول ساعة يشاء . وهكذا توجهنا الى اميركا الجنوبية دون ان نكون قد اخذنا ولو فكرة بسيطة عن امكانيـة العمل في تلك البلدان البعيدة . وهذه كانت العادة التي درج عليها الريحاني: يقدم على العمل دون ان يدري ما ستكون نتائج هذا العمل .

تركنا مصر وابحرنا على متن باخرة اقلتنا الى جنوا ، ومنها توجهنا الى البرازيل على متن باخرة ايطالية ثانية كانت تدعى « جاريبلدي » . وبعد مضي خمسة وعشرين يوماً قضيناها بين الارض والسماء ، أشرفنا على شواطىء سانتوس . كانت سفرة متعبة للغـاية مع اننا كنـا قد حجزنا لأنفسنا غرفة في الدرجة الاولى . ولكن الدرجة الأولى على تلك الباخرة وفي تلك الايام كانت في جودة الدرجة الثالثة في البواخر الحديثة . غير انني بالرغم من التعب والاعياء كنت افضلها بكثير على الرحلة الاولى التي قمت بها برفقة عائلتي ، والتي لم يكن يقينا خلالها من حر الشمس ومن برد الليل لا سقف ولا جدار .

اقتربت الباخرة من الشاطىء تتهادى على مهل ما بين صخور الميناء ، باتجاه المدينة التي كانت تحيط بها الجبال العالية ، فاسرع كل من كان في الداخل يتمتع بما اطل علينا من المناظر الجميلة . كما كان رصيف المينـاء غاصاً بالمستقبلين والفضوليين الذين جاؤوا ينظرون الى « اولاد العرب » الساعين وراء الرزق . وكنا من جهتنا لا نعرف احـداً بين تلك الجموع المتراصة ، حتى المظ ستاتي اختفت دون علمنا لانهـا خرجت لملاقاة ابنها من باب آخر غير الباب الذي نفذنا منه نحن الى رصيف الميناء ، اذ انها كانت قد قطعت الرحلة في الدرجة الرابعة .

أدركنا حرج موقفنا عندما أصغينا الى القوم يتحدثون بلغة كنا جميعاً نجهلها . فاحترنا بأمرنا ، وعلا النقاش فيما بيننا . كل منا يقدم اقتراحاً فلا يوافق عليه الآخرون ، وهكذا الى ان انصرف اكثر الركاب . وفيما

نحن نتداول في امرنا اقترب منا رجل عليه سمات الشرقيين وسألنا بالعربية:

– من أي بلد قدمتم .. هل انتم اولاد عرب ؟

ما ان سمعنا سؤاله وتأكدنا من انــه يكلمنا بالعربية ، حتى أسرعنا نلتف حوله فرحين مستبشرين بلقائه ، فقال لنا :

– هيا انزلوا الى الميناء ، لقــد وصلت الباخرة الى نهاية رحلتها ، وستعود الآن الى بلدها .

– ولكننا نريد الذهاب الى الارجنتين .

– حسناً ، ولكن من الافضل ان تتابعوا رحلتكم من هنا ..

– وهل بامكاننا ان نعمل في هذا البلد ؟

– وماذا تعملون ؟

– نحن فرقة فنية ، يعني بامكاننا ان نرقص وان نغني !..

فقاطعني نجيب بحدة :

– كلا اننا لا نرقص ولا نغني بل نمثل فقط .

فأجاب الرجل بغير اكتراث :

– إذن لن تتمكنوا لسوء الحظ من العمل هنا لان ليس في هذا البلد من يفهم التمثيل ولا من يقدره ، ولو كان معكم موسيقيون ومطربون لكنتم جمعتم ثروة ! »

نظرنا الى بعضنا بحيرة ودهشة ، غير انني انقذت الموقف بان قلت لنجيب بالافرنسية :

– دعنا نحاول ولا بد ان يفرجها علينا الله . على كل حال يجب ان نترك الباخرة هنا .

اسرع الحمالون ينقلون امتعتنا الى الفندق حيث تبين لنـــا فيما بعد ان

صاحب ذلك الفندق لم يكن سوى الرجل نفسه الذي دعانا الى النزول الى الشاطىء . وكان قد اعتاد ان يسرع الى الميناء كلما علم بقدوم احدى البواخر كي يأتي بالنزلاء الى فندقه . ومـا ان اقبل المساء حتى ازدحم الفندق بافراد الجاليـات اللبنانية والسورية ، من ابنـاء الجبل وبيروت وطرابلس وحلب والشام وحمص وحماه ، كل برفقة عائلته . كان هؤلاء جميعاً على اختلاف نزعاتهم وتباين لهجاتهم ، يؤلفون عائلة واحدة تجمعها الغربة ويحفزها الى العمل امل العودة الى الوطن الحبيب . ما ان انتشر الخبر أن في الفندق فرقة فنية عربية ، حتى تراكض الجميع من شيوخ وشبان واطفال ونساء . جاؤوا ليسألوا عن المغنية القادمـة من بلادهم ، وعن الاستاذ نجيب المطرب والممثل الكبير . فما ان سمـع نجيب كلمة مطرب حتى غرق في الضحك وقال لي :

– اتفضلي يا ست سمعيهم صوتك !

ـ وكيف اتمكن من الغناء بدون عود ولا قانون ؟

اسرعوا يحضرون عوداً قدموه الى نجيب الذي اعطاه بدوره الى فريد، ولم يدر فريد كيف يمسك العود ، فاغرقنا جميعاً بالضحك هـذه المرة . غير انني عندمـا رأيت الأعين متجهة نحوي ، رأيت ان من واجبي ان اقدم لاصدقائنا ولو طقطوقة صغيرة .

فقلت الى التوني وفريد :

ـ سأغني وستردان المذهب بعدي !

واخترت قطعة سهلة ورائجة عرفها وسمعها كل من جاء من حلب او من الشام في تلك الايام : « فستق مملح ولذيذ يا افندي » . ومـا ان بدأت بالمقطع الاول من تلك الاغنية حتى وقف احد الحضور وقال :

ـ لقد سمعت هذه الاغنية من مغنية جميلة ومشهورة في حلب !

فقاطعه نجيب سائلاً :

ــ وما اسم هذه المغنية ؟

ــ اسمها بديعة مصابني !

ــ هل ستعرفها لو رأيتها ؟

ــ بكل تأكيد !

ــ وما بالك لم تعرفها لغاية الآن ؟

فطار صواب الرجل واقترب يحدق بي باستغراب وقال :

ــ انني منذ دخولي الى هذا المكان وانا اغالط نفسي ، ولا اجرؤ على القول ان هذه بديعة مصابني بلحمها ودمها بيننا هنا في سانتوس خوفاً من ان يضحك عليّ الرفاق ويتهموني بالجنون . ولكن ما ان بدأت باغنيتها المشهورة « فستق مملح » حتى تأكدت من انها هي التي سمعتها في حلب ، وقلت ما قلته لئلا تكون قد خانتني ذاكرتي .

واستدار يصف للجميع النجاح الذي كنت الاقيه في حلب ، والاستحسان الذي كان يرافق كل اغنية القيها على المسرح ، وحثهم على الاصغاء اليّ وعلى الترحيب بجميع افراد الفرقة . غير انه أسف لكوننا لم نصطحب معنا فرقة غنائية لأن التمثيل لم يكن مرغوباً به بين العرب الموجودين في اميركا . خشيت ان يغتاظ نجيب من كلامه فاسرعت اجيب بانه واصدقاءه سيغيرون رأيهم عندما يشاهدون الاستاذ نجيب ورفاقه على المسرح .

ولكنها شهادة حق : لم يظهر على نجيب الريحاني اي استياء ولم يتفوه ولو بكلمة صغيرة تنبيء عن تضايقه مما سمع . بل بالعكس شجعني وانهمك في ترديد المذهب بعدي مع فريد التوني ومحمود صبري . انتقلت من اغنية الى ثانية الى ثالثة ، من « فستق مملح » الى « خمس ليالي والحلو ما جالي » ،

الى غيرها ونجيب جالس يشجعني ويردد معي وكأنه احد فتيان الكورس.
هل يمكن لاحد ممن عرفوا نجيب الريحاني عن كثب ، وشاهدوا ما رافق عمل هذا الفنان الكبير من مجد وشهرة ، هل يمكن لأحد هؤلاء ان يتصوره جالساً بـــين مهاجرين حملهم الفقر والطموح الى اقاصي الارض ، جالساً ليردد « فستق مملح » ؟

كان المهاجرون العرب يعربون عن استحسانهم بالتصفيق الحاد المتواصل الذي لم يكن يهدأ الا عندما كنت ابدأ باغنية اخرى . وكأن هذه الاغنيات التي كانت ما زالت جديـــدة بالنسبة لهم لم ترو غليلهم ، وعندما استأنسوا باننا لن نرفض لهم طلباً ، الحوا عليّ بان اسمعهم بعض الاغنيات السورية واللبنانية . وكانت ليلة من ليالي العمر ، اختلطت فيها العتابا بالميجانا واليادي اليادي بالاوف مشعل . وكانت حلقة دبكة لم تشهد بمثل حماسها وسذاجتها ليالي المهاجرين في البلدان الاميركية . كنت خلال هـــذه الساعات الحلوة انظر الى نجيب باستغراب واتساءل كيف قبل على نفسه ان يردد مقاطع اغنياتي ، وكأنه فنان صغير فاشل لا حول له ولا طول . كان يغني بمرح وسرور وكأنه اعتاد هذه المواقف ، ولم يضق ولو لحظة واحدة بالذين لم يحفلوا به كممثل بل تمنوا ان يكون مطرباً . كان يتظاهر بالظرف ، غير اني كنت من خلال ضحكاته ألمس ألمه وخيبة امله بعد ما غدا « كومبارس» واصبحت انا بنظر المهاجرين العرب على الاقل نجمة الفرقة . ولكن ما من ضيق الا ويعقبه فرج !.

... وما ان انتهت الحفلة او على الاصح السهرة الاولى التي احييناها في اميركا حتى اقترح علينا كل من سمعني اغني في تلك الليـــلة ، ان نعمل في مدينة سان باولو لعدم وجود جالية كبيرة في سانتوس . ولم يكتفوا بالاقتراح بل ضمنوا لنا النجاح ، وزودونا بتوصيات الى وجوه المغتربين العرب في تلك المدينة . وكأن صبر نجيب كان لنا فألاً حسناً ،

فما ان اقبل الصباح حتى شددنا الرحال الى سان باولو ، المدينة الزاخرة بالمسارح وبالموسيقيين العرب ، الذين بامكانهم ان يقوموا مقـام التخت الذي كنا نفتقر اليه . وعند وصولنا الى سان باولو قصدنا فندقاً يملكه زحلاوي اصيل يدعى خليل سابا . فرحب بنا على الطريقة اللبنانية ، واقام لنا مأدبة عشاء على الطريقة الزحلاوية ، مأدبة حفلت باشياء كان قد مضى عليّ وقت طويل لم اذقها ، من تبولة ، الى كبة نية ، وكبـة مشوية ، الى فراريج طرية وفتوش ، ولبنة . ولم يكتف بمـا عمرت به مائدته السخية ، بل جاء يسألني اذا كنت ارغب بأكلة معينة . ولم اخجل من كرمه بل طلبت منه ... وياليتكم تعلمون ماذا طلبت ، قلت له :

– اتمنى لو احصل على صحن مجدره بالبرغل !

فاستلقى على ظهره من الضحك واجاب :

– تكرمي . على عيني ورأسي !

لم ادر لماذا طلبت هذه الأكلة الفقيرة . وانا انظر الى الاطايب الموجودة امامي . لعلها ذكرى ايام القلة والتقتير ! وفي نفس النهـار شاع خبر وصولنا الى سان باولو ، وكانت تلك المدينة تزخر بالتجـار العرب . فأسرع الجميع الى فندقنا عند المساء ليتعرفوا الى الفرقة القادمة اليهم من مصر . وكان في مقدمة من اقبلوا علينا الاستاذ نجيب حنكش . كنا ما زلنا في سنة ١٩٢٥ ، وكان نجيب حنكش شاباً يمتاز بخفة دمه ، وطول أنفه وباللهجة الزحلاوية التي لم تفارقه الى الآن . فأخذ النجيبان حنكش ، والريحـاني يتبادلان النكات ، والناس تضج بالضحك . روى حنكش حادثة جرت له قبل ان يبرح زحلة الى اميركا ، فقال :

– اسمعوا يا جماعة ، انني لا اعرف الاستاذ نجيب الريحاني ولم اسمع عنه شيئاً ، وربما كان هذا جهلاً مني قـد ألام عليه . ولكن عندما

كنت في لبنان ، كان رفاقي يقولون لي ان صوتي جميل . فكنت اصدقهم واغني لهم العتابا ، والميجانا ، لاسلي نفسي واسليهم ، وانا اسير وراء حمار أبي . فتنقضي المسافة التي علينا ان نجتازها ، دون ان نشعر بالتعب . وهكذا اعتدت الغناء منذ ايام التحميل على الحمار ، واصبحت اهتم لكل لحن جميل . وفي احد الايام سمعت ان فرقة فنية جاءت زحلة ، ومع هذه الفرقة سيدة حلوة تغني اشياء جميـلة . فأصبح حلمي ان اشاهد هـذه السيدة ، وان اسمعهـا تغني مهما كلف الامر . وكان الامر لا يكلف سوى الفلوس التي قلّ ما كانت تعرف طريقها الى جيبي . وما زادني شوقاً الى سماع تلك المطربة ان والدتي عادت الى المنزل بعد ان اتيح لها مشاهدتها لتصفها لي قائلة ، وبقية اعجاب في عينيها :

« اما هالبديعة بديعة ، عنق ، قوام ، عيون ، عياقة ، صوت حلو ؛ غنج ، كل هالاشياء مجموعة في هالست ! » فصرت اتعمشق على الحيطان ، واسمع صوتها من خارج المسرح ، واسترق النظر خلسة علني اشاهدها . وكانت الست بديعة ترتدي فستاناً احمر طويلا ، تغني ، والناس تصفق دون وعي ، وتستزيدها الى ان غنت : « يا بلح زغلول يا حلوتك يا بلح ، عليك انادي بزحلة الوادي » فطار ما تبقى من عقول الزحالنة ، ورموا بطرابيشهم على المسرح . وكنت ما زلت واقفاً في الخارج ، اتابع ما يحدث بذهول، فقررت ان ادخل المسرح بأي ثمن . فاشتغلت في اليوم الثاني طوال النهار، واحتفظت بدراهمي ، ولم اعطها لأبي ، كما كان عـليّ ان افعل . وفي المساء قطعت تذكرة دخول وملأت جيبي بالقضامي ، واصطحبت بطحة عرق ، واحتللت مقعداً من المقاعد الامامية ، علني ألفت نظر الست ام الفسطان الاحمر ، التي اطاحت بصواب اسود زحلة وكنت في ذلك الوقت اعتقد انني شاب حلو ، لا بد ان استرعي انتباههـا فتهتم بي . ولكن لسوء حظي لم تشعر بوجودي ، مع انني ادميت يدي بالتصفيق وبح صوتي من التطييب . ومن وقتها وخيال ام الفسطان الاحمر يراود احلامي ، ولم اكن اتوقع ان يتحقق

حلم زحلة هنا في اميركا . وعلى هذه الصورة بالذات ، وان لا تأتينا بمفردها بل بصحبة زوجها الفنان الكبير الاستاذ نجيب الريحاني . وعلى كل حال اهلاً وسهلاً بالاثنين !

استغربت هذه الصراحة التي تكلم بها نجيب حنكش ، اذ انه لم يخف من استعادة ذكرى ايام الفقر في زحلة . روى حادثته هذه ببساطة ولباقة فاستحبها الجميع وصفقوا استحساناً . كنت أراقب نجيب الريحاني وهو يصغي الى حنكش . كان يضحك بمرح ، ولكن كانت تلوح في عينيه مسحة من الحزن ، وخيبة الأمل . فتأثرت لهذا ، وتصورت مقدار ما يقاسيه هذا الفنان الكبير الذي اعتاد التصفيق ، والف عبارات الاعجاب تنهمر عليه من كل صوب . تصورت ما يقاسيه الان وقد بات مجهولاً في بلاد لم يسمع باسمه فيها احد . وما ان انتهت السهرة وذهبنا الى غرفتنا حتى بادرته متجاهلة ما حدث :

– ما بالك يا نجيب ؟ اراك كئيباً !

فأجاب بصوت منخفض وكأنه يهمس :

– انني لم أندم قط على انني تزوجتك . بل بالعكس فأنا سعيد جداً بقربك . ولكن ما يحز في نفسي فعلاً هو مجيئي الى بلاد انا فيها نكرة .. يجهل ، او يتجاهل وجودي فيها الجميع ، بينما يحتفون ببديعة . لقد بت أضيق بنفسي ، وأشعر انني أصبحت طرطوراً ..

– انهم يتجاهلونك اليوم لأنهم يجهلون من انت ، ولا يقدرون مواهبك . ولكن ما ان يشاهدوك على المسرح حتى ينسوا بديعة ورقصها ، وأغانيها . لا أريدك ان تكون ضيق الصدر ، لأن نجاحي مرتبط بنجاحك !

هكذا طيبت خاطره ، ومضت تلك الليلة بسلام .

* * *

أسرعنا بمعونة أصدقائنا الجدد ومشورتهم الى حجز المسرح ، فحددنا موعد حفلاتنا ، وطبعنا تذاكر الدخول ، وجمعنا جوقة من الموسيقيين

العرب المقيمين في سان باولو . فعثرنا بينهم على عازف عود ، وعازف كمان ، وعلى عازفي قانون ، ودربكة . كما تعاونا مع موسيقيين افرنج ، وراقصات اميركيات ، وعهدنا بأدوار الكومبارس الى عدد من المهاجرين العرب ، ولقناهم الأصول الأولية للتمثيل . وبعدما توفر لدينا العـــدد اللازم من الفنانين خرجنا نبحث في أسواق المدينة عن الثياب وعما نحتاج اليه من الديكورات ، فعثرنا على مــا كنا نريده ، وانهمكنا في اجراء التمارين . لم نتمكن من التعاقد على أكثر من اربع حفلات . لأن المسرح الذي كنا سنعمل عليه كان محجوزاً لمدة طويلة .

جاء اليوم المحدد لاولى حفلاتنا فنفدت التذاكر ، وتقاطر المغتربون على المسرح ، كما أقبل علينا الصحفيون والنقاد ، والمصورون ، لأننا كنا اول فرقة عربية تطأ اقدامها ارضاً اميركية . كان علي ان أظهر منذ الفصل الاول ، بينما كان دور الريحاني يحتم عليه ان لا يأتي الا في الفصل الاخير . وقبل ان يرتفع الستار جاء ونظر خلسة الى الجمهور ، فوجد الصالة تكاد تضيق بمن فيها . فأجفل وأسرع يناديني لأنظر هــذا العدد المخيف من المتفرجين . أخذ العرق يتصبب من جبينه ، وأمسكني من يدي الاثنتين وشرع يقول لي كالمحموم .

ــ شدي يا بدعدع ، واشتغلي من غير ان تبصي الى الجمهور احسن ما تغلطي!

ــ لم يروعني ذلك الاقبال الغريب ، بل شحذ همتي ، وأردت ان اتحدى كل من جاء ناقداً ، ولم يأت للتصفيق والهتاف . فأجبت نجيب ببرود من احتفظ بهدوء اعصابه :

ــ ما تخافش ، اطمن ، علي انا على الأقل!

وانزاح الستار . كانت روايتنا في تلك الليلة تدعى « ايام العز » ، وكانت مقتبسة من الف ليلة وليلة . كما كانت ديكوراتنا وثيابنا صورة قريبة جداً من الطابع العربي الاصيل ، وكان ذلك جديــداً على العــالم الاميركي . وما ان دخلت المسرح وبدأت في غنــاء اولى مقطوعــاتي ،

واخذ الكورس يردد المذهب ، حتى ضجت القاعة بالتصفيق . وكان من حضر من المغتربين العرب ، ينظر الى الصحفيين ، والمصورين الاميركيين بتحد ، واعتزاز . وما ان انتهيت من تأدية دوري ، وعدت الى الداخل حتى تلقفني نجيب (الريحاني منعاً لكل التباس) في الكواليس ، واخـذ يقبلني دون وعي ، والدموع تنهمر من عينيـه . ثم دخـل المسرح ، وسرعان ما استولى على الجمهور بما كان لشخصيته من سحر غريب ، اذ كان بامكانه ان يفهم الجمهور ما يريد . وان يضحكه ما يشاء ، دون ان ينبس بكلمة واحدة . بل كثيراً ما كان يكتفي بالتعبير عمـا يريـد باشارات من عينيه ، وحاجبيه ، كما كان لضحكته لغة خاصة تستهوي كل من شاهده على المسرح . وعندما انتهت الحفلة زحف الينا الجمهور مهنئاً ، كما اسرع مصورو الصحف يلتقطون لنا الصور ، ونحن ما زلنا في ثياب التمثيل . وعند عودتنا الى الفندق وجدنا ان افراد الجالية كانوا قد اقاموا لنا مأدبة حافلة ، لم تنته الا عند خيوط الفجر الاولى . كما اسهبت الصحافة في وصف حفلتنا ، وكالت لي ولنجيب المديح من غير حساب ، واعتبرتنا بمصاف احسن واقدر الفرق التي زارت بلادها .

ومما اذكره عن تلك الحفلة انني عندما غنيت : يا بلح زغلول ... عليك انادي في زحلة الوادي ، ضجت القاعة بالهتاف ، واصر الزحلاويون على أن يستمروا في التصفيق اكثر من باقي الحضـور ليعـلم الجميع ان التكريم « للعروس المزينة » دون غيرها . فقال احدهم لزحـلاوي كان يجلس بقربه ، وكان هذا الاخير قد ادمى يديه بالتصفيق :

« منيح طول بالك انتم الزحالنة اقلية » .

فاجابه الزحلاوي على الفور :

« نعم اقلية بس ساحقة ! »

وكان نجاح الحفلات الثلاث الاخرى مماثلا لنجاح الليـلة الاولى ، وبلغ ما ربحناه صافياً ما عدا المصاريف والمكافآت ، الخمسة الآف جنيه

مصري . غير ان ربحنا الوفير هذا بدلا من ان يحمل نجيب على متابعة العمل ، اعاده الى اهماله ، ولا مبالاته ، وسد اذنيه عن كل نصح ، او اقتراح ، وهكذا مكثنا في سان باولو مدة شهرين كاملين .

كان خبر نجاحنا قد بلغ الريو دي جانيرو ، فأخذ بعضهم يراسلنا من تلك المدينة . ولكن كنت ما ان اذكر نجيب الريحاني بهذه الدعوات الملحة المتواصلة ، حتى يضيق بكلامي ، ويقول :

« مستعجلة ليه ، انا مسرور جداً هنا ...

ـ ولكن لا تنسي اننا ننفق دون دخل ، وعلينا ان ندفع مرتبات الممثلين الذين انضموا الى فرقتنا ..

ـ وماله ما ندفعش ليه ، احنا كسبنا فلوس كثير خليهم ياخدوا . »

كنت ابذل جهدي كي اقنعه بأن يعدل عن لامبالاته ، واذكره بوعده لي بأنه سيبذل جهده كي يقدم في هذه الرحلة احسن ما عنده . ولكنه كان يتهرب من المناقشة ، ولا يعير ما اقوله له اقل اهتمام ، الى ان فرجها الله ، واقتنع بالذهاب الى الريو دي جانيرو . كنا ونحن في طريقنا الى تلك المدينة لا نكف عن الجدل ، فنحن على حد قوله جئنا الى اميركا كي نرفه عن انفسنا ، وما ان وجد اصدقاء يفهمونه ، ويلعبون معه البلياردو ، والطاولة حتى ارغمته على مفارقتهم ونسي او تناسى انه اقتحم حياتي من جديد ، وفصلني عن الرجل الكريم الذي كنت اعيش في كنفه ، آمنة يومي وغير مبالية بغدي . نسي انه فعل كل ذلك في سبيل نجاح تلك الرحلة ، التي يريدها اليوم ان تكون رحلة كيف ، وانشراح . ولكن ما ان وصلنا الى الريو ، وشاهد المناظر البحرية الواسعة والجبال الشامخة ، ولمس نظافة تلك المدينة وتجول في شوارعها ومنتزهاتها حتى نسي سان باولو ومن فيها . كان قد حضر لاستقبالنا افراد من الجالية ، اصطحبونا الى الفندق ، حيث كانوا قد اعدوا لنا وليمة عشاء ، كما سبق وفعل مواطنوهم في سان باولو . وحجزوا لنا ،

بكل جهد ، خمس ليال في احد مسارح المدينة ، وهكذا ارغمنا على البدء بتجهيز انفسنا بسرعة الى ان حان موعد الحفـلة الاولى . كان المسرح كبيراً جداً وبالرغم من ذلك ضاق بمن اقبل ليشاهدنا من العرب القاطنين في تلك البلاد . وحدث لنجيب في الريو كما سبق ان حدث له في سان باولو ، اذ انه لم يعد يقتنع بالرحيل مهما اوردت له من الحجج المقنعة . وكان هناك من ينتظرنا في بيونس ايرس ، ويلح في استدعائنا ، ولكن الاستاذ في عـالم آخر . وليس بامكانـه ان يقدر موقفنـا ، الى ان هددته يوماً بانه اذا لم يذعن للذهاب الى بيونس ايرس فأننا سنعود الى مصر مباشرة دون ان نكمل الرحلة . وهكذا اقنعته بترك الريو واخـذنا الباخرة التي كانت ستقلنا الى حيث نقصد بعد ان نمر على منتيفيديو هي الاخرى اخذت بلب نجيب ، فاعتراه حماس غريب لجمال تلك المدينة ، حيث لم نعدم من يستقبلنا ، ويحتفي بنا كما حدث لنا في المدن التي سبق وزرناها . وفي اليوم الثاني لوصولنا اصطحبنا اصدقاؤنا في زيارة للمدينة ولكن نجيب افرط في الشرب ، والتدخـين وكان عليـه ان ينام با كراً ليأخذ قسطه من الراحة قبل الفحص الطبي . غير انه على عادته لم يعر احد ناصحيه اهتماماً ، واهمل ان يقطر في عينيه الدواء الذي اعطوه اياه كي لا يجد الطبيب في عينيه اثراً للتراخوما ، فيمنعه من السفر الى بيونس ايرس . اجتزنا انا ، وجوليت ، وفريـد صبري الفحص الطـبي دون صعوبة ، الى ان نودي على نجيب فذهب ولم يعد . وكانوا اذا ما نجح المسافر في الكشف الطبي ، ولم يعثروا على اثر للتراخوما في عينيه سألوه عن امتعته ، وسلموها لحمال يضعها لتوه في الباخرة . امـا الذي كانوا يمنعونه من الدخول ، فكانوا يوقفونه جانباً بعيداً عن سائر المسافرين . كنت اجهل سبب هذه التدابير ، وعندما استبطأت نجيب ، ومحمود حانت مني التفاتة اليهما فوجدتهما يقفان لوحدهما . فاستوضحت من احد الذين رافقونا الى الباخرة عن سبب تصرفهما هذا . فاجابني بأنهم منعوا نجيب

ومحمود من السفر لانهم وجدوا كلا منهما مصاباً بداء التراخوما . فاطمت رأسي ، وهممت بأن الحق بهما ، ولذلك ناديت الحمال ، وطلبت اليه أن يعيد امتعتنا الى رصيف المرفأ ، ولكن الشخص نفسه هدأ روعي وقال لي : « لا بأس عليهما ، فان لدينا طريقة اخرى للسفر . لا تخشي شيئاً فسيلحقان بكم ، ولكن ذلك يتطلب بعض الوقت . اسرعي بعد وصولك الى بيونس ايرس بارسال جواز السفر على العنوان التالي ، لانكما تحملان جوازاً واحداً » . شكرت ذلك الصديق ، وما زلت اشكر جميله الى الآن .

وصلنا الى الارجنتين ، ولم يهنأ لنا عيش الى ان لحق بنا نجيب ، بعد غياب طال مدة عشرين يوماً ، قضى ثمانية منها بانتظار جواز السفر الذي ارسلته له من بيونس ايرس . وكم كان يتمنى ان تمتد تلك الايام ، وتطول اذ انه كان في ضيافة كريمة انسته ما عليه من واجبات . وبعد ان اجتمع شملنا في عاصمة الارجنتين شئت ان اعرف ما الذي حمل نجيب ومحمود التوني على المكوث في منتيفيديو كل هذه المدة ، فلم أر بداً من استدراج محمود الى الحديث . فقال لي :

ـ اننا لم نأسف على منعهم لنا من ركوب الباخرة ، لانهم بذلك اتاحوا لنا فرصة القيام برحلة لطيفة جداً ، كنا سنحرم منها لو اننا جئنا برفقتكم عن طريق البحر . فبعد ان ودعنا اصدقاءنا في منتيفيديو ، وشكرناهم على كرمهم ، وحسن ضيافتهم ، اخذنا نتنقل من بلد لآخر ، وقد وقعت لنا اثناء تجوالنا حادثه طريفة ، ومضحكة في نفس الوقت . فقد صحوت في احد الايام باكراً ، وأردت ان استنشق نسيم الصباح ، فتحت النافذة لاجد نفسي في البحر . راعني منظر المياه تحيط بنا من كل جانب . ونظرت الى نجيب فوجدته ما زال غارقاً في نوم عميق ، وكان صوت شخيره يعلو على هدير الموج . وقفت اتذكر ، واعصر دماغي علني اجد سبباً لما نحن فيه ، ولكني لسوء الحظ لم اوفق ، فكدت اشد شعري من حيرتي ، وقلقي . وطار ما تبقى من عقلي عندما رأيت ان

قاطـــع التذاكر الذي كان معنا في المساء لم يتغير . خرجت أعدو في الممرات علني اكتشف حلاً للغز الذي كنت أتخبط فيـــه . وعدت من جولتي بخفي حنين ، لأنني وجدت اننا ما زلنا في قطار المساء . فأسرعت أشد نجيب من كتفه : « قل لي نحن في البحر أم على البر ؟ » فزمجر : « اتركني عايز أنام » . مر قاطع التذاكر من أمامي فهرولت وراءه علّه يفيدني . وبعد ان ترغل الرجل بالاسبانية ، وتمتمت انا بالعربية . عدت ثانية الى نجيب ، فشخر بوجهي ، وحاول ان يعود الى النوم ، فشددته من يده ، ورفعته الى النافذة وقلت له :

— قوم شوف نحنا صرنا فين !

وما ان شاهد المياه تحيط بنا حتى خبط على رأسه وقال : « يا خبر اسود ، رحنا يا واد يا محمود . اذا غرقنا ولا نعرفش نعوم لا انا ولا انت كيف العمل ؟ »

نهض نجيب لتوه واخذ يتفرس بالجدران ، وتابع بانفعال : « الغرفـــة هي هي لم تتغير ، وكيف اذن انتقلت بنا هذه الغرفة اللعينة من البر الى البحر ؟ »

ثم ارتدينا ثيابنا بسرعة ، وخرجنا الى الممر كي نسأل اين نحن وماذا حل بنا . ولكننا لم نتابع سيرنا ، بل تسمرنا امام باب الغرفة ، وتذكرنا فجأة اننا في الليلة الماضية شربنا كونياك ، الى ان تعتعنا السكر ، كما اجهزنا على ما كان قد تبقى معنا من مصر من سجائر الكيف . وغرقنا في ضحك هادر ، فتجمع حولنا الركاب ينظرون الينا بدهشـــة ويضحكون لمنظرنا الغريب . وفيما نحن على هذه الحال اذا بنا نسمع دوياً هائلاً ، فنظرنا امامنا ، واذا بنا قد انتقلنا هذه المرة من البحر الى البر ، وعندما دققنا النظر فيما حولنا انحل اللغز واكتشفنا ان القطار كان سائراً على عوامة **(Ferry boat)** قطعت بنا نهر الريو لابلاتا اي النهر الفضي . ولم نفق من ذهولنا الى ان اقبل مساء ذلك النهار .

«... عندما لممنا شملنا من جديد ، بحثنا عن مسرح نعمل عليه . وسرعان ما وفقنا في بحثنا وقدمنا عشر حفلات متتالية نالت استحساناً كبيراً في اوساط المهاجرين العرب . كنت وانا في الارجنتين استعيد ذكرى السنوات الست التي قضيتها مع والدتي وشقيقتي في تلك البلاد ، وما عتمت ان تذكرت اللغة الاسبانية التي تعلمتها في صغري . اردت ان ازور المدرسة التي نشأت فيها والمنزل الذي كانت تقطنه شقيقتي نظلة مدة اقامتها في الارجنتين . كما قصدت الى ضاحية فلوريس اتفقد المنزل الذي امضيت فيه سنوات الهجرة المريرة . وكان لذلك المنزل اثر كبير في حياتي ، اذ كانت تملكه سيدة تهوى تربية الحيوانات وتتقنها اتقاناً كبيراً . وهكذا أحاطت بمنزلنا المتواضع مزرعة يكثر فيها البقر والدجاج . كما كانت توزع عنايتها بينها وبين الوان عديدة من الازهار الجميلة . وكانت اول من علمني فن الاعتناء بتلك المخلوقات الاليفة ، اذ كانت تناديني كي اساعدها في حلب البقر ، وكثيراً ما كانت تعهد الي بحلبها ، كما كنت احب ان أطعم الدجاج بيدي .

ومنذ ان كنت أقف يتيمة صغيرة ومشردة بائسة ، اراقب السيدة اليونانية وهي تتنقل في مزرعتها وانا احلم بحياة بسيطة هانئة آنس فيها الى تلك الحيوانات الوديعة ، حلمت بذلك الى ان حقق الله حلمي ، وشكراً له !

بعد انتهائنا من الحفلات العشر التي كنا قد تعاقدنا عليها مع اصحاب المسرح ، انصرفنا الى احياء الليالي الملاح في الاندية والضواحي التي توجد فيها جاليات عربية .

واتفق ان احتفلت بيونس ايرس بعيد الكرنفال اثناء اقامتنا فى عاصمة الارجنتين ، واتيحت لنا فرصة مشاهدة الطريقة التي يحيون فيها ذلك العيد. والكرنفال في الارجنتين عيد يرحب به الجميع ، من اغنياء وفقراء ، من شيوخ وشبان ، من فتيات وفتيان ، إلا ان كلا من هؤلاء يحتفل به على طريقته الخاصة وكيف ما بدا له . كما ترتفع بهذه المناسبة الحواجز بين مختلف الطبقات ، ولعله العيد الوحيد الذي لا غني فيه ولا فقير ، اذ يباح

للجميع أن يتصرفوا على هواهم حتى ولو كانت تصرفاتهم غريبة في أكثر الاحيان . كنت ترى المدينة وكأنما اعتراها مس ، فالطرقات تغص بالمعيدين بثيابهم الغريبة ، يغنون ويرقصون يهزجون ويتشابكون . واذا ما اتفق لاحد المـــارة ان اسرع امامهم غير متنكر ، ولو بطرطور على رأسه ، رموه بالكونفتي وبالبالونات المملوءة بالماء ، ثم يلحقون به ويجبرونه على ان يصعد معهم الى احدى عرباتهم . ولم يمكني امام هذه المشاهد الا ان اشاركهم بالعيد ، فأسرعت أستأجر عربة زينتها بأجمل الألوان ، وارتدينا ملابس التمثيل على سبيل التنكر . فاعتمر نجيب بالذقن والجبة والقفطان ، وألبست جولييت ثياب اطفال بيت لحم كما ارتديت بدوري حلة غانية من غواني قصص ألف ليلة وليلة ، اما محمود وفريد فكان كل منهما فلاحاً مصرياً لا يخلو من الظرف .

ما كدنا نظهر في الطريق العام ، حتى عرفنا كل من رآنا ، وكانوا قد شاهدوا صورنا ، وقرأوا عنا الكثير في صحفهم . فتجمعوا حول عربتنا ، واخذوا يهتفون لنا « كالملحوسين » لغرابة منظرنا بالنسبة لهم ولاننا نشاركهم في احتفالهم بالعيد . كنا قد أكثرنا من الكونفتي والسربابنتين ، غير انها نفذت منا بسرعة لكثرة ما رمينا بها من حولنا من المصفقين والهاتفين . وكانوا ما ان يشعروا انها نفدت منا حتى يأتونا بغيرها ، الى ان طفنا أكثر شوارع المدينة . وعند انتهاء الاحتفال خصونا بالجائزة الاولى ، وكانت عبارة عن تمثال صغير لسيدة جميلة يرمزون بها الى الحرية . كنت افاخر بهذا التمثال واحتفظ به ، الى ان اجريت آخر مزاد قبل مغادرتي مصر ، فسرق من المنزل اثناء البيع ولم ألحظ اختفاءه لكثرة من دخل منزلي في ذلك النهار .

كانت هذه الحادثة على هامش حياتي مع نجيب ، اذ اننا كنا قد عدنا الى الخصام والنقاش ، ولم نعد نتفاهم على شيء . وبعد ان انهينا عمل الفرقة وراجعنا دخلنا من هذه الرحلة تبين لي انه لم يعد لدينا الا ما يكاد يوصلنا الى باريس او مرسيليا . هالني ان نكون قد طفنا كل هذه البلدان،

وان نكون قد تكبدنا مشقات السفر واقدمنا على مغامرات لم نكن ندرك نتائجها ، لنعود الى مصر صفر اليدين . وكم كنا نعلق من آمال واسعة على هذه الرحلة بالذات ! لم أكن أتوقع هذه النتيجة عندما هجرت منزلي وعدت الى الريحاني رغم ما كنت اعلمه من طباعه الغريبة . لم أكن اتوقع هذه النتيجة عندما كان يحدثني عن مشاريعه وعن الربح الذي سنجنيه في اميركا ، وعندما كان يعدني بأنه سيقبل على العمل اقبالا جدياً . لم أكن اعلم يومها انه كان يغدق لي تلك الوعود لا لشيء الا ليقنعني بالعودة اليه لارافقه في رحلته تلك . وها هو الآن يخاصمني ويستعديني عندما انصحه أو ألفت انتباهه الى طريقة للعمل أجدى وأنفع من تلك التي كان يتبعها . كنا نعمل بضع حفلات في احدى المدن الكبرى ، ثم يعطي نجيب نفسه اجازة طويلة لا تنتهي إلا بانتهاء ما دخل صندوقنا من دراهم.. لم يحفل بالسبل المفتوحة امامنا ، والتي لو سلكناها لجمعنا ثروة او على الاقل لكنا عدنا بنتيجة ما ، بعد التعب والتشرد من بلد لآخر . اعتبر رحلتنا تلك رحلة استجمام وكأنه ثري كبير من اصحاب الملايين . كان يأبى علينا ان نعمل في الضواحي او حتى أن نخرج من العواصم الى المدن الاخرى . بذلت له النصح مخلصة في بادىء الامر ، ولكني عندما رأيته يضيق بما أقول ، ولا يعمل الا ما يحلو له ، عدلت عن نصحه واقتنعت بما كنا فيه .

ولم يشأ القدر الساخر ان يدعني ابرح المدينة التي عشت فيها فقيرة صغيرة ويتيمة ضعيفة ، بيونس ايرس التي تشتت منها اشقائي ، لم يشأ ذلك القدر ان يتركني اغادرها دون ان التقي احدهم ولو لاخر مرة . ففي اواخر ايامنا في الارجنتين وقبل ان نشد الرحال الى فرنسا ، كنت اسير برفقة جوليت ونجيب في احد الشوارع الرئيسية ، اذا بي وجهاً لوجه امام شقيقي اسعد . اذهلتني المفاجأة ، جددت النظر ، حدقت فيه تحديق المستغرب المذهول فاذا به هو بلحمه ودمه . ولم يكن اقل مني اضطراباً

لهذه الصدفة الغريبة بل فغر فاه بدهشة ، غير انه لم يبد عليه الارتياح للقائي بل طرح علي السلام وكأني لم افارقـه الا منذ دقائق معدودة . اما انا فاتجهت نحوه بلهفة وشوق ، وكنت لم اره منذ تركني مع والدتي وسافر الى أثينا ، حيث تزوج فتاة يونانية ارسل لنا صورتهما معاً ، ولم نعد نعلم عنه شيئاً . ووقفت انظر اليه وانا لا اصدق عيني ، واستدراكاً مني لحراجة الموقف ، خرجت عن صمتي وعرفته على « زوجي الفنان نجيب الريحاني » . فقال لنجيب بدون اكتراث :

— اعذرني يا استاذ انني لم اعرف شقيقتي لاول وهلة ، لانني لم التق بها منذ سنوات طويلة . تركتها طفلة صغيرة وها هي صبية حلوة ، لم اتمكن من ان اتذكرها في بادىء الامر ...

فقاطعته عاتبة :

— ولو ، نحن هنا منذ ثلاثة اشهر ، لم يبق احد من العرب ولا حتى من الارجنتين الا وسمع بنا او قرأ عنا في الصحف او شاهـدنا نمثل ، ومع ذلك لم يلفت انتباهك اسمي ، ولم تتذكر انه كان لك شقيقة تدعى بهذا الاسم ؟

فارتبك ولم يدر بما يجيب ، واراد ان يعوض عما فاته ، فأمسك بنجيب وألح علينا بان نرافقه نحن الثلاثة الى منزله ، كي نتناول طعام الغداء برفقة زوجته . قبلنا دعوتـه وذهبنا معاً الى منزله ، وكم استغربت ان يكون لا يزال يعيش في بيت متواضع بعد كل تلك السنين التي قضاها في العمل . فسألته عن سبب ذلك قائلة :

— التقيت عدداً كبيراً من اولاد العرب المقيمين هنا ، وقد اصبح معظمهم يعد من الاثرياء ، ولكنني اراك على ما كنت عليه مع انك ذكي وحربوق..

— نعم لقد تجمعت لدي ثروة كبيرة ثم تبخرت في مضاربات تجارية غير موفقة . وبعدها عملت ونجحت وتجمعت لدي ثروة ثانية ، غير انها ضاعت مني ولم تذهب وحدها هذه المرة بل اصطحبت معها زوجتي الاولى

واولادي منها . كنا عائدين معاً الى الارجنتين ، غـير ان الباخرة التي كانت تقلنا غرقت وغرق معها الركاب والبحارة ، ولم ينج منهم سوى سبعة ركاب كنت من بينهم مع ثلاثة بحارة . وهكذا اضعت ثروتي وزوجتي واولادي . ثم تزوجت للمرة الثانية منذ ست سنوات وعاودت العمل من جديد ، وللآن لم اوفق الى شيء . هذه قصتي بحذافيرها !..

حزنت على سوء طالعه وقلت في نفسي « قدر » .

ثم عاد شقيقي الى الحديث ليسألني بدوره عن مصير جميـع افراد العائلة . فرويت له ما حدث لنا من تشرد وفقر ومهانـة ، وكيف اننا تفرقنا ولم يعد الواحد منا يعرف شيئاً عن الآخر ، كما اخبرته بوفاة والدتي وزوج شقيقتي نظلة . وكأنه لم يعد يقوى على الصمت ، فسألني بتمهل :

ـ ولماذا اقترنت بممثل ؟

لم اكتم ثورتي بل زعقت بوجهه قائلة :

ـ ولم لا اقترن بممثل ، ألأنني عشت في كنف عائلة اعتنت بي وحمتني من الشرور والالسنة ، ام لسمعتنا الطيبة في الشام ، ام مـاذا ؟ أنسيت ما حدث لي قبل ان اتجاوز سن السابعة ، أنسيت كيف هجرنا كل منكم وتركني طفلة مع والدتي العجوز في بلاد لا نعرف فيها احداً ؟ عدنا الى بلادنا هرباً من الغربة والوحدة لنقاسي هناك غربة اقسى ووحدة أمر . لسعتنا ألسنة الناس وسخريتهم ، فلجأت الى الرقص والغناء كي اتقي بهما الجوع . قـد لا اكون عرفت خشبات المسرح اطلاقاً لو تسنى لي من يعتني بي ويدافع عني ويحميني من الجوع والفقر . ! لماذا تزوجت ممثلاً ؟ أتعتقد انك خير منه ؟ لقد فهمت الآن لمـاذا تظاهرت بانك لم تعرفني عندما التقيت بك . لقد خجلت من ان يقال ان شقيقتك فنانة ، ولكنك لم تخجل من ان تترك تلك الشقيقة عرضة للجوع والمرض !

وافترقنا . وكان هذا آخر لقاء لي مع اشقائي !

عندما استحال علينا ان نتفق على رأي ما يتعلق بعملنا معاً ، ولما اعيتني

الحيلة في اقناع نجيب بان يقلع عما كان عليه من اللامبالاة ، قررت بالاتفاق معه على ان نفترق في بيونس ايرس نفسها . غير اننا كنا نحمل جواز سفر معاً الى مصر شئنا ام أبينا ، الامر الذي حمل نجيب على ان يتعنت في موقفه قائلاً : « انني خلقت هكذا وليس بامكاني ان اغير طباعي كي اروق لك . انت تحبين المال وتبحثين عنه في كل ما تفعلين ، بينما انا لا اكترث للارباح ، وافضل الحياة البوهيمية على الحياة الرتيبة المتشابهة . .

– طيب يا حضرة البوهيمي المحترم ، علينا الآن ان نبرح الارجنتين الى مصر ، وفي نيتك ان تمر على باريس في طريق عودتنا ، فأرجوك ان تتدبر امر النفقات .

– اسمعي يا بديعة . لا يمكننا الا ان نعود الى مصر عن طريق باريس او عن أي طريق آخر ، لأننا نحمل جوازاً واحداً . ولن يسهل امورنا لا النقاش ولا العناد . دعينا نغادر هذه البلاد بسلام ، وفي فرنسا نتدبر امرنا .

لم يخف علي ما كان يبيته لي نجيب ، اذ كان يأمل اثناء الطريق الطويل الذي سنقطعه من الارجنتين الى فرنسا ، ان يتسنى له ان يداورني ويطيب خاطري ، فتعود علاقتنا الى ما كانت عليه ، واقتنع بأن نعود معاً الى مصر . وتلك كانت عادته منذ اول يوم عرفته .

كثيراً ما كنت اذكره اثناء سفراتنا بالمثل المصري القائل : « القامة مصقولة والجيبة ما فيها فولة » . كانت تبدو عليه مظاهر الوجاهة وهو خالي الوفاض ، قد لا يملك ما ينفقه في نهاره ، ومع ذلك كان يصر على ان لا نسافر الا في الدرجة الاولى ، بالرغم مما كان يتطلب ذلك من نفقات إضافية .

وأخيراً أقلعت بنا الباخرة متجهة الى الشواطىء الفرنسية في رحلة جميلة ، ساعد صفاء الجو على ان نتمتع بها براحة وسرور . لم نعد عن نفس الطريق الذي سلكناه يوم اتجهنا الى اميركا ، بل شاهدنا عدة مدن لم نكن نعرفها بعد كمديرا وبرشلونة ومرسيليا . غادرنا مرسيليا الى باريس بعد ان أرشدنا بعض ركاب الباخرة الى فندق « مش بطال »

في العاصمة الفرنسية . وهناك التقينا احد اصدقاء نجيب – وما كان أكثرهم – يدعى مظلوم بك . كان مظلوم بك قد بلغ من العمر عتيه ، غير انـــه كان لا يزال يحب الحياة ، بجبوحاً كريماً ، كما كان يستطيب جداً رفقة نجيب ويرتاح الى مرحه ونكاته . فلم يدع مكاناً في باريس الا ورافقنا اليه من علب الليل . الى المنتزهات ، الى الحدائق العامة ، الى المسارح ، والى كل مكان يجب على زائر باريس ان يراه . لم يدعنا ننفـــق مليماً واحداً ، وعلى كل حال لم يكن في جيب نجيب حتى ولا مليم واحد . والأدهى انه لم يكن يعير واقعه هذا أي اهتمام . اذ كان يعلم ان لي رصيداً في البنك يمكنني ان أطاله ساعة أشاء . ولهذا السبب لم يكلف نفسه عناء البحث عن حل لورطته ، بل كان علي انا ان أتدبر امرنا نحن الثلاثة .

وباريس ١٩٢٥ غير باريس اليوم . لم يكن فيها هـــذا الغلاء الذي يشكو منه زائرها اليوم ، اذ كانت اسعار الحاجيات فيها رخيصة جداً بالنسبة لسواها من المدن الكبيرة ، على ما كانت عليه هذه الاشياء من حلاوة وجودة . وكان في نيتي منذ ان قررت ان انفصل عن نجيب ، ان اتخذ لنفسي منزلاً وان أتدبر أمر فرشه بنفسي . وتبين لي اثناء اقامتنا في العاصمة الفرنسية ، ان البياضات والفضية وكل ما احتاج اليه يباع باسعار أين منها أسعار مصر ! وكان الغريب عن البلاد يستفيد من معاملة خاصة اذ كانوا يعفونه من الرسوم الجمركية ويرسلون مشترياته على مسؤوليتهم الى حيث يشاء . فخطر لي ان استفيد من هذه الفرصة التي قـــد لا تتسنى لي مرة ثانية ، وقررت ان أحصل على كل ما كان يمكنني شراؤه من باريس . وافقني نجيب على فكرتي هذه ، وخرجنا من الفندق معاً وبرفقـــة جولييت ، واخذنا سيارة اجرة استدعاها لنا بواب الفندق ، واتجهنا الى مصرف الكريدي ليوني . ونحن في طريقنـــا الى المصرف ، مررنا على محل لبيع آلات التصوير ، فما كادت جوليت تراها حتى أخذت ترجوني بأن اشتري لهـــا واحدة منها . لم أشأ ان تعود ابنتي من تلك

الرحلة البعيدة بدون ذكر جميل تحتفظ به . فنزلت عند رغبتها وأهديتها آلة تصوير جميلة ، وتابعنا طريقنا الى المصرف . لم نحتفظ بالسيارة التي أقلتنا لاعتقادنا بأن المعاملة ستتطلب وقتاً طويلاً . وبعـــد ان اهتدينا الى الموظف الذي يمكنه ان يمدنا بالمال المعهود الى فرعهم في مصر ، أسرعنا الى شباك ذلك الموظف نطلعه على ما نريد . فرحب بنا وطلب مني ان أعطيه جواز سفرنا .

كانت جوليت قد احتفظت بالشنطة طول الطريق . نظرت اليها أسألها عنهـــا ، فاعتراها الوجوم وزاغت عيناها ، وأخذت ترتعد من الخوف ، فكررت قولي لها :

– جوليت ! اين الشنطة ؟

فأجهشت بالبكاء وأخذت تلطم خديها . فتدخل نجيب يسألها بلطف :

– مالك يا جوليت ؟ اين الشنطة ؟

فأجابته وهي ما زالت ترتعد ولا تقوى على الكلام :

– يظهر اني نسيتها في السيارة او في المحل الذي أخذت منه آلة التصوير .

فلم أعد أعي ما أسمع ، وخيل الي ان مطرقـــة من حديد هوت على رأسي فجـــأة وهرولت الى الخارج . جلست على إحدى درجات السلم والدموع تكاد تنفجر من عيني ، اذ انني كنت احتفظ في تلك الشنطة بكل ما أملك من مصاغ واوراق مالية ، عدا عن جواز سفرنا نحن الثلاثة .

... اسودت الدنيا في نظري عندما تأكدت مـن ضياع الحقيبة التي كنت قد اودعتها كل ما املك ، ولم اعـــد اقوى على حبس الدموع المنهمرة من عيني . نظر الي نجيب مرتاعاً لحالتي المحزنة والمضحكة في آن واحد معاً ، غير انه لم يفقد اعصابه مثلي ، بـــل اسرع يسأل موظف البنك عن الاجراءات التي يجب اتباعها في حالة كهذه . فارشده الى مقر البوليس الموكلة اليه مهمة البحث عن الاشياء الضائعة ، وتدحرجنا نحن الثلاثة على سلم المصرف كي نستقل سيارة تنقلنا الى مقر البوليس . كنـا

نجري وكأننا نسير على الجمر لا تقوى اقدامنـــا على الوقوف دقيقتين في نفس المكان ، الا اننـــا لم نتمكن من ركوب اية سيارة . كنـــا نشير الى السائقين كي يقفوا لنا ، دون ان يأبهوا لاشاراتنا الهستيرية . لم نكن ندري سبب مقاطعة السواقين لنا - والغريب اعمى - الا عندما سألنـــا احد المارة ، فاجابنا بان سيارات الاجرة في باريس تتوقف عن العمل منذ الساعة الثانيـــة عشرة الى الواحدة بعد الظهر . وهكـــذا اضطررنا الى ان نلوذ بالصـــبر الى ان مضت تلك الساعة وكأنهـــا جيل . وفي الواحدة تماماً تسنت لنـــا سيارة اقلتنا الى دائرة البوليس حيث روينـــا ما حصل لنـــا . دون كاتب الدائرة كل التفاصيل التي اوردناهـــا له ، وقال لنا :

- اذا كان السائق الذي نقلكم الى المصرف « ابن حلال » فسيبحث عنكم ليعيد اليكم الحقيبة ، واذا ما تعذر عليه وجودكم فانه سيعهـد بها الينا ونحن نسلمها لكم .

وكأن كلام رجل البوليس المنطقي اعاد الي شيئـــاً مـــن صوابي ، فتذكرت فجأه ان بواب الفندق هو الذي احضر لنا السيارة . وما ان تحققت من ذلك حتى خرجت من المخفر مهرولة نحو الشارع الذي يقع فيه الفندق . فذهل نجيب لتصرفي هذا ، ولكنه لم يبد اية ملاحظة بل هرول بدوره علّه يلحق بي ، بينما جولييت تقفز وراءه علهـــا تلحق بنا نحـــن الاثنين ...

وصلت الى باب الفندق وانا الهث من التعب ، وسألت عن البواب فقيل لي انه غائب الان ولكنه سيحضر بعد قليل . لم انتظر عودته بل تسلقت السلم قبل هبوط المصعد ، وكان نجيب ما زال يركض دون ان يدري لركضه سبباً ، وجولييت تسرع خلفه تستبق ببكائها « العلقة » التي كانت تنتظرها . وما ان سمع كاتب الفندق وقع اقدامنا حتى اسرع يناديني :

– مدام ريحاني ؟

فزعقت بوجهه : « نعم ! »

– لقد حضر الى هنا اثناء غيابكم السائق الذي نقلكم بسيارته الى البنك ، وترك لكم هذه البطاقة وهو يرجوكم ان توافوه الى منزله .

انتزعت البطاقة من يده وعدت اتدحرج على السلم من جديد ، يتبعني نجيب وخلفه جوليت ، ولكننا في هذه المرة كنا نقفز من الفرح . اخذ نجيب البطاقة من يدي التي كانت ترتجف من فرط التأثر ، واحتضنني برفق وقال :

– اطمئني ان الحقيبة سليمة وهي ما زالت في حوزة السائق وهو يدعونا الى منزله على العنوان المكتوب هنا في البطاقة .

فأسرعنا الى منزل السائق الذي استقبلنا بالترحاب هو وزوجته ، وسلمنا الحقيبة قائلاً :

– انتم محظوظون لانني بعد أن اوصلتكم الى مبنى المصرف ، كانت الساعة قد بلغت الثانية عشرة ، فعدت من توي الى منزلي . وعندما فتحت السيارة كي انظفها ، عثرت في داخلها على الحقيبة ، وتبين لي من جواز السفر الذي وجدته فيها انها لكم » .

فتحت الحقيبة بلهفة كي اتأكد من انني لم افقد شيئاً من مصاغي او من الاوراق المالية التي كنت قد أودعتها فيها . فاقتربت مني زوجة السائق ، وربتت على كتفي برفق وهي تقول :

– لا تخشي شيئاً فهي ما زالت كما تركتها على مقعد السيارة !

امسكت بها وانهلت عليها تقبيلا ، ودموع الفرح تختلط بعبارات الشكر . فتحت الحقيبة مرة ثانية وقلت لزوجة السائق :

– هذا مصاغي امامك ، انتقي منه ما يحلو لك وهذا اعتراف مني بأمانتك انت وزوجك .

رفضت ان تمس شيئاً ، واستغربت رفضها بالرغم من اغراء القطع الجميلة التي عرضتها امامها . فقال لي نجيب بالعربية :

ـ قد تكون تطمع في أكثر من قطعة صيغة » . ثم توجه اليها وسألها بالفرنسية عما تبغيه منا لقاء امانتها . فعاودت رفضها ، وعندما يئست من ارضائها قلت لها :

ـ لنعرض هذه الاشياء على خبير ثم اعطيك عشرة بالمئة من ثمنها ، مع العلم بأن هذا حلال لك ولزوجك .

فابتسمت وقالت بعد طول صمت :

ـ انني وزوجي لسنا بحاجة الى مال كثير إذ اننـــا لم نرزق بأولاد ، ولست ادري لماذا نقبل بمكافأة على عمل طبيعي كهذا . لقد اعدنا الامانة الى اصحابها وهذا اقل ما علينا ان نفعله . فلا تتعبي نفسك عبثاً ، اذ اننا لن نقبل شيئاً على الاطلاق . انها ليست المرة الاولى التي نعثر فيهـــا على شيء نسيه الركاب ، وكنا دائماً نعيده الى اصحابه ، ولم يحدث ان قبلنا أية مكافأة عن عمل نعتبره طبيعياً !

أذهلتني أمانة السائق وعزة نفس زوجته ، خرجت من منزلها المتواضع وانا أتساءل : لماذا يشنع البعض على الفرنسيين ويتهمهم بالجشع وباساءة معاملة الغريب المقيم في بلدهم ، لانني كنت قد سمعت الكثيرين ممن سبقت لهم زيارة فرنسا ، يتحدثون عن المضايقات التي كانت تحصل لهم في تلك البلاد ، وبنوع خاص في العاصمة باريس . وأدركت بعد حادثتي انه من التجني على شعب ان يؤخذ بمآخذ احد افراده ، وان تلصق به وصمات قد يكون براء من أكثرها . تركت السائق وزوجته لأتجول في اسواق باريس الجميلة ، اشتريت ما طاب لي شراؤه وما وجدت نفسي بحاجة اليه لتأسيس منزلي الجديد ، وذلك دون ان اناقش في الاسعار التي كان يطلبهـــا مني التجار ، لاعتقادي ان جميع سكان فرنسا يتحلون بأمانـــة سائق السيارة

الذي ترفع عن ان يمس ثروة هبطت عليه من السماء .

* * *

بعد مضي شهر على هذه الحادثة ، وبعد ان تعب نجيب من التجوال في الشوارع وزيارة المتاحف في النهار ، ومن ارتياد المسارح والملاهي في الليل ، عرضت عليه ان نعود الى مصر ليتاح لي استلام ما كنت قد اشتريته في باريس . غير انه على عادته تبرم باقتراحي وقال لي بحدة :

ـ كنت دائماً احلم بزيارة باريس ولم اكن اتوقع ان يتحقق حلمي ، وتريدينني ان اتبعك الى مصر قبل ان اشاهد كل ما في باريس واتمتع بجمالاتها . كلا لن ارافقك ، واذا كنت مصرة على مغادرة فرنسا فما عليك الا ان تذهبي بمفردك ...

ـ يا ليتني اتمكن من العودة بمفردي ، ولكننا لسوء الحظ نحمل جواز سفر واحد وعلي ان اتحملك الى ان نصل الى مصر وبعدها .. الله اعلم !

فضحك بلا مبالاة ، وقال مازحاً :

ـ طيب يا ستي حقك علي ... ولكن اعطني اسبوعاً آخر ، ومن يدري ، قد اموت قبل ان تتسنى لي زيارة باريس مرة ثانية ..

فرضخت لمشيئته ، تلك المشيئة التي كنت ما ان أثور عليها حتى اعود واقبل باحكامها حتى ولو تنافت مع مصلحتي الشخصية . وبعد انقضاء اسبوع على هذه المناقشة ، ابحرنا على متن الشامبوليون وسط رهط كبير من المصريين العائدين من المصايف الاوروبية . كانت سفرة جميلة قضيناها بين سهر وسمر وضوء قمر ، وكنا اثناءها نستعد لمقابلة الصحفيين وجعلهم يعتقدون اننا عائدون من رحلة ناجحة . كما رجاني نجيب ان اكتم خبر خلافنا ، وطلب مني ملحاً بأن انسى كل ما بدر منه اثناء السفر . واكد لي بأنه قد اختبر الكسل والاهمال واللامبالاة ، وانه سيقلع عنها جميعها لينكب على العمل كما لم يفعل من قبل . ثم اضاف ليؤكد

لي حسن نيته ، انه سبق له ان وعدني بالمثابرة على الانتاج ولم يف بوعده الا ان هذه المرة تختلف عما سبقها ، لانني احسنت معاملته ولم اتردد في الانفاق عليه ، ولا يسعه الان الا ان يفيني جميلي .

كنت من جهتي قد اعتدت وعود نجيب والفت جحوده السريع لهذه الوعود وعدم اكتراثه بها . كما كنت اعلم انه كان يعني ما يقول ، الا انه لم يكن يقوى على مقاومة اغراء السهر مع اصدقـائه ، واضاعـة الوقت برفقتهم في رواية النكات وتدخين اللفـائف والاستسلام للكيف والانشراح . فلم احفل هذه المرة بوعوده ، بل اجبتـه انني مـا زلت زوجته وكل ما ارجوه ان نظل معاً ، لكنني سأقيم في بيتي ، فان عمل وحافظ على علاقتنا فاهلا به وسهلا ، واذا ما تعذر عليه ذلك فما عليه الا ان يرحل عن ذلك المنزل .

وصلنا الاسكندرية على حين غرة ولم نكن قد اتصلنا باصـدقائنا في مصر . وبعد اسبوع من اقامتنا في تلك المدينة ، انتشر خبر عودتنا من اميركا . فتوافد علينا المعجبون حتى الاسكندرية ليأخذوا صوراً ومعلومات عن رحلتنا . اما القاهرة فكانت المحطة تموج بالجماهير التي جاءت ترحب بنا ، من فنانين وصحفيين ومصورين ، ومن الذين اعتادوا ارتياد المسارح التي كنا نعمل عليها . اما نجيب فكانت عيناه لا تفارقاني دقيقة واحدة ، اذ كان اخشى ما يخشاه هو ان اروي ما حدث لنا اثناء تجوالنا في البلدان الاميركية ، وان ابوح باننا بعد غياب سنة كاملة عدنا من بلاد الذهب ، خالي الوفاض لا نملك مليما واحداً ، حتى ولا نفقات السفر التي كنت قد سحبتها من رصيدي في البنك . غير ان الاخبار التي كان الصحفيون قد استقوها من المصادر الاميركية كانت تقول اننا نجحنا في جولتنـا هناك وجمعنا ثروة لا يستهان بها . وكانت مخيلة الصحفيـين المصريين تعمـل بسرعة ، فيبالغون ويضيفون ارقاماً على ارقـام ، وانا ابتسم في سري واقول : « ... آه لو يعلمون ! »

بعدما استقررنا في منزلنا وعادت حياتنا الى مجراها الطبيعي ، قدم الينا بديع خيري وبقدومه نسي نجيب الوعود وعاد الى ما كان عليه من التسويف والمماطلة . كان جمهوره بعد ان افتقده سنة كاملة ينتظره بلهفة ، بينما هو مشغول عنه بالسهر في الليل والنوم في النهار ، وانا استحثه وانصحه ولكن دون جدوى . الى ان جاء يطلب مني ان اسلفه مبلغاً من المال كي ينفقه على الملابس والمناظر والدعاية الضرورية لاعادة رواية قديمة الى الوجود . لم ارضخ لطلبه ، بل ساءني ان يطلب مني انا الانفاق على روايته ، في حين كان هو يحتفظ برصيده كاملا . فاعتذرت عن تلبية طلبه وذكرته بجميع النفقات التي تكبدتها في فرنسا ، وتركته يتدبر امره بنفسه . خجل من جوابي هذا بعدما عدت اذكره بانني سأضطر الى الانفصال عنه اذا لم يقلع عن حياة الكسل والخمول . فكان قولي هذا حافزاً له على العمل ، واتفق مع متعهد حفلاته علي يوسف ، واستأجرا مسرحاً ، مهملاً لم يكن احد يرغب في ارتياده . اخذ نجيب مسرح « فردي » — وهذا كان اسمه — بالرغم من معارضة اصدقائه ، وكان في عناده وغروره يقول لهم متحديا :

— ان المتفرجين يأتون لمشاهدتي انا وليس لمشاهدة خشبات المسرح ، وانا كفيل باخذ جمهوري الى حيث اريد ! »

وكان مسرح فردي متواضعاً ، لا يليق باسم نجيب الريحاني الفنان الكبير ، وما أكثر ، ما لامه الجميع على اختياره له . لم تشفع له الرواية اذ انها كانت رواية هزلية جداً تدعى « قنصل الوز » ، ومما زاد الطين بلة ان الثياب والديكورات كانت رثة فقيرة . وأشار بعضهم على نجيب بان يستقدم مطربة معروفة ، علها تتمكن من دعم هذا البرنامج الضعيف . ولسوء حظ نجيب جاء بالمطربة فتحية احمد ، التي كانت لا تزال مغمورة لا يعرفها احد . فزادت الحالة بقدومها سوءاً على سوء ! هبط الايراد ، وهجر المتفرجون المسرح ، واصبح شباك التذاكر يتيماً الا من بعض المهووسين

الذين كانوا يلحقون بنجيب اينما ذهب .

وهكذا انقضى ذلك الموسم الذي كان من المفروض ان يكون موسماً ناجحاً ، انقضى بين مسرح متواضع مهجور ورواية هزلية ومطربة مغمورة ، فأنفق نجيب كل ما كان لديه من مال ، وبات يعيش على اعصابه ويثور لأتفه الاسباب . كان يختلق اسباباً للنقاش ، وينغص علي حياتي باستمرار . وكانت حجته في ذلك عدم اخلاصي له . كان يتهمني بالميل الى احد الباشوات الاثرياء المدمنين على حضور حفلاتنا ، مع انني كنت لا ازال احبه ولا اكترث بالجمهور من قريب او بعيد . ولكن اوهام نجيب كانت تزين له ما يريد ، فيدخل على البيت هائجاً مهدداً وكأنني ارتكبت اثماً . احتملت منه هذه المعاملة في بادىء الأمر ، لعلمي انه كان يعاني ازمة نفسية أليمة بسبب الفشل والخسارة . احتملت المناقشة المستمرة والتنغيص الدائم ، علني احافظ على ارتباط الزوجية بيننا ، الى يوم قدم الى البيت برفقة اصدقاء له بعد ان شرب ما طاب له من الويسكي . جاء كعادته ليطلب مني ان اعطيه سلفة كي يجهز بها رواية ، فأجبته على الفور :

– ليس بامكاني ان اعطيك مالاً تعبت في تحصيله كي تنفقه على المسارح والتمثيل ، كما انني عدلت عن العمل معك حتى ولو دفعت لي اجري . علي ان انفق على بيتي وان ادفع اقساط مدرسة ابنتي . ومن اين تريدني ان أتدبر امر معيشتي ؟

هاج وماج ، وناولني صفعة قوية افقدتني صوابي ، وما كان مني عندما رأيته يهم بصفعي للمرة الثانية الا ان اخذت كرسياً كان على مقربة مني ورميته به على رأسه . هرول فاراً من وجهي ، الا انني لحقته بضربة جعلته يقفز عن السلم قفزاً . فأقفلت بابي وراءه وقلت له والدموع تنهمر من عيني :

– انني لن ادعك تدخل هذا المنزل بعد اليوم ، واذا حدثتك نفسك بالعودة الى هنا فلست مسؤولة عما قد يحدث لك !

عدت الى غرفتي ألملم دمعي . انها ليست اول صفعة اتلقاها ، لقد سبق لي ان ذقت أمرّ منها في صغري . انها ليست الصفعة الاولى ولكنها ستكون الاخيرة ، لن ادع مأساة طفولتي تتكرر ، ولم اكن أتشرد واجوع وأتألم وأشقى ، الا كي ادافع عن نفسي ، وارد الكيل كيلين الى كل من تحدثه نفسه بالاساءة الي والنيل من كرامتي .

اسرعت الى أسقف السريان الكاثوليك الذي كان قد بارك زواجنا اروي له ما حدث لي مع نجيب . فابتدرني بالتوبيخ قائلاً :

ـ ان هذا هو شريك حياتك وعليك ان تتحمليه في السراء والضراء وان تطيعيه في كل ما يقول .

ـ سراء ايه وضراء ايه ، هل من العدل ان انقطع عن عملي الذي كان يدر علي ما يقارب الاربعمئة جنيه في الشهر ، كي اعمل مع الريحاني بدون مرتب ، وذلك منذ اكثر من سنتين ، وان انفق عليه من مالي الخاص ما يزيد على الالفي جنيه ؟

استغرب الاسقف كلامي وسألني عن رحلتنا الى اميركا ، وعن الارباح الطائلة التي تحدث عنها الصحفيون . فرويت له ما وقع لنا في تلك الرحلة ، وكيف اننا اخفينا الحقيقة عن الصحف اتقاء منا للفضيحة . فاستنكر تصرف نجيب واتصل به بالتلفون طالباً اليه ان يحضر الى ديوانه في الحال ، ثم رجاني ان اتكلم قبل ان يتحدث الى الريحاني ويدعه يروي الاشياء ، على طريقته . وما ان وصل نجيب حتى بادره الاسقف بالاسئلة ، وكان على سيئاته صريحاً مع ذلك الحبر الكبير ، لا يجرؤ على الكذب حتى ولو كان مذنباً . وعندما فرغ من الكلام سأله :

ـ كيف تسول لك نفسك ان تضرب سيدة رضيت بان تتزوجك وتعمل معك ، فأصبحت تتحمل نزواتك وتنفق عليك ؟

فأجابه بضيق :

ـ آسف لما بدر مني بحقها ولكني كنت منفعلاً لرفضها مساعدتي

ولاتهـــامها لي بأنني لم أتزوجها الا لكي استغلها وامتص تعبها . فثرت وحصل بيننا ما حصل !

لامه الاسقف على سوء معاملته لي ، ولكنه لم يدعنا نغادر ديوانه قبل ان نتصالح ، ونقبل بالعودة الى الحياة معاً . ووعدنا بزيارتنا في المنزل ...

خرجنامن الديوان الاسقفي واتجهنا الى احدى دور السينما علنا نروح عن اعصابنا المرهقة . وبعد انتهاء الفيلم دلفنا على « الباريزيانا » حيث تناول نجيب عشاءه بعد ان شرب قليلاً من الخمر ، ثم عدنا معاً الى منزلنا الذي كان يقع بالقرب من ذلك المطعم ، اذ كنا نقطن في شارع عماد الدين .

كنا نسير جنباً الى جنب دون ان يوجه أحدنا كلمة الى صاحبه . دخلنا المنزل وبتنا ليلتنا تلك ، وكلنا متمسك بالصمت المطبق الى ان جاء موعد زيارة الأسقف لنا ، فحضر مع مرافقيه ، وكان من النباهة بحيث لاحظ اننا لا نزال متخاصمين . فجلس بيننا يروي لنا شؤون الازواج وشجونهم الى ان عاد كل منا الى صوابه . وبعـــد خروج الاسقف من المنزل ، بادرني نجيب بقوله :

- يخلصك كدا يا مدام ريحاني .

- وانا مالي ؟ ما هو الحق عليك !

- لا ، لا ، انك المحقوقة ، ودائماً تدعي ان الحق علي ..

ومن كلمة الى اختها كدنا نعود الى الضرب والهرب . ولكني تلافيت الشر وسكت على مضض .

غير انها كانت هدنة قصيرة . ولم يمر على صلحتنا اسبوع حتى أخذنا نتناقش وتعلو اصواتنا من جديد ، ساءني النقاش المتواصل والتهديد الدائم ، فقلت لنجيب بكل صراحة :

- ارجوك ان لا تعود الى حديث الدراهم لأن ليس في نيتي قط ان امدك بشيء منها ، لتضعها كما سبق وقضيت على ما كان لديك منها . اذا اردتنا ان نعيش بهناء فاقلع عن هذا الحديث ..

– وانا ليس بامكاني ان أعيش بعيداً عن المسرح ، فاذا كنت تمانعين في ان نعمل معاً ، وان نتحمل معاً نتائج عملنا ، فخير لنا ان نفترق .

– نعم الاقتراح ، لأننا لن نتفق . وليس بامكاني ان احمل مسؤولية عمل ليس لي يد فيه . والحل الأفضل هو ان نفترق على ان نظل اصدقاء ، انك فنان مرموق ، لك شهرتك الواسعة وجمهورك الكبير ، وبامكانك ان تجمع ثروة حين تشاء دون اللجوء الي . غير ان وجودي معك الآن جعلك تعتمد علي واقعدك عن الانتاج والعمل ، ومن يدري قد أتمكن انا ايضاً من العمل اذا ما افترقنا . وعلى كل حـــال سنظل اصدقاء مهما حصل ..

– اذن ستعملين بمفردك هنا في مصر !

– كلا ، بل سأعمل في بلدي ، سأعود الى سوريا ولبنان واترك لك مصر ومن فيها .

– اراك تتصرفين وكأنك لست متزوجة ولا من تستشيرينه او تطلبين رأيه . لقد اتخذت قرارك هذا دون ان تكلفي نفسك عنـــاء سؤالي ولو على سبيل المسايرة . لماذا اذن رضيت بالزواج بي ؟

– انني لأتساءل نفس السؤال ، كيف تزوجتـــك وانا اعرفك تمـــام المعرفة ، ولا اجهل شيئاً من عاداتك وطباعك . ان الذنب ذنبي ، ولو انني لم اقتنع بوعودك وانخدع بألاعيبك لما وقعت بما انا فيه الان .. هل لي ان اعرف ماذا قررت بدورك ؟

– لم اقرر شيئاً ، انت حرة ولك ان تتصرفي كما تشائين ، ولكـــن سيأتي يوم تندمين فيه على تسرعك وعلى انفصالك عني على هذا الشكل . على كل سأتذكر نصيحتك لي بالعمل واقدم خير ما عندي في الموسم المقبل .

– وانا من جهتي لا اريد شيئاً من المال المتبقي لي بذمتك على شرط ان تتركني وشأني ولا اراك بعد اليوم في طريقي .

فنهض وابتعد رويداً وكأنه يقتلع نفسه اقتلاعاً من المقعد الذي كان

يجلس عليه واتجه نحو الباب . ولكن قبل ان يصل الى آخر السلم استدار يتأملني وقال لي بهدوء :

– ارجوك ان ترسلي ثيابي مع بواب البناية !

ومضى ..

* * *

ومضت الحقبة الاولى من حياتي مع الريحاني ، تلك الحياة التي كان يظنها الناس نعيما متصلا ولا ينظرون اليها الا من خلال الانوار الزاهية والاكف المستحسنة ، ولم يكن احد منهم يدرك ما كانت تلك المظاهر الخداعة تخفي من الالم والخيبة ...

مضى نجيب ... شيعته بنظرات ملؤها الحسرة على حياتنا معا ... رافقته الى اقاصي الارض ، انفقت عليه وعلى فرقته من مال جمعته بعرق الجبين وبح الحنجرة وسهر الليالي . ولكنني – لسوء حظي او حظه ، لست ادري – لم اتمكن من حمله على العمل وتقدير المسؤولية .

عن لي في وحدتي ، بعد انفصالي عن نجيب ، ان اسأل عن أحمد بك ، الرجل الكريم الذي نهاني عن حماقة الزواج بالريحاني ، لا غيرة منه بل لمعرفته بخصاله واستهتاره ولا مبالاته . فقيل لي انه مريض ، وقبل ان تتسنى لي زيارته وصلني خبر وفاته ، فتأثرت كثيراً ، وشعرت بانني فقدت بفقدانه انسانا كريماً كان بامكاني ان الجأ اليه فيما قد يعترض طريقي من صعوبات . ولكن ليس من ملجأ دائم سوى الله تعالى وهو اكرم من اعطى ..

ومن يومها قررت ان أعود الى لبنان حيث شقيقتي وعائلتها ، وحيث تتاح لي الراحة من العمل والمضايقات . وقبل مغادرتي مصر جئت بكلير ، سلمتها منزلي وعهدت اليها بمهمة الاعتناء بابنتي جوليبت ، ورجوتها ان تصحبها الى منزلها عند انتهاء الفصل الدراسي . كما ألححت عليها بأن

لا تدعها أثناء غيابي تقابل احداً على الاطلاق ، لأن قلبي كان يحدثني بأن نجيب سينتقم مني عن طريقها .

وصلت الى لبنان ، وكان في نيتي ان أقيم عند شقيقتي مدة من الزمن الى ان استعيد ما كنت قد فقدته من هدوء الاعصاب . الا انني عدلت عن رأيي عند الحاح اصحاب المقاهي ، ولحاجتي الى العمل بعد انقطاعي الطويل عن المسارح . أمضيت فترة قصيرة في التمرين على بعض الأغاني التي كنت قد اعتدت ان ألقيها على المسارح المصرية . وأقبلت على عملي كما لم يسبق لي ان فعلت . وأقبل علي الجمهور بكل فئاته وجميع طبقاته . وما عتمت ان وصلت فتحية احمد قادمة من القاهرة ، فرحبت بها واتفقنا على العمل معاً . قمنا برحلة الى عاليه وزحلة وطرابلس والشام وحلب وعدنا بعدها الى بيروت . وهكذا تسنى لي ان أقابل جمهوري القديم الذي لم يكن قد نسبني ، والذي استقبلني بالهتاف والتصفيق .

كنت خلال عملي على اتصال دائم بكلير ، أروي لها في رسائلي كل ما يحدث لي ، ولا اخفي عنها حتى اخبار من كانوا يتربصون بصداقتي ومن كنت اذعن لصداقتهم ولو مدة وجيزة ، اذ كان منهم من يتبعني من بلد لآخر .. كما اطلعتها على عزمي على السفر الى باريس بعد انتهائي من جولتي تلك . كنت اثق بها وأأتمنها على اسراري ، ولم يكن يدور بخلدي قط انها تطلع نجيب على ما يرد في رسائلي اليهـا ... وهكـذا سلمته سلاحاً كان بامكانه ان يحاربني به . ولم تكتف بهذا المقدار مـن الاساءة الي ، بل اشتركت مع نجيب في حمـل جوليبت عـلى كرهي . اطلعاها على حقيقة مولدها وقالا لها انني والدة مزيفة وان امها ما زالت تقيم في لبنان ، ولكنني انكر وجودها كي احتفظ بالفتاة واستغلها عندما تكبر . حملا جوليبت على الحقد علي وهي التي لم تكن تحبني اصلا رغم ما انفقته عليها ورغم عنايتي وحنوي ...

وكان الله سبحانه وتعالى اراد ان يكشف الستر ، واراداني ان اطلع

على ما يحاك لي في غيابي . فما ان انتهت رحلتي مع فتحية احمد حتى ركبت البـاخرة الى فرنسا عن طريق الاسكندرية . وعندما توقفنـا في المرفأ المصري ، شئت زيارة منزلي وتقبيل ابنتي بعدما علمت ان الباخرة سترسو يومين وليلة فتوجهت من توي الى القاهرة ، اردتها مفاجـأة للجميع فلم انبيء أحداً بمجيئي . فتحت باب منزلي ودخلت الى صـالة الاستقبال ، واذا بي اشاهد الكلب الذي كنت قد احضرته من اميركا ، والذي اخـذه نجيب عنـدما علم بعزمي على العودة الى لبنـان . فاستغربت وجوده في المنزل . وتابعت تفقدي لسائر الغرف ، فعـثرت فيها على ثياب كلير وجولييت ، فازدادت دهشتي .. وطار ما تبقى من صوابي عندما اقبلت الطباخة ترحب بي وكأنني لم اغادر منزلي قط ، مع انني كنت قد فرضت على كلير اقفاله اثناء غيابي .

اسرع الكلب يتودد الي ، فقلت للطباخة :

ـ ماذا تصنعين هنا يا فاطمة ، الم اسلفك اجرة ثلاثة اشهر واطلب اليك ان تنتظري عودتي في منزلك .

ـ نعم ، ولكن لو لم أكن أحبك وأخلص لك لما بقيت في هذا البيت دقيقة واحدة ..

لماذا ؟ ما الذي حصل ؟

ـ بعد ان غادرتنا جاءت الي كلير وطلبت مني ان أحضر الى هنا بحجة انك عائدة ، وان علي ان أنظف المنزل قبـل موعد وصولك ، وما زلت انتظرك الى الآن .

ـ ولكني أرى هنا ثياب نجيب معلقة الى جانب ثياب كلير وجولييت ماذا حدث ؟ هل عاد نجيب ، وهل يقيمون جميعاً هنا الآن ؟

ـ يا ستي ، لن اجرؤ على اخفاء الحقيقة عنك . لقد لاح لي ان هناك علاقة متينة بين كلير والاستاذ ، لقـد أمدته بالمال ، وهي الآن شريكته في العمل ..

– وهل توفق في هذا الموسم ؟

– ومن اين له ان يتوفق بعد ما غاب عنه وجه السعد . من يوم غادرت مصر وغادر هو هذا البيت ، وكأن النحس له بالمرصاد يرافقه اينما ذهب . لقد عن له ان يستبدل روايات الفكاهة بالمآسي . ويااليتك تشاهدينـــه عندما يدخل الى المسرح وتضج القاعة بالضحك .. وما ان يبدأ بالتمثيل حتى يعلو الهرج والمرج وكأنه في سوق دلالة ، وهو مسترسل في النحيب والجمهور مستلق على ظهره من الضحك ..

– وما العمل الآن ؟

– انا عارفه .. يا كبدي عايلك وعلى بختك المايل ..

– نفتح الباب ودخلت منه كلير تمسك بيد جولييت ، وهما تقفزان معاً من المرح .. رأتني كلير منتصبة امامها فتسمرت في مكانهـــا وانعقد لسانها ، تحشرج الصوت في حنجرتها فلم تقو على الكلام . اما جولييت فقد ساعدتها براءة الطفولة وسذاجتها على ان تقبل نحوي بلهفة صارخة :

– ماما ماما ، انت هنا من امتى يا ماما ؟

لم اجب جولييت ، بل نظرت الى كلير اتشفى من موقفها الذليـــل امامي ، لم تكن تتوقع حضوري الى القاهرة لانني كنت قد أنبأتها بتأجيل موعد سفري الى فرنسا . فاطمأنت على انني لن امر بمصر الا بعد اربعة اسابيع على الاقل .. كانت تقف امامي كالسارق الحقير دون ان تجرؤ على النظر الي ..

قلت لها بألم :

– انني لا اغار منك على نجيب لانني تركته بملء ارادتي ، ولا استغرب تصرفه والرجال لا يحفظون عهداً .

ولكن انت ، انت التي آويتك في منزلي واتخذتك صديقة ، وأتمنك على ابنتي وبيتي تنتهكين هذا البيت وتدنسينه بخيانتك . لقد طلبت منك ان تقفلي المنزل وان تصحبي جولييت الى بيتك ، ماذا جئت تصنعين هنا

في غيابي ، وثياب نوم نجيب معلقه مع ثيابــك ، يا خائنة الخبز والملح وناكرة الجميل ، كيف سمح لك ضميرك بأن تخونيني حتى في ابنتي وتفسدي علاقتها معي ؟.. قولي الحقيقة قبل ان اجهز عليك !

ثم اقتربت منها وقلبي يتمزق من الاسى والحقد ، وامسكتها بكتفيها ودون وعي رميتها ارضاً واخذت اضربها بقسوة ، وانا اردد :

– كيف تأخذين مني زوجي وانت شاهدة زواجنا ، كيف تجرأت على دخول بيتي وغرفتي ، ألم يعد يحلو لكما الا سريري ؟ وعندما سمعت نفسي اقول لها هذا . تجسمت امامي بشاعة خيانتهــا ، فازداد هياجي امسكت بشعرها واخذت اجرجرها على الارض ، وهي تبكي وجولييت تركض بجانبي صارخة : « ماما ! ماما ! » ، والكلب ينبح ، وما ان رآني اشتبك مع كلير حتى هجم عليهــا وغرز أسنانه في جبنهــا . فتلاشت من الاعياء وقالت لي باكية :

– دعيني اقص عليك ما جرى ولن اقول لك سوى الحقيقة . ليس الذنب ذنبي في كل ما حدث ، لقد جاءني نجيب بعد ذهــابك واقنعني بانه يحبني ويود طلاقك كي يتزوجني بالحلال ، ولا تنقصــه سوى الادلة اللازمة للحصول على هذا الطلاق من المحكمة الروحية ، وطلب مني ان اسلمه كل الرسائل التي تردني منك وانت في لبنان . وعندما قرأ , سائلك قال عال ساقدمها الى الديوان ولن يسعهم عنــد اطلاعهم عليهــا الا اجابتي على طلبي ..

– وكيف كان يمكنه الحصول على هذه الرسائل ، ومن اين له ان يعرف ما كتبت فيها لو لم تطلعيه عليها انت يا خائنة يا ..

وعدت اهجم عليها وامسكها من رقبتها ، وكدت اجهز عليها لو لم يدق جرس الباب وتأتي الخادمة لتعلمني ان الاستاذ يوسف وهي ينتظرني في صالة الاستقبال ..

واستدرت اواجه المرآة لارى عيني والدم يكاد ينزف منهما ، فاعدت

تصفيف شعري ورتبت ثيابي ، ودخلت ارحب بيوسف وهبي مستغربة وجوده في منزلي مع انني لم اعلم احداً بمروري بمصر . فضحك يوسف بك ، واجاب على تساؤلي بقوله :

– ولو ، وهل يخفى القمر ؟ وتابع : لقـــد جئت اعرض عليـــك مشروعاً للعمل معي فما رأيك ؟ ...

– وماذا تريدني ان اعمل معك ، اتريدني ان امثل درام وتراجيدي وروايات جران جينيول ؛ وانا لم يسبق لي سوى تقديم الاوبرا كوميك والرقص عند الاقتضاء ؟ .. اتريدني ان اضيع معالم شخصيتي كما فعـــل الريحاني ؛ وحمل الجمهور على هجر مسرحه ؟ لا يا استاذ ارجوك ، على كل حال ليس لدي متسع من الوقت للعمل الان ، فـــانا مسافرة الى باريس حيث سأقضي شهراً وربما اكثر ... وبعد عودتي من فرنسا يكون لكل حادث حديث .

– وهل افهم من هذا انك ترفضين العمل مع يوسف وهبي ؟

– آسفة يا استاذ انني اتمنى ان اعمل برفقتك ولكنني مضطرة للسفر العاجل !

استغرب يوسف بك عدم اقبالي على العمل في فرقته ، وودعني وذهب ... وعدت من توي اتابع مباراة المصارعة مع كلير ، الا انها كانت قد اغتنمت فرصة وجودي مع الممثل الكبير ، كي تأخذ ثيابهـــا وتسرع في الهرب من البيت الذي ائتمنها وخانته ...

جلست استعيد انفاسي بعد كل ما حدث لي في ذلك النهـــار ... وبينما كنت اتناول طعام العشاء برفقة جولييت ، اذا بها تفاجئني بقولها :

– أرأيت والدتي في هذه الرحلة ؟

أخذت بسؤالها ، غير انه اكد لي انهم افشوا لها بسر وجودها معي ، اذن لم يعد للانكار فائدة . فسألتها بلطف : « وكيف عرفت انني است امك ومن قال لك ان والدتك الحقيقة في لبنان ؟ »

فارتبكت ولم تجب بل استرسلت في البكـــاء ، وارتمت على صدري ، فاحتضنتها برفق وامتزجت دموعي بدموعها ... داعبت خديها بحنـــان وعدت اسألها :

ـ احكي لي كيف عرفت انني لست امك الحقيقية ، تكلمي بصراحة ولا تخشي شيئاً ، لأنني وان لم اكن امك الا انني احبك وكأنك ابنتي تماماً انا ربيتك يا جوجو وعلمتك وحافظت عليك . وعلى كل حال اذا كنت لا تريدين الكلام فانت حرة ، واذا كنت ترغبين في العودة الى والدتك فلن امنعك من الذهاب بل سآخذك بنفسي الى منزلها !.

فصاحت فرحة :

ـ اصحيح ما تقولين ، يصعب علي تصديق هذا الكلام لانهما اقنعاني بانك لم تنفقي عليّ وتعتني بي الا كي تستغليني عندما اكبر واصبح فتاة وتعجزين انت عن العمل !

فانتصبت واقفة كالمجنونة عندما سمعت جولييت تردد ببراءة وسذاجة ما كان نجيب وكلير قد لقناها اياه في غيابي . وقلت لها :

ـ اذن لقد وصل تجنيهما عليّ الى هــذا الحد ؟.. كنت سأذهب الى باريس ولكنني سأرجىء سفري الى وقت آخر ، وآخذك غداً الى والدتك في لبنان .. احضري ثيابك واستعدي !

ومضى الليل دون ان يغمض لي جفن !

واخيراً مضى ذلك الليل ، ما اطوله .. كنت استعيد خلاله شريط حياتي وما لحقني خلالها من جحود الناس وتنكرهم .. لقد تخيلت نفسي سعيدة ، وها انا اعود الآن وحيدة لا عائلة لي ولا قريب .. اردت ان يكون لي بيت بالحلال ـ كما يقولون ـ فعزم زوجي على استغلالي ، وعندما لم يتسن له ما اراد ، لم يتردد في ضربي وهجري ... والصديقة التي خلتها امينـــة مخلصة سلبتني ذلك الزوج وتآمرت معه عليّ ، وانتزعا مني الطفلة التي كنت ابني على مستقبلها الآمال الحلوة .. لم يكن في نيتي ان ادفعها الى العمل

كما قالا لها كلا ، لأنني كنت اشفق عليهـا من ان تسهر الليالي ، تعرق وتشقى وتبكي لتدع الناس يضحكون .. كنت اريدها ان تتمتع بما حرمت منه انا .. اردت لهـا نشأة صالحة وشباباً مصوناً .. كنت آمل ان تتزوج ويكون لها بيت هو بيتي ، واطفال هم احفادي .. وها هي اليوم وبعد ان تعهدتها في صغرها تنتزع مني هذا الامل الجميل لتعود الى امها ..

فلتعد ، ليس من حقي الى امنعها ، ولست اريد ان استدر عطفها ولا محبتها .. انها تفضل العودة الى بيتها .. فليكن لها ما تريد ..

واخيراً لاحت اشعة الشمس الاولى ، فاسرعت جولييت الى غرفتي ، رحبت بها وقبلتها قائلة :

ـ هيا ارتدي ثيابك واستعدي للذهاب الى لبنان ، بينما اتصل انا بشركة السفريات البحرية كي اؤجل موعد رحلتي الى فرنسا وارافقك الى والدتك

فاجابتني بلهفة : مرسي ماما .

قلت لها بأسى : خلاص لم اعد مامتك ، احتفظي بهذا النداء لوالدتك الحقيقية ، اما انا فلم اعد بالنسبة لك الا مدام بديعة .

جمعت لها ثيابها وصيغيها وكل ما كان لديهـا من الهدايا واصطحبتها الى بيروت . بدأت البحث عن مقر والدتها ، منهم من كان يقول لي انها تقطن الجبل فاسرع استقصي الخبر ، ومنهم من كان يؤكد انها سافرت.. واخيراً وبعد مشقة وتعب اهتديت الى منزلها .. وكان بيتاً صغيراً متواضعاً يقع في محلة رأس بيروت ، يحيط به شجر الصبير من كل جانب ..لم تكن تلك الوالدة تنتظر عودة ابنتها ، بل كانت قـد تزوجت بعد وفاة ابي الطفلة ونسيت كل ما وقع لها ايام المجاعة والضيق.. قصدت اليها دون ان انبئها بقدومي ورويت لها ما حدث لابنتها .. رحبت بنا واحسنت استقبالنا وقدمت لنا زوجها الجديد قائلة :

ـ « انني مسرورة جداً ان تعود ابنتي الى احضاني سالمة بعد هذه الغيبة الطويلة ، ولكن يرجع لك انت فضل تربيتها وحمايتها من الفقر والجوع ..

لقد وقاها الله من الموت الذي كان يحدق بنا جميعاً ايام الحرب .. توفي والدها ولحق به اخوتها في ايام المجاعة ، لا اعادها الله .

ـ ولكنني لن ادعك تستلمينها الا بعد ان يكشف عليها طبيب ويشهد امامك بسلامتها .. لقد اخذتها وهي ما زالت طفلة وها انا اعيدها لك شابة جميلة مثقفة ، اذ انني لم ارض لها الا بارقى المدارس ، ربيتها كما لو كانت ابنتي .. وعلاوة على ذلك فقد جئتك بجهاز كامل انتقيته لها من القاهرة .. والآن لم يعد علي الا ان اودعك واتمنى لها مستقبلا سعيداً .. »

• • •

تركت بيروت الى فرنسا متألمة من فراق جولييت ، ولكنني عودت نفسي على الصبر والسلوى .. وكان في الباخرة « الماريت باشا » التي كانت تبحر لاول مرة ، عدد كبير من العائلات المصرية التي كان لي بها سابق معرفة ، والتي كانت تتردد باستمرار على المسارح حيث كنت اعمل ..كان معظمهم من الطبقات الثرية التي اعتادت المصايف الاوروبية .. ارتحت الى جوهم وانست بوجودهم ، وقضينا وقتاً طيباً بين ضحك ومرح ونكات متواصلة .. واذكر انه كان بين المسافرين المصريين ثري كبير يدعى نعمان باشا الاعصر ، وكان وزنه لا يقل عن المئة وخمسين كيلوغراماً ، الا انه كان معروفاً بخفة الدم وسرعة البديهة .. واتفق لي مرة وانا ابرح غرفتي في الصباح الباكر ان التقيته متجهاً نحو الحمام وهو يرتدي جلابية نوم عجيبة ، فقلت له باستغراب :

ـ الله ، ايه قميص النوم ده يا باشا ؟

فاجاب بجد : من فضلك ده مش قميص دي ناموسية .

واتفق ان اقيمت اثناء رحلتنا تلك وعلى متن الماريت باشا حفلة تكريم لربان الباخرة اشترك في احيائها البحارة والمسافرون ، كما تطوعت، لتقديم برنامج خاص ، بعض الفنانات الاجنبيات . فاسرع المسافرون العرب يطلبون مني انا ايضاً ان اقدم فاصلا من الاغاني العربية ، فنزلت عند

رغبتهم واشتركت في تلك الحفلة .. صفق لي الجميع باعجاب وحماس وبعد ان فرغت من الرقص والغناء ، اردت ان استبدل ثياب الرقص بفسطان عادي ، فاذا برجل يرتدي قبعة يعترض طريقي ويقول لي :

ـ غريب ألم تعرفيني ؟.

ـ قد اعرفك لو انك رفعت هذه القبعة التي تخفي نصف وجهك ! .

فرفع القبعة وعرفته في الحال .. لقـد كان نوري باشا السعيد الذي كان يتردد كثيراً على منزلي اثناء اقامتي في حلب ، والذي لم تكن تفوته حفلة واحدة من الحفلات التي كنت احييها في مدينة الطرب .. سرني ان التقي به وعاتبته لانه لم يحـاول الاجتماع بي منذ ان ابحرنا . فاجاب بانه حاول كثيراً ، ولكنه كان يجدني دائماً بين عدد كبير من المعجبين .

ومن يومها لم تقع عيني على نوري السعيد الا مرة واحدة اثناء حفلة خيرية اقيمت فى الاسكندرية ، وكان يومها يصطحب معه عائلته .. سقى الله تلك الايام ورحم كل من ذهب ..

° ° °

عدت الى مصر لاعود الى مشاحنات الريحاني ومشاكله ، وكأنه لم يكن يرتاح الا في جو القلق والاضطراب..حاولنا ان نصل الى حل في المحكمة الروحية ولكن بدون جدوى ، لأن السريان الكاثوليك لا يبيحون الطلاق ولا في حال من الاحوال ، فلجأنا الى المحافظة كي نشهر اسلامنا ويستعيد كل منـا حريته .. وكان المحافظ يدعى اسماعيل بك شيرين .. فاستغرب تصرفنا ولم تقنعه الحجج التي قدمها كل منا ، بل قال باستنكار :

ـ من يصدق ان نجيب وبديعة سيفترقان وهما الطف واظرف رفيقين على المسرح ؟ كلا لن اسمح بان ينفصل احدكما عن الآخر ، اذ ان الناس بحاجة الى من يرفه عنهم وليس من يجاريكما في هـذا الميدان .. لن اساعدكما عـلى خراب بيتكما ولو انه يسرنا ان نكسبكما بيننا .. حاول

ان تزيل هـــذا الخلاف مع الست بديعة ، ولا ريب في انها ستساعدك على ذلك ..

خرجنا من مكتب اسماعيل شيرين وكل منا مقتنع بان عليه ان يؤدي رسالته الفنية ، ولكن منفرداً عن صاحبه بالرغم مما قاله لنـــا ذلك المحافظ الصديق .. ونحن في طريقنا الى البيت سألت نجيب :

ـ والآن ما العمل يا استاذ ؟

فقال على الفور :

ـ اذا كنت تريدين مني ان اكون صريحاً فلا بد لي من ان اعترف بانني مديون لكلير بما يقارب الالف وسبعمائة جنيه .. ولسوء حظهـــا لم اوفق في روايتي الاخيرة مع انها كانت من الاعمال الفنية الجيدة ..

ـ ولماذا غيرت نوع تمثيلياتك ، فبعدما كنت تؤدي الروايات الفكاهية الانتقادية ، وبعدما توصلت الى جعل جمهورك يتذوق نكاتك ويقبل على مسرحك ، انتقلت اليوم الى المآسي العنيفة . وانت تعرف انك بذلك تخرج من اطارك وتتنكر لطريقتك .. انني لا اوافقك على عملك هـــذا واعتقد انك غلطان ..

ـ كلا لم أغلط بشيء بل أردت ان أتخلص منك اذ لم يعد بامكاني ان اعمل بدونك ، مع انني انا سبب شهرتك ..

ـ انني أقر بانك كنت سبب شهرتي هنا في مصر ، ولكن قل لي بماذا عادت علي هذه الشهرة ؟ انك لم تحسن استغلالها رغم النجاح الكبير الذي لقيناه معاً . . فمنذ ان بـــدأت العمل برفقتك في سنة ١٩٢٢ الى اليوم ـ ولا تنس اننا الآن في اواخر ١٩٢٦ ـ لم نتمكن من الحصول على شيء يذكر ، بل بالعكس لم نجن سوى الخسارة ، فقد انفقت من مالي الخاص مبلـــغ ٢٥٠٠ جنيه ، واستدنت حضرتك من كلير ١٧٠٠ جنيه ...

وماذا تعني هذه الشهرة المرفقة بالخسارة ؟

اني زوجتك ومن واجبي ان اشاركك في كل شيء ولكن الى حد معقول ... ان الايام تمر مسرعة وبوسعك انت ان تمثل حتى ولو تقدمت بك السن ، فلست بحاجة الى شباب وجمال كي تنجح في عملك . ولكن اذا ما داهمتني الكهولة وزالت رشاقتي وذبلت نضارة وجهي ، فهل تعتقد ان من يصفق لي الآن بحماس سيكلف نفسه حتى النظر الي ؟.. اما انت فبامكانك لو ثابرت على عملك وانقطعت عن السهر بالليل والنوم في النهار ، وانكببت على تمرين الممثلين وعلى الانتاج المتواصل ، ان تفرض نفسك ساعة تشاء ...

ـ وماذا ترمين من وراء كلامك هذا ؟ هل في نيتك الوعظ والارشاد ام ماذا ، قولي بصراحة ...

ـ انني ارى ان ليس بامكاننا ان نقضي بقية العمر معاً . فطباعنا مختلفة ونظرتنا الى الحياة متباينة والافضل ان يسير كل منا في طريقه ، دون ان نتنكر لديننا ونحمل الناس على ان تسخر منا ... وليعمل كل منا بمفرده والله ولي التوفيق ...

ـ يعني عايزه تشتغلي في مصر حضرتك ، وراح تغني وترقصي ، والله عال يا مدام ريحاني ...

ـ إنني لن اعمل بصفتي مدام ريحاني ، ولن استغل اسمك فانا لست بحاجة اليه ، بل كنت وسأظل بديعة مصابني .. ولكنني لست ادري اين سأعمل وليس في مصر على سعتها سوى مسارح وصالات سينما ...

ـ انني انصحك بالعودة الى بلادك ولا « تبهدلي » نفسك هنا !

ـ هذا يعود الي وحدي ، وليعمل كل منا ما يوافق مصلحته .

ـ ومن جهتك لا خوف عليك لانك تعلمين جيداً كيف تحافظين على مصلحتك ... وداعاً ، وارجوك ان ترسلي ثيابي الى منزل شقيقي توفيق ...

وافترقنا ... ذهب هو الى منزل شقيقه ، والى الحياة التي اعتادها ،

وعدت أنا الى بيتي لأجد نفسي وحيدة الا من الجدران والمقاعد ومـا اشتريته في رحلـتي الى فرنسا . دخلت الى غرفـة نجيب كي ارسل له ثيابه ، احضرت الحقائب ووقفت امامها كالبلهاء لا ادري ماذا افعل .. اين الطفلة التي تعهدتها واعتقدت بأنها ستذيقني حلاوة الامومة ؟ اين الرجل الذي تركت الجاه والثروة لاصبح زوجته بالحلال ولاقاسمه مر الحيـاة وحلاوتها ؟ اين الصديقة التي ائتمنتها على اسراري وخبايا نفسي فخانتني وسلمت رسائلي الى زوجي ، ولو لم يكن ابن حلال ويعيدها الي لتمكن من استغلالها على هواه ؟ اين الذين يصفقون لي وانا ألهث تحت الانوار ، انهم يطرون جمالي ويتغزلون به ولكنني لم اوفق الى واحد منهم أثق بـه وارتاح اليه ... اين اشقائي الجأ اليهم في محنة كهذه ، اين ؟.. اين ؟..

ارتميت على الارض فاقدة الوعي ولم أصح الا عـلى صوت الطبيب يقول لي انني لا اشكو من شيء الا من صدمة عنيفة اثرت على اعصابي وعلي ان ارتاح واحاول ان انسى ... وفي المساء ارسلت ثياب نجيب الى منزل شقيقه توفيق مع خادمتي ، واتجهت الى « الباريزيانا » اسامر النارجيلة صديقتي القديمة ارتحت في جلستي تلك ، وفيما كنت انظر الى من حولي اذا بي ارى من بعيد شخصاً يحدق بي باصرار . لاح لي ان وجهه ليس بالغريب عني وسرعان ما تذكرت انه السيد ذكي المحامي ، اول رجل عرفته وصادفته في حياتي ... وباشارة صغيرة من يدي دعوته الى مجالستي فاعتذر من اصحابه واسرع الى جـانبي ... قضيت السهرة برفقة السيد ذكي ورويت له كل ما حدث لي بعد ان فارقته . فأجابني بابتسامة :

ـ أتعتقدين انني لم احـاول ان اقترب منك اثناء هـذه الفترة التي قضيتها في مصر ، حاولت كثيراً الا انك كنت دائمـاً مرتبطة ، بنجيب اولا ثم باحمد بك ومن بعدها تزوجت نجيب وعدت الى العمل معه ... كما لم يفتني ما حصل لك مع الريحاني وكلير ، وكيف انهما قلبـا عليك جوليت ، فتنكرت لك واعدتها الى اهلهـا في لبنان ... والآن الحمد لله

على انك خرجت سليمة من كل هذه المصاعب .. فهل نويت على شيء ؟..
ـ كلا لم اتخذ اي قرار لانني تعبة وبحاجة الى الراحة ... فما رأيك لو رافقتني في نزهة بعيدة عن هذا الجو ، لان اعصابي مرهقة ولن يسعها ان تحمل اكثر مما حملت .

ـ سمعاً وطاعة ، وليس في الدنيا ألذ واحب من ان ارافقك وادعك تنسين كل ما مررت به ... اين تريدين الذهاب الى المصايف المصرية ام الى الخارج ؟

ـ رويدك يا صديقي ، فلا تنس انني ما زلت على عصمة رجل ، وعلينا اذن ان نبحث عن ركن منعزل يقينا كلام الناس ويبعدنا عن المشاكل ...

ـ وانا ليس علي سوى حل المشاكل أنسيت اني محام ، لا تخافي يا بدعدع فلن أدع احداً يسيء اليك ...

فضحكت ، وتذكرت ايامنا الاولى ، وعلقت على كلامه بقولي :
ـ لقد عرفتني صغيرة وكنت تناديني بهذا الاسم ، ولكنه لم يعد يليق بي الآن وقد غدوت في هذه السن .

ـ سيبك من كده ، سأدعوك « بدعدع » وسوف تناديك مصر باسرها بهذا الاسم .

وتحققت نبوءته ، فما عتم اسم « بدعدع » ان انطلق على ألسنة الجميع ، وما زلت الآن التقي من يذكر « بدعدع » وما عرفته في مصر من جاه وشهرة .

أمضيت ذلك الصيف في فندق « البوريفاج » في الاسكندرية برفقة السيد ذكي ، وكان ذلك الفندق يقع على شاطىء البحر وجل رواده من السواح الأجانب . وهكذا لم يهتد الى عزلتنا احد ، كما شفيت تماماً من الانهيار الذي كان قد أصابني من جراء مشاحنات نجيب الريحاني . وعند

عودتنا الى القاهرة اتفقت مع السيد ذكي على ان ننفصل فيذهب هو الى أحد الفنادق ، وأعود انا الى منزلي ، تجنباً للاشاعات والأقاويل الى ان أكون قد تدبرت أمر طلاقي . ولم نعد نلتقي إلا في الاماكن العامة كصالات السينما والمطاعم والمسارح .

وفي هذه الاثناء ، وفيما كنت ابحث عن طريقة أعود بها الى العمل ، جاء من أخبرني ان هناك صالة رقص تدعى « سنديكس » معروضة للبيع ، وعندما قابلنا صاحبها ، طلب منا سبعة آلاف جنيه مصري ثمن البناء والفرش ، مستثنياً من هذا المبلغ الارض التي كان يقع عليها ذلك الملهى . كان ثمن « السنديكس » باهظاً للغاية ولكن موقعها في شارع عماد الدين حيث كانت توجد معظم مقاهي ومسارح تلك الايام ، اغراني وحملني على شرائها . وبعد مناورات ومداورات بين السيد ذكي وصاحب تلك الصالة، وصل المبلغ الى الخمسة آلاف جنيه .. فرضيت بالثمن ودفعته مرة واحدة ..

* * *

اعتبر الجميع اقدامي على شراء صالة ، مجازفة جريئة لا تقدم عليها امرأة ... اردت عندئذ ان ابرهن للجميع ان بوسعي ان انجح ولو وحدي ... وحملني اعتدادي بنفسي على ان ابتكر طريقة جديدة تجعل الناس تقبل على ملهاي ... فتعاقدت مع عدد كبير من المطربين الناجحين والمطربات المعروفات ، كما احضرت تختاً من احسن الموسيقيين وابرعهم ، وكنت أقدم كل يوم برنامجاً جديداً .

وكان من بين الذين اتفقت معهم على العمل الشيخ السيد الصفتي والشيخ حسنين والشيخ ادريس وجميل عزه كما جئت بفتحية احمد وفاطمة سري وسميحة بغدادي ونجاة علي وعبد المطلب ... ثم طلبت من محمد عبد الوهاب ان يحيي حفلات خاصة للسيدات ... ومن بعدها تعاقدت مع اسمهان وفريد الاطرش . وبالرغم من انهماكي في اعمال الادارة لم

اعتزل الأداء الفني بل كنت اقدم المونولجات وارقص بالصاجات النحاسية ..
وكانت طريقتي جديدة على المصريين اذ كانت الراقصات المصريات يكتفين
من الرقص بهز البطن والارداف ...

وهكذا اصبحت هذه الصالة الصغيرة تمد مصر بالفنانين الناجحين ...
كان تغيير البرنامج كل ليلة يكلفني نفقات باهظة ، ولكني استمررت في
المجازفة الى ان نجحت فكرتي ، وعرف الجميع طريق ذلك الملهى ...

قلت انني عندما ما اقدمت على العمل في صالتي الجديدة لم يتوقّع احد لي النجاح ، وكانوا يعتبرونني اجازف بمالي وبسمعتي الفنية ، ولكن سرعان ما خاب فألهم واصبحت صالتي محطّ انظار الباحثين عن الطرب الاصيل والرقص الشرقي والغربي على انواعه . كان النجاح غير المتوقع ينسيني ما اتكبده من تعب ومن نفقات باهظة ، اذ ان الصالة كانت ضيقة ولم تكن تتسع لعدد كبير من الرواد ، وبالتالي لم يكن مدخولها يغطي ما كنت انفقه على البرامج العديدة المتنوعة .

والآن ماذا حلّ بجوليبيت يا ترى ؟ أتراها سعدت في العيش مع والدتها ؟ لم يمض على مجيئها الى لبنان شهران حتى اخذت اتلقى منها الرسالة تلو الاخرى ترجوني فيها ان اعيدها الى منزلي وان اعيد اليها بالتالي حناني الذي افتقدته . وكانت تلحّ على انني أنا والدتها الحقيقية وتتوسل الي ان انسى ما كان منها . كنت ما زلت متأثرة مما حصل لي مع كلير ونجيب ، فلم تتلق مني اي رد على التماساتها . فاخذت تراقب الفرق القادمة من مصر وتزور اعضاء تلك الفرق لترجوهم ان يتدخلوا في امرها .

لم يؤثر على قراري احد بل صمّمت على ان لا اجيبها الى ان زارت بيروت فرقة امين عطالله . فأسرعت الى زوجة امين واخذت تروي لها قصتها وتبكي ، ثم انكبّت على يديها تلثمها وترجوها ان تحاول اقناعي بالصفح عنها . وعند عودتها الى مصر حدّثتني السيدة ابريز عنها ونقلت

الي ما قالته لها بالحرف الواحد ، واخذت مني وعداً بان اقـابلها عند زيارتي لبنان .

وكنت فعلاً أستعد للذهاب الى لبنان كي آخذ قسطاً من الراحة بعد ما لاقيته من الاجهاد في العمل المستمر طيلة فصل كامل . عند وصولي الى بيروت اتصلت بجوليت وطلبت منها ان تأتي لمقابلتي في منزل شقيقتي حيث أفهمتها انه لم يعد بوسعي ان أصطحبها الى مصر بعد انفصالي عن نجيب ، كما اخشى ان يقال فعلاً ربّيتها واعتنيت بها لأستغلّها بعد ان اصبح لي مسرح حافل بالعمال والموسيقيين ، وقد لا أتمكن من حمايتهـا ورعايتها في هذا الوسط . ووعدتها بان ارسل لها كل ما تحتاج اليه ان هي بقيت في منزل والدتها . لم تقتنع بل اخذت تبكي وتندب حظهـا وتتحسر على ايامها معي . وكانت شقيقتي نظلة تصغي اليها فرق قلبهـا وقالت بسذاجة : « لو كان ابني انهى دروسه لزوجته اياها ، ولكنه ما زال بحاجة الى ثلاث سنوات كي ينال شهادة الحقوق . »

فسألتني جوليت كمن جاءها الهـام مفاجىء : أتأخذينني معـك لو تزوجت ؟

ــ طبعاً لان في هذه الحالة يصبح زوجك المسؤول ولن يتمكن احد من ان ينالني بكلمة او ان يتهمني بانني اريد استغلالك كما سبق ان فعل نجيب الريحاني ! » .

وبعد انصراف جوليت عاد انطوان ابن شقيقتي من المدرسة ، فأخذنا انا ووالدته نمازحه ونقول له اننا وجدنا له عروساً . فلم يهتم لكلامنا كثيراً وقال لنا بجد انه لن يفكر في الزواج الى ان يكون قد انهى تحصيله ، فعدلنا عن الحديث في هذا الموضوع ولم نعد نتطرق اليه البتة .

وصدف ان كان ثاني يوم اجتماعي بجوليت يوم عطلة فحضرت الى منزلنا والتقت بانطوان . كانت انيقة رشيقة حلوة الحديث . أمضت ذلك النهار معنا وتباطأت في العودة ، وعندما اقبل الليل قالت ببراءة : « انني

أخشى العودة بمفردي الى البيت » . فقفز انطوان من مقعده وتطوع لمرافقتها ، وعند عودته دخل الى غرفتي وقال :

« انني مستعد ان أتزوج جوليت اذا هي تركتني اتابع دروسي » .

فراقت لي الفكرة وأجبته :

« عال ! سأزوجكما ومن ثم ترحلان معي الى مصر برفقة والدتك ، ولكن على شرط ان تعاملها كما لو كانت شقيقتك الى ان تتخرج ! »

وهكذا وبهذه البساطة زوجت ابنتي من ابن شقيقتي ، ولكن لسوء حظي وحظهما معاً كنت أجهل ماذا ستكون نتائج هذا الزواج !

لم يحل طلبي للراحة دون القيام برحلة فنية نزولا عند إلحاح أصحاب الصالات في سوريا ولبنان . فعملت على مسارح الشام وحلب وزحلة كما اصطحبت معي ابنتي وزوجها ، وكانا على خير ما يرام من الود والصفاء . كنت اقاسمهما سعادتهما وأشعر ان لي في بناء هذه السعاده نصيباً كبيراً .

ومن بعد ان أمضيت صيفاً جميلاً في الربوع اللبنانية ، عدت الى عملي في القاهرة ، وأخذت استعد للموسم الجديد . ويحلو لي ان أذكر هنا بعض الوجوه الحبيبة ، وجوه غابت بعد كفاح مرير وعيش أمرّ . وجوه شاركتني النجاح ودفعتني الى ان أتابع الطريق الذي شققته لنفسي بعناء ، وسط المنافسة الضارية والسخرية اللئيمة . ومن هذه الوجوه ماري جبران ، وكنت قد دعوتها ماري الجميلة نظراً لجمال وجهها وعذوبة صوتها. كما استقدمت ملكة جاجاتي وأبدلت اسمها الى ملكة جمال ، وان لم تكن بجمال ماري جبران ، الا انها كانت خفيفة الدم ترقص برشاقة . كانت ملكة جمال تقلدني في كل شيء الى درجة ان بعض الرواد اعتقدوها شقيقتي . تعلمت فن رقص الصنوج فأتقنته وبرعت به ، كما كانت تحسن النكتة الشامية اللطيفة . وأحضرت من الشام راقصة تركية كانت تدعى افراز فعُرِفَتْ عندي باسم افرنز . لاقت افرنز استحساناً كبيراً عند المصريين لجمالها ولاكتناز جسمها على الطريقة الشرقية .

اتفقت مع نادرة وأنفقت مبالغ طائلة على الدعاية لها في كل مكان . وحاولت جهدي ان أعطي عنها للجمهور صورة المطربة الاصيلة . غير ان نادرة كانت تسيء الى نفسها بتقليد ام كلثوم تقليداً غير مستحب ، طالما نصحتها بأن تقلع عنه كي تكوّن لنفسها شخصية فنية مستقلة . لم تقنعها نصائحي في بادىء الامر واستمرت في عنادها ، ولكنها لم تلبث ان انقادت الي عندما لمستْ فتور الجمهور وعدم استحسانه لطريقتها .

كما عملت عندي في ذلك الموسم راقصة ناشئة كان قد جاء بها الى القاهرة احد ممثلي فرقة امين عطاالله بعد ان عقد قرانه عليها ، وافترقا في مصر . عملت هذه الراقصة في فرقة الريحاني مدة قصيرة ثم انضمت الى ماري منصور في الاسكندرية .

قال لي يوماً احد عمال الصالة :

– بين البنات اللواتي يعملن عند ماري منصور بنت شامية مسكينة بحاجة الى رعاية لانها غريبة وفقيرة . فلو سمحت لها ان تعمل هنا تكسبين ثواباً .

– اذهب واحضرها شرط ان تكون جميلة ورشيقة .

فاسرع ذلك العامل وكان اسمه علي كي يأتيني بها ، وما عتم ان عاد مع فتاة انكبّت على يدي تلثمها وكأنها تعرفني منذ زمن بعيد . فارتبكت وسألتها بلطف :

– أين ثيابك ؟ أشارت الى بقجة صغيرة بقربها واجابت :

– هنا في هذه البقجة ...

– هي دي كل ثروتك ، أيمكنني ان اعرف اسمك :

– محسوبتك ببا . اسمي الاصلي هو فاطمة ولكن السيدة التي كنت اعمل عندها حوّلته الى ببا ..

– ولكن يا ببا لا افهم كيف كنت ترقصين وليس لديك شيء من ثياب الرقص ...

— نعم لا يوجد لدي بدل رقص كل مـــا هنالك ان رفيقـــاتي من الراقصات كن يسمحن لي بارتداء بعض البدل التي لا يحتجن اليها .

قالت لي هذا واغرورقت عيناها بالدموع . فطيبت خاطرها ووعدتها خيراً ، ثم ارسلتها الى بنسيون صغير كان يقع بالقرب من الصالة ، واخذت اعتني بها . وسرعان ما حوّلتها من راقصة فقيرة تتصدق عليها زميلاتها الى فنانة انيقة وذلك بما جهزته لها من الثياب الجميلة . كما اشرفت بنفسي على تمارينها ، ولقنتها أدب المسرح من تحية الجمهور الى شكره الى طرق اكتساب ودّه واعجابه . ولكن هذا لم يمنعها من ان ترتبك في الليـــلة الاولى ، فضجت الصالة بالضحك من لختها وسوء تصرفها . ولم يحـــل فشلها هذا دون ان اتابع رعايتي لها وأخصّها بالشيء الكثير من العطف ، اذ انها كانت شامية وفقيرة شأني في اول عهدي بالعمل الفني . فصرت اكلف بعضهم بالاندساس بين الجمهور للتصفيق لهـــا . كانت افرنز ، الراقصة التركية تستأثر باعجاب المتفرجين ، وعندما لمست تشجيعي لبيا على هذا الشكل ثارت علي وتركت الصالة .

لم يقتصر اهتمامي بالراقصة الشامية على العمل فقط ، بل كنت أصحبها معي الى منزلي . وهكذا رفعت الكلفة بينهـــا وبين انطوان وجولييت ، فصار يخصها باهتمام كبير ويسهل لها دعايتها دون ان يدعني اعلم بشيء . وجولييت من جهتها كانت تعطف عليها وتدعوها الى بيتنا كل ما صدف ان كان هناك « اكلة لبنـــانية او شامية » . لم يساورني ادنى شك في اخلاصها ولم أتصور يوماً انها قد تخون أمانة بيتي وتنتزع من ابنتي زوجها ، ومن ثم تقضي على سعادتها وتكون سبب تشردها ، اذ لم يكن هنـــاك نسبة بينها وبين جولييت لا من حيث الجمال ولا من حيث الثقافة . ولكن ما العمل والحب أعمى كما يقولون .

وعندما أقبـــل الصيف أرسلت شقيقتي نظلة تستدعي انطوان وزوجته



بديعه مصابني

لقضاء بضعة اشهر معها في لبنان .

فأسرعت في تسفيرهما ولكن لم يمض شهر واحد حتى عـاد انطوان بمفرده الى القاهرة تاركاً جوليت عند والدته .

استغربت عودته المفاجئة هذه وعندمـا استوضحته عن سببها قال لي بتأفف : « دعي جوليت تمضي مـا تبقى من الصيف في لبنان ، وقد جئت الى هنا كي أرفه عن نفسي قليلاً بعيداً عنها .. كان من الأفضل ان لا أتزوج في هذه السن المبكرة ، ويا ليتني رافقتك الى القاهرة قبل ان ازج عنقي في هذا القيد الثقيل . لكنكما أنت ووالدتي حكمتما علي بالسجن المؤبد هكذا بدون سبب جنيته ...

– ولكن يا طوني هل انت نادم على زواجك من جوليت ؟

– اذا اردتني ان اكون صريحاً لا يمكنني عندئذ إلا الاعتراف بانني لا أساكنها إلا اتقاء لغضبك ! »

كان انطوان لاول مرة في حياته يخاطبني بهذه الجرأة ، فوجئت بمـا لم اكن اتوقعه اعتقـاداً مني انه سعيد بزواجه من ابنتي . فحاولت ان اناقشه : « ولماذا انت مستاء منها لهذه الدرجة هل بدر منهـا او من والدتها شيء اغضبك ؟

– لم يحصل شيء من هذا كل ما هنالك اننا غير متفقين ولا يمكننا ان نعيش معاً ...

. – وما العمل اذن ؟

– لا شيء في الوقت الحاضر . دعيك من هذا الحديث الآن . ومن يدري قد تعود الحياة الى مجاريها بيننا عند رجوعها من لبنان !.. »

ترجع فترة الانتقال من الفن القديم الى الفن الحديث – عـلى ما اذكر – الى تلك الايام وكنا سنة ١٩٢٥ . فالجمهور الذي كان يقبـل فيما مضى على المواويل والليالي والادوار والآهـات والموشحات الاندلسية والبشارف والسباعيات كان قـد بدأ ينقرض ، ولم يعـد يقبـل

علي هذا النوع من الطرب الا في المناسبات غير العادية فمثلاً عندما كانت فاطمة سري تؤدي وصلتها كان الازدحام على اشده ، لا لشيء الا لأن فاطمة سري كانت قــد اقامت دعوى امـــام المحاكم المصرية على محمد شعراوي وشغلت بها الصحف والري العام . فكان الرواد يقبلون عــلى سماعها بفضول مع انها لم تكن اكثر من مطربة عادية .

كان نجم نجاة علي قد بدأ يظهر ... كانت حلوة وصغيرة السن وذات صوت ناعم لطيف ... وتدين بشيء كثير من نجاحها وشهرتها الى محمــد عبد الوهاب . فبعد ان احيت عدة حفلات وعبأت عدداً لا يستهان به من الاسطوانات ، استدعاها المطرب الكبير لتشترك معه في فيلم واحد . وهكذا ذاع صيتها واقبلت عليها الجماهير بشغف ، الا انها كانت منكوبة بأب غريب الاطوار ، وكان على من يريد التعاقــد معها ان يخطب ود الوالد المحترم اولاً ...

اما فتحية احمد فقد كانت لي بها معرفة قديمة عندما كانت ما زالت تعمل في فرقة نجيب الريحاني ، وقبــل ان تتزوج من « اسماعيل بك » كما كان يحلو له ان يدعو نفسه . وكان « اسماعيل بك » هو الآخر غريب الأطوار لا يمكن ان يتفاهم معه المرء بسهولة . ولكنني تمكنت من ان اتفق معهما ، ودعوت فتحية الى العمل في صالتي . وكان جمهوري قد اعتاد ان يسمع مني بعض المونولوجات والطقاطيق ، كما كان ألف ان يراني اؤدي الرقص الشرقي الجميــل الممزوج بالرقص الاسباني والتركي واللبناني . ولكن كيف المجال الى تقديم دوري والست فتحية تحتل المسرح ولا تريد ان تتزحزح ، وتستمر في الغناء الى ان تقفر الصالة من روّادها . ولم تكن تقتنع ان هناك من لا يحب سماع نفس الجملة ونفس المقطع الغنائي يتكرر عشرات المرات ، وان هناك ايضاً من يرغب في الترفيه عن نفسه بالاصغاء الى مونولوج خفيف او مشاهدة رقصة رشيقة . وعلى هذا المنوال كانت ليالي فتحية ليالي فاشلة رتيبة ، بالرغم مما كانت تبذله في تطويح

اغنياتها وترديد مقاطعها ترديداً مملاً . واذا ما خطر لأحدنا ان يطلب من « اسماعيل بك » اقناعها بأن تدعنا نقسم البرنامج الى قسمين كعادتنا ، ثار في وجهه وقال : « احنا لازم نعمل وصلتنا مرة واحدة ونروّح ! » واذا ما حاولنا ان نتفاهم معها قالت لنا بنزق : « البيه عايز كده ! »

وسمحة بغدادي كانت سيدة لطيفة متوسطة الجمال ... اما صوتها فكان ضيقاً كما لم تكن تحسن سوى الأغاني القديمة وتكتفي بها ...

جاءني في احد الايام صديق لي يدعى محمد الجمّال وقال :

— لقد رافقت اصدقائي مساء أمس الى صـــالة ماري منصور ، ولم يعجبني من برنامجها سوى مطربة صغيرة السن جميلة الشكل تدعى اسمهان. ان صوتها من اجمل الأصوات التي سمعتها في حياتي وهي جديدة وعلى ما يظهر ، خسارتها ان تكون عند ماري جبران يا بدعدع حاولي ان تتفقي معها وانا اضمن لك نجاحها . »

كان انطوان يصغي الى السيد محمود فعلق على حديثه :

« بامكاني ان أدعو شقيقها فريد الى هنا لانني التقيه دائماً في النادي »

رافقت فريد الاطرش الى منزلهم حيث عرفني على والدته ، وكانوا يقطنون بيتاً متواضعاً في حدائق القبة امامه حديقة صغيرة ، تسرح وتمرح فيها « عنزة » لطيفة . قدموا لي قهوة جبل الدروز اللذيذة وجاء فريد بعوده ، فأتيح لي ان اسمع لاول مرة صوت اسمهان وكان مزموراً من السماء . اما صاحبة هذا الصوت الملائكي فقد كانت جميلة أنيسة خفيفة الدم تلوح البراءة المحببة من عينيها الجميلتين . سرعان ما اتفقنا ان تعمل اسمهان في صالتي وان تتقاضى ثلاث جنيهات عن كل حفلة . فنجحت بسرعة على الرغم من صغر سنها . ولكن مدة عملهـا عندي لم تطل اذ ان أخاهـــا فريداً ما عتم ان حضر الى الصالة ليرجوني ان أفسخ عقدي معها لانها ستتزوج . فقلت له : « اذا كانت فعلا ستتزوج فأني سأفسخ العقد بطيبة خاطر وأقدم لها هدية العرس ، اما اذا كانت حجة كي تأخذها

الى صالة اخرى فلن أتسامح بحقي ابداً ...

ـ لا والله العظيم ، تفضلي معي الى منزلنا لتشاهدي خطيبها بنفسك » .

وهكذا كان رافقت فريـــد الى بيتهم فالتقيت الامير حسن الأطرش وتأكدت لي صحة اقوال فريد . فتنازلت عن عقدي مع اسمهان ودعيت لها بالتوفيق .

وبعد ان رحلت شقيقته الى جبل الدروز ، بقي فريد الاطرش يعمل معنا في الصالة . كان محبوباً من الجمهور لعزفه الجميل على العود ولاتقانه الاغاني اللبنانية . ولم يلبث ان بدأ بالتلحين واولى أغنياته كانت : « يا ريتني طير تطير حواليك ! » وشجعه توفيقه في هـــذا اللحن فأقدم على وضع الالحان الراقصة التي حملت المتعهدين على الاقبال عليه كما طلب منه الدكتور بيضا تسجيل اسطوانات لشركته .

وفي هذه الاثناء عادت اسمهان من جبل الدروز بعد ان رزقت بابنتها الاولى ، ومكثت في بيت والدتها مـــع شقيقيها فؤاد وفريد . لم تشأ الغناء للجمهور بالرغم من الحاح المتعهدين واغرائهم اياها بشتى الوسائل . الا انها كانت عند زياراتي المتعددة لها تسمعني بعض الاغنيات المعروفـــة وكانت تتقنها اكثر من اصحابها . ومـــا ان سمعها الدكتور بيضا حتى صار يتبعها كظلها ويكاد لا يفارقها عله يقنعها بتوقيع عقد معـــه . لم توافق في بادىء الامر وعادت الى السويداء حيث رزقت طفلة ثانية لم تعمر طويلاً . وبعد وفاة طفلتها الثانية دبّ الخلاف بينها وبين زوجها فهجرت جبل الدروز وجاءت الى القاهرة ، ثم وافقت على ان تعمل مع الدكتور بيضا . ولم أعـــد التقيها إلا عندما زرت لبنان ذات صيف فجاءت تتفقدني في فندق الجبيلي في عاليه . حاولت جهدي إقناعها بالعودة الى زوجها دون جدوى . وفي دمشق التقيت اخاها فؤاد فدعاني الى نزهة . رحبت بدعوته بطيبة خاطر ، واقترحت ان تكون هذه النزهة رحلة الى جبل الدروز . وافق فؤاد على اقتراحي ، وكانت اسمهان موضوع حديثنا

ونحن في طريقنا الى منزل زوجها . وعندما شاهدت قصر الامير واناقة أثاثه والعز الذي كانت ترفل به ، استغربت ان تكون قد رفست كل هذه الأشياء كي تعيش « على كيفها » كما كان يدعي مروجو الاشاعات . عند عودتي الى بيروت اسرعت أقابلها وأحاول من جديد ان ألومها على تهورها ، فأخذت تضحك بعصبية وتجرع الويسكي بهستيرية وتقول :

ـ عندك حق ولكن « اللي ما يعرفش يقول كف عدس » .

وانتشرت الاشاعات تنهش باسمهان من كل صوب . فمنها من كان يقول انها تعمل في الجاسوسية ، ومنها من قال ان ام كلثوم خشيت من منافستها لها ، ومن قائل ان الملكة فريدة عملت على ابعادها عن الاراضي المصرية . والحقيقة ان اسمهان كانت متهوّرة متطرفة لا تعرف للحد الوسط معنى . فالحياة لا قيمة لها بنظرها . اذا شاءت الغناء غنت حتى الصباح ، وان شربت فللثمالة ، وان أحبّت ضحّت بنفسها دون حساب . واذا ما كرهت فكرهها لا يداويه إلا الموت . كان كرمها مخيفاً ، تعطي ما لديهـا دون حساب ، ولا تفكر في غدها ، كما كانت تعطف على الفنانين ولا تعرف التمييز بين غني وفقير . وعندما وقـع لها الحادث المشؤوم فجعتُ بها كما فجـع بها جميع محبيها من الوسط الفني ومن خارجه . وما زلت اذكر الفتاة الطيبة البريئة التي كانت تسكر من حولها بصوت جميل كأنه مزمور من السماء .

وما ان أقبل صيف تلك السنة حتى أشار علي بعض الاصدقاء بالعمل في الاسكندرية . راقت لي الفكرة ، فأسرعت استأجر صالة وأزودهـا بالاثاث الجميل ، كما تعاقدت مع عـدد من المطربات ، وقدمت برنامجاً حافلاً ، ولكن المصروف كان ضعف المدخول ، اذ انني لم أكن أبخل على الفنانين ، بل كنت أدفع لهم أقصى ما يمكنني دفعه . كانت اجور الفنانين عاليـة باعتبار اننا كنا في الاسكندرية ، كما كنت أتعهد بنفقات السفر وباقامتهم في الفنادق .

وفي هذه الاثناء وصل نجيب الريحاني الى الاسكندرية كي يقدم اربع حفلات على مسرح الهمبرا . كان لنا اصدقاء اسرة النحاس ، التقاهم نجيب في احدى حفلاته فلم يمكنه الا ان يسألهم عني . قالوا بصراحة : يجب ان تعود المياه الى مجاريها بينكما لان الجمهور ما زال يحب ويقدر الثنائي نجيب وبديعة . وقد استاء الجميع من انفصالكما . » فقال نجيب : حباً وكرامة ، لا مانع عندي ان التقيها اذا هي وافقت » . فأجابته مدام نحاس : وانا اتعهد بجمعكما في منزلي .

وفي مساء اليوم التالي جاءوا الى صالتي وفاتحوني بالامر . كنت اجهل ما قاله لهم نجيب ، فوافقت على اقتراحهم غير انني اشترطت ان يحضر نجيب بنفسه الي ... كنت اعتقد انهم يمازحونني ولم يخطر ببالي انهم فعلاً يحاولون جمعنا من جديد . قضينا مع عائلة النحاس سهرة لطيفة ، اشترك فيها احد آل سرسق ، كان رجلاً مسناً لطيف المعشر حلو النكتة لا يفارق الصالة قط . فتبرع بنفقات الصلحة لا لشيء الا ليرى كيف سيقابل الواحد منا الآخر بعد تلك القطيعة وذلك الجفاء .

مضت السهرة وانا ما زلت اعتقد ان حديثنا لم يكن سوى مجرد تسلية ، كما كنت استبعد ان يأتي الي نجيب بعد كل ما بدر منه نحوي . ولكن للمصلحة احكام ... كان العمل في ادارة الصالة قد ارهقني كما كنت قد مللت التوفيق بين جولييت وانطوان . ونجيب من جهته بحث عبثاً عمن تحل محلي في فرقته ولم يوفق ... وهكذا جمعتنا المصلحة من جديد وعاد نجيب الى منزلي . ونحن في طريقنا الى البيت سألني عن الكلب الذي كنا قد احضرناه معنا من اميركا وكان اسمه ديك ، وتساءل هل يمكن لديك ان يتعرف اليه بعد هذه الغيبة الطويلة . وما ان فتح الباب حتى قفز الكلب على نجيب من بين العدد الكبير من الاصدقاء الذين رافقونا في تلك الليلة وبقي ملتصقاً به طول السهرة ، واذا ما خطر له ان يتزحزح من مكانه ظنه ذاهباً فيتعلق به ولا يدعه يسير قيد أنملة

عدت مع نجيب الى شهر عسل جديد ، نسيت فيه ما قاسيته من كسله وسوء تصرفه .

انتشر خبر صلحتنا في الوسط الفني وبين رواد الصالة ... وكانت النتيجة اننا لم نعد نرى أحداً يتردد على ملهانا مع اننا كنا من قبل لا نجد محلاً شاغراً . انقلبت الايام وهبط الايراد وانا لا اعرف لهذه الظاهرة معنى . وكان كل منا يحلل هذا الوضع كما يحلو له ، فمنهم من ظن ان بعض الذين ترددوا على الصالة فعلوا ذلك لغاية في نفسهم ، فخاب ظنهم بعد ان عدت الى نجيب .

وكنت من جهتي احتار وأتساءل :

« مال الناس ومالي ، هل يريدونني ان ابقى على خصامي مع زوجي حتى يأتوا الى صالتي ؟ »

لم يواظب على حضور حفلاتنا إلا عدد قليل من الاصدقاء ، ومن بينهم السيد سرسق الذي سبق لي ذكره . كان الموسم قد قرّب الى نهايته فقررت ان أحل الفرقة واذهب الى القاهرة كي استعد لموسم الشتاء . وافق نجيب على اقتراحي وقال لي ان لديه رواية لا يمكن لسواي ان تقوم ببطولتها واسم الرواية والبطلة « ياسمينة » . وكان نجيب يستعد لتقديم روايته هذه على المسرح الصغير الى ان يخلو له مسرح البرنتانيا . واتفقنا على ان نلتقي بمنزلي الصغير حتى نكون قد عثرنا على منزل أكبر يتسع لنا جميعاً .

قبل ان اترك الاسكندرية نهائياً الى القاهرة ، تبين لي بعد تصفية حساباتي انني واقعة تحت خسارة ١٣٠٠ جنيه مصري . وصدف ان كان السيد سرسق موجوداً في الصالة عند قيامنا بعملية جردة الدفاتر فعلم بامر الخسارة . كانت آخر ليلة نحييها في الاسكندرية غنت فيها ماري جبران ، وكان صوت ماري يروق لذلك العجوز الظريف . فسالت الشمبانيا على طلبه ، كما أكرم افراد التخت والعمال ولم يدع احداً إلا وقدم له ما فيه

النصيب . واقترب مني وفي يده مبلغ محترم رفضت أخذه في بادىء الأمر فهمس في أذني قائلاً :

ــ « خذيه انك أحق من الذين سيرثونني . ان مبلغاً كهذا لا يؤثر علي بل يسوؤني ان أراك عملت وتعبت طوال الصيف كي ينتهي بك الامر الى الخسارة . »

شكرته على جميله وكانت آخر مرة التقيته بهـــا . وما زال يمثل في ذاكرتي الرجل الطيب ، الرجل الوحيد الذي مد لي يد المساعدة دون اي مقابل ... وكنت ادرك تمامـــاً ان الرجل لا يبذل شيئاً إلا كي يسترده أضعافاً مضاعفة !

تركت الاسكندرية وعـــدت الى القاهرة ، كان نجيب ينتظرني على المحطة . ونحن في طريقنـــا الى البيت سألني عن جولييت فرويت له كل ما حدث لي معها وكيف عادت الي تائبـــة مستغفرة وكيف تزوجت من ابن اختي كي تتمكن من العودة الى مصر . ولم اخف عليه انني اعتبره المسؤول الاول في كل ما حدث ، فلو لم يطلعها على سر مولدها لمـــا حصل لنا ما حصل .

كان قد تبين لي ان جولييت قد خدعتني كما خدعت شقيقتي وابنها لا لشيء الا كي تدخـــل مصر وتعمل في السينما او على المسرح وياليتها كانت تصلح لاي منهما فصوتها نشاز وهي لا تحسن الرقص . وكانت ما ان تشعر انها حامل حتى تعمل ما بوسعها كي تجهض نفسها دون ان تدعنا نعلم وحياتها مع زوجها جحيم دائم تختلق حججاً واهية للشجار والتنغيص .

ولكن بعودة نجيب الى المنزل تغيّر الجو وصفت لنا الحيـــاة نوعاً . انتقلنا الى مصر الجديدة ، تركت ادارة الصالة الى انطوان وانصرفت الى العمل في رواية نجيب . كان الاقبـــال على « ياسمينة » عظيماً ، ازدحم المسرح بالرواد وعرفنا موسماً من ازهى مواسمنا وابهاهـــا . ولكن نجيب

ــ وما العمل في اصلاح ما افسده الزمن ؟ ــ كان ينفق بدون حساب ، ويقضي لياليه برفقة بديع خيري ولا يهتم بتقديم رواية جديدة . فخشيت على ما كان تبقى لدي من مال واسرعت بشراء قطعة ارض في حدائق القبة ، وضعت تصميم فيلا جميلة ثم كلفت احــد المهندسين بتنفيذ ذلك التصميم . وفي احدى المرات رافقتني فتحية احمد اليها ، فأعجبت بموقعها وبالمناظر الجميلة التي تحيط بها ، ورجتني ان ابني لهــا بيتاً صغيراً بالقرب مني . نزلت عند طلبها واقمت لها منزلاً لطيفاً ارتاحت الى السكنى فيه مع اولادها . اما الفيلا فكانت مكونة من دورين ، تحيط بهما حديقــة لا تقل مساحتها عن ٤٧٥٠ متراً مربعاً جعلت منها جنة صغيرة . لم تتح لنجيب فرحة الدخول الى ذلك البيت اذ اننا تخاصمنا وافترقنا قبل ان يتم بناؤه . كان عملي مع نجيب « سخرة » لم اذكر انني تقاضيت منه مالاً طيلة مدة اقامتي بادوار البطولة في تمثيلياته ... كنت زوجته وبالتالي كان علي ان اشاركه في مجهوده ، ولكنه لم يفكر يوماً في ان يرد لي ما كنت ابذله في سبيله . وهكذا عملت في رواية « ياسمينة « دون ان اتقاضى اي اجر ، ومن جهــة ثانية لم ينجح انطوان في ادارة الصالة التي عهدت اليه بها . كنت قد انفقت في العمار ما سبق ان ادخرته ، فاضطررت الى ان اجد المال اللازم والا توقف المهندسون عن البناء .

انفصلت عن نجيب وعدت الى العمل بمفردي . كنت ادير الصالة ايام الشتاء وانتقــل في الصيف الكازينو الواقــع على كوبري الانكليز ، ذلك الكوبري عرف بعدها ، « بكوبري بديعة » . كان الجمهور قد اعتــاد طريقة عملنا واستساغهــا وارتاح اليها اذ اننا كنا نقدم حفلات خــاصة بالسيدات . ومما أذكره انني عندما أردت ان أطبع الاعلانات عند المرحوم الشيخ عبد الرحيم على مطابع « الرغائب » ، استنكر عملي هذا مؤكداً لي ان السيدات لن يحضرن الى صــالة رقص . فناقشته بحدة وقلت له ان صــالتي هي شبه مسرح لأنني أقدم فيهـا المونولوجات والاسكتشات الى


J. WEINBERG

جانب الغناء والتمثيل ، وما الرقص الا عاملاً ثانوياً من عوامل نجاح برامجنا . وعاد الشيخ عبد الكريم ينصحني بان لا « أقلل عقلي » بتقديم « حريمي » . ولكنني أصرّيت على رأيي وأردت ان اذهب بتجربتي هذه الى النهاية . كما أردت ان تأخذ السيدات فكرة حسنة عن صالتي حتى لا يحلن دون تردد أزواجهن عليها .

وما ان انتشرت الأعلانات حتى انهالت علينا المكالمات التلفونية من كل جانب ، وكان أصحابهـا يمطروننا بالأسئلة الفضولية . صدف ان حضرت الى مصر في تلك الايام ملكة جمال تركيا ، فدعوتهـا الى حفلة الافتتاح وأعلنت عن موعد حضورها . ازدحمت الصالة بالسيدات وكن ينتمين الى أكرم الأسر المصرية وأكثرها تحفظاً وتمسكاً بالتقاليد . كما جاء الشيخ عبد الرحيم كي يرى خيبتي (على حد قوله) ، فخاب ظنه عندما رأى شرطي المرور منهمكاً في محاولة حفظ نظام السير في تلك الساعة .

اما الحفلة الثانية فأحياها محمد عبد الوهاب وكان في أزهى أيام شبابه لم يكن جميلاً بكل ما في كلمة جميـل من معنى ، انمـا كان له سحره الخاص : فللون بشرته عند المعجبات سحر ولنظارتيه سحر ولعيونه سحر واي سحر ... وصوته ماذا أقول عن صوته .. وكان علاوة على هذا وذاك في منتهى اللطف والتهذيب . فاذا ما أمسك بالعود انسجم مـع انغامه وراح يغني دون ان يعير ولو التفاتة بسيطة الى الجمع من الحسناوات اللواتي كنا ينظرن اليه بلهفة وتقدير . ومـا ان يقول آه حتى تتصاعد الف آه وآه ، ويتعالى التصفيق الناعم المترف . وكنت اذا ما خطر لك ان تنظر الى الصالة عند انطفاء النور ، بهرت عيونك الجواهر تتلألأ على تلك السيدات ، كما يعود نجاح تلك الحفلات الى خلوهـا من الرجال ، وكان ذلك يسمح للسيدات بان يتصرفن عـلى سجيتهن دون تكليف او تردد . وكنا ما زلنا في سنة ١٩٢٨ .

ولم تلبث تلك التقاليد ان انقضت وانقضى معها عهد الحريم ، فصارت

المرأة ترافق الرجل الى المحلات العامة ولم تعد تكتفي بالكشف عن وجهها فقط . وبالرغم من ذلك التطور ونزولاً عند طلب بعض الاسر التي لم تجار سرعة الزمن ، تمسكت بتلك الحفلات وواظبت على احيائها ، ولم ألغها تماماً إلا عندما لم يعد يقبل عليها احد بالمرة .

تابعنا عملنا في الصالة وعندما أقبل الشتاء دون ان يفكر انطوان باستدعاء زوجته من لبنان ، باحثته بامرها لأقنعه بالذهاب اليها في منزل والدته . ضاق بي وقال بصراحة : « اتركيني الآن لانني محتار ، لم استقر بعد على رأي . من الآن الى ان تعود من لبنان بيفرجها الله ! » .

انتهى موسم ثان وأقبل شتاء آخر وجولييت ما زالت عند والدة انطوان في لبنان . ضاقت شقيقتي ذرعاً بتصرف ابنها فأرسلت تحريراً تنبئنا فيه بقدومها الينا برفقة كنتها . خشي من مجيء والدته الى القاهرة فاسرع بالسفر الى لبنان . غاب اسبوعاً واحداً عاد بعده برفقة جولييت . سررت منه اعتقاداً مني انه انهى الخلاف المستحكم بينه وبين زوجته . رحبت بهما وانزلتهما عندي احسن منزلة .

ثم بدأ التغيير يظهر عليه شيئاً فشيئاً . كنا نعود معا بعد انتهاء العمل في الصالة ولم يكن لدينا سوى سيارة واحدة . فأخذ يتملقني ويداورني الى ان اشتريت له سيارة ثانية . ومن يومها لم يعد يرافقني الى المنزل عند انتهاء العمل بل اخذ يلفق لي الحجج كي يفلت مني ومن مراقبتي . فيقول لي تارة ان عليه ان يقوم بترتيب الاعلانات ويطلب مني تارة اخرى ان ارتاح ولا اجهد نفسي في السهر . جازت علي حيله في اول الامر ، واعتقدت انه بلغت به محبته لي حداً اراد معه ان يريحني من الاعمال المزعجة . ولكن حبل الكذب قصير وسرعان ما انكشف لي غشه وخداعه .

كنت ما ان اصل الى البيت حتى تسألني جولييت عنه ، فأقول لها لم تكن ترتاح لكلامي وانطوان لا يعود الا مع الفجر كنت الاحظ عليها

الارتباك والتعب ، واحتفظت بسرها الى ان انفجرت يوماً ، وكان زوجها قد تأخر اكثر من عادته فايقظتني من نومي وهي تبكي . وفي غمرة دموعها اعترفت لي انها حامل وانها متأكدة من ان زوجها يخونها مع ربيبة نعمتي بيا . استغربت كلامها هذا ، وهالني ان تكفر بيا بالجميل وتنسى الخبز والملح ، فطلبت من ابنتي ان تقدم لي برهاناً عما تقول . فروت لي انها عندما كنت اصل بمفردي الى المنزل واقول لها ان زوجها ما زال في الصالة ، كانت عندئذ تتصل بالعمال فيقولون لها : ان سي انطوان خرج مع الست بيا من زمان ! » كما أسرّت لي انه اصبح يعاملها كشقيقة ونسي تماماً انها زوجته .

شاركت جولييت بكاءها وانا لا ادري ماذا اقول ولا كيف اتصرف بعد هذه الصدمة التي لم أكن اتوقعها . واذا بانطوان يدخل علينا ونحن على هذه الحالة غارقين بدموعنا . لم ينكر شيئاً بل شجّعه ما كان قد شربه عند بيا على ان يعترف بعلاقته معها وزاد على ذلك انه مصمم على الطلاق . استعذت بالله من كافرات النعمة وناكرات الجميل وعملت ما في وسعي كي اخمد ثورتها . ولم انم ، بل بكرت الى منزل بيا ، وكان قد اصبح لها منزل . دخلت عليها كالقطة المفترسة اريد تمزيقها ، ولكني لحسن حظها وجدت عندها احد نواب الصعيد . كان ذلك الصعيدي يعلم كل ما انفقته عليها ، وعندما رويت له كيف ردت لي جميلي صعق لما سمع وهرع اليها يكيل لها الصفعات بدون شفقة ويقول : هذا جزاء المعروف يا مجرمة يا خائنة ! » كان يضربها بدافع الغيرة ايضاً لانه كان يجهل علاقتها بانطوان . بكت من الألم وحاولت ان تبرر نفسها قائلة :

— لم يكن الذنب ذنبي بل كان ذنب الست بديعة لانها كانت تتركنا وحدنا في منزلها اثناء غياب جولييت . كان علي ان ابتعد عن انطوان ولكني لم اكن أتوقع ان تتطور علاقتنا بهذا الشكل اذ كان في البدء يرجوني ان أعطيه دروساً في الحب كما كان يقول :

هجمت عليهـــا وأمسكت بشعرها ، فتدخـــل النائب وحـــال بيني وبينها . ولكن لم ينته الامر عند هذا الحد ، بل قلت لها وانا خارجة :

– الله ينتقم منك يا ببا خربت بيتي ، لا تدعيني ارى وجهك بعد اليوم في صالتي ، والا مزقتك شر تمزيق !

وتتابعت الايام ، واقترب موعد وضع جولييت . ارسلت استدعي شقيقتي من لبنان . وما لبثت ان أطلت علينا طفلة جميلة أصرّت نظلة على تسميتها بديعة إكراماً لي . لم نطلع ام انطوان على تصرفات ابنها ولم ترو لها جولييت شيئاً مما وقع لها مع ببا . كتمنا عنها الاخبار السيئة حرصاً منا على صحتها وكانت تشكو من الربو . كما عهدت بمعالجتها الى الدكتور عبدالعزيز احد أشهر اختصاصيي امراض الصدر والشرايين في تلك الايام . فرحت نظلة بالطفلة الجديدة وأبدل وجودها بيننا جو التنكيد الذي كنا نعيش فيه قبل قدومها الينا .

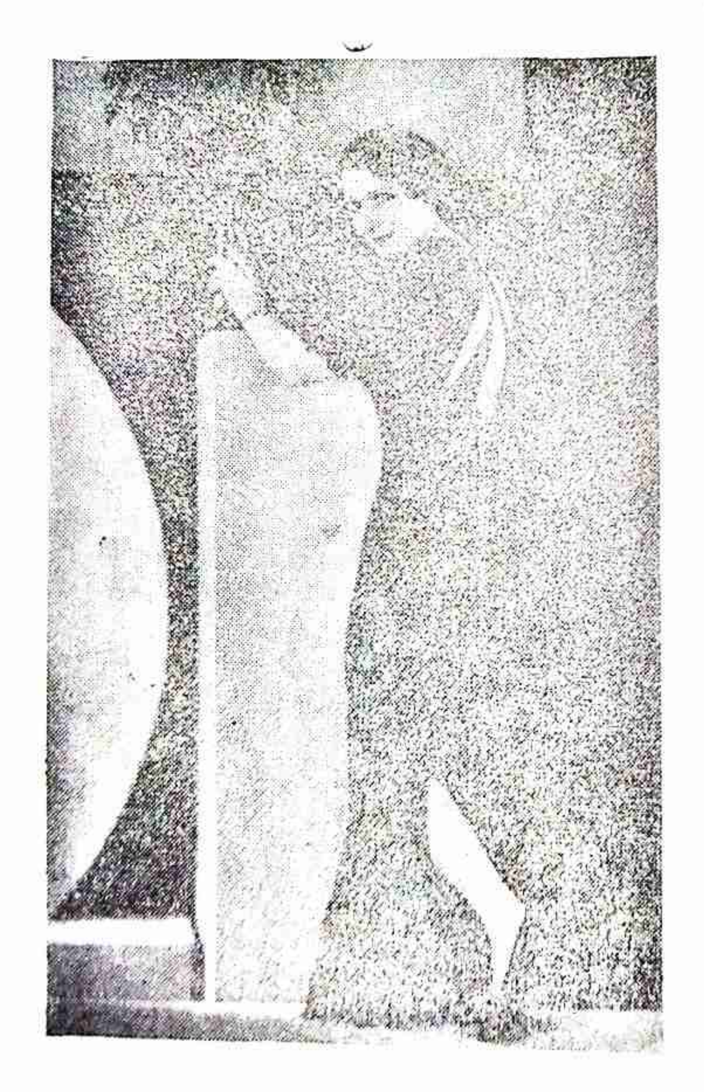
تناست جولييت وجود ببا ، ولم يعد انطوان نفسه يشعر بها . ولكن الايام السعيدة قصيرة جداً لا تلبث ان تنقضي وكأنها حلم سريع ..

لم يمهلنا القدر أكثر من ستة أشهر انتاب نظلة بعدها المرض واشتدت وطأته عليها . لم نعد نفارقها دقيقة واحدة ، وكانت هي تلتصق بحفيدتها ولا تسمح لنا ان نبعدها عنها ابداً . وفي احد الايام اعتقدت انها تحسنت فتوجهت الى الصالة كي أشرف على بعض الترتيبات الجديدة . وما كدت أصل الى محل عملي حتى اتصل بي انطوان بالتلفون وطلب مني وهو يبكي ان أسرع بالعودة . وفي طريقي الى المنزل عرّجت على الطبيب ، فنظر الي بحزن وقال : « دعيها ترتاح ، كفايه عذاب وابر وعلاجات ، فالموت أفرج لها من الحياة ! » . هرولت الى سيارتي وكدت اصطدم اكثر من مرة بالسيارات لفرط سرعتي . ولكن الموت كان أسبق مني اليها ، ولم يتح لي ان أقف الى جانبها في تلك الساعة الرهيبة . لم أشعر باليتم الا عند وفاتها لأنها كانت ، بالنسبة لي ، الأم والأب والأشقاء . كانت كل

شيء في حياتي ، وما ان أضيق بالناس والعمل حتى أسرع الى أحضانهـا التمس العزاء والسلوى . وكانت من جهتها تعلم حاجتي بل جوعي الى العاطفة ، ولم تكن تضن علي بها .

* * *

ما ان رحلت نظلة حتى رحلت معها سعادتنـا وخيم على منزلنا جو قاتم من الحزن والالم . لم يكن طيفها يفارقني ابـدأ أنى اتجهت وحيثما توجهت . وكم من مرة حدث لي وانا أغني او ارقص ان تمثلتها امامي بحنانها وعطفها وقلبها الكبير فتملكتني الغصة واختلطت ابتسامتي بالدموع وتركت المسرح وأضواءه لأختفي وراء الكواليس . فقدتها في سنة ١٩٣١ ومـا زلت افتقدهـا وأتحسر عليها الى الآن . كما اني احببت اولادها من بعدها ولو ان الفرق شاسع بينهـم وبين ما كانت عليه والدتهم من الطيبة والاخلاص .



عـاد انطوان يقابل ببا ويبذل لها كل مساعدة ممكنة ولو على حسابي انا . لم تجرؤ على مزاحمتي في القاهرة بـل اخذت مقهى في الاسكندرية . وبالاتفاق مع انطوان انتزعت من صالتي عدداً من الفنانات من بينهن فتحية محمود . ولكن

لم تعمل على طريقتي انا ، لم يكن عندها برامج ولا تذاكر دخول ، بل كان عملها محصوراً في فتح زجاجات الخمر للراقصات . وبالتالي لم تجرؤ عائلة واحدة على ارتياد مقهاها لسمعتها السيئة .

بقي انطوان يتردد عليهـا وجولييت صـابرة على مضض ، الى ان صحوت في احدى الليـالي على صوت شجار صادر من غرفتهما ، واذا بهما يقبلان علي معاً ويرجواني ان اعمل على طلاقهما . لا يمكنني هنـا والشهادة لله إلا ان اعترف بان الذنب كان ذنب ابن اختي وليس ذنب زوجته لانه أهملها كثيراً وكان يرتكب المعاصي دون ان يكلف نفسه عناء التستر على ما يفعل .

كنت من جهتي احاول مداراتها والترفيه عنها ولكني لم أتمكن من ان اعوضها عطف زوجها . وما ان اشرق صباح ذلك اليوم حتى اسرعا الى لبنان كي يحصلا على الطلاق ، وكان لهما ما ارادا .

عند عودتهما الى القاهرة لم يعد بامكاننا ان نعيش تحت سقف واحد كما كنا من قبل . فسألت انطوان : « والآن ماذا تريدنا ان نعمل ؟ » . فأجاب بكل بساطة : « سأرحل انا عن هذا المنزل ودعي جولييت وابنتها تعيشان معك ! » وانتهى الأمر عند هذا الحد .

اقبل علي انطوان كي يودعني فارتميت على صدره ابكي وأحـاول ان استبقيه معنا . وتعلقت به ابنته تستجديه : « بابا خذني معك يا بابا ، انا عاوزاك يا بابا . » بالرغم من قساوتها وشراسة طبعها لم تمالك جولييت من البكاء عندما هم بتوديعها . فاحتضنها وقبلها قبلة طويلة واسرع لا يلوي على شيء . عندما رأيته يترك زوجته وابنته وبيت طفولته رفعت عيني الى السماء وقلت على مسمع منه : « الله يجازيك يا ببا مثل مـا فككت عائلة سعيدة وشردت طفلة بريئة . »

حاولت ان انسي جولييت مأساتهـا ولكن لسوء الحظ لم اوفق في سعيي . كانت تشكو من وحدتها في المنزل عند ذهابي الى عملي . فصارت

فتردد على الجيران وترافقهم الى السينما وأماكن اللهو . ومـا من مرة سألت عنها في البيت ووجدتها . عند ذلك ادركت انها تستعد للعب بالنار . اصررت على صيانتها واصطحبتها معي الى الصالة علها ترفه عن نفسها وتنسى وحدتها . كما كنت اتفانى في تدليلها وفي تلبية طلباتهـا . ولكن انى للانسان ان يتخلص من المقدر له . تعرفت في الصـالة على زوجة حـد الموظفين ، وصارت تزورها في منزلهـا . وفي احدى الليـالي لم تعـد الى البيت الا مع خيوط الفجر الاولى . أنبتها على استهتارهـا فثارت علي ، جمعت ثيابها ثم تركت لي الطفلة وهجرت المنزل . انطلقت للقاء صديقها وكان ما زال صحفياً ناشئاً في تلك الايام . غير انـه يعتبر الآن من ابرز صحفيي القاهرة واوسعهم شهرة .

لم اكن قد اعتدت تربية الاطفال اذ لم يقدر لي الله ان ارزق بهم، ولم ارض ان اعهد ببديعة الى الخدم ، بل ابرقت الى نقولا شيخـاني صهر انطوان وطلبت منه ان يدع زوجته ترعى ابنة اخيها ، عند عودته من الاسكندرية جاء انطوان لزيارتي فرويت له ما حدث لي مع جولييت ، واطلعته على وجود ابنته عند عمتها في لبنان . فارتاح الى ما آلت اليه الامور وطلب مني ان يعود الى المنزل كي يساعدني في عملي في الصالة .

عند انتهاء ذلك الموسم خطرت لي فكرة السفر الى اليونان وهنجاريا كي ارفـّه عن نفسي واتعاقد مع فنانات من تلك البلدان . اصطحبت انطوان في تلك الرحلة . ابحرنا في اتجاه اليونان واول ميناء وصلنا اليه كان ميناء البيري . اقمنا هناك عشرة ايام اتفقنا خلالها مع عدد من الراقصات وافراد فرقـة بهلوانية . ثم قصدنا هنجاريا على متن طائرة من شركة اللوفتهانزا . اعجبت بمناظر بودابست وبنوع خاص عندما شقت الطائرة الغيم وعلت فوقه . وعند انتهائنا من اعمالنا سألنا عن طائرة نستقلها فقيـل لنا ان موسم الطائرات قد انتهى وان علينا ان نكتفي بالقطار . كانت المسافة بين بودابست واثينا لا تستغرق سوى بضع ساعات بالطائرة ولكنها في

القطار تحتاج الى عدة ايام ، وكنت مرتبطة بموعد اقلاع الباخرة وبمواعيد وصول الفرق الفنية . انتقلنا فجـأة من الصيف الى الشتاء فاضطررنا لشراء ثياب شتوية . انتهى بنا الامر الى العودة بالقطار وهكذا اتيحت لنا زيارة بلغاريا ورومانيا .

قدمنا في ذلك الموسم برامج حافلة نالت استحسان الجميـع ، ولكني كنت الاحظ على انطوان الحيرة والارتباك . ارغمته على الكلام فصرح لي بان ببا ارسلت تستدعيه بسرعة وتخبره انها اخذت كازينو الشطبي في الاسكندرية . خيّرته بين الذهاب الى ببا والبقاء معي . فادعى انـه بحاجة الى الراحة ووعدني انه سيعمل جهده كي يتخلص منها كنت في ذلك الوقت اتفاوض مع شركة غومون فيلم وبوليدور لانتاج افلام قصيرة ولتعبئة اسطوانات على حسابي الخاص . فاطلعته على مشروعي وقلت له :

– علي ان اسافر الى باريس الآن واذا ما كنت قـد تخلصت من ببا عند عـودتي فسأهبك الصـالة تعمل كما تشاء ، بينما انصرف الى الاسطوانات والافـلام لانني تعبت من الوقوف على المسرح والسهر الى آخر الليل .

وافترقنا . ذهب الى الاسكندرية وسافرت انا الى باريس . كنت قد اصطحبت معي الاستاذ عزت الجاهلي الملحن وعازف العود المشهور . وفي العاصمة الفرنسية التقيت سامي الشوا فاشترك معنا في الافلام وفي الاسطوانات وكانت جميعها موفقة للغاية مكثت في باريس مـدة شهرين زرت معالمها واطلعت على اثارتها ، وقبـل ان اغادرها بمـدة وجيزة وصلتني من انطوان برقية يطلب مني فيها ان اذهب للقاء نجيب الريحاني الذي كان قادماً الى مرسيليا على متن طائرة الاسبيريا . لم يوضح انطوان مـا كان يريده مني نجيب فأثار بذلك فضولي .

اسرعت لاستقبال الريحاني ورحبت به . وازيك يا نجيب ، وازيك يا بدعدع يا حبيبتي يا عيوني ، الى آخر سلسلة المجاملة والمداهنة التي يتقنها

الرجال للوصول الى غايتهم . كنت قد اودعت حقائبي في الامانات كي استقبل نجيب لأعرف ما يريده مني .

ذهبت برفقته الى مطعم باسو المشهور بالسمك والبويابيز . كان ذلك المطعم يقع على شاطىء البحر وكان الجو جميلاً يدعو الى اللطف والتحبب فبادرني نجيب بقوله : « اسمعي يا بدعدع ، انا ما اخبيش عليك حاجة انت حبيبتي ومراتي ومهما حصل برضو احنا لبعض ! »

هكذا كان نجيب لا يحسن العواطف ولا يتذكر انني زوجته الا عندما يكون بحاجة الي . تابع يقول :

ـ جالي اثنين من تونس وعرضوا علي ان اقوم برحلة الى هناك على شرط ان تكون معنا بديعة . فلم امانع لانني اعرفك واملي كبير بانك لن ترفضي طلبي ...

انا مش ممكن ارفض لك اي طلب . ولكن ...

ما لكنش ولا حاجة . اذا رفضت خربت بيتي لان الفرقة هي الآن في طريقها الى هنا . هذه آخر خدمة أطلبها منك واذا توفقنا حصتك محفوظة .

ـ ايوه زي العادة ! »

نسينا نفسنا في الاكل والشرب . ولكنني كنت مترددة في القبول اذ كان علي ان اتدبر امر الافلام والاسطوانات في مصر وكانت قد كلفتني ثروة . كما كنت اختلفت مع شريكي في الصالة الصيفية وتعاقدت مع اصحاب كازينو « الفنتازيو » ودفعت لمذكور باشا مبلغ ٢٥٠ جنيها كعربون . لم يهتم نجيب لتلك العقبات التي خلتها ستحول بيني وبين السفر معه الى تونس . بل ربت على كتفي وقال لي ضاحكاً :

ـ ما تحمليش هموم الدنيا كلها على ظهرك وما طيرليش الكام كاس من دماغي وغداً يفرجها الله ... الله جرالك ايه يا بدعدع انت عايزه تعملي افلام واسطوانات وتغني وترقصي وتمثلي معي على المسرح . ليه

تتعبي نفسك الى هذه الدرجة ولمين رح تتركي ثروتك . اولاً ما عندكيش اولاد وثانياً انا لا أريدك ان تموتي قبلي لان مش من مصلحتي ان أخسرك وانت ثروتي وحدك . ياللا قومي ننام والصباح رباح ! »

قضيت بين أحضانه ليلة انساني خلالهـا مصر والأفلام والاسطوانات والكازينو ولم أستيقظ إلا في الحادية عشرة صباحاً . وكانت اول مرة ينهض نجيب قبلي ابوقظني بنفسه . اشار علي بكتابة رسالة الى انطوان اعهد اليه بالافلام والاسطوانات واطلب منه ان يسعى الى بيعها بشروط حسنة . اتصلت تلفونياً بعزت الجاهلي وكان ما زال في باريس كي يرسلها الى مصر باسم ابن شقيقتي ودعوته الى اللحاق بنا في تونس .

كانت قد سبقتنا دعاية ضخمة ، فاستقبلتنا على الارصفة جموع غفيرة جـاءت ترحب بنا واكرم التونسيون وفادتنا وجعلونا نلمس حبهم للفن وتقديرهم للفنانين . كان قد سبق لنا ان اتفقنا مـع المتعهدين التونسيين على احياء عشر حفلات في مدينة تونس ولكن اهالي المدينة اصروا على ان نعود اليهم لاحياء خمس حفلات اضافية بعد ان ننتهي من جولتنا في سائر انحاء البلاد . ولم تكن المدن الاخرى كصوص وبنزرت بأقل من العاصمة ترحيباً بنا وتشجيعاً لفنانينا .

ومما يجدر ذكره هنا اننا في صوص قابلنا الرئيس الحبيب بو رقيبه ـ لم يكن قد تسلم منصب رئاسة الجمهورية بعد ـ وقـد تفضل وقلدني كما قلد نجيب وساماً تونسياً . وأقيمت لنا بهذه المناسبة حفلة كبيرة بين بساتين الزيتون اقتادونا اثناءها الى احد السطوح فتسنت لنا مشاهدة اشجار الزيتون المنسقة تنسيقاً فنياً اذهلنا جميعاً وترك في نفسي ذكرى جميلة .

عند عودتنـا الى العاصمة كنا قد التقينا أكبر الشخصيات التونسية ، وقبل ان نترك تلك البلاد المضيافة الكريمة جاءنا بعض القائمين على شؤون الجمعيات الخيرية هناك وطلبوا من نجيب احياء حفلة يعود ريعها الى صندوق تلك الجمعيات . فلم يكن منه الا ان رفض اقتراحهم هـذا بعناد رغم محاولاتي اقناعه . لم يراع لا الرحمة ولا الخير ولا آداب الضيافة واستمر

في تعنته الأحمق ، كانت حجته في ذلك ان افراد الفرقة يرفضون العمل دون مقابل ، وادعاؤه هذا كان باطلاً لأن افراد الفرقة انفسهم راعهم موقفه وتبرعوا بليلة يحيونها بكل طيبة خاطر . ونتيجة لهذا الرفض الارعن قاطعتنا الجماهير واضطررنا الى ان نرحل الى الجزائر غير مأسوف علينا .

وفي الجزائر عرفنا اقبالاً عظيماً الا ان النفقات كانت باهظة نتيجة لغلاء المعيشة هناك . ولم نجنِ لا أنا ولا نجيب من هذه الرحلة سوى التعب وخيبة الأمل . ومن جهة ثانية كان افراد الفرقة قد انهكوا امعاءهم من جراء اسرافهم في الاقبال على المأكولات التونسية ، وهكذا اضطر بعضهم ان يعود الى مصر للمعالجة . ومن ثلاثين فناناً وفنانة هبط عددنا الى العشرين بقي نجيب مصراً على ان نتابع رحلتنا الى المغرب . حاولت ردعه بالحسنى واظهرت له من النوايا الطيبة ما خلته قد يغريه على الاقلاع عن عناده . ذكرته دون جدوى بالعقود التي كان قد سبق لي توقيعها . ولم يقدّر انني اهملت شؤوني وتركت انطوان يتدبر امر الاسطوانات والافلام على هواه . كان يعتبر ان التضحية في سبيله شيئاً طبيعياً يستحقه ولا يأبه لمن يبذلها من اجله . عملت في الجزائر مرغمة ، وكنت ارفه عن نفسي بالتجوال في تلك البلاد الجميلة ذات الخيرات المتدفقة دون حساب . واكثر ما لفت انتباهي واثار اعجابي خلال اقامتي هناك تحفظ الجزائريين وصدقهم واحترامهم لعاداتهم الموروثة .

كانت فكرة الفرار من نجيب والعودة بمفردي الى مصر قد بدأت تراودني . ولكن ما ان اقرر الذهاب حتى يبكتني ضميري واشفق عليه مما سيحل بالفرقة بعدي . لانها كانت قد اصبحت هزيلة للغاية ، وكان كل منا يضطر الى القيام بدورين او ثلاثة في نفس التمثيلية . وصلنا الى كازابلانكا ، وهناك التقينا السيد تيودور خياط . كانت فكرة الفرار والخلاص من هذه الورطة ما زالت تراود ذهني ولكنني لم أطلع عليها احداً ، وزاد تصميمي على النفاذ بجلدي من هذه المضايقات عندما تبيّن

لي أن نجيب مصر كل الاصرار على متابعة رحلاته الفنية مهما تألبت عليه الظروف . وكنت موقنة ان بقائي معه سيضر بمصلحتي ، كما ان سفري وهجري الفرقة سيؤدي الى فشلها والى الاساءة الى مصلحة نجيب . ولكن ما العمل ... كادت الحيرة ان تذهب بما تبقى لي من صبر ، فيقبل علي الاستاذ بديع خيري ، رفيقنا في تلك الرحلة وصديق الريحـاني الدائم ، ليطيب خاطري ويشجعني على المثابرة في عملي الفني . وكان عملي هـذا يلاقي عند الجمهور استحساناً ، كثيراً ما كان ينسيني ما كنت فيه من ضيق وارتباك ، اخفيت نواياي حتى عن بديع خيري نفسه بالرغم من طيبته المحببة وثقته الكبيرة . وبتّ انتظر اول فرصة احصل فيهـا عـلى ثمن تذكرة العودة الى مصر ، ولم يكن ذلك بالامر اليسير لانني كنت قـد انفقت ما تبقى لي بعد اقـامتي في فرنسا ، كما بات نجيب نفسه بعـد احجام التونسيين عن حضور حفلاتنا في ضائقة ماليـة خانقـة . اذن ما العمل ؟ لم يكن معي من الحلي سوى ساعة ذهبية وسلسلة وخاتم عليهما بعض الاحجار الكريمة . قصدت احد الصاغة الذي اراد اغتنام فرصـة حاجتي الملحة الى المـال كي يقتنص هـذه الحلي بابخس الاثمـان ، فلم ارض ببيعها بل رهنتها لقاء مبلغ بسيط .

عملت في تلك الليلة وانا ارتعد خوفاً من ان يبـدو الارتباك عـلي فينكشف امري ويحال بيني وبين الفرار من هذا المأزق الذي انسقت اليه بطيبة خاطر ثم اهتديت الى طريقة افر منها دون ان ادع احـداً يشعر بي كانت الفرقة تستعد للسفر الى مراكش فتسنى لي هكذا ان اجمع حقائبي وان انقلها الى المحطة دون ان اجعل احداً يرتاب بحسن نيتي . ثم تركت لنجيب كلمة رقيقة وضعتها قرب سريره . خرجت من الفندق والريحاني يغطّ في نوم هانىء لا يعكّره شيء .

اخذت القطار الى تونس ، ومنها ابرقت الى انطوان كي يرسل لي ثمن تـذكرة طائرة اعود بها الى مصر ، وصلت مصر ولم اكن اعلم انني اول سيدة مصرية تصل القاهرة بالطائرة . فانهالت عـلي الاسئلة

الفضولية من كل جانب عن الدوار وعن صوت المحركات وعن علو الطائرة ، كنت اجيب عليها بمرح وسرور كمن نال اخيراً الخلاص من اسر طويل .

عملت في تلك السنة في تلك السنة في « الفنتازيو » ، وكان موسماً ناجحاً للغاية . اعتقد صاحب مقهى كوبري الاعمى (الكوبري الذي اصبح فيما بعد كوبري بديعة) ان بامكانه ان ينجح بدوني . فتعاقد مع عدد كبير من المطربات والراقصات . ولكن الجمهور الذي كان قد اعتاد على برامجي ظلّ اميناً لي يتتبعني حيثما اذهب . كانت السيارات تمر على الكوبري امام ملهاه ، فلا تتوقف بل تتابع طريقها الى الفنتازيو » .

وفي هذه الاثناء عاد نجيب من رحلته والتقيت به صدفة . وما ان وقع نظره علي حتى استلقى على ظهره من الضحك . وسألني بظرفه المعهود : قولي لي يا عفريتة كيف هربت وهل خرجت من الباب ام من الشباك ؟

فأجبته : خرجت من السقف كالنسانيس لانني دائماً في الهزيمة كالغزال . وهذه ليست اول مرة ألجأ فيها الى الفرار ففي اول مرة فررت من والدتي والثانية من حضرتك، والثالثة الله اعلم ! » .



بيرم التونسي
سنة ١٩٣٣

كنا قد ادركنا تمـاماً اننا لن نتمكن من العودة الى العمل معاً . فافترقنا وكل منا يضمر لصاحبه الصداقة والمودة . ولم التق نجيب الا قبل وفاته بعشرة ايام . ولكن كنا ما ان يحتاج احدنا الى ممثل او مطرب او اي فنـــان حتى يسرع الآخر بتقديمـــه له بكل طيبة خاطر .

انتهى موسم « الفنتازيو » ، وكنت قد عهدت بصالة شارع عماد الدين الى انطوان واتفقت مع المطربة نادرة على القيام برحلة الى شمال افريقيا فأسرع انطوان بتأجير الصالة كي يتمكن من مرافقتنا . وسبقنا الى تونس برفقة جبران نعوم وحبيب وعبد العزيز الذي كنا نعهد اليه بتنظيم الدعاية والاشراف على الاعلانات . اعطينا اولى حفلاتنـــا في طرابلس الغرب . ويعود سر الاقبال علينا في بادىء الأمر الى نادرة . اذ كان قد سبق لها ان اشتركت في « انشودة الفؤاد » واقتضت القصة ان تموت في نهاية الفـــلم وعندما شاهد جمهور طرابلس الغرب صورها عرفها ، ولكنه لم يقتنـــع انها ما زالت على قيد الحياة بعد ان رآها تموت امام عينيه . كانوا من السذاجة الى حد انهم اعتقدوا اننا نخدعهم كي يقبلوا على حفلاتنا . وما ارتفع الستار وشاهدوا نادرة بلحمها ودمها حتى تعالى الهتاف والتصفيق . غنت فاحسنت واجادت عندما طلبوا منها اغنية : « ليلى في العراق مريضة »

وجاء دوري . لم يكن الطرابلسيون يعرفون شيئاً عني ، ولم يكن قـــد سبق لي الظهور في اي فيلم ، غـــير انني كنت واثقة من نفسي ومن فني ومن تأثيري في النظارة . وقفت على المسرح بثوبي الزهري الجميل فتموّج شعري وتمايلت على انغام الموسيقى واذ بهم ينسون نادرة وليلى والعراق . ولم يعد احد يهتف الا باسم بديعة . استعادوني مراراً الا اني تعبت من رد تحياتهم وتهالكت على مقعد في الكواليس . وبدلا من ان تهنئني كما سبق لي ان فعلت معها ، اقبلت نادرة كالنمرة المفترسة والحقد والغضب يقطران من عينيها ، وقالت لي :

ــ كيف يمكنني ان اظهر الآن امامهم بعد ما ذهبت بعقولهم ؟

فاجبتها بكل بساطة : انها ليست اول مرة تعملين معي يا صديقتي ، واخالك لا تجهلين تأثيري في الجمهور .

ـ هذا في مصر ولكن الامر هنا يختلف كل الاختلاف . لقد جاءوا لمشاهــدتي أنا ، ولكن لم يطل نجــاحي واستحسانهم لي لانك اسرعت بانتزاعهم مني .

وهكذا دخلنا طرابلس الغرب باسم نادرة وخرجنا منها باسم بديعة !

تابعنا سيرنا الى تونس ، وكانت الطريق اليها شاقة متعبة . لم اكن قد نسيت ما حلّ بنا اثناء رحلتنا الاولى الى تلك البلاد ، نتيجة لعناد نجيب الارعن ولامتناعه عن احياء حفلة يعود ريعها الى صندوق الجمعية الخيرية التونسية . فذهبت من توي الى مركز تلك الجمعية وعرضت على اعضائها تقديم ريع اولى حفلاتنا لصندوقها . استقبلوني بالترحاب وأثنوا على عاطفتي واقبل علينا التونسيون بحماس . منهم من جاء لسماع نادرة ومنهم من جاء لسماعي أنا بعد ان سبق له أن شاهدني في حفلات نجيب الريحاني . بعد ان انتهينا من العمل في العاصمة انتقلنا الى الضواحي وكانت سمعتنا الطيبة تصل الى تلك المقاطعات حتى قبل اعلانات الدعاية . وفي الدار البيضاء التقينا الدكتور بيضا للمرة الثانية ، كان قد علم بخلاف نادرة واحمد شريف فعمل وسعه كي يعيد الحياة الى مجاريها بينهما .

انتهت رحلتنا على خير ما كنا نتمنى وجمعنا منها مبلغاً محترماً ، انفقت نصيبي منه في شراء ثروة من الاقمشة التونسية والمراكشية المزركشة . على عكس نادرة التي لم تفرّط بقرش واحد حتى ولا على سبيل الهدية الى اقربائها .

وعند عودتي الى مصر ارتكبت حماقة كبيرة كان عليّ ان اتفاداها لو انني لم اعد الى سذاجتي وثقتي بكلير بالرغم مما وقع لي من مآسي على يد هذه الانسانة الشريرة . كان عليّ ان اتابع عملي الفني ولا اجازف بما جمعته بعرق الجبين وسهر الليالي . ولكن كلير كانت تحرضني على المغامرة

مدّعية ان من مصلحتي ان لا ادع « القشطة » لغيري على حد قولها ، وان لا ادع سواي يستغل اول انتاج سينمائي لي . وهكذا دفعتني الى الانفاق على فيلم كدت انتحر بسببه . فاتني انها كانت تسعى لخرابي . وعندما كنت امانع مدعية ان ليس لديّ سوى مبلغ ستة آلاف جنيه كانت تطمئنني بانها ستضع ثروتها الصغيرة تحت تصرفي .

صممت على انتاج فيلم استعراضي ضخم اكون انا طبعاً نجمته الاولى . ويظهر ان كلير كانت قد اتفقت – كما تبين لي فيما بعد – مع احد كتاب القصة المغمورين على ان يقـدّم لي سيناريو مجهزاً خصيصاً لخـداعي واغرائي بالعمل . قرأ لي السيناريو ولم افهم منه شيئـاً الا انه اطلق علي لقب ملكـة المسارح ، وانني سأكون البطلة ومحط انظار الجميع . لم اكن اطمح الى اكثر من ذلك فلم اناقش ولم انباحث معه في شيء بل قبلت على الفور . ومما زادني اقتناعاً بامانة ذلك الكاتب انه لم يطلب مالا لقاء قصته بل ادّعى انه يريد تقديمها لي على سبيل الدعاية .

كنا ما زلنا في سنة ١٩٣٥ وكان المسؤولون في بنك مصر قد اقنعوا ام كلثوم بالقيام بدور البطولة في فيلم « وداد » الذي اخذت مناظره في استوديو مصر ، وكان المدير الفني لذلك الاستوديو المرحوم احمـد سالم ، فقصدته لأتعاقد معه على تصوير فيلمي عندهم . كان لديهم استديوهان ، فطلب مني احمد سالم مئة جنيـه مصري في اليوم ايجار الاستوديو الكبير وخمسين جنيهاً في اليوم الواحد ايجار الاستوديو الصغير . كما افهمني ان ليس باستطاعته ان يقدم لي سوى عمال النور ، وعليّ انا ان اتدبر امر المناظر والديكورات وغيرهـا . وشاء سوء حظي ان اقبل بشروط احمد سالم ، وشرعت في تجهيز المناظر والملابس وارتبطت مع عـدد كبير من الفنانين والفنانات .

ظهر من التجارب التي أجريناها قبل البدء بالتصوير انه سيكون فلماً ناجحاً ، غير ان هذا النجـاح لم يرق لأحمد سالم ، فأخذ في وضـع

العقبات والعراقيل في طريقنا . وهكذا كنـــا ما ان نحدد موعد التصوير ويجتمع الممثلون والراقصات والكومبارس – وكان عددنا على مـــا أذكر يزيد على السبعين شخصاً – حتى يختفي احمد سالم ونظل ننتظره خارج الأستوديو تحت أشعة الشمس المحرقة . كما كنا نجد غرف الماكياج وغرف الانتظار مقفلة ، وينقضي النهار ونحن رهن اوامر احمد بك . وإذا ما وفقنا باحد يفتح لنـــا الابواب كان بدلا من اعطائنا الاستوديو الكبير حسب الاتفاق يدعي ان ام كلثوم تمثل فيه « وداد » ، ويرغمنـــا على دخول الاستوديو الصغير . كان عدد كبير من الممثلين يتقاضون اجورهم بالساعة كما كنت قد تعهدت بان اقدم لهم نفقات الأكل والمواصلات . لم يكن احمد يجيب على احتجاجاتنا إلا بالوعود الفارغة التي لم يكن يكلف نفسه مشقه تنفيذها . لم يكتف بذلك بل كان عندما نتوصل بعد جهد كبير الى أخذ بعض المناظر يمنعنا من رؤيتها على « المافيولا » بحجة ان ان الغرفة ما زالت مشغولة بام كلثوم . واستمرت الحال على هذا المنوال طيلة عشرة ايام . نفد بعدها مبلغ الستة آلاف جنيه التي كانت لدي ولم أكن اتوقع انها ستتبخر بهذه السرعة .

لجأت الى كلير اذكرها بوعدها لي . فقالت انها مستعدة ان تقدم لي مبلغ الفي جنيه بشرط ان ارهن عندها منزلي بفائدة ١٢٪ ، واضافت انها لولا محبتها لي وحرصها على مصلحتي لما قبلت بفائدة تقل عن ١٤٪ . شعرت باعصابي تتمزق وهممت بصفعها ولكنني تذكرت حاجتي الى هذا المبلغ وتمالكت نفسي . اجبتها بكل هـــدوء ورجوتها ان تعطيني ثلاثـــة آلاف جنيه بـــدلاً من الالفين . أصرّت على الالفين وعندمـــا رأت الدموع تكاد تطفر من عيني قبلت بان ترفع المبلغ الى الفين وخمس مئة جنيه . لم يمض اسبوع واحد حتى كانت الالفان وخمس مئة جنيه قـــد لحقت بالستة آلاف جنيه الاولى ولم ار بدأ من بيع مصاغي بمبلغ الفين وثمان مئة جنيه . كل ذلك ولم ينته الفيلم نتيجة لمعاكسات احمـــد سالم

التي لم تكن تقف عند حـد بالرغم من محـاولاتي استرضاءه وتوسط الاصدقاء والمحبين . ومن جملة محاولاته للضرر بي اسقاط فيلمي اذ اننـا كنا قد جهزنا منظراً فرعونياً جميلاً جداً غنياً بالاجسام الفارعة والالبسة المزركشة . ما ان عـلم احمد بخبر هذا المنظر حتى حضر الى الاستوديو مسرعاً ووقف فاغراً فـاه امام روعة ما شاهـد . كنت اقوم بدور كليوباطرة والراقصات من حولي يرفلن بثياب اميرات الفراعنة . راعـه ان ينجح فيلمي ظناً منه انه قد يزاحم فيلم « وداد » ، فعمل جهده لكي يفشل هذا المنظر بالذات . وبالفعل لم يسمح لنا برؤيته على الشاشة الصغيرة حتى يتسنى لنا اعـادته فيما لو كان فيـه اي خطأ . واضطررت لرهن قطعة ارض والفيلا التي كنت قد بنيتها لفتحية احمد .

اما صدمتي الكبرى فكانت في الحفلة الاولى التي عرض فيها الفيلم أمام الصحفيين والنقاد الفنيين والمتعهدين وكل العاملين في الحقل السينمائي . كان كل هؤلاء ينتظرون هذا العرض بفـارغ الصبر . ولم يكن احدهم يشك بنجاحه لثقتهم بفني وبخبرتي الطويلة في الرقص الاستعراضي . ولكن سرعان ما خابت آمالي وآمالهم . كان المونتاج رديئاً للغاية نتيجة لتعنت احمد سالم ومحاربته لي . فجاءت القصة مفككة والصوت غير واضح . ولم يظهر حتى ولا منظر واحد من المناظر الجميلة التي كلفتني كل مـا املك . وهكذا ذهبت ضحية فيلم ام كلثوم . كان خوف احمد سالم على « وداد » مجرد وهم في غير محله ، اذ كان فيلمي يختلف عنه تماماً ، هذا عدا عن استحالة محاربة افلام ام كلثوم على أي كان ، لأن بنك مصر كان قد رصد مبلغاً ضخماً لتمويل ذلك الفيلم من جهة ، ومن جهة ثانية كانت المرة الاولى التي تظهر فيها ام كلثوم على الشاشة البيضاء . وتبين لي فيما بعد ان هذا الفيلم الذي سعى احمد سالم لفشله ــ ووفق في مسعاه ــ كلفني ما يزيد عن العشرين الف جنيه مصري . وكان الجنيه المصري بقيمة الجنيه الاسترليني ، بل ويزيد عليه بخمسة قروش تعريفة .

كدت أقدم على الانتحار عندما قرر الدائنون اعلان افلاسي . ولكن الله سبحانه وتعالى قدر لي قاضياً نزيهاً أقنعهم بأعطائي مهلة اضافية كي أتمكن من تدبير امري . وقال لهم ان بديعة مصابني سيدة معروفة ولن تقامر باسمها ، وستتمكن من وفاء ديونها بسرعة . اقتنع الجميع ونزلوا عند رغبته . جرى ذلك دون علم مني ، وكان اليأس قد تملكني وانا قابعة في بيتي خشية عار التشهير وذلّه . فأحضرت زجاجة ويسكي وقررت ان اسكر كي لا أجبن امـــام الموت . وضعت على المنضدة امامي انبوب اسبيرين وصرت اتناول جرعـــة الويسكي واتبعها بقرصي اسبيرين . سرعان ما أثر الخمر على اعصابي لأنني لم أكن قد اعتدته ، فشعرت بالغرفة تميد بي وتوهمت انني تسممت . أخافني الموت واخذت استغيث . فأسرع انطوان على صراخي وعندما سألني عمـــا بي أشرت الى زجاجة الويسكي وانبوب الاسبيرين . ففهم في الحال واستنجد بطبيب اجرى لي الاسعافات اللازمة . وبعد جهد طويل استسلمت الى النوم . وفي الصباح الباكر رن التلفون وسمعت المحامي يزف الي بشرى انتهـــاء القضية على الشكل الذي أشرت اليه سابقاً .

كان علي ان اقوم برحلة الى الصعيد بناء على عقد سابق . لم يمـــانع الطبيب استشرته في ذهابي ، بل شجعني على الذهاب كي استعيد نشاطي وتفاؤلي . رافقتني في تلك الرحلة راقصة جديدة كانت تدعى تحية محمد ما عتمت ان اشتهرت بتحية كاريوكا . كنت بعد فشلي في الفيـــلم ارهب مواجهة الجمهور ، لكن عاصفة التصفيق التي استقبلت بها في الليلة الاولى من عملنا في بني سويف ، اعادت الي ثقتي بنفسي وبالآخرين . وكانت تلك الرحلة بمثابة طور نقاهة مررت به بعد محاولتي الانتحار .

عند عودتي الى القاهرة صدمني واقعي المؤلم . كنا على ابواب الموسم ولم اكن قد اعددت شيئاً بعد ، لانني لم اكن املك جنيهاً واحداً من الالف جنيه الضرورية للافتتاح . وفيما كنت اتخبط في حيرتي هذه حضر

الدكتور خليل جوده شاهد زواجي من نجيب ، عصاعيصة وكان ايضاً من اصدقاء الريحاني جاءا لتهنئتي بالنجاة من محاولة الانتحار ، ولم يخف عليهما ارتباكي فألحا علي بالسؤال . لم اجد بدأ من اطلاعهما على الحقيقة وبحت لهما بأنني لم اعد اشعر برغبة في العمل بعدما لحقني من خسارة . فاستغربا ان أكون قد وصلت الى هـذه الدرجة من اليأس بالرغم من من النجاح الذي لاقيته في كل عمل قمت به . ونحن في الحديث دخل علينا انطوان والخواجى كوستي شريكي في كازينو الكوبري . فاشترك الجميع في اقناعي بالعودة الى العمل ، وبعد اخذ ورد وجدال طويل ، تم الاتفاق على ان يتعهد الخواجى كوستي بالنفقات بينما اقوم بجمع الفنانين والموسيقيين وبتنظيم البرامج .

عندما بدأت في العمل كنت ما زلت اعاني من تأثير الصدمة ولكن اعجاب الجمهور وتهافته علي وعلى البرامج التي كنت أشرف عليها ، انساني الفيلم وأحمد سالم والافلاس والديون . فعادت بديعة الى ما كانت عليه من مرح وطمأنينة ، وانحصر كل ما تبقى من همومي في وفاء ما استحق علي من ديون .

وتقديراً مني للجمهور الذي لم يخذلني يوماً ، وأصبحت أسعى لارضاء جميع الاذواق بكل ما اوتيت من خبرة طويلة في الحقل الفني . فكنت استقدم اشهر الفرق الاجنبية ، ولم أكن لاهمل الفنانات المصريات بل كان لدي منهن ما يزيد على الثلاثين فتاة من اجمل فنانات القاهرة من حيث جمال الوجه ورشاقة القد . ومن الفرق التي ما زلت أذكرها لغاية اليوم فرقة ايطالية كان بطلها يدعى كورديرو وكان يظهر على المسرح في ثياب النساء فيرقص كأبرع ما يكون الرقص واخفه . والغريب انه لم يكن يختلف بشيء عن سواه من الرجال اذا ما التقاه المرء خارج المسرح وكان هناك ايضاً رجل يقلد الضفدعة ليس فقط في نقيقها بل في حجمها اذ كان يرتدي ثوباً بلونها ويزحف على الأرض بطيئاً مثلها . وكنت

أسافر الى النمسا واليونان وايطاليا وسائر بلدان اوروبا كي اشاهد بنفسي هذه الفرق واتعاقد مع مدرائها ...

كنت قد أعطيت صالتي في شارع عماد الدين الى ابن شقيقتي انطوان لكنه لم يسع لاستثمارها ، بل عمل معي في كازينو الكوبري . وعندما فاتحته في أمر الصالة ، اقنعني انها لم تعد تليق بجمهوري ، كما ان مسرحها لا يتسع للفرق الكبيرة التي كنت استقدمهـا من الخـارج . كان موسم الصيف يشارف على نهـايته ، فعمل انطوان ما أمكنه كي يبعدني عن عن صـالتي الاولى . أقنعني منطقه ولم يساورني أدنى شك في انه كان يبعدني عنها لغاية معينة . فتعاقدت مع صاحب البرنتانيا ، وقدمت برامج نالت لدى الجمهور الاستحسان الذي كان يرافقني دائماً . لكنني لم أكن مرتاحة الى انطوان لانه كان دائماً شارداً ضائعاً وكأنه يبحث عن شيء عزيز فقده .

لم يخفَ علي امر حيرته طويلاً إذ جاءني من أخبرني بانه باع لببـا صالة عمـاد الدين بمبلغ خمسمئة جنيـه مصري ، ببا ستترك الاسكندرية وتأتي لتعمل في القاهرة وتنافسني في صالتي نفسها . أذهلني الخبر وصعب علي تصديقه في بادىء الأمر ، ولكن انطوان نفسه أكد لي صحة مـا سمعت فسألته مستنكرة : « كيف بعتها الصالة بهذا المبلغ وانت تعلم انني دفعت فيها مبلغ خمسة آلاف جنيه عدا نفقات الأثاث والديكور الذي جعل منها صالة محترمة تليق بالفرق الكبيرة ؟ كيف بعتها بهذا المبلغ وكان بامكانك ان تتقاضى مئة جنيه في الشهر لو أجرتهـا لأي انسان . كان عليك على الاقل ان تستشيرني قبل بيعهـا لمنافستي وللمرأة التي عادتني بسببك ! » لم اتمالك نفسي من البكاء !.. وتابع الراوي روايته فقال لي:

« لم يكتف انطوان ببيع الصالة لببا ، بل تآمر معها على أخذ معظم الفنانات من صالتك ومن بينهن تحية كاريوكا » .

فانتصبت أمام ابن شقيقتي وطلبت منه بالحـاح ان يبرر موقفه ولو

بكلمة واحدة ، الا انه ظل صامتاً كالصنم . فخرجت كالمجنونة ووجهتي صالة عماد الدين . دخلت لأجد ببا تستعد لحفلة الافتتاح . تحيط بها الفنانات اللواتي اختطفتهن مني . عندما شاهدنني ادخل على هذه الصورة هربن من وجهي ولم يبق امامي سوى ببا ، وأحد العمال وكان قد سبق له ان امضى مدة طويلة في صالتي . فقال لي وعيناه تقطران حقداً ووقاحة :

— ما الذي جاء بك الى هنا؟ ان الصالة لم تعد ملكك بل اصبحت ملك الست!. وهجم علي وصفعني على وجهي . اعمى الغضب بصيرتي ، فتناولت احد المقاعد ورميته به اما المقعد الثاني فكان من نصيب «الست» . وعدت ادراجي منكسرة القلب ، بعد ان أسهم ابن شقيقتي وأقرب انسان لدي في خرابي . اختفى انطوان مدة طويلة ، كان يعمل خلالها مع ببا على منافستي ومحاربة براجمي لها بشتى الطرق . لكنهما لم يوفقا في مسعاهما وظل التوفيق حليفي رغم كل ما حاكا لي من مؤامرات .

عند اعلان الحرب العالمية الثانية بدأت مرحلة جديدة في حياة مصر الفنية ، اذ كانت الجيوش البريطانية قد أقبلت عليها بكثرة . فانتعشت من جراء ذلك ، الملاهي ، ولم نعد نعي من شدة الاقبال . فكانت صالتي تحفل كل ليلة بالضباط وبالعائلات المصرية الكبيرة ، بينما صالة ببا تضيق بالجنود الذين كانوا ما ان يتناولوا قليلاً من الخمر حتى يحطموا كل ما تقع عليه ايديهم ، فيعلو الصراخ والصياح وأصوات الاستغاثة وهدير المعربدين . لم تطل المدة حتى أقفلت ببا صالتها وعادت الى الاسكندرية . كنت استقي اخبارها واخبار انطوان من بعض الذين كانوا يعرفونهما ويترددون عليهما . وهكذا عرفت ان ابن شقيقتي أشهر اسلامه ، ولم يكن احد يعرف سبب ذلك . منهم من قال انه اشهر اسلامه كي يتزوج تحية كاريوكا . ومنهم من قال انه فعل ذلك كي يقترن ببيا نفسها . وعلى كل حال استهجنت عمله لانه لم يكن مدفوعاً باقتناع او عقيدة ،

ولو انه أشهر اسلامه عن ايمان لكنت اول من هنأه بذلك . وسبق لي ان ذكرت ان اخي ليان اسلم في دمشق ، إلا انني كنت احترم معتقداته لأنه أقدم على عمله هذا عن علم ومعرفة .

قبل ان تتدفق جيوش الحلفاء على مصر كان شارع عماد الدين يمتاز بالهدوء والسكينة . وكان ملتقى محبي الطرب واللهو والمرح ، اذ كان يجمع بين المسارح وصالات السينما والمقاهي والبارات ولكن ما اعلنت الحرب ، وعرف الجنود طريق شارع الملاهي ، حتى انقلبت الآية وتحول الى ساحة حرب كلها ضوضاء لم تعد العائلات المصرية تجرؤ على اقتحامه ، كي لا تلتقي بالسكارى والمعربدين .

ولم نعد ندري كيف نتدبر امرنا وسط هذا الازدحام وتلك الفوضى وفي احد الايام زارني مصطفى ومحمد جعفر بك ، وأحضرا معهما مخططاً لبناء سينما ومسرح في ميدان الاوبرا وعرضا علي ان اتعاون معهما . فرحبت بالفكرة لكنني قلت لهما ان لا طاقة لي في الانفاق على مشروع من هذا النوع . فأجابا بان ليس لأحد هذه الطاقة والذي سيتولى نفقات البناء هو بنك مصر ، وان في نيتهما استثمار صالة السينما اذا ما قبلت باستئجار الكازينو . ونصحاني بالتريث في الاجابة ، كما لفتا انتباهي الى ما وصل اليه شارع عماد الدين من الفوضى والغوغائية . قالا لي ذلك وانسحبا بعد ان تركا لي انموذج البناء ، فشرعت أنظر اليه وأتساءل عن الطريقة التي تمكنني من الحصول على هذا المسرح الضخم ، ولم يتبق لي سوى اربعمئة جنيه بعد ان وفيت ما كان علي من ديون . لم أنم تلك الليلة ، واصبح المسرح الجديد هاجساً لا يفارقني ابداً . كنت ما ان انتهي من عملي حتى اسرع الى الخارطة ، ابحلق فيها واحدث نفسي وأبحث عن طريقة اتمكن بها من الحصول عليه . وما عتم حبيب الحج ، الذي كان يتولى ادارة اعمالي ، ان علم بالخبر فانتفض بخفة الريشة وكان بديناً يزيد وزنه على المئة كيلو ، انتفض مستغرباً ان لا اغتنم هذه الفرصة الذهبية النادرة ،

وشجعني على القبول دون تردد . وفي اليوم الثاني قصدنا الى بنك مصر لنطلع على الشروط ، وكانت شروطاً جد معقولة بالنسبة لي ، اذ لم يطلبوا سوى ايجار ثلاثة أشهر كعربون وايجار شهر واحد يدفع مقدماً . لم يكن هذا المبلغ يتجاوز الثمانمئة جنيه مصري . لم أرتبك عندما سمعت بهذا المبلغ بل تظاهرت بالارتياح وقررت بالاتفاق مع حبيب على ان ندفع الاربعمئة جنيه مقدماً وندفع البـاقي عند الاستلام . لكنني سألت مدير أعمالي : « لقد تدبرنا امر الايجار ، ومن اين لنـا ان نزود مسرحاً فاخراً كهذا بالرياش اللائق ؟ » .

فضحك وأجاب : الله بيدبر ، انت سيدة طيبة ومحبوبة ولك شهرة واسعة . ستنجحين حتماً في عملك ويصبح هذا المسرح من أجمل مسارح مصر . »

ولما شاع خبر انتقـالي الى ميدان الاوبرا ، حضر لزيارتي الخواجـه كوستي شريكي في كازينو الكوبري ، وفي نيته ان يشاركني في عملي الجديد ايضاً . لكنه لم يشجعني بل حاول ان يثنيني عن عزمي مدعياً ان ميدان الاوبرا لا يصلح لبناء الملاهي والمسارح .

حفزني التحدي والفضول على ان أسعى الى تقديم برنامجاً قوياً يدعم اسمي ، ويأتيني بالطبقة الراقية التي لم تقبل على شارع عماد الدين . وكان قـد تولى امر الدعـاية السيد فؤاد مغبغب والد المرحوم نعيم مغبغب . فجاءني باسكتش سياسي فكاهي ابطاله هتلر وموسوليني وستالين . وكانت المرة الاولى التي يظهر فيها في مصر عمل فني من هذا النوع . فصرت ادخر كل مليم اربحه لانفـاقه على كازينو الاوبرا الى ان تم تجهيزه على احسن مـا حلمت . عرضت على الكثيرين مشاركتي في العمل لكنني لم ألاق سوى الرفض والتمنع . إلا انني وفقت « بمتردوتيل » قدير يتقن تسع لغات ، فعهدت اليه بادارة المطبخ والمقهى ، وتوليت شؤون الدعاية والبرامج .

استقدمت فرقة غربية ، دمجت افرادها بالفنانات المصريات واستعدت الاوركسترا للاشتراك مع التخت العربي في الفرق . وما ان اقبلت ليـلة الافتتاح حتى نفـدت مني النقود ، ولم يتبق منهـا لدي مليم واحـد فاسرعت الى حبيب لكنه كان « على الحديدة » . لم ار بـدا من اللجوء الى احد عمال الدهان والدكور وكان يـدعى حسن . طلبت منه ان يقرضني خمسة جنيهات ، فنظر الي مستغربا لكنه لم يقل شيئاً وأعطاني خمسة جنيهات كانت كل ما يملك . شكرته والخجل والارتباك يكادان يوقفان الكلمات على لساني وانصرفت الى عملي . أضأنا الواجهات وجهزنا الصالة وكانت في منتهى الروعة . وفيما نحن نستعد لفتح الابواب ، اذ برجال للشرطة يحضرون ليقولوا لنا ان ماهر باشا رئيس الوزراء قد اغتيل ولم يعد يليق بنا ان نقيم حفـلة الافتتاح في هذه الليلة بالذات . اقفلنا الابواب واعتذرنا عن استقبال الجمهور واعدنا النقود الى اصحابها . لكنني اغتنمت فرصة هذا التأجيل كي اجمع الفرقة واجري تمريناً كاملاً .

وفي اليوم الثاني مر موكب الجنازة في ميدان الاوبرا امام الكازينو ، فهجمت الجماهير واحتلت المقاعد بالقوة . حاولت ان أمنع البعض من القفز من فوق الطاولات والمقاعد ، لكنني لم أتمكن من ذلك الا بطريقة واحدة : فرضت تعريفة دخول وقدمت تذاكر بنصف ريال . وهكـذا تخلصت من أغلب المشاغبين وعوضت عن أرباح ليلة الافتتاح دون ان اتكلف شيئاً . ومن بين الذين أقبلوا على الكازينو في تلك الليلة الخواجه كوستي الذي كان قـد سبق له وحاول اقناعي بالعدول عن العمل في ميدان الاوبرا . لكنه عندما شاهد الاقبال الشديد تلعثم ، وكان قد قدم ليقول لي ان هذا المحل نحس ، فاول لياليه صادفت وقوع حادثة اهتزت لها البلاد .

عندما انتهى الاحتفال بتشييع جثمان رئيس الوزراء ، أقبل الجمهور على المسرح وعلى المقهى ، فلم يعد هناك متسع لأنملة . وصفق الحاضرون

كثيراً للبرنامج الذي كنت قد أنفقت وقتاً طويلاً في اعداده . وفي الصباح لم يكن للقاهره حديث سوى كازينو بديعة .

بدأنا مرحلة عمل جديدة بنجاح متواصل ، وبدأت معها مشكلة رافقتنا طيلة سنوات الحرب . كانت ما زالت الجيوش تتدفق على مصر ، ولم يكن مجـــال للترفيه أرحب من كازينو الاوبرا . فكان الضباط والجنود يقبلون علينا بكثرة قبل ذهابهم الى الجبهة . وما ان تمتد بهم السهرة قليلاً حتى يتعالى الصراخ ، ويبدأ تحطيم المقاعد وتكسير الزجاج . اما هــذا الاقبال فكان مرده الى انني كنت أشرف بنفسي على كل كبيرة وصغيرة ، كما كنت احرص على تقديم أجود أصناف المأكولات والخمور . وقل ما كان يوجد في القاهرة مقهى لا يكتشف فيه مفتشو جيوش الحلفاء طعاماً فاسداً وخمراً مغشوشاً . وهكذا كانوا ينصحون الضباط والجنود في بدء اجازاتهم بالذهاب الى كازينو بديعة . وكنت استعين بالقليل من الانكليزية كي أتفاهم معهم . لم يكن الميتر كريستني لينجـــو من مداعباتهم . كان بديناً وله كرش بارز ، فما ان يقبل حتى يتجمع حوله الجنود ، فيدغدغونه ويخطفون نظاراته ، أو يخطفون طواقي الخدم من البربر ويرتدونها وسط عاصفة من الضحك والضجيج ... فيتضايق هؤلاء ويعلو الصراخ فأسرع للفصل بينهم . ولكن كان البعض منهم يسترضيهم ببقشيش محـــترم فلا يتطور عندئذ النزاع الى أكثر من مداعبة عابرة .

كان الكازينو كبيراً جداً ، ينقسم الى خمسة أقسام من مقهى الى مسرح وبار اميركي ومطعم وروف . كانت النوافذ والواجهات جميعها من الزجاج الفاخر . فاذا ما غضب الجنود حطموا الزجاج . واذا ما سرهم شيء لجأوا ايضاً الى قذف المقاعد والطاولات والصحون والأكواب وزجاجات الخمر وكل ما تقع عليه ايديهم . فاحترنا في طريقة معاملتهم ، وأخذناهم بالحسنى الى ان استفحل أمرهم ، وحصل منهم فصل فاق في عنفه كل ما سبق وتحملنا من تصرفاتهم الغريبة .

كان يوم جمعـــة ، اليوم الذي يقبض فيه الجنود والضباط معاشاتهم وينطلقون في البارات والمقاهي . واتفق انني كنت في تلك الليلة بالذات اشكو من التعب والارهـــاق ، فقررت مع بعض أصدقائي على ان ادع العمل وارافقهم لزيارة بعض الملاهي الجديدة وتنـــاول طعام العشاء في فندق الكنتيننتال . ما ان انتهينا من زيارتنا لاول مقهى قصدناه ، حتى جاءني الهام مفاجيء بالمرور على الكازينو كي اطمئن على سير العمل فيه . وعندمـــا أطللت على عتبة المقهى فاجأني منظر أذهلني ودب الرعب في قلبي . كانت الفوضى على أشدها ، والصراخ والضجيج يصمان الآذان . افراد التخت حاملين آلاتهم يتراكضون نحو البـــاب ، الراقصات بثياب المسرح ويقفزن وينتحبن من الخوف والجمهور مسرع الى الشارع . هرولت الى الداخل ويا لهول مـــا رأيت . الجنود يجمعون المقـــاعد والطاولات ويستعدون لاحراقها . اسرع كريستني يقول لي : « الحقي يا ست ناويين احراق المحل لانني لم اعطهم بيرة بعد فوات الميعاد المحدد لتقديم الخمر » . فقلت له :

ـ احضر حالاً صندوقاً من البيرة . عندما شاهـــد الجنود زجاجات البيرة تقدم لهم ، خفت حدة غضبهم والتفوا حولي . فاشرت سراً الى كريستني كي يستدعي البوليس الحربي قبل ان يفروا ويعيدوا مرة ثانية ما كادوا يقدمون عليه . وبعد ان قبض عليهم البوليس وهم يتوعدونني بالقتل انا وكريستني ، لم ار بـــداً من اقفال الملهى والذهـــاب الى الأسكندريه . لكنني قبل ان اترك القاهرة ، قابلت القائد وطلبت اليـــه ان يمنع الجنود من ارتياد الكازينو وان يقتصر ارتياده على الضباط فقط . فوعدني خيراً وعدت الى المحل كي استعد للرحيل .

لم نتمكن من اقفال المقهى والبار والروف لان ابوابها جميعها كانت من الزجاج . وفيما كنا نتفقد المقاعـــد وما تبقى من الطاولات ، اذا بعشرة جنود يقبلون . اندهشوا عندما رأوا المحل مقفلاً ، وحين قيـــل

لهم ان الست ستسافر الى الاسكندرية ، زمجروا وتوعدوا بقتلي بعد عودتهم من الجبهة . ويظهر ان احداً من هؤلاء المساكين لم يعد .

لم تكن هذه الحادثة الاولى من نوعها . بل سبقتها حوادث عديدة كادت تذهب باحتمالي وصبري . كانت عادتي بعد ان انتهي من عملي على المسرح ، ان اجلس في المقهى فاطلب شيشة واجتمع الى اصدقائي فألعب معهم الدومينو . وكان بين تلك الشلة صديق يدعى بولص ملقب « بالمحامي خلف المحاكم » ، لانه بعد ان درس المحاماة فشل في معاطاتها فشلاً ذريعاً . الا انه كان ظريفاً خفيف الروح ، وكثيراً ما كنت اقضي سهرات ممتعة وانا ألاعبه الدومينو . وكان يأبى الا ان يغلبني في كل « عشرة » نلعبها . واتفق له ان غلبني عشر مرات متتالية . فتضايقت كثير وأصررت على ان أرد له الصاع صاعين . وفيما انا منهمكة في منازلته جاءني كريستني كعادته : : الحقي يا ست » . قلت : « حاضر ! » وتابعت اللعب ، فنسيت نداء الميتر . هذا والمعركة على اشدها في المسرح المقاعد تتطاير والزجاجات تفرقع والضباط يزمجرون والنساء تولول ، وانا ما زلت العب الدومينو . واخيراً عندما ارغمت على التدخل وجدت المسرح خالياً من الفنانات ومن العازفين ، والجنود يتلاحقون كالمجانين . اتصلنا بالبوليس الحربي ، لكنه كان منهمكاً في تهدئة معركة حصلت في شارع عماد الدين . وكان قد سبب هذه الفوضى جندي اوسترالي ، طلب من الاوركسترا ان تعزف لحناً معيناً . فكان له ما اراد ، الا انه اعاد طلبه مرة ومرتين وثلاث مرات ، الى ان تضايق الناس وتأفف بعضهم بصوت عال . فهاج صاحبنا وماج وقفز الى المسرح ، فرت الراقصات من وجهه ، وهرول العازفون واقفلوا خلفهم الابواب . فلما رأى نفسه وحيداً على المسرح ، هجم على الستائر ومزقها وكسر اضواء النيون . عندما شاهدت ما قام به ، جن جنوني وهجمت عليه لا اعلم من أين جاءتني تلك القوة امسكت برقبته وضربته ضرباً مبرحاً ، ولم يتمكن احد من الضباط ولا

من الجمهور ان يخلصه من بين يدي ، ثم قــذفته ارضاً . فتراكض رفاقه وهم يتوعدون ، وذهبوا قبل مجيء البوليس الحربي .

وبدأت أشعر بالتعب . لم أعد اطيق العمل في جو العربدة هــذا ، كما لم يكن بوسعي ان اتحمل الخسارة المتواصلة . كان علي في كل يوم تقريباً ، ان اعوض ما كسره الجنود وما سرقوه في الليلة السابقة . ولم يكن باليسير العثور على أشياء ثمينة وجميلة تليق بالكازينو الفخم. كما كان علي ان أشرف على البرامج وعلى الادارة معاً . وأخشى ما كنت أخشاه ان لا اوفق في انتقاء احد الالحان او الراقصات والراقصين ، فيعرض عني جمهور اعتاد ان يجد لدي ما يروقه . وكنت ادرب الراقصات على الرقص العربي والتركي واخيراً أضفت الرقص الاسباني . ولم تمر ليــلة واحدة إلا ورقصت وغنيت بنفسي . واذا ما حدث ولم أظهر على المسرح ثار الجمهور وطالب بي بحجة انه قدم ليراني ويسمعني . وكم من مرة كنت على المسرح منسجمة مع نغم او رقصة ، فشاهدت من بعيد بوادر معركة وانقطعت عن الغناء لاوجه الكلام الى مسببي الضجيج ، فيتضاحك الناس وتمر الازمة بسلام . كما كنت اتفادى ان يشعر جمهوري بالغارات الجوية الكثيرة . وهذا ما حمل النــاس على تقديري ومحبتي . وكان منهم من يقول : لو كان لدينا وزراء مثل بديعة ، لكانت الدنيــا بألف خير . ومع ذلك كنت اشعر ان كابوساً يجثم علي صدري . فما ان تنتهي السهرة حتى أكون قد تهالكت من التعب ، فأقول : الحمد لله ، لقــد انتهت بسلامة ، ولكن مــاذا سيحدث يا ترى غداً .

كان خطر الجيش دائماً بالمرصاد . فاذا ما انتصر الحلفاء جاء الجنود كي يحتفلوا بالنصر بالعربدة والتحطيم . واذا ما خسروا معركة ما ، لجأوا ايضاً الى الشتم والسب وتكسير الزجاج والمقاعد . وكم من مرة اضطررنا الى الاقفال المبكر كي نتفادى المعارك ، وكنت اذا ما وصلت الى منزلي ظلت اعصابي متوترة ، ولا أتمكن من النوم الا عند الفجر ، فأرى احلاماً



بديعه في ثياب الرقص

مخيفة انتقل اليها ضجيج الكازينو وعربدة الجنود .

عندما اشتدت علي وطأة التعب ، سافرت الى الاسكندرية . وبعدما أخذت قسطاً من الراحة بدأت أتردد على المحلات العامة ، فيستغرب من يراني ان أكون قد تركت العمل في الكازينو وجئت أضيع وقتي في المدينة الجميلة.

وفيما كنت انتظر ان يردني من القاهرة خبر يبشرني بالحصول على اذن يخولني ان أكتب على الباب الكبير « اوت أُوف بوند » ، أي ان الدخول مقتصر على الضباط فقط ، اذ بحبيب مدير اعمالي آنذاك يتصل بي بالتلفون ويطلعني على صدور امر بذلك . اسرعت بالعودة الى القاهرة ، حيث أعدنا ترتيب المسرح والمقهى والمطعم ، وأدخلنا على البرنامج عناصر جديدة من اوروبية ومصرية . لكنني في فرحتي لم ألاحظ ان امر منع دخول الجنود مقتصر على المسرح فقط ، وان بقية الاقسام ما زالت معرضة لغارات هؤلاء . وما ان فتحنا الابواب في بداية السهرة حتى أسرع الجنود الذين كانوا قد اعتادوا ارتياد الكازينو ، وعندما رأوا العبارة المكتوبة على الباب ثاروا وهددوا وأحدثوا فوضى منعت غيرهم من الدخول وعطلت السهرة . وتكررت حوادث مماثلة فيما بعد . كانوا يتمركزون في الممرات والشرفات ويمنعون غيرهم من الدخول ، ويعبرون عن غيظهم بتكسير الزجاج ، واذا ما حاولت تهدئتهم رفعوا الكؤوس وقالوا « شيريو مدام » ثم رموها على الارض.

وفي هذا الوقت بالذات اعلنت الحكومة المصرية عن عزمها على استيفاء ضرائب دخل لم تكن موجودة قبل الحرب . ولم يكن لديها – اي الحكومة – موظفون مدربون على مثل هذا العمل ، فكانوا يلجأون الى تقديرات اعتباطية لا ترتكز على اساس صحيح . وكانت أغلب المقاهي والملاهي والمصانع واعمال التجارة بين ايدي الاجانب . اذ ان حركة التصنيع الوطنية كانت بحكم المعدومة ، كما ان الملاكين الكبار كانوا يأنفون عن العمل ، ويتكلون على ما تدره عليهم سواعد فلاحيهم . وكان

هم هؤلاء الاثرياء ينحصر في الانفاق والتبذير .

كانت هناك الجاليات : ايطالية ويونانية وفرنسية وانجليزية وغيرها تعمل وتربح وتقتني الاملاك الواسعة . أخذت مصلحة الضرائب تفرض الضريبة فرضاً دون ان تدقق في مدخول التاجر وبنسبة ما تطلبه منه . والتجـــار من جهتهم لم يكونوا قد اعتادوا دفع اي ضريبة ، فلعبت الرشوة دوراً كبيراً ولجأ بعضهم الى المحاكم كي تنصفهم من تعنت مأموري المصلحة ، واحتـــال البعض الآخر كي ينفذ بجلده من الافلاس المحـــدق به . وقد سببت هذه الفوضى مآسي عديدة ما زلت اذكر عدداً منها . فرضوا مرة على تاجـــر مجوهرات يوناني مبلغ ٦٥ الف جنيه مصري . فطار صواب الرجل وكان محله بما فيه لا يوازي هذا الثمن . فعمد الى الحيلة بان وضع الواحاً من الخشب على الواجهات ، وجاء بعمال كلفهم ببعض التصليحات وقبـــل ان ينتهي هؤلاء من عملهم ، كان قـــد فر من مصر وهرّب مجوهراته .

وفرض على صاحب مقهى مبلغ ٩٠ الف ليرة . فيئس وترك المقهى وما فيه وغادر البلاد . وطالبوا صاحب محل ساعات وخرضوات بسبعة آلاف جنيه ، فأصيب بنوبة قلبية توفي على اثرها .

كنت انا من بين الذين فرضت عليهم الضرائب التعسفية . لكنني لم اتهرب بل دفعت مبلغ ٣٩ الف جنيه بكل طيبة خاطر . وفي العام التالي قدمت الدفاتر مرفقة بشك بالمبلغ المستحق . فكانت النتيجة أنهم أعطوني وصلا بما دفعت ووعدوني بارسال المخالصة بالبريـــد . وتكرر الامر في السنه التـــالية . وكان ان اهمل خبير الضرائب الذي كان يعمل عنـــدي والمحامي طلب المخالصة بعد انتهاء كل سنة . ولم يخطر ببالي انني سأدفع ثمن اهمالهما .

كان العمل اثناء الحرب يدر علينا ارباحاً طائلة ، بعد ان استحـــال على الفرق الاجنبية القدوم الى مصر ولم يعد هنالك الا عدد ضئيل من

الراقصات كن يتنقلن ما بين مصر والاسكندرية والسويس وبور سعيـد لكنني احتفظت بعدد من الفنانين والفنانات الاجانب دمجتهم مع زميلاتهم من المصريات . وكانت اخبار الجبهة تردنا مشوهة ، فتارة ينتصر الحلفاء وطوراً يدحرهم الالمان ، الى ان فوجئنا بهؤلاء يدخـلون العلمين . ثم تطايرت الاخبار بانهم اصبحو على ابواب الاسكندرية فعم الخوف وتسابقت العائلات في السفر الى السودان ولبنان . وراجت شائعة مفادها انهم عند دخولهم القـاهرة سوف يشنقون في ميدان الاوبرا نفسه عشرة اشخاص بينهم بديعة مصابني .

ترددت في ترك الكازينو في بادىء الامر اذ لم يتبق لدي من المـال الشيء الكثير . لكنني سرعان ما جمعت ملابسي ومجوهراتي وقطعت تذكرة بالقطار الى حيفا . وكانت القطارات تضيق بمن فيها من اليهود سكان مصر الهاربين من وجه الالمان .

وفيما كنت انتقـل من قطار لآخر في محطة القنطرة ، التقيت تاجراً يهودياً سألني عن سبب فراري . فرويت له مـا سمعت واكدت له ان يونس البحري نفسه هو الذي اذاع الخبر .

فاستغرب وكذب الرواية قائلاً انه يصغي الى جميع المحطات ، ولم يحدث ان سمع شيئاً من هذا القبيل . وقد يكون هناك لمن يريد ان يبعدني عن مصر لغاية ما .

استبعدت هـذا الاحتمال لانني كنت احب مصر والمصريين لتقديرهم لي واقبالهم علي وكنت احاول دائماً ان ارد لهم قسطاً من جميلهم . فكنت اول من يتبرع للمشاريع الوطنية كما كنت اقيم الحفلات الخيرية او الترفيهية دون اي بديل ، وادفع من مالي الخاص اجور التخت والفنانين .

وصلت الى لبنان وجمعتني الصدفة الى ملكة جمال ، صديقتي القديمة ، وكانت تقضي الصيف برفقة زوجها في بلدة فالوغا . دعتني الى منزلها ، واقمت عندها الى ان بدأت ترد اخبار مفادها ان الاحوال في مصر عادت

الى مجراها الطبيعي . وكنت اتسقط تلك الاخبار بفارغ الصبر . وفي احد الأيام قصدت بيروت برفقة زوج ماري . وفي مقهى طانيوس حيث كنت اتناول قهوتي ، سمعت احدهم يقول انه قطع تذكرة بالطائرة الى مصر ، لكنه لن يتمكن من الذهاب ، فاسرعت اطلبها منه وادفع له ثمنهـا وهرولت الى المطار دون ان آخذ شيئاً من لبسي او مجوهراتي .

وعندما وطئت اقدامي ارض مصر من جديـد لم اتمالك نفسي من الفرحة ، فرحت انظر الى ما حولي وكأنني في حلم .

وما ان استقرت الحالة وعادت الامور الى حالتها الطبيعية حتى عدت الى لبنان كي استعيد ملابسي ومجوهراتي . وفي هذه الاثناء صدر امر بمنع خروج المـال والمجوهرات من مصر . فاستعدت امتعتي من منزل صديقتي ملكة جمال وقصدت الى نقولا زوج ابنـة اختي اميلي ، واستقر رأيي على ان استغل ما تبقى لديّ من مال ومجوهرات في بناء طابق يضاف الى الطابق الاول الذي كان قد بناه نقولا زوج ابنـة اختي اميلي في محلة كركول الدروز . ووافق على اعتزالي عملي الذي اضناني واتلف اعصابي .

لم اعش هذه المدة الطويلة بعيدة عن افراد عائلتي ، اذ جاءني الى مصر شقيقي توفيق برفقة ولديه فؤاد وماري . فاخـذ فؤاد نفقات سفره الى اميركا وعاد والده الى دمشق ، بينما استطابت ماري مناخ القاهرة ، فمكثت عندي ولم تطل اقامتها حتى تزوجت ، وانتقلت الى منزل عريسها في مصر الجديدة بعد ان اخذت معها كل ما طاب لها اخذه من بيتي .

سارت الامور في بادىء الامر في مجراها الطبيعي ، ولكن بعد ان رزقت بابنتها الثانية ترك زوجهـا عمله الذي كان يتقاضى عنه مبلغ ٦ جنيهات — وكان قبل زواجها منه قد اوهمها بانه صيدلي — واتفقا على ان يعمل عندي على صندوق التذاكر بمرتب قدره ١٥ جنيها في الشهر ، وطلب مني ايضاً ان ينتقل الى مصر الجديـدة كي يصبح قريباً من الكازينو ، وان ادفع ايجار منزله . لم امانع بل لبيت طلبه اكراماً لخاطر ابنـة اختي .

عاملتها كما لو كانت ابنتي ، وطالما تشوقت الى ان يكون لي أبنة أعتني بها كان الطبيب قد حظر عليها الحمل ، وعندمـــا بدت عليها بوادر تدل على انها حامل للمرة الثالثة ، اهملت عملي واصطحبتها الى لبنان حيث استعادت نشاطها .

في طريق عودتنا الى مصر ، رافقنا انطوان ، وكانت تقلنا سيارة ذات شعرية خاصة بالحقائب . عندما بلغنا حيفا نصحت ماري بأن تتابع رحلتها بالقطار ، كي لا تضيق بحقائبي الكثيرة وبمشقة السفر بالسيارة . مانعت في باديء الامر ، لكنهـــا عادت واستقلت القطار الى مصر . وما ان تركتنا واستأنفنا المسير حتى هطلت امطار غزيرة على الحقائب وعلى ما فيها من ثياب ثمينـــة . وفيما نحن في الصحراء اذا بالسيارة تتوقف فجأة دون ان ندري لوقوفها سبباً . حاولنا جهدنا كي نعرف سبب تعطلها دون جدوى، فاخذ كل منا « يدفشها » بدوره الى ان قارب الظهر . لاح لنا من بعيد معسكر للجيش ، فهللنا له واسرعت اعـــدو نحوه . استغرب الجنود وجود سيدة في مثل هذا المكان ، لكنني بكلمة انكليزية واخرى فرنسية اطلعتهم على ما كنا نحتاجه . فجاءوا بحبال ودفعوا السيارة الى المخيم حيث سمح لهم القائد بتصليحها . اقبل الليل ونحن مـــا زلنا عندهم ، ومـــا زالوا يحاولون العثور على العطب في السيارة ولكن دون جدوى .

وعندما أطل النهار طلبت منهم ان ينقلونا الى الاسماعيلية ، فرحبوا بطلبي ولم يأخذوا مني سوى ثمن البنزين فقط . صعدنا الى السيارة ، بعد ان ربطوها بسيارة شحن واسرعوا بنا الى حيث طلبنا . شكرت الله على انه ألهمني ان ارسل ماري بالقطار ، لانها لو بقيت معنا لكانت اجهضت من العذاب ووعورة الطريق . عند وصولنا الى الاسماعيلية ، اسرعنا الى احد المطاعم بعـــد ان اودعنا السيارة في التصليح . لكننا قبـــل ان نبدأ بتناول اللقمة الاولى ، كانت السيارة قـــد عادت تتهادى كالعروس .

دفعنا لقاء تصليحها نصف ريال فقط لا غير ثمن البلاتين ، وهـذا كل ما كانت تحتاجه .

اما في القاهرة فكانت الحالة قد تغيرت عمـا كانت عليه في البدء . كان الجنود في بداية الحرب مهذبين يحدثونك بلطف ولا يبدر منهم اي تصرف شائن ولكن مـا ان يعودوا من الجبهة حتى ينقلبوا الى وحوش ضارية ، فيشربون دون وعي ، ثم يسترسلون في السب والشتم والبكاء . ينفقون كل ما في جيوبهم ، ولا يبقى لديهم في آخر الليل ما يعيدهم الى المعسكر . فيسرعون الي قائلين : بليز مدام ، يجب ان نعود الى المخيم ! » فاشفق عليهم وأوصلهم في سيارتي بنفسي . ولم اكن اخشى الخروج في منتصف الليل في ليالي الحرب الحالكة حين كانت تكثر الغارات الجوية . كما كانت لي الشجاعة في ان اتدخـل في منازعاتهم فأفرقهم عن بعضهم واعيدهم الى الهدوء .

وكانت ابنة شقيقي ماري قـد قاربت من موعد الوضع ، فأرسلت تستدعيني كي ارافقها الى المستشفى في غياب والدتها المريضة في الشام . اخذتهـا الى المستشفى حيث اخبرني الطبيب ان الولادة لن تحصل دون اللجوء الى عملية جراحية خطرة ، وطلب مني ان أرافقه الى غرفة العمليات كي أقف بنفسي على اجرائها . وهكذا كان ، لكنني حين رأيت المبضع يتوغل في جسد مـاري ، اقشعر بدني وندمت على جرأتي . غير انهـا رزقت ـ اي ابنة شقيقتي ـ بغلام وهذا كل ما كانت تتمناه .

كنت أضيق بالناس في عملي وأشكو الوحدة في منزلي . وارى نفسي انتقل فجأة من عالم زاخر بالحركة والنشاط ، الى عالم حزين يثقل علي بصمته وكآبة . فطلبت الى ماري ان تسكن معي كي تملأ علي وحدتي . طارت من الفرحة وأقبلت علي تحتضنني شاكرة . وسرعان مـا اشتريت فيلا انيقة بمبلغ ١٢٥٠٠ جنيه ، انتقلت اليها ماري برفقة زوجها وأطفالها وساقت حيـاة هادئة منعمة لم تكن تحلم بهـا من قبل . بعد مضي

عدة اشهر سألتني اذا ما كنت سأصطاف في اوروبا او في لبنان . وكنت في الواقع متعبة وبحاجة الى الراحة والاستجمام .

كنت اتمنى الاصطياف في لبنان ، لكنني كنت في ضائقة مالية بعد ان دفعت ثمن الفيلا . واضطررت لبيع حلق من الماس الثمين كي اسدد ايجار الكازينو .

غير ان الست ماري لم تصدق ما رويته لها ، وهزت كتفيها ساخرة وقالت : « ومن يصدق ما تقولين حتى ولو اقسمت اغلظ الايمان ؟ » استغربت وقاحتها ومناقشتها لي ، فأجابت بأن والدتها مريضة في الشام وقد أرسلت تستدعيها اليها . طلبت منها ان تتريث في الذهاب حتى شهر تموز حين يتسنى لي ان ارافقها الى لبنان . لكنها أسرعت تبيع بخمسة وسبعين جنيهاً سواراً كنت قد اشتريته لها بمئة وخمسين جنيه . وعندما اطلعني زوجها على ما فعلت اسرعت بدوري استعيد السوار واسلمه لها . وسافرت ماري الى دمشق اثناء غيابي بعد ان ثرثرت ما طابت لها الثرثرة

اتاح لي عملي بعد حين فرصة السفر الى لبنان ، برفقة صديق حميم امضيت معه سنين طويلة من حياتي . وعندما علم ابن شقيقتي انطوان بخبر سفرنا معاً ، اسرع يطلب منه سراً ان يعمل وسعه كي يعيد المياه الى مجاريها بين ماري وبيني ، حتى اذا ما قدمت الى القاهرة سارت حياتنا كالسابق . وما ان وصلنا الى لبنان حتى قال لي صديقي انه لا يعرف بلودان ويتمنى لو زارها برفقتي . لم امانع بل رحبت بفكرته وقصدنا من تونا الى المصيف السوري حيث قضينا عدة ايام ، طلب الي بعدها ان نذهب الى الشام كي نزور بنات خالتي ونتذوق الحلويات الدمشقية اللذيذة . وهكذا كان ، رافقنا في تجوالنا في الشام جورج عرموني زوج وديعة ابنة خالتي . وفي طريقنا الى احد مقاهي القصاع ، توقف السائق في حينا القديم وعندما سألته عن سبب توقفه ، نزل جورج وأخذني من يدي ، بينما أخذ صديقي باليد الأخرى ، ورجاني كل منهما ان امر على

بيتنا لاقدم التعازي الى زوجة اخي توفيق الذي لم يكن قد مضى على وفاته وقت طويل .

لم يسعني الا ان امتثل الى رغبتهما واقتربنا نقرع الباب ، فاطلت علينا ماري ، لم ترحب بنا بل زعقت : « بي بي جاءت عمتي ! » حاولت ان اعود الى السيارة الا ان جورج امسك بي ودخلت ، فرأيت فريدة زوجة اخي تزحف على يديها ورجليها كي ترحب بي ، لأن المرض كان قد اقعدها . اما الست ماري فكانت تنظر اليّ والحقد يقطر من عينيها ، وقالت لأمها ساخرة : لماذا تريدينني ان اسلم عليها ؟ لقد وصلت الى لبنان منذ شهر وعندما ارتوت من شم الهواء جاءت تعزيك ، وكان من الافضل ان لا تزعج خاطرها .

قاطعتها فريدة تذكرها بما كان لي عليهم جميعاً من الايادي البيضاء . الا انها تابعت : « فضلها على حالها ، لسنا بحاجه اليها . انني لا اريد ان اعيش معها بعد الآن تحت سقف واحد . افضل ان اشحذ اللقمه من يد مسلم ومسيحي وحتى يهودي انا واولادي على ان اعود فارى وجهها » .

خرجت من منزلي القديم والدموع تنهمر من عيني . وهكذا كانت حياتي .. ابحث عن الحنان فينقلب الى كراهية .. اضحك على المسرح ابتسم امام الانوار كي ابكي في منزلي وحيدة الا من الجحود ونكران الجميل . ومن ثم اعود الى عملي الى دنياي المفضلة .

عند عودتي الى مصر ، رويت لانطوان ما حدث لي في الشام . فاستغرب ان تكون ماري قد تناست بهذه السرعة عطفي عليها وحدبي على اولادها . وبعد مجيئها الى القاهرة تركت لها البيت كي تأخذ منه ما تشاء على شرط ان لا تعود الى السكن فيه ، غير انني ابقيت زوجها في عمله لأنه كان امياً لا يحسن القيام بعمل آخر . وفي احد الايام قصدت محلات « شملة » ، فاقبلت البائعات يرحبن بي بينهن شقيقة زوج ماري . ارتمت الفتاة على صدري ورجتني ان اعيد ابنتي اخيها الى المدرسة .

وهكـــذا عادت الطفلتان الى مدرسة البوب باستور ، ولم تطل المدة حتى جاءت ماري برفقة زوجها واولادها ليشكروني . رحبت بالاطفال وافهمت امهم انني اعطف على الصغار وان كان « الاسى لا ينتسى » .

بعد خروج ماري واولادها من بيتي اصبحت الوحدة تثقل عليّ في ذلك البيت الكبير . فبعد ما كانت الاصوات الصغيرة تتردد في جنباته ، اصبح الآن يردد صدى الفراغ والكآبة . كنت ارغب في جمع عائلتي ولمّ شملها ، لكنني لم اوفق ابداً في مسعاي . افترق انطوان عن زوجته بعد ان رزقا بابنتهما بديعة . قد اصبحت بديعة الآن فتاة جميلة واعلنت خطبتهـــا على ابن عمها سمير . وحيدة عشت ... وحيدة سأظل بالرغم من الحائمين حولي بقصد القنص او التغزل .

ومما زاد في يأسي انني ما زلت في نظر كنيسة السريان الكاثوليك التي كان ينتمي اليها نجيب الريحاني زوجة هذا الاخير . هذا من جهـــة ومن جهة ثانية ثبت لي انني عـــاقر ساحرم ابداً نعمة الامومة . فلماذا الزواج اذن ، ولأرض بالمكتوب ! .

وما عتمت ان وصلتني من لبنان دعوة لحضور زواج سمير وبديعة ، وليلى وعفيف . أسرعت الى بيروت أشارك عائلتي أفراحها . وعنـــد عودتي الى القاهرة اصطحبت العرسان معي ، وعدنا جميعاً عن طريق البحر كي نتمتع بالرحله . رافق انطوان ابنته وتم الاتفاق بيننا على ان ننسى الماضي ونعود الى العمل معاً .

كانت الحرب قد انتهت بعد انتصار الحلفاء ، وأصبح بالامكان السفر الى الخارج . كما أصبحت تغذية المسارح المصرية بعناصر جديدة ضرورة ملحة ، بعد ان ملّ الجمهور الوجوه القديمة التي ظل يشاهدها طيلة سنوات الحرب ، فقررت ان أحذو حذو غيري وأسافر كي أتعاقد مع فرق تليق بمكانة الكازينو وسمعته . لكنني كنت حائرة بـــين ان اذهب الى فرنسا او تشيكوسلوفاكيا او ايطاليا . وفي هذه الاثناء أعاد الي الجيش البريطاني

البناية التي كان قد صادرها مني في شارع الجاردن سيتي . فانتقلت الى آخر طابق في تلك البناية ، وعرضت الفيلا للبيع . وطبعاً انتقل معي انطوان ، وعادت حياتنا الى ما كانت عليه سابقاً .

بعد ان حصلت على تذاكر السفر ــ ولم يكن الحصول عليها بالامر اليسير ــ اقلقني مصير انطوان في غيابي ، اذ لا يحق له ان يرثني فيما لو حصل لي مكروه اثناء سفري . فماذا سيكون مصيره ؟. عليّ اذن ان اضمن مستقبله قبل رحيلي وقرّ رأيي على ان اسجل الكازينو باسمه ، كما سجلت له البناية ايضاً ، لكنني ابقيت لنفسي حق الرقابة عليها واستيفاء ايرادها طيلة حياتي . وسافرت مرتاحة البال .

عدت من سفري بعد غياب شهرين ، كنت خلالها على اتصال دائم بانطوان أطلعه على كل كبيرة وصغيرة ، كما كنت أخصه بالهدايا من كل بلد ازوره . ولم انبئه بموعد وصولي الى القاهرة ظناً مني ان المفاجأة قد تسره ، ودخلت الى البيت لاجده فارغاً .

اذهلتني الصدمة ولم اصدق عيني الا عندما اسرعت الى غرفته ولم اعثر على هدومه فيها . فهرولت الى الكازينو دون وعي ولم الق الا العمال الذين كانوا يقومون بتنظيف المحل . رحبوا بي وجاءوني بالقهوة والنارجيلة . سألتهم عن انطوان فأجابني احدهم : قد يأتي في الساعة العاشرة او في الواحدة ، وتأتي بعده الست ثريا ...

ــ بتقول ايه ، ست مين دي ؟

ــ ثريا حلمي ...

فاتضح لي في الحال السر الذي كنت ابحث عنه . وتابع العامل : « يا خسارة يا ست ، من يوم ما سافرت والمحل خرب والشغل والحالة تغيرت ، والناس بتسأل عليك واحنا بنوعدهم بك ، ولما نسأل الخواجه انطوان عن حضرتك بيقول مين عارف حترجع امتى ... واصبحت البرامج في فوضى . ما فيش احترام للعمل وللمواعيد زي زمان !

ونحن في الحديث وصل ابن الاخت العزيز . فارتبك عندما وقع نظره علي ، لكنه اقترب مني ليقبل يدي . حضنته وشعرت به يتلعثم ، ولم افاتحه بشيء الا عندما انفردت به :

ـ قل لي لماذا تركت البيت اولاً ؟

ـ اصبح البيت موحشاً بعد غيابك فلم احتمل الوحدة ...

ـ ولماذا اهملت العمل مع العلم انني جهزت لك كل شيء قبل سفري . فالبرامج جاهزة والثياب وكل ما تحتاج اليه ...

ـ لست ادري اذا كانت نهاية الحرب قد اثرت على الناس ، لانهم لم يعودوا يقبلون على الملاهي كما كانوا يفعلون من قبل . واخذ قسم كبير من المصريين يسافر الى الخارج ولم تعد برامجنا تروق لهم ...

ـ طبعاً لانك اهملت امر تجديد هذه البرامج وقد فهمت سبب هذا الاهمال ... والآن على ماذا قر رأيك ، هل قررت هجر البيت نهائياً ؟

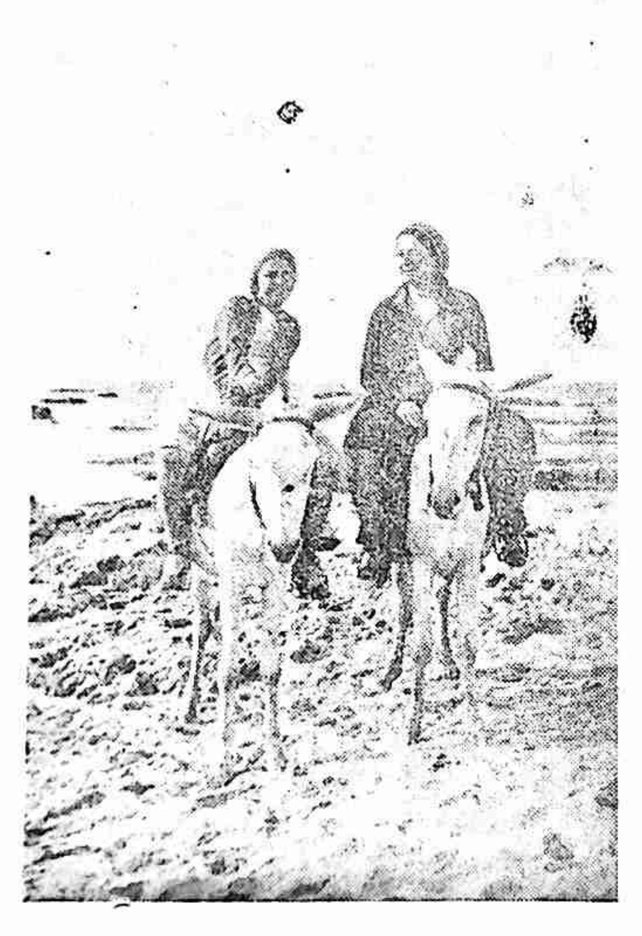
فأجاب بكل قحة : لا مانع عندي في ان اتنازل لك عن البيت والمحل اذا ما تعهدت بدفع الديون ...

وافقت في الحال ، لكنني لم اكن اتوقع ان تبلغ ديونه ثمانية آلاف ومئتي جنيه مصري . وعندما اطلعني المحامي على المبلغ ضاقت انفاسي وكدت اختنق . ومرت في ذهني فكرة ترك المحل والديون وانطوان ، وليتدبر امره كما يروق له . ولكن ماذا سيحل بي فيما لو اهملت عملي ؟.. ان ذلك الكازينو قد كلفني ما لا يقل عن الاربعين او الخمسين الف جنيه ، واذا لم اسارع في دفع الديون فسيعلن التجار افلاسي . وهم لم يمهلوا انطوان الا مراعاة لخاطري . لم يكتف انطوان بما صنع في غيابي ، بل اصر على ان يأخذ الفي جنيه قبل ان يعيد الي الكازينو والبناية .

وعندما انتهيت من عملي في المساء ، عدت الى منزلي وقدت السيارة بنفسي ، بينما كنت فيما سبق اترك امر القيادة لانطوان . ذهبت ماري وتبعها انطوان ... بعد ان حاولت المستحيل كي استبقيه معي . كنت

احرص على راحته واعامله كما لو كان ابني الوحيد . كانت دائماً لهفتي على الامومة وحاجتي الى من ارعاه واحنو عليه واوهم نفسي انه ولدي ، تورطني في مشاكل لا حصر لهـا ولا عد . لم يغمض لي جفن طوال الليل ، وعندما اقبلت الخادمة السودانية تحمل الي قهوة الصباح وجدتني ما زلت في سريري والدموع تنهمر من عيني فجلست بقربي واخـذت تبكي ، وجاء بعدها الخادم واشترك هو الآخر في هذه الحفلة الحزينة .

أراحتني الدموع فتمالكت نفسي وذهبت الى عمـلي ، حيث أعدت النظام الى ما كان عليه قبل سفري . وكانت هذه الفترة فترة هدوء ورتـابة بالنسبة لعدد كبير من الملاهي المصرية . كانت الجيوش قد بدأت بالرحيل وانتشرت أزمة خانقة ما برحت ان امتدت الى الكازينو نفسه . فبعدما كان يضيق بالرواد أصبح في أغلب ايام الاسبوع شبه مهجور ، لأن المصريـين لم يكونـوا يقصدونه إلا في الاعياد وفي ايام العطلة . لكنني لم ايأس بل عملت المستحيل كي احتفظ



بديعه وببا

بثقة الجمهور واقباله . كنت أنوع البرامج وأنفق عليها دون حساب ، ولا اتورع عن الرقص والغناء في معظم الاستعراضات الضخمة . وهكذا

ظلت بـــديعة هي هي ، بالرغم من الضيق الذي كاد يأتي على سائر الملاهي المصرية .

وفي احـــد الايام ، وفيما كنا نعرض اسكتشاً لاقى من الاستحسان والاعجاب الشيء الكثير فوجئت ببيبا تدخل علي غرفتي . لم يسعني الا ان اشكرها على تهنئتها لي . وتسلسل الحديث الى وصل بنـــا الى انطوان . فقالت لي : « عندما كنا نمر بالسيارة امـــام الكازينو ، فيشاهده كخلية النحل يضيق بمن فيه ، كان يتحسر ويقول لي كم كنت اتمنى ان يكون ملكي . والآن عندما تحقق الحلم فرط به هكذا من اجل بنت الـ ... »

فضحكت وأجبتها : مالك غيرانه من ثريا ليه ؟ ألأنها أخذت منك انطوان ، لكنك كنت قد انتزعته من زوجته وابنته ومني انا ايضاً ...

تلعثمت وقالت : كانت هذه غلطة الشباب ارتكبناهـــا نحن الاثنين . ارجوك ان تنسي ما مضى ، لأنني لا انسى فضلك عليّ .

تأثرت لكلامها وللطف كانت تخفي وراءه نواياها السيئة التي لم تتضح لي الا فيما بعد . فدعوتها الى منزلي واسرعت هي تلبي الدعوة وعادت صداقتنا الى ما كانت عليه في الماضي كانت تأتي في وقت التمارين ، وما ان ترى التعب قد اثر عليّ حتى تندفع للعمل وترغمني على ان استريح ، لم يساورني شك في حسن نيتها وعندما رأيت اندفاعها وغيرتها ، عرضت عليها ان تعمل معي في البرامج ، دون ان يكون لها حق التدخل في شؤون الكازينو . وافقت في الحال ، وعملت خلال ثلاثة أشهر عرفنا فيها اقبالاً عظيماً ، وذلك بمناسبة اقامة معرض في القاهرة في ذلك الوقت بالذات . لم يكن يأتي زائر الى العاصمة المصرية دون ان يمر بالكازينو كي يشاهد البرامج ويتعرف على بديعة .

وبعد ان عملت معي هذه المدة شعرت ببيبا بالفرق بين جمهوري والجمهور الذي كانت قد اعتادت عليه في صالتها . وبدأت تعمل في الخفاء لتستولي على الكازينو كي تكيد لانطوان بعد ان هجرها من أجل ثريا حلمي ، ولتخرجني من مصر وتستولي على المكانة التي كنت أتبوؤها . عرضت علي

أن نجدد الاتفاقية ، فلم اوافق لأنني استأت من تصرفاتها مع الجمهور ومع الفنانات على السواء . كانت ما ان تلحظ قدوم زبائن اثرياء حتى تدعو بعض الفنانات ، وتفتح لهن زجاجات الشمبانيا والويسكي . فتبدأ العربدة ولا تعود واحدة منهن تقوى على الاشتراك في التمارين . وما ان ابدي لهـا ملاحظة حتى تسترسل في الضحك وتقول لي : « انك لا تعرفين كيف تكسب النقود ، دعي غيرك يسترزق ! » فأثور وافهمها ان محـلي ليس بالكباريه بل هو مسرح محترم تأتيه عائلات كريمة .

عندما رأت انني مصممة على ابعادها عن العمل معي ، اغرت محاميّ ودفعته الى ان يزهدني بالنشاط الذي كنت اقوم به .

وأصبحت ما ان اتعرض لاقـل صعوبة حتى اسمعه يزن في اذني : « كفاك تعباً وشقاءً ، من اجل ـ من ؟ ليس لديك اولاد ولا من ينعم بهذا الجنى ...! »

وهكذا بدأت تراودني فكرة هجر السهر والتخلص من المسؤولية . ولكنني كنت اعود واقتنع نفسي بانني قد اعتدت العمل ولا سبيل لي في العيش الراكد الممل . وكنت قد دفعت لتوي عشرة آلاف جنيه كي اتخلص من انطوان ومن الديون التي حملني اياها . وقد اضطررت الى بيع الفيلا كي اوفر هذا المبلغ الكبير . فضقت ذرعاً بتلميحات المحامي وطلبت اليه ان يحصر اهتمامه بالشؤون التي تعنيه . وعندمـا رأى اصراري على متابعة العمل ، أحال علي الصديق الذي امضيت برفقته سنين طويلة واصبح قطعة من حياتي . وما زلت اتساءل هل ان ذلك الصديق كان يعلم بان بيبا رشت محاميّ ، واتفقا معاً على أن يحملاني على بيع المحل وعلى هجر مصر نهائياً ، وذلك عندما نصحني بان اهجر العمل واركن الى الراحة ؟ ام انه اراد ان يتخلص مني كي يتزوج ؟ وقـد كان بامكانـه ان ينهي علاقتنا ـ التي كانت قد اصبحت علاقة اخوية لا تشوبها ايـة انتفاضة عاطفية بعد ان ثبتت لي خياناته المتعددة ـ كان بامكانه ان ينهيها بكل

بساطة ودون النجوء الى خداعي . فلو فاتحني في امر زواجه لما مانعت ، لانني كنت ما زلت آمل ان اعود الى نجيب الريحاني ، الذي برهن عن حبه لي عندما رفض ان يطلقني . ولم انس يوماً من الايام انني مدينة للفنان الكبير بما وصلت اليه من شهرة في مصر . وكانت علاقتي به ما زالت مبنية على العطف والمودة . فما ان أحتاج الى شيء حتى يوفره لي بسرعة وبكل طيبة خاطر ، وابادله انا بالمثل بالرغم من فراقنا . كنت اشاهد دائماً رواياته واجلس في اول مقصورة امام المسرح . وما ان يراني حتى يوجه لي النكات ، فيضج الجمهور بالضحك ويقول : « حرام ان ينفصلا عن بعضهما » . واذا ما اراد احدهم ان يعيدنا الى حياتنا الاولى اجابه بمرح : « ليه هو نحن متخانقين لا سمح الله انما نحن كده امور بلاتونيك متزوجين من بعيد لبعيد » .

وكان صديقي يعلم هذا الواقع ولا يجهل شيئاً من تفاصيله . وبما من جهتها لم تكن تدعني افلت من قبضتها ، بل كانت تلاحقني كظلي وترغبني في اعتزال العمل ، ولم اكن قد انتبهت بعد الى الشبكة التي رمتها حولي . وما عتمت ان نشرت اشاعات تقول انني اريد ان ابيع الكازينو فانهمرت علي الاسئلة الفضولية من اصدقائي ومن الوسط الفني الذي استغرب الخبر . كنت انقل كل ما اسمعه ثقة مني انها تحبني وتريد خيري ، فتقول لي بخبث : ان خلاصك في يدك !.

وفي احد الايام وبينما كنت جالسة في الكازينو استعد لألعب الدومينو اذا بنجيب الريحاني يحضر على حين غرة . فاسرع الجمهور يستقبله بالتصفيق والهتاف . وعندما ضاق ذرعاً بالتحيات المنهمرة عليه من كل جهة ، قال مازحاً : « دعوني الآن اسلم على ست الكل ، مالناش فيها حصة الله ! » واقترب مني متابعاً : « انا عايز اتفرج على المحل ! » وحضنني وسرنا معاً وزرنا كل اجزاء الكازينو . وجلس يستريح فقدمت له سيجارة مع فنجان القهوة ، فابتسم بمرارة وهمس : السيجارة ممنوعة ألم تسمعي انني

كنت مصاباً بذبحة صدرية وكدت اودع الدنيا دون أن أودعـك ! ألا تريدين زيارة الفيلا التي ابتنيتها في حـدائق القبة مثـل ما زرت انا الكازينو ؟

– هناك اشاعة تقول انني سأبيع الكازينو ، اخشى ان تكون انت الذي روجتها واتيت اليوم لزيارة المحل قبل ان تشتريه .

– لم آت لشراء المحل بل لشرائك انت ، ارجوك ان تأتي غداً .

– الساعة كام ؟

– الساعة عشرة حداشر ، زي ما انت عاوزة ..

– واحدة اثنين زي ما انت عاوز ...

– وبعدين معاك فضحتيني وانت تقولي اني كسلان .

وفي صباح اليوم التالي ذهبت برفقة نجيب الى الفيلا . كانت تحفـة هندسية اختارها فنان مرهف الحس والذوق . وما زلت أذكر حـادثة بسيطة لم تسترع انتباهي في بادىء الامر . كان عامل الموزاييك منهمكاً في صف الحجارة الصغيرة على الاعمدة عند وصولنا . فقال له نجيب : ايه يا اسطى امتى حتخلص ان شاء الله ؟

– دي عملية دقيقة يا استاذ وتحتاج الى وقت ...

– لكن دانت بقالك مدة طويلة بتعمل فيها ويظهر اني حموت قبل ما تنتهي ... »

كان قلبه دليله .. وكان آخر لقاء لي مع نجيب الريحاني .

قبل ان انصرف قال لي : أحب ان أراك دائماً ، لكنني مرتبط الآن بخمس حفلات في الاسكندرية ، وبعد ما ارجع ضروري نشوف بعض .

قلت : لكن ليس بامكاني ان أزورك في منزلك ، لأنني سمعت ان عندك سيدة يهودية ..

فقاطعني :

– انت الاصل ، ولما ارجع يبقى الله بيفرجها !

عاد لي الأمل في الحياة في كنفه وأصبحت أترقب اخباره بشوق . وفي احدى الأمسيات صعد على المسرح وهو يترنح من التعب . لكنه تمالك نفسه ... وقد قال كل من رآه ان الريحاني لم يمثل في حياته كما مثل في تلك الليلة ، ولم يضحك الناس كما أضحكهم قبل ان يفارقهم الى الابد . كان وداعه لهم وداعاً جميلاً يليق بالفنان الكبير . وعند آخر فصل أنزل عليه الستار وهو يحيي الجمهور الذى انساق في عاصفة مجنونة من التصفيق .

وارتمى نجيب مغشياً عليه . نقلوه الى المستشفى الايطالي في القاهرة . لم يصلني خبر مرضه إلا من الصحف ، فاحترت في امر عيادته بوجود تلك اليهودية التي قيل انها تساكنه . لكنني عندما تأكدت من خطورة حالته ، جازفت وقصدت من توي الى المستشفى . وعند الباب التقيت سائق نجيب واقفاً يلطم وجهه ويبكي كالاطفال . فسألته عما به قال : لقد مات الاستاذ يا ست بديعة .. مات .. !

سقط الخبر عليّ كالصاعقة فاستندت على سيارة نجيب ، ولم اعد اقوى على الحراك . فاذا ببديع خيري يمر امامي ، فامسك بيدي واقتادني الى حيث كان الجثمان . وقفت اتأمل ذلك الوجه الذي طالما ضحك من ألمه فاضحك الناس من آلامهم وانساهم دموعهم.

كان هناك يوسف الريحاني شقيق نجيب ، والسيدة اليهودية التي كانت تقطع شعرها وتندب حظها ، عندما رأتني دعتني الى الاقتراب من الجثمان . فتشجعت واقتربت من الرجل الوحيد الذي احببته في حياتي على كثرة ما عرفت من رجال . وضعت يدي على جبينه ، ولم تكن برودة الموت قد انتشرت في جسده بعد ، وقلت له ما لم اقله له يوماً في حياتي .

انتشر خبر وفاة نجيب الريحاني في ارجاء البلاد . واسرع الجميع يقدمون لي التعازي . كان لا بد لي من اقامة سرادق يتسع لهذا العدد الكبير من المعزين ، بعد ان قضت وفاة نجيب على آخر امل لي في حياة مستقرة ولم

أكن أتوقع ان تشاركني مصر بأجمعهـا حزني على زوجي . ولا ابالغ اذا قلت انني طيلة اقامتي في مصر لم اشاهد جنازة شعبية واحدة بمثل روعة الجنازة التي اقيمت له . وقد اشترك الجميع في تشييع الجثمان .. من حكام وفنانين وادباء ومعجبين واجانب .. كما تطوع رجال الشرطة في الحفاظ على النظام .. وتناولت الاقلام ، جميع الاقلام ، بالتحليل والتبجيل ما قام به نجيب الريحاني من تضحيات في سبيل خلق مدرسة جديدة في المسرح العربي .

اما يوسف شقيق نجيب فقد اعتقد ان حزني والدموع التي ذرفتهـا ، لم تكن الا مجرد تمثيل كي آخذ نصيبي من الارث . واخذ يصرح بمناسبة وبدون مناسبة ، ان اخاه قد طلقني منذ زمن بعيد ، ولم يعد لي الحق في ان اعتبر نفسي ارملة نجيب الريحاني ساءني هذا التشنيع فقصدت من توي الى مطرانية السريان الكاثوليك ، وجئت بإعـلام رسمي يثبت ان نجيب لم يطلقني لسبب بسيط وهو ان طائفته لا تعترف مطلقاً بالطلاق . وعلى هذا الاساس اقمت دعوى على شقيق نجيب الريحاني ووضعت حجزاً احتياطياً على الارث وبدأت المناوشات .

ازهدتني وفاة نجيب بالعمل وأصبحت أضيق بالناس والانوار والتصفيق وغلب علي الحزن . ولم تنقطع بيا عن زيارتي في تلك المدة ، بل كثيراً ما كانت تتردد علي لتسمعني اقول انني ساعـتزل التعب والمسؤوليـة ، لأن لدي الآن ما يؤمن لي حيـاة شريفة . ولم تضيع بيا الوقت بـل وجدت الفرصة مناسبة وأحالت علي كل من تعرفه يعز علي كي يقنعني ببيع الكازينو . وفي هذه الاثنـاء وصلتني رسالة من ابنة اختي ماري تقول فيها انها قادمة الى لبنان مع افراد عائلتها . فسررت لهذا الخبر ، وراودني امل في ان أعيش معها وان أجد لي المنزل العائلي الذي ما زلت ابحث عنه . ضقت ذرعاً بالوحدة وبالمنزل الكئيب الذي لا يردد سوى صدى صوتي انا . ولم أكن قد أمنت غدر الرجـال بعد ، مع انني لم اوفق

مع أحدهم بالرغم مما قدمته لهم من اخلاص وتفـــان . كانوا يأخذون دون حساب ظناً منهم انني بحاجة الى وجودهم .

اردت ان استقبل ابنة شقيقتي عند قدومها الى لبنان ، فتركت القاهرة واتجهت الى بيروت عن طريق البحر . توقفت الباخرة لتمضي الليل في ميناء حيفا واذا بنا نفاجأ بمراكب صغيرة تخترق الظلام وتحيط بنا من جميع الجهات . كان هناك شيوخ ونساء وأطفال يرتجفون من البرد والرعب معاً . قفزوا الى الباخرة دون وعي ، وكانت النساء تحتضن الاطفـــال لتذود عنهم خطراً ما زال محدقاً بهم . نزل اثرياؤهم في الدرجة الاولى والثانية وظل الباقون على سطح الباخرة معرضين للبرد والعواصف. فرجوت الربان ان يقدم لهم ما يأكلونه وما يدفع عنهم لذعات الريح . وهكذا وصلت الى بيروت برفقة الفلسطينيين النازحين في ذلك اليوم المشؤوم .

استقبلت العاصمة اللبنانية اللاجئين بالترحاب ، وانهالت التبرعات ولحقني منهـــا قسم كبير . ذهبت في احـــدى الامسيات الى ملهى منصور كي اسمع سهام رفقي ، فالتقيت هناك صحفياً كان قد جاء برفقة احد اصدقائه . وبعـــد ان عرفني اقترح علي ان احيي بعض حفلات يعود ريعهـــا الى اللاجئين . فرحبت بالفكرة وبدأنا باعـــداد البرنامج وتولى هـــو شؤون الدعاية . اما صديقه فقد انهمك في التودد الي والتغزل بي . كان حلو الحديث سريع النكتة ، فارتحت له وأخذت اتردد برفقته على ملاهي الجبل ، الى ان انتهينا من الحفلات واقترب موعد رجوعي الى مصر . فقلت على سبيل المجـــاملة ، « اذا كنت تريد اي خدمة فأنا مستعدة ! » تمنع في بادىء الأمر ، ثم تنازل وطلب خدمة بسيطة على حد قوله . أعرب عن امله في السفر الى باريس ليحصل على دكتوراه في الآداب . قدمت له ما فيه النصيب وطلبت منه ان يوافيني الى مصر كي اجهز له ما يمكنه من السفر الى فرنسا .

انهمرت علي وانا في مصر الرسائل المدبجة بالعسل والمكر . ثم قـــدم

بنفسه الى القاهرة ، لم ابخل عليه بشيء بل غمرته بالعطاء . ومن هنـــاك توجه الى باريس على ان ألحق به بعدما يكون قـــد رتب اموره واستقر في مكان معين . انتظرت استدعاءه لي دون جدوى . كنت على وشك ان ألحق بـــه عندما وصلتني منه رسالة من بيونس ايرس . فاتضح لي عندئذ كذبه واحتياله وخجلت من نفسي ، بعد ان ثبتت لي غباوتي في في تصديق هذا المخادع . وقد كانت نيته في خداعي مبيتة منذ ان ترك بيروت ، وقررت ان اقطع علاقتي به . لكنه لم يتركني وشأني ، بـــل استمر في كتابة الرسالة تلو الاخرى . لم اعد اجيب عليها لكثرتهـــا ، ولانهماكي في قضايا الارث بيني وبين يوسف الريحاني ، واذا بي افاجأ بحضوره من اميركا . لم يخجل من تبرير فعلته ، بل تمادى في الحديث وقال انه مستعد لان يتزوجني على شرط ان يترك الوظيفة ، وان تتاح له فرصة اظهار مواهبه وتبوء مركز يتفق مع مكانتي انا .

فضحكت وقلت له : « ناوي على مقلب من اي نوع هذه المرة ؟ » استاء من كلامي وقال انني بت لا اصدقه بعد ما بدر منه . والافضل ان يعود الى لبنان والى وظيفته البسيطة . ثم انتفض واقفاً والدموع تكاد تنهمر من عينيه . لم يسعني ان اتركه يغادرني على هـــذا الشكل ، فاستوقفتـــه وسألته عما يريد ان يعمل فيما لو ترك الوظيفة . فقال انه يتمنى لو فتح مكتبة لكنه مرّ في خاطري منظر بيت انيس ، اعيش فيه في كنف رجل يحميني من الاشاعات والاقاويل . وقلت في نفسي لعل وعسى . وسألته : هل انت مخلص فيما تقول وهل صممت على ان نعيش معاً ؟

ـ لقد قررت نهائياً ان اتزوجك ونعود الى لبنان .

ـ ما هو المبلغ الذي تعتقده كافياً لتجهيز مكتبة عصرية ؟

انهمك في حسابات طويلة مملة لم افهم منها شيئاً . وقدم لي كشفاً بها واذا بي امام مبلغ ضخم لم اكن اتوقعه . لكنني وافقت في الحـــال على امداده به واضفت قائلة : كلّ ما ارجوه منك لقاء ذلك ان تكون مخلصاً

فيما تدعيه ، وأن لا تعيرني بماضي : بكوني عاقراً لا أنجب !

حمل النقود وعاد بها الى لبنان ، واصبحت اترقب الفرص كي اتخلص من الكازينو واعود الى بلدي . لكنني كنت عين في الجنة وعين في النار . اريد الحياة المستقرة في منزل امين واخشى في نفس الوقت غدر الرجال ومكرهم . فقررت ان احتفظ بايرادي في مصر وابيع المحل واثاث البيت وهكذا عدت واجتمعت بالمحامي وبصديقي القـديم ، وطلبت ثلاثين الف جنيه ثمن الكازينو ، كنت اجهل اسم الشاري الى ان وافقت على البيع بعشرين الف جنيه فقط . وعندمـا قيل لي انني سابيع لببا ، لم اثر بل هنأتها وتمنيت لها التوفيق . وزيادة مني في تسهيل الامور ، رضيت بان تدفع خمسة عشر الف جنيه نقداً ، وان اقسط الباقي على ان تدفع الف جنيـه كل ثلاثة اشهر . تساهلت مع ببا كثيراً ولبيت لهـا جميع طلباتها ، لكنني رفضت السماح لهـا بأن تحتفظ باسمي واحتفظت انا بالاوراق . طالت المفاوضة وتشعبت الي ان ارسلت مصلحة الضرائب مندوبيها للكشف على الدفاتر كي تحدد المبالغ المستحقة . جـاء مندوبو المصلحة في ايام العطلة حيث يقبل الجمهور بكثرة ، وفاتهم ان يلحظوا الفرق بين اوائل الاسبوع وآخره .

كنت ما زلت أدفـع الضرائب بانتظام متكلة في ذلك على انطوان سيدهم ، احد موظفي المحل . وكان هذا الاخير يطمئنني على ان الامور سائرة في مجراها الطبيعي . وأخيراً بعت الكازينو لببا وانا أجهل ان علي ان أعلم مصلحة الضرائب قبل تاريخ البيع بشهرين . تجاهل كل من انطوان سيدهم ، والمحامي لفت انتباهي الى ما كنت أتعرض له عن جهل وحسن نيـة . وانصرفت الى دفـع تعويضات الموظفين الـتي بلغت السبعة آلاف جنيه مصري .. كدت أجن من الصدمة وعزمت على ان أنهي كل علاقة بالمحل . فقصدت احد المحامين المعروفين كي أطلعه على ما وصلت اليه ، « فبشرني » بأن مصلحة الضرائب قد تعتبر البيع تهرباً

من الدفع ، فتفرض علي الرقم الذي يحلو لها فرضه . وذلك الى ان أتمكن من اثبات الارقام الصحيحة لدخل الكازينو . وقــد تمر سنة او سنتان دون ان انتهي من المعاملات ، وقــد أوفق في كسب القضية وقد لا أوفق !

هالني هذا الخطر المحدق بي ، وأسرعت استشير محامياً آخر . فأكد لي ما قاله زميله وأضاف : « اذا كان لديك مال أو مجوهرات أخفيها ، واسرعي في بيع ما يمكنك بيعه قبــل ان يرسلوا تقريراً بالمبلغ المستحق عليك .» خرجت من مكتب المحامي وانا لا ألوي على شيء . وقررت ان أبيع كل ما لدي من أثاث وسجاد ، وان انتقل الى احد الفنادق . ولمن احتفظ بالشقة الحالية بعد ان كوّن انطوان فرقة وذهب برفقة ثريا حلمي الى العراق ، وبعدما انغمست جولييت في معاقرة الخمرة ولعب القمار !

ما ان خطوت إلى داخل الكازينو حتى استدعتني ببا ، واطلعتني على رسالة وصلتها من مصلحة الضرائب ، تحظرها فيها بأن تدفع لي اي مبلغ من المال قبل ان أدفع بدوري للمصلحة مبلغ ٧٤٠٠٠ الف جنيه . ابتسمت بمرارة وقلت لها : « بس كدا ؟ » كنت في نفس اليوم قد أعلنت عن بيع أثاث منزلي في المزاد العلني . وما ان نشرت الصحف الخبر حتى تراكض الشامتون والفضوليون وعمت الفوضى . وهكذا بعت كل ما كان لدي من تحف وأشياء ثمينة بألف وثمانمئة جنيه ، وكنت قد اشتريتهــا بأكثر من ثمانية آلاف جنيه . لم يكن بيعــاً بل كان نهباً وكانت سرقة

جلست في غرفتي في الفندق عند المساء ، استعرض مصيري وما وصلت اليه بعد ان انفقت ما أخذته من ببا في دفع تعويضات الموظفين . وأصبحت أملاكي معرضة لحجز مصلحة الضرائب . كتبت الى صديقي الجديد في لبنان استنجده عله يساعدني على الخروج من هذا المأزق . فأجابني بأنه لن يتمكن من المجيء الى مصر بعد ان عــاد الى وظيفته السابقــة ، بانتظار الانتهــاء من تجهيز المكتبــة . استغربت منه هــذا التصرف

بعد ان حصل مني على ثروة ، الا انني ضبطت اعصابي ولجأت الى المنطق . اسرعت ابيع بنايتي الاولى قبل ان يصلني تقرير المصلحة . كان هناك من عرض علي شراءها بـ ١٢٠٠٠ جنيه ، لكنه ما ان عرضتها عليه حتى ساق الدلال ولم يدفع اكثر من تسعة آلاف جنيه فقط . قبلت على مضض وعرضت عليه البناية الثانية التي كانت تقع في الفجالة . اخذها بعشرة آلاف جنيه بعد ان كان مستعداً لدفع خمسة عشر الفاً ، وبقيت لدي بناية ثالثة كنت اعتز بها كثيراً وكانت قد كلفتني ما يزيد عن ٣٥٠٠٠ جنيه . لم اجد من يشتريها مني فاضطررت الى ان ارهنها للبنك بما لا يزيد عن العشرة آلاف جنيه . وهكذا ضاع تعب السنين وشقاؤها ، سهر الليالي والتعرض للمخاطر والاهوال وتبخر حلم العمل والعيش الكريم الهانىء . وبقي علي ان اهرب ما تجمع لدي من مال . فلجأت الى بعض التجار اللبنانيين والسوريين وتمت عملية نقل هذه المبالغ بكل تحفظ دون ان تسترعي انتباه احد .

كنت قبل البدء في تصفية اعمالي في مصر قد اشتريت بناية جديدة دفعت من اصل ثمنها مبلغ ٢٢٠٠٠ جنيه . فاتفقت مع صاحبها على ان يعيد لي ١٠٠٠٠ جنيه وان يحتفظ بالباقي . ابقيت هذا المبلغ في متناول يدي وجمعت مجوهراتي وقررت السفر الى لبنان . لم اطلع صديقي على عزمي هذا ، بل طلبت منه ان يوصلني بسيارته الى المطار . دخلنا مطعم المطار فاذا باحد الجنود يدعو صديقي الى مرافقته الى المكتب . طال غيابهما كثيراً الى ان تملكني القلق وارسلت من يستدعيهما . واذا بصديقي قادم مرتبك اصفر الوجه . اقترب من السائق وامره بان يعيد الحقائب الى السيارة . لم افهم سر تصرفه هذا ، والححت في السؤال الى ان اجابني بانني لن اتمكن من الخروج من مصر الا اذا دفعت ما يتوجب علي دفعه لمصلحة الضرائب . لم اثر ولم انبس بكلمة بل انخرطت في ضحك هستيري

طويل ، ضحكت الى ان انهمرت الدموع من عيني .

وعلى باب الكازينو استقبلني انطون سيدهم وفي يده رسالة جديدة من مصلحة الضرائب ، تعلمني فيها انها ستوقع الحجز على ممتلكاتي اذا لم اسارع في الدفع . لم اتمالك من توبيخ انطون سيدهم على اهماله ، واذا باحد الجنود مقبل يحمل لي امراً يستدعيني الى نيابة عابدين . وفي اليوم الثاني امتثلت لامر النيابة وانا ارتعد من الخوف ، لأنها كانت المرة الاولى التي ادخل فيها محكمة ما في مصر او خارجها . وباشر وكيل النيابة الاسئلة . كنت على وشك ان اعترف بالحقيقة وهي انني كنت اجهل ان عليّ ان اعطي علماً بالبيع قبل تاريخه بشهرين . الا ان المحامي اسرع في اختلاق اسباب مزيفة ، منها انني اريد اعتزال العمل والزواج والاستقرار في بيتي فعلق وكيل النيابة على هذا الجواب : اذن ما الذي حملك على بيع اثاث منزلك اذا كنت تريدين الزواج والاستقرار ؟



بديعه ايام زمان

طالت المناقشة حول ثمن الكازينو والمزاد العلني ، وثمن مجوهراتي ولماذا كنت ساسافر الى لبنان . حاولت مناقشة الموظف الذي قدر مبلغ الضرائب الا انهم اسكتوني واحتجزوني في احدى الغرف . ولم يفرج عني الا بعد ان دفعت ضمانة قدرها ١٠٠٠ جنيه . خرجت من غرفة التوقيف وقد

تجسدت امامي فكرة الفرار !.

وبعدما افرج عني عينت المحكمة لجنـة تقدير اضافت على المبلـغ عشرة آلاف جنيه . ورسخت في نفسي فكرة الفرار ... بينما كنت اتخبط في هذا المأزق اذ بابن شقيقتي يعود من العراق برفقة ثريا حلمي ، واذا برسالة تصلني من ماري تنبئني فيها بمرورها على الاسكندرية في طريق عودتها الى بيروت . لم اتمكن طبعاً من مرافقتها الى لبنان وحاولت عبثاً ان اجري مصالحة حبية مع مصلحة الضرائب . اخفيت عن انطوان عزمي على الفرار ، وقبلت دعوة ثريا حلمي الى رأس البر كي ارفه عن نفسي ، بعـد كل ما عانيته من ازمات .

وفي راس البر حاولت عدة طرق للهرب فشلت جميعها . انتقلت الى فندق سميراميس وقررت ان أتناسى الصعوبات الـتي تعترض طريقي . كنت أرقص وأضحك وأمازح السياح وأشرب الويسكي . ولكنني مـا أبدأ بالكأس الثـاني ، حتى يعود امامي شريط البيع والضرائب والفقر والتشرد ، فأنفجر باكيـة وأنسى الضحك والرقص ومـن حولي من الاصدقاء . ولم اكن اعرف لمن اشكو وممن اطلب العون بعـد ان ترك صديقي القديم مصر بحجة الاستشفاء ، وبعد ان تهرب الصديق الجديد من تلبية دعوتي .

صدف ان التقيت في الفندق شاباً اجنبياً أنست اليـه وانسقت الى البوح له بكل ما كان يختلج في نفسي . وبعد ان اصغى الى قصتي بكل انتباه قال لي :

ـ لا يمكنني ان اقطع لك وعداً بمساعدتك لكنني سأحاول المستحيل ، وارجوك ان تكتمي السر الى ان اوافيك بالجواب بعد ايام قليلة.

وبدأ الانتظار المرهق ... كانت اعصابي تتآكل وانا اتعمـد المرح واللامبالاة امام الجميع وامام بيبا بنوع خاص التي جاءتني في احد الايام وهي تتراقص في مشيتها شامتة عابثة . وقالت انها ستسافر الى لبنان وهل لدي

شيء اريد ان ارسله الى عائلتي . فسلمتها معطفين من الفرو ورجوتها ان تسلمهما الى ابنة شقيقتي .

انتظرت عبثا ان يصلني الخبر الذي وعدني به الشاب الاجنبي ، وبدأت افكر بطريقة اخرى تمكنني من الهرب . فعنت لي فكرة الزواج من احد ابناء الاقطار العربية ، من الذين لا يضعون رسم زوجاتهم على جوازات السفر واعتقدت ان الحجاب قد يساعدني على المرور دون ان يتعرف احد على شخصيتي . فاستدعيت احــد معارفي من الذين لي بهم ثقة كبيرة وعرضت عليــه الفكرة . ورجوتــه ان يتدبر الامر دون ان يعلن عن شخصيتي ، على ان ادفع مبلغ ٥٠٠ جنيه الى الشخص الذي قد يقبــل بأن يتزوجني في مصر ويطلقني في لبنان .

وسرعان ما نفذ الوسيط فكرتي ، وحضر العريس المنشود الى الكازينو راقبته من بعيد دون علم منه . كان قصيراً ضخم البنية يرتدي نظارات سوداء . نظرت اليه وانا في حيرة من امري . ترى هل سيرضى بطلاقي اذا ما عرف من انا ؟ ومن يضمن لي انه لن يطمع بي وبمالي وشهرتي ؟ وبعد ذهابه سألني الوسيط عن القرار الذي اتخذته ، فانخرطت في الضحك واجبته : « انه مقلب اوقعتك فيه هل تعتقد انني كنت جادة فيما أقول ؟

وفي المساء حضر الشاب الاجنبي مع شلة من الاصدقاء . قضينا سهرة لطيفة في الشراب والضحك والرقص ، وانا اتقلب على جمر الحيرة والقلق . وما ان خلوت اليه حتى سألته بلهفة عن الحل الذي سيساعدني في ايجاده . فقال :

ــ انا آسف لان الرجل الذي سيوفر لك طريق الهرب رجل جشع ، ولا تنسي انه يتعرض للخطر في القيام بعمل كهذا . لن يرضى بأقل من الفي جنيه .

لم يكن قد بقي من اجازة الدخول الى لبنان سوى خمسة عشر يوماً ، هذا من جهة ومن جهة ثانية كان كل ما تبقى لدي من نقود في مصر

لا يكفي الا للنفقات الضرورية . قررت ان ادفع الألفي جنيه مهما كانت النتيجة رعدت الى الانتظار . مضت ايام الاسبوع بطيئة قلقة مملة ، ولم اكن ارتاح سوى لرفقة كلبي ، لانــه كان يفوق في الامانــة كثيراً من الذين اعترضوا طريقي . وفيما كنت في احدى الامسيات جالسة العب الدومينو كي لا اشعر ببطء الدقائق ، حانت مني التفاتة الى الخارج ، فرأيت رجلاً غريباً يغمزني من بعيد ، ثرت على ما اعتقدته قحة وقلة ادب وكدت افضح امر ذلك المسكين ، لو لم افهم في الحــال ما كان يقصده . فتعمدت اللامبالاة وقلت لمن كنت جالسة برفقتهم : ان انطون ينتظر مني مكالمة هاتفية وهو يدعوني الى الاسكندرية فاذا ما تأخرت في العودة اكون قد لحقت به هناك .

تركت النارجيلة والدومينو ، اخــذت حقيبة يــدي ونسيت الكلب المسكين حيث كان تحت الطاولة . اتجهت ناحية التلفون ، فقال لي الرجل الغريب : خذي سيارة اجرة واتبعينا ، وعندما تجدينا توقفنــا اسرعي باللحاق بنا بعد ان تكوني قد صرفت السائق اخرجي حالاً لأن الطائرة تستعد للرحيل .

اسرعت الحق بالرجل ولم اعد افكر بشيء سوى بالفرار . ركبت اول سيارة صادفتها واتجهت ناحية مصر الجديدة . وعندما رأيت سيارة الرجل تتوقف ، وقفت سيارتي حاسبت السائق وصرفته دون ان ادعــه يعلم بشيء . كان مع الرجل اثنان آخران ... مــا ان جلست بينهما في السيارة حتى سألني احدهما :

ــ هل المبلغ معك ؟

قلت : نعم !..

قال : انه مبلغ قليل والافضل ان تضيفي عليه ٥٠٠ جنيه . ستحضر الطائرة بعد ساعة ، وستصعدين اليها بعــد ان نكون قد قبضنا الألفين وخمسمئة جنيه .

توغلنا في الصحراء وانا ارتعد من الخوف . كنت اتصور كل ظل يتراءى لي فوق الرمال جندياً قـادماً للقبض علي وسوقي الى السجن . انتظرت قدوم الطائرة كمن ينتظر تنفيذ حكم الاعـدام ، الى ان سمعنا صوت محركاتها . عندئذ طلبوا مني المال ، فاستغربت امر هبوط الطائرة في مكان كهذا . فضحكوا من جهلي وقالوا لي :

– اعطنا المال وسترين كيف ستحط الطائرة !

سلمتهم النقود واقتربت الطـائرة . ففتـح الربان الباب ، واذا بهم يرفعونني ويدخلونني منه بسرعة البرق .

هكذا وبهـذه السرعة تركت ارض مصر الحبيبة وكم كنت اتمنى لو اختلف وداعي لها عن هذا الوداع المرير ... نظرت الى ارضها الطيبـة وانا في الطائرة ، والقيت عليها الف سلام على السنوات الجميلة التي قضيتها فيها . ورافقت سلامي دموع لم اذرف احر منها في كل مـا مر في حياتي من مآس وآلام !..

دخلت منزلي فى لبنان حيث استقبلني افراد عائلتي بالفرح والترحاب . ولاول مرة منذ ايام طويلة اتيح لي ان اتذوق الطعام واتيح للنعاس ان يتسلل الى اجفاني . اسرعت الى سريري ونمت من الساعة الثامنة مساء حتى الواحدة بعد ظهر اليوم الثاني .

فررت من مصر ومن الاشاعات والاقاويل لألجأ الى لبنان ، فاتعرض لنوع آخر من التعليقات المغرضة البعيدة كل البعد عن الحقيقة . فمنذ اول يوم وطأت فيه اقدامي ارض لبنان والبعض يسيء فهم تصرفاتي ويشوهها . لقد نسبوا الي الازواج الواحد بعد الآخر ، وقـدروا ثروتي بالملايين ، وانا لم انل الا الستر والحمد لله على كل حال .

اما اول عمل اهتممت بتنفيذه في بـلدي فكان استرجـاع الجنسية اللبنانية كي لا اتعرض للعودة الى مصر . احضرت الاثباتات اللازمـة واجريت المعاملات الضرورية ولم يبق الا موافقة رئيس الوزراء . فـلم

يجرؤ احد على مقابلة المرحوم الزعيم رياض الصلح . اخـذت الأوراق ودخلت الى مكتبه ، فاستقبلني بلطف وترحاب ، غلب عـلي البكاء ولم ادر بما اجيب . قدمت له ما كان معي من معاملات ، فقرأها وقال : لك ملء الحق في ان تعودي الى جنسيتك الاصلية . وهل انت مزمعـة على العمل هنا ؟

ـ معاذ الله ، لم آت الى لبنان لأعمل بل لأستريح .

سهل لي المرحوم رياض الصلح كل ما امكنه تسهيله وقـال لي في النهاية : تدبري امر امضاء رئيس الجمهورية . وكانت لي معرفة سابقة بالشيخ بشاره الخوري وبقرينته . فهانت امامي الصعوبـة وتمكنت من استعادة جنسيتي بمرسوم رقمه ٣٠٣٨ صدر بتاريخ ٢٩ ايلول ١٩٥٠ .

وانطلقت في الجبال اللبنانية اتنقل بينها لانسى ما قاسيته من خوف وقلق . وفيما كنت ارقص مع صديق لي في فندق الامباسادور في بحمدون ، اذا بأحد معارفي المصريين يراني ويفغر فاه من الدهشة . فابتسمت وقلت له : ارجوك ان تبلغ سلامي الى مصلحة الضرائب عند عودتك الى مصر .

وبعد يومين اثنين صدرت « اخبار اليوم » تتصدرها العناوين الضخمة : « فرار بديعة مصابني ! » وتبعتها الصحف الاخرى . وتتابعت التعليقات ، كل يحلل على هواه ويعلل كيفما شاء لم احـاول تبديد الغموض الذي احاط بقضية فراري ، بل احتفظت بالحقيقة الى الآن . انها المرة الاولى التي اروي فيها قصة خروجي من مصر ، وكل ما نشر في الصحف وكل ما نسب الي من اقوال هو محض اختلاق لا اساس له من الصحة .

اما الصديق العزيز الذي اعطيته ثروة ، تمكنـه من هجر الوظيفـة واقتحام ميدان العمل الحر ، فأخذت زياراته تقل الى ان اصبحت لا اراه الا اذا اتصلت به وطلبت منـه المجيء . فضقت ذرعاً بتهربـه وطلبت منه ان يصارحني بنواياه . فأجاب مرتبكاً :

ـ كنت اريد ان افاتحك بالامر منذ عودتك الى لبنان ، الا انـني

كنت دائماً اتردد عندما اتذكر جميلك علي . وكنت مصمماً على ان انفذ وعدي لك لكنني لن اقوى على الخروج على ارادة عائلتي . انهم جميعاً يمانعون في هذا الزواج وانا متردد بين ان اتزوجك واهجر اهلي وبين ان اعود الى اهلي واهجرك انت ...

فابتسمت بمرارة وقلت له :

– ألم تتذكر هذه العقبات عندما مددت يـدك واخذت مني ثروة حررتك من الوظيفة . الذنب ذنبي يا صاحبي كان علـي ان افهم من انت عندما خدعتني في المرة الاولى ... قلت لي انك تريد الحصول على دكتوراه في باريس وذهبت الى بيونس ايريس ... ومـع ذلك لست انا بالعبيطة التي تعتقد . فانا على علم بانك اشتريت املاكاً في قريتك وتريد الآن الزواج من فتاة تعمل معك . اذهب يا صديقي الله يسامحك ؟

وافترقنا ... تابعت حياتي في منزل عائلتي الى ان اقترب موعد عيد الميلاد . فقصدت الى فندق مسابكي في شتورا كي امضي الاعياد واتمتع بمنظر الثلج . ضاق منزل اهلي بنا لانهم كانوا قد اجروا الطابـق الثاني الذي بنوه نزولاً عند طلبي . أجّروه بعد ان تأخرت في العودة الى لبنان . فأصبح علي ان اتدبر امر سكني . حملت وحدتي وذهبت الى الفندق : لم اجد فيه من اتحدث اليه لانني لم اكن اقـامر ولا اتعاطى الخمرة . فأصبحت اجلس بعد العشاء ادخن النارجيلة وانظر من بعيد الى اللاعبين . وعندما أمل من الجلوس اعود الى غرفتي . كنت في انفرادي هذا افكر في طريقة استثمار الثروة الصغيرة التي تمكنت من تهريبها . لم أكن اجرؤ على القيام بأي عمل يحمل اسمي قبل ان تنتهي الدعوى التي كنت قد أقمتها على مصلحة الضرائب قبل خروجي من مصر . لكنني كنت على كل حال مصممة على ان أهجر المسارح والمقاهي وحياة الليل ، وأقوم بعمل يتلاءم مع السن التي وصلت اليها ،.. فتراءت لي فكرة فتح فندق صغير أشرف عليه بنفسي .

واعترض طريقي في هذا الوقت بالذات رجل آخر حاول استغلال وحدتي . راقبني طويلاً الى ان تأكد من انني وحيدة أقاسي من الملل والسأم ، فجاء وجلس على طاولتي وبدأ يحدثني عن الفن والفنانين وعن مصر وايام العز القريبة ، وقال انه يعرفني منذ زمن لكنه لم يكن يحلم بأن يجلس معي ويتحدث الي بهذه البساطة . ثم أخذ يعرض علي خدماته ويتودد الي ويعترض طريقي في كل ساعات النهار . انسقت اليه واللطف كان يبدو في كل تصرفاته .. انسقت اليه بالرغم من الخبرة الطويلة التي كنت قد اكتسبتها في هذا الميدان .

ارتحت الى وجود هذا الرجل وأنست الى معاملته ، ولم يخطر ببالي انها كانت تبيت نية سيئة . قال لي انه يعمل في تخليص البضاعة ما بين المصنع وشتورا ، وانـــه غير متزوج ، لذلك فهو يقيم في الفندق بصورة دائمة . استغربت ان يكون لم يتزوج بعد ، فسألته عن عمره أجاب انه في الثالثة والثلاثين . فعلقت ضاحكة :

ـ لو كنت شابة لتزوجتك ..

ـ ولو كنت جادة فيما تقولين لما ترددت عن الزواج بك ، واذا كنت لا تصدقين هيا بنا الى المطرانية !

لم أناقشه طويلاً في هذا الموضوع ، لأنني كنت أمازحه ، ولا أعني قطعاً ما أقول . لكنه أخذ يلازمني كظلي ، ولم يدع لي حتى ولا فرصة واحدة لاسأل عنه . بل انسقت وراءه لحاجتي الى رجل يبدد عني سحب القلق والملل . والحقيقة انني لم اسع اليه بل انه عمل المستحيل كي يظفر بي . ويظهر انني كنت ، بالنسبة اليه ، صيداً ثميناً أصر على ان لا يفلت من يده . لقد اعتاد الناس ان يتساهلوا مع الرجل المسن عندما يتزوج صبية بعمر حفيدته ، لكنهم يقيمون الارض ويقعدونها اذا انعكست الآية وكانت المرأة هي التي تكبر الرجل ولو بسنة واحدة .

تحولت احاديثنا بسرعة من المزاح الى الجد ، واتفقنا على الزواج .

عرضت عليه ان أمده بما يحتاج اليه من مال لكنه رفض بحجة انه يكسب من عمله ما بين الخمسمئة والالف ليرة لبنانية في الشهر . وعاد يلح ويؤكد انه لا يتزوجني طمعاً بالمال . لكنه أعجب بي وباخلاقي التي تفوق ، على حد قوله ، اخلاق بنات العائلات في الصدق والصراحة .

حاولت اكثر من مرة ان اثنيه عن عزمه وقلت له انني في الخامسة والخمسين بينما هو ما زال في الثالثة والثلاثين . ونصحته بالزواج من فتاة صغيرة قد تناسبه أكثر مما أناسبه انا ، لكنه تمكن من اقناعي في انه لا يطمع بمالي ولا بما يمكنني ان أوفره له من راحة وبحبوحة مادية .

ضعفت امام اصراره وصدقت الاكاذيب التي نسجها لي بمهارة فائقة . فالمرأة وان بلغت الثمانين ضعيفة امام الثناء ، تشعر انها ما زالت الصبية الجميلة التي يترامى على اقدامها الرجال . كنت ما زلت أتمتع بشباب وجمال لم تقوَ على تشويهها السنين . اقترنت بهذا الرجــل وتبين لي عند عقد الزواج انه قد سبق له ان تزوج سيدة غيري وطلقها .

« راحت السكرة وجاءت الفكرة » .

بعدما خرجنا من المطرانية تراءت لي غرابة العمل الذي اقدمت عليه ، فاستبد بي الخجل . كنت قد طلبت منه ان يخفي خبر زواجنــا الى الغد لكنني مــا ان دخلت الفندق حتى تدافــع النزلاء يقدمون لي تمنياتهم . فازداد ارتباكي وعاتبته على اذاعة الخبر بهذه السرعة . والغريب انني لم اشعر بوجوده كرجل ، بل كان يخيل الي انني بالقرب من شقيق لي او صديق . ومنذ صباح اليوم الثاني اخذت التعليقات تطن في اذني : « مسكينة ما هذه الوقعة ؟ مسكينة ألم ينصحها أحد بالابتعاد عنه ! » .

عند المساء جلست كعادتي في صالة الاستقبال . رأيته مرتبكاً على غير عــادته وكأنه يخشى حدوث شيء . عرضت عليه ان نسكن في بيروت لكنه رفض مدعيــاً ان عمله يفرض عليه الاقــامة في شتورا . فاقتنعت واستأجرنا منزلا جميلا حيث أراد .

مضت أيام على زواجنا ولم يطلب مني اي شيء . فقدمت له مبلغ خمسة آلاف ليرة لبنانية وسيارتي الجديدة . فقبلها شاكراً وجاء بشقيقه وفرض علي وجوده في المنزل . ولم يمض على زواجنا خمسة عشر يوماً حتى بدأت المناكفات التي ساعدتني على ان أكتشفه على حقيقته .

كان مقامراً من الطراز الاول وله صديقة يهودية اتفق معها على ابتزاز اموالي . أخذ يتغيب عن المنزل ليقضي الوقت برفقتها ويدعي انه يعمل في بيروت . وأشكر الله ، على انني اكتشفته بهذه السرعة . ولكن معرفتي له لم تمنعه آنذاك من الاحتيال والنصب . جاءني في أحد الايام وقال : « ان السيارة التي أهديتني اياها كبيرة جداً وأفضل عليها سيارة صغيرة » . فقلت له : « طيب سأعطيك عشرة آلاف ليرة وأعدها لي ! » وهكذا كان استعدت هديتي ودفعت ثمنها . لم تطل المدة حتى فرضت عليه الطلاق ، ولم يدم زواجنا أكثر من شهرين : من كانون الثاني الى شباط سنة ١٩٥١ . طالب بمبلغ خمسين الف ليرة كي يطلقني وعاد فقنع بخمسمئة ليرة لا غير . لقد قال الكثيرون انني تزوجته كي أحصل على الجنسية اللبنانية وهذا بعيد جداً عن الحقيقة . اذ كنت قد استعدت جنسيتي بعد عودتي من مصر بخمسة عشر يوماً فقط .

وتتابعت الايام ... كنت امضيها ما بين شتورا وبيروت . وحملني الملل والارهاق الذي شعرت بهما بعد انفصالي عن ذلك الرجل ، على ان ابحث عن طريقة ارفه بها عن نفسي . فخطر لي ان ازور اوروبا بالسيارة ، وشرعت ابحث عن سائق يكون لي بمثابة رفيق امين في هذه الرحلة البعيدة . شاءت الصدف ان اكون ذات ليلة احضر عرض احدى حفلات سيرك مدرانو ، واذا باحد عمال فندق مسابكي في شتورا يتقدم مني ويحييني . ثم يقول لي انه جاء الى بيروت مع عدد من رفاقه من شتورا ، كان بينهم نصار الريس الذي سبق له ان عمل عندي كسائق ايام زواجي الثاني . استدعيت نصار وسألته عن احواله واحوال عائلته . فاطلعني على

خبر سفرهم الى اميركا وأكد لي انه ينتظر وصول الاوراق اللازمة كي يلحق بهم . عرضت عليه ان يصحبني في سفرتي الى ان تصل الاوراق المنتظرة ، فيعلمنا بذلك شقيقه شفيق . اقتنع لكلامي ، وسرعـان ما انجزنا المعاملات وسافرنا الى اوروبا .

علمتني تلك السفرة الطويلة ان اقدر هذا الشاب . فهو مهذب مخلص امين ، وليس ممن يغتنمون الفرص للاستغلال الحرام . عند وصولنا الى مونتي كاتيني في ايطاليا ، قررت البقاء مدة من الزمن كي اتبع العلاج اللازم . فلاحظت على نصار الضجر والقلق . نصحته بالعودة الى لبنان لاستلام اوراقه والسفر الى اميركا .

وهكذا كان ، عاد نصار ولحقت به بعد مدة . كنت اعتقده قـد ترك بيروت الى اميركا لكنني وجدته في استقبالي على المرفأ . وعندمـا سألته اذا كان قد اقلع عن فكرة السفر ، اجاب ان بوده لو وجد عملاً حراً ليبقى في لبنان ولا يفكر مطلقاً بالهجرة . واعرب عن حلمـه في انشاء مزرعة للدواجن . كنت من جهتي قد مللت حياة الرتابة والركود . وبدأت افكر في عمل يدخل بعض السلوى على حياتي الجديدة . وهكذا بعد اخذ ورد وجدال وبحث طويل ، اتفقنا على اقامة هذه المزرعة التي نعمل فيها الآن في شتورا .

وما زلت اذكر انه في نفس اليوم الذي اشتريت فيه الارض وصلتني برقية تنبئني بوصول ابن شقيقتي انطوان . فسررت للخـبر ، وتمنيت لو اقلع انطوان عن حياة الليل ، ورضي بالعيش الهانيء معي في تلك البلدة الجميلة . لكنه اصر على ان اسجل باسمـه لقـاء ذلك الارض والمنزل ، واضع باسم ابنته مبلغ عشرة آلاف ليرة في احد البنوك .

تذكرت عندئذ الخسائر التي كان يلحقها بي كلما عهدت له بأمري في مصر ورفضت طلبه . الا أنني ابقيت على دعوته للعمل معي . أسرع بالفرار ، وانقطع عن زيارتي وحتى تحيتي ، وذلك منذ سنوات عديدة .

لقد كتب علي ان أقاسي من الوحدة حتى في سنوات شيخوختي . لكم سعيت الى الفرار من شبحها ، ولكم حاولت ان أدخـل في عالمي انساناً ابتسم له في الصباح ، وأتمنى له احلاماً سعيدة في المساء .. وكنت ما ان يخيـل الي انني وجدت من آنس بوجوده حتى أصطدم بالجحود ونكران الجميل ... لم يبق لي ولد ولا زوج ولا رفيق طريق !..

وبعد هذا السعي الطويل اقتنعت بمـا قسم لي ... رضيت بنعم الله وها انا اشكره عليها دائماً !...





